الرحلة المكية

من خلال الكرة الأرضية

تأليف الرحالة الإيرانى
حاج مهديقلى خان هدايت
(مخبر السلطنة)

ترجمة الدكتور
رفعت عبد الله سليمان حسين

٢٠٠٨

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

هدايت ، مهد يقلي خان

الرحلة المكية من خلال الكرة الأرضية

تأليف / مهد يقلي خان هدايت ؛ ترجمة رفعت الله سليمان حسين – القاهرة .

ايتراك للطباعة والنشر والتوزيع ، ٢٠٠٨

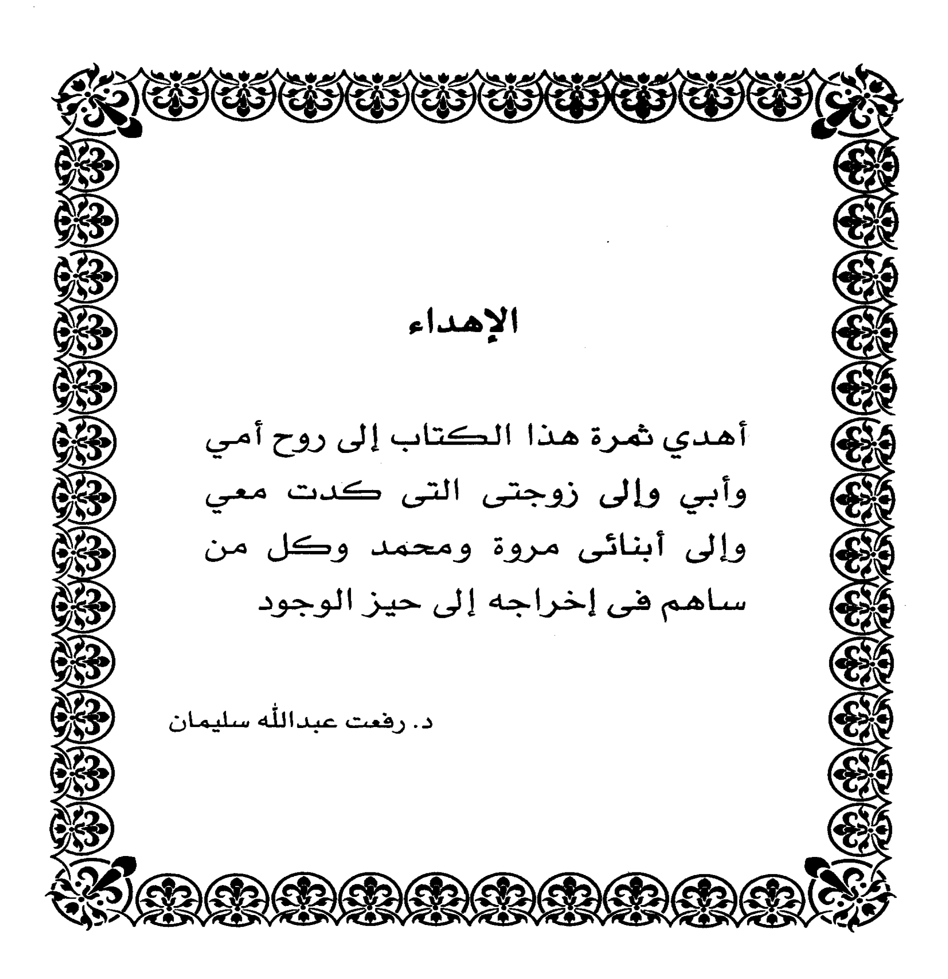
٣٥٢ ص ؛ ٢٥سم

١- مكة المكرمة – وصف ورحلات

أ- حسين ، رفعت الله سليمان (مترجم)

ب- العنوان

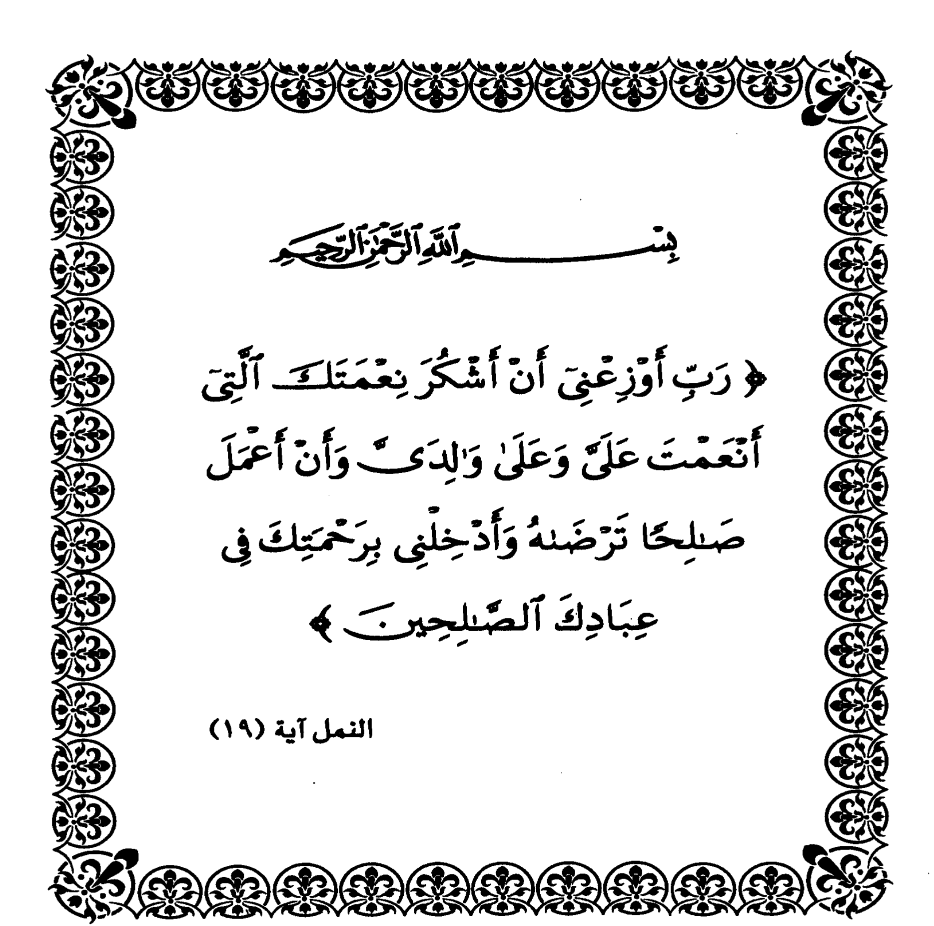
اسم الكتاب	:	الرحلة المكية من خلال الكرة الأرضية
اسم المؤلف	:	مهد يقلي خان هدايت
رقم الطبعة	:	الأولى
السنة	:	٢٠٠٧
رقم الإيداع	:	٢٠٠٧/١٧٣٤٦
الترقيم الدولي	:	977 – 383 – 122 – 1 I.S.B.N /
اسم الناشر	:	ايتراك للطباعة والنشر والتوزيع
البلد	:	جمهورية مصر العربية
المحافظة	:	القاهرة
العنوان	:	طريق غرب ألماظة عمارة ١٢ شقة ٢
التليفون	:	٢٤١٧٢٧٤٩
ص . ب	:	٥٦٦٢ هليوبوليس غرب – مصر الجديدة



الإهداء

أهدي ثمرة هذا الكتاب إلى روح أمي وأبي وإلى زوجتى التى كدت معي وإلى أبنائى مروة ومحمد وكل من ساهم فى إخراجه إلى حيز الوجود

د. رفعت عبدالله سليمان


بسم الله الرحمن الرحيم
﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾
النمل آية (١٩)

سافر تجد عوضا عمن تفارقه

وانصب فإن لذيذ العيش فى النصب

إنى رأيت وقوف الماء يفسده

إن سال طاب وإن لم يجر لم يطب

والشمس لو وقفت فى الفلك دائمة

لملها الناس من عجم ومن عرب

الإمام الشافعى



نبذة عن مؤلف الكتاب

قام مهديقلي خان هدايت (مخبر السلطنة) برحلته تلك في عام ١٩٠٣م والتي أسماها سفرنامة مكة، وقد استغرقت عام تقريبًا في العصر القاجاري الذي شهد اضطرابًا في الحياتين السياسية والاجتماعية، ولد في طهران عام ١٨٦٦م وتوفى عام ١٩٥٥م وعاش ما يقرب من تسعة وثمانين عامًا. وقد طاف المؤلف الكرة الأرضية مرورًا بروسيا وسيبريا والصين واليابان والولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا ومصر والشام وبيروت واليونان وتركيا.

وقد نالت رحلة المؤلف إلى البقاع المقدسة في مكة والمدينة النصيب الأوفر، حيث قضى بهما ثلاثة أشهر كاملة سجل فيها أعظم وصف لبيت الله الحرام، كما وصف مسجد الرسول بالمدينة المنورة وشاهد القبور والجبال والآثار الإسلامية المباركة هناك، كذلك وصف سائر بلدان المشرق العربي التي زارها كالشام وبيروت وبيت المقدس والمسجد الأقصى وقبة الصخرة وجبل الزيتون ومسجد عمر بن الخطاب، زار مصر وسافر إلى الإسكندرية وشاهد أهرامات الجيزة والتقى السلطان عباس حلمي الثاني ملك مصر وزار قصر الخديوي ثم سافر إلى السويس ثم انتقل من هناك بالباخرة إلى جدة وقام بتسجيل كل لقاءاته ومشاهداته.

يعد مهديقلي من الأسر العريقة في إيران،وقد قام بتأليف العديد من الكتب نظرًا لإجادته عدة لغات منها الإنجليزية والفرنسية والألمانية ومن العلماء والأدباء الملمين بتاريخ إيران وحضارتها، ومن مؤلفاته التي تزيد على الثلاثة عشر مؤلفًا الكتب التالية: خاطرات وخطرات، أفكار الأمم، فوائد الترجمان، قواعد الحديث، تحفة الأدب، تحفة مخبر، تقرير إيران، بستان الأدب، جعبة مخبر، تعليم الأطفال، كتاب الجبر والمقابلة وحساب المثلثات، مجمع الأدوار، تحفة الآفاق وغيرها.

وقد طبع الكتاب باللغة الفارسية للمرة الأولى في طهران عام ١٩٤٥م وقد اعتمدت في ترجمة الكتاب على النسخة التي حققها الدكتور/ سيد محمد دير سياقى مع الحواشي والتعليقات والفهارس والمطبوعة في طهران عام ١٩٨٩م ويتميز أسلوب الكتاب بالنثر المكتوب بأسلوب رصين يتخلله الشعر بطريقة تجذب القارئ، ويعد وثيقة تاريخية وجغرافية وسياسية واقتصادية واجتماعية من حيث التعريف بالأشخاص والبلدان والقبائل والديانات، كما يعد إثراء للمكتبة العربية بكتاب جديد في أدب الرحلات والأسفار لتكون مصدرًا لأحسن ما في تلك الآداب الشرقية والإسلامية.

المقدمة

"الرحلة المكية من خلال الكرة الأرضية".

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

كانت سعة العالم وتنامى أطرافه واتصال أفكاره ببعضها البعض من دواعي الأسفار البعيدة والرحلات المديدة، فالبلاد على تباعدها متعارفة، والسبل إلى طولها متواصلة، ولا يجد الراحل ما يعوقه من اختلاف الأمم واللغات، وتقاطع الأقطار وانقطاع الصلات.

وكان حج بيت الله الحرام وزيارة المدينة المنورة، مما زاد المسلمين إقداما على الأسفار والرحلات، تمرسا عليها وشد الرحال إليها، وسن العلماء الارتحال إلى أقاصى البلاد للالتقاء بكبار الأدباء والعلماء ورجال الفكر والسياسة وتسجيل مشاهداتهم والروايات التى تحكى لهم وتحرى مصداقيتها بدقة وتدوينها.

وفى القرون الأولى للإسلام شاع فى شتى بقاع بلدان المشرق الإسلامى، ما يعرف بأدب الرحلات، وهو فى جملته وصف إنسان لأسفاره وما شاهده فيها من أرض وبلاد وأمم ودول وملوك وعلماء وعادات وتقاليد وأخلاق وخلافه.

من أقدم تلك الرحلات رحلة ابن فضلان رسول الخليفة المقتدر بالله العباسى إلى بلاد البلغار القديمة على نهر الفولجا وكانت فى القرن الثالث الهجرى، وهى التى نقلها ياقوت الحموى فى معجم البلدان، تلتها رحلة الشاعر الفارسى ناصر خسرو فى القرن الخامس الهجرى، ثم رحلة ابن جبير فى القرن السادس الهجرى، ورحلة ابن بطوطة المغربى فى القرن الثامن الهجرى ورحلات أخرى توالت إلى هذا العصر.

وفى بداية القرن العشرين وفى الشهور الأخيرة من عام ١٩٠٣م، قام مهديقلى خان هدايت الملقب بمخبر السلطنة بتأليف كتاب فى أدب الرحلات أسماه سفرنامهء مكه أو رحلة مكة، وقد استغرقت رحلته سنة تقريبا، قبل انقضاء عصر الدولة القاجارية بعام.

وقد شهدت فترة الكتاب اضطرابا فى الحياتين السياسية والاجتماعية مما أسفر عن انتشار الفساد فى شتى نواحى الحياة فى أرجاء البلاد، نتيجة لانغماس الحكام والأمراء فى ملذاتهم الخاصة، وانصرافهم عن إدارة شئون البلاد، وتنبه الشعب إلى ذلك فقام بمظاهرات صاخبة مطالبا بإدخال إصلاحات اجتماعية واقتصادية وسياسية.

مؤلف الكتاب مهديقلى هدايت أو مخبر السلطنة، وقد حصل على هذا اللقب نتيجة اشتغاله مدة طويلة بالبلاط، وتقلده العديد من المناصب الإدارية والسياسية منها مكتب تليغراف طهران،مستخدم خاص للملك، رئاسة مكتب بريد طهران، رئاسة مكتب الجمارك والتليغراف بأذربيجان، رئاسة المدرسة النظامية، عضوية هيئة تدوين قانون انتخابات مجلس الشورى، تولى وزارة العلوم أربع مرات، وزيرا للعدل خمس مرات، محافظ أذربيجان مرتين، محافظ فارس، وكيل الدورة الرابعة لمجلس الشورى، وزير المالية، وزير الخدمات العامة والتجارة (أربع مرات) فى عام ١٩٢٨م، وزيرا للداخلية، رئاسة الديوان العالى عام ١٩٢٩م، كما تولى منصب رئاسة الوزراء عام ١٩٣٦م، ما يقرب من سبع سنوات.

ولد فى طهران فى شهر شعبان من عام ١٢٨٣ هـ / ١٨٦٦ م وتوفى عام ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥م أى أنه عاش ما يقرب من تسعة وثمانين عاما، يعد مهديقلى من الأسر الكريمة والعريقة فى إيران، إذا أنه حفيد الكاتب والمؤلف الشهير رضا قليخان هدايت صاحب كتاب رياض العارفين، وكتاب مجمع الفصحاء والملقب بأمير الشعراء، يعد مهديقلى أيضا من العلماء والأدباء الذين عرفوا بإحاطتهم الكاملة بتاريخ إيران وحضارتها، كما عرف عنه إجادته للعديد من

اللغات الأجنبية نتيجة كثرة أسفاره فأتقن العربية إضافة إلى الفرنسية والانجليزية والألمانية، كما اشتهر بكثرة مؤلفاته ومن أشهر أعماله بخلاف كتاب سفرنامهء مكه أو رحلة مكة حول الكرة الأرضية عن طريق الصين واليابان بهدف زيارة بيت الله الحرام والمدينة والمنورة الكتب التالية:

١) كتاب خاطرات وخطرات

٢) كتاب أفكار الأمم ، فى تحقيق المذاهب وتطبيقها مع الحكمة.

٣) كتاب فؤائد الترجمان: فى تعليم اللغة الفرنسية ، ويقع فى مجلدين.

٤) كتاب دستورسخن: (قواعد الكلام) فى النحو والصرف الفارسى.

٥) كتاب تحفة الأدب: فى العروض والبديع وصناعات الكلام.

٦) كتاب تحفهء مخبرى: وهو مؤلف فى الشعر الفارسى.

٧) كتاب كرزاش إيران: عن إيران القديمة مع بحث عن الدولة الكيانية ويقع فى أربعة مجلدات.

٨) بستان الأدب: وهو عبارة عن منتخبات من أجمل أشعاره.

٩) جنتهء مخبر: أو (جعبة مخبر).

١٠) كتاب فى الجبر والمقابلة وحساب المثلثات.

١١) كتاب تعليم الأطفال: مؤلف فى تعليم الطرق الخاص بتدريس الأبجدية ومقتطفات من الشعر والنثر فى أدب الطفل.

١٢) كتاب مجمع الأدوار: وهو مؤلف فى علم الموسيقى القديم والحديث.

١٣) عدد من المقالات والرسائل لم يتم طبعها.

١٤) كتاب تحفة الآفاق: فى التاريخ والجغرافيا والسياسة واقتصاد أوربا.

قام مؤلف الكتاب بتلك الرحلة ضمن مجموعة تتكون من سبعة أفراد أشهرهم الأتابك ميرزا على أضغرخان الذى كان يشغل منصب وزير العلوم فى

عصر مظفر الدين شاه القاجارى، مما مهد الطريق للمؤلف لتسجيل مقابلات الأتابك مع وزراء الخارجية للدول التى قام بزيارتها.

وكان اشتمال الكتاب على معلومات مفيدة فى أدب الرحلات من النواحى الجغرافية والتاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، وتسجيل المشاهدات واللقاءات الهامة بكبار الشخصيات فى تلك البلدان، إضافة إلى الصور المختلفة فى شتى أنحاء الكتاب، من أسباب اختيارى لهذه الدراسة لما له من بالغ الأهمية فى التعرف على عادات الشعوب وتقاليدها ودراسة أحوالها الاجتماعية.

موضوع الكتاب رحلة إلى مكة وهى الرحلة التى استغرقت عاما حول الكرة الأرضية مرورا بسيبريا والصين واليابان والولايات المتحدة الأمريكية، وأوربا ومصر، والشام وبيروت واليونان وتركيا.

وقد نالت رحلة المؤلف إلى مكة والمدينة النصيب الأوفر حيث قضى بهما مدة ثلاثة أشهر كاملة سجل فيها أعظم وصف لبيت الله الحرام فى مكة، كما وصف مسجد الرسول بالمدينة وشاهد القبور والجبال والآثار الإسلامية هناك. كذلك وصف المؤلف سائر بلدان المشرق العربى التى زارها كالشام وبيروت وبيت المقدس وجبل الزيتون وقبة الصخرة ومسجد عمر بن الخطاب.

وفى رحلته إلى مصر شاهد الإسكندرية وزار أهرامات الجيزة والتقى بالسلطان عباس حلمى ملك مصر وزار قصر الخديوى وسافر إلى السويس ثم انتقل من هناك إلى جدة عن طريق البحر الأحمر وقام بتسجيل كل لقاءاته ومشاهداته.

وعن الدراسات السابقة قام الأستاذ الدكتور / يحيى الخشاب "رحمه الله" بترجمة كتاب سفرنامهء ناصر خسرو علوى إلى اللغة العربية ويعد من أوائل الكتب الفارسية فى أدب الرحلات.

ويشتمل الكتاب على مقدمة و٣٠٥ صفحة بخلاف أسماء الأشخاص والبلدان والقبائل كما يحتوى على صور فى غاية الأهمية فى مواقع عديدة من البلدان.

وقد طبع الكتاب لأول مرة فى طهران عام ١٩٤٥م – ١٣٢٤ هـ وقد اعتمدت فى الدراسة على النسخة التى حققها الدكتور/ محمد دبير سياقى مع الحواشى والفهارس والمطبوعة فى طهران عام ١٣٦٨ هـ . ش / ١٩٨٩ م.

أسلوب الكتاب: يتميز بالنثر البسيط السلس الواضح الخالى من الصنعة والتكلف، مكتوب بطريقة شيقة تجذب القارئ لمتابعة الأحداث بدقة، ولا غرابة فى ذلك فقد امتاز الأدب فى تلك الفترة بالعودة الأدبية إلى التراث القديم والاصالة وإثراء الحياة الثقافية على العكس من الانحطاط الذى ألم بالحياة السياسية والاجتماعية.

ترجع أهمية الكتاب إلى أنه يعد وثيقة تاريخية وجغرافية وسياسية واقتصادية واجتماعية من حيث التعريف بالأشخاص والبلدان والقبائل والديانات وتسجيل اللقاءات السياسية مع كبار الشخصيات فى تلك البلدان.

كما يعد الكتاب إثراء للمكتبة العربية بترجمة كتاب فى أدب الرحلات يسجل المعلومات الخاصة ببلدان المشرق العربى ونقل تلك الأسفار لتكون مصدرا لأحسن ما فى الآداب الشرقية والإسلامية.

والله ولى التوفيق

المترجم



بسم الله الرحمن الرحيم

الرحلة المكية من خلال الكرة الأرضية

- للمرة الثانية استخدم صبّاغ الزمان، لوناً جديداً من طيف الفلك. (شعر)
- امعن النظر كيف خدع الفلك، وقدم خطة أخرى لا لون لها.
- انقطع خيط آمال جماعة، طالما ارتبط الخيط بآمال الآخرين.
- فلا تتألم من صروف الزمان، مادام لفلكك كأس وشرابه هذا.
- لو كان هناك عقل فى هذا الجلد البالى، لأنه حسن السمعة بلا شك.

لم يكن قد مضى أكثر من اسبوع حتى قال لى الأتابك، يجب أن يخطط مشروعاً من أجل الإصلاحات، والاستفادة مما قرأتموه ورأيتموه، وكنا نتجاذب أطراف الحديث حتى وصل السيد "عزيز خان"، وانقطع الحديث.

الثانى والعشرون من جمادى الآخرة عام ١٣٢١هـ.ق / ١٩٠٣م:

فى تمام الساعة الثانية من بعد الظهر أنا منهمك فى استوديو التصوير، ثم دخل "صادق" قائلاً إنه وكيل "ميرزا أحمد خان"، ولديه مظروف يريد أن يسلمه بنفسه إلى أيديكم، فبدت لى تصورات، ومر بخاطرى أنه يجب أن يكون هناك جديد، ثم أقبل وسلم المظروف، فقرأته، وكانت خلاصة مضمونه أنه لو لديكم وقت، تعالوا إلى "قيطريه"(١) ، فطلبت عربة يجرها جوادان ويقودها سائق، ثم ذهبت، ولم يكن يعلم شيئاً عن أوضاع "درب باغ"، فدخلت إلى الخيام.

---

(١) قيطريه: اسم قرية صغيرة تقع بالقرب من العاصمة طهران وتتبع إقليم شميران، وهى تختلف عن بلدة قيسارية ببلاد الشام.
على أكبر دهخدا: لغت نامه، جلد ٣٨ ص ٥٥٧.

وكان ميرزا عبد الله خان، وميرزا أحمد خان، ووكيل السلطنة، واعتصام السلطنة، وإحياء الملك فى جمع، وكانوا منهمكين فى الحديث حتى قال اعتصام السلطنة": إنه علم خلال اتصال تليفونى أن الأتابك قد تقدم بطلب استقالة، وقد قُبلت استقالته، وأرسلت إلى هنا على عجل، ولم تكن أحوال الجماعة تدل على مللهم، وكان ميرزا أحمد خان يلف الكنايات بحجاب الملح لفترة، حتى اتضح الأمر صراحة.

كان السفير الألمانى يتحدث مع الأتابك، بينما جلس "عين الدولة"، "ومشير الدولة"، "ومشير السلطنة" منتظرين مغادرة السفير فى جانب، وغادر السفير، وأخذ حضرات السادة مكانه، ومضت ساعة من الليل حتى انصرفوا.

فى بداية شهر جمادى الأولى قال "مخبر الدولة" لأخيه ذات يوم: ماذا يفعل الأتابك ؟ ويتحدث "بشير الملك" عن كفاءة "عين الدولة"، وذهب كل من "مجد الدولة"، "ووكيل الدولة"، والسيد "سيد محمد" نجل المرحوم، والسيد "سيد على أكبر" لزيارة الأتابك، وسألوه قائلين: "أين فلان ؟ وفى تلك الأثناء دخلتُ عليهم، وقد اعترت الدهشة وجوه الجميع لعلهم يريدون أن يتفوهوا بشىء، لكن الصمت غلب عليهم، وكانت تبدو حالتان على وجنتى الأتابك إحداهما حالة الانبساط من السعادة، والأخرى الضيق والأسف والانقباض من ضياع الفرصة.

ولا يعتمد تقلد المناصب والقيام بأعباء الجماهير فى إيران على مقدمات استنتاجية، لكنه يتوقف على ما يحدث من أمور، على حد قول الشاعر "أبى الفتح البستى"[١] : "الدولة عبارة عن اتفاقات حسنة".

---

(١) أبو الفتح البستى: أحد شعراء عصر الدولة الغزنوية، اشتغل كاتباً فى بلاط ناصر الدين سبكتكين، ثم شغل وظيفة صاحب ديوان الرسائل حتى اعتلاء السلطان محمود الغزنوى العرش. كان أبو الفتح مجيداً فى النظم والنثر باللغة العربية، إذ يعد من أصحاب اللسانين، وقد ألف ديوانين باللغتين الفارسية والعربية، لكنهما ليسا بين أيدينا، وقد نقلت بعض الأبيات الفارسية فى كتاب لباب الألباب، ومجمع الفصحاء، وقد وافته المنية بين عامى ٤٠١ و ٤٠٣ هجرية.
زهراى خانلرى "كيا" دكتر: فرهنك ادبيات فارسى درى، ص٢٨.

ويبلغ الأصدقاء طوال الوقت درجات الارتقاء الإنسانى وذلك بتعمقهم فى الأغراض النفسية بحسن نيتهم، مما يبعدهم عن العجز ويصبحوا فى غاية السرور، ويمكن أن يجنى فى ذلك اليوم الفوائد الجمة من تجاربه بعد الخسارة، وتعرف السمعة والعار، وتعرف العجلة والبطء، فبلغ إناء الهوس بالجديد إلى الغليان، ويلقى بالهموم وراء ظهره، ويشير إلى باب الحديقة الخضراء، ويأخذ فى ترتيب الأعمال التى ولت، ويضطرب خاصة فى الأماكن الخارجية التى يتفق فيها التصفيق مع الرقص، وتسقط الأكياس الجديدة محدثة جلبة وضوضاء.

تهتم الحواس الست الملكية برحلة إلى الغرب، وتنزل القافلة فى مكان دون ترتيب، يجب الاقتراض، ويتضايق الأتابك، فيضع الشروط حتى لا يصطدم بالمدبرين، الأمر الذى قبع معه الإنجليز من أجل الحصول على التعريفة الجمركية بالقهر، دخل "مشير همايون" من الباب، وسلم الأتابك رسالة ملكية مكتوبة بخط اليد، فقرأوها ودعوا، ثم أعطوا الرسالة الخطية إلى "وكيل الدولة" فقرأ محتواها: "لقد قبلت استقالتكم، وتم التصريح لكم بالقيام بزيارة بيت الله الحرام، ويجب عليكم ألا تتغيبوا أكثر من سبعة أشهر، وقد نظرنا بعين الرحمة فى شأنكم".

ودار حديث عن الرحلة، فأبلغنى: "أننى سوف أختار فى هذه الرحلة ثلاثة رفقاء هم الابن، والرفيق، والخادم، قلت: مقام الرفيق محفوظ لو توافقون، حيث أننى مستعد للخدمة". وقال: "قصدى من الرفيق أنت"، وكنت أعلم ذلك، أمضى ليلة فى "قيطريه"، وفى صباح اليوم التالى قال: "تشاوروا مع أصحابكم"، فأجبته: "ليست هناك حاجة للاستشارة فى عمل الخير، فأنا جئت إلى المدينة، وصار معلوماً أن أهل البيت قد أعارونا اهتماماً.

وحدد عمى "نير الملك" شرحاً فى مساوئ تلك الرحلة، ومن الواضح أن الحق كان معه تماماً، قلت فى نفسى: "هكذا تحدث الندرة"، فلا يمكن الانسياق وراء الخيالات، وكان الشىء الذى يقلق خاطرى هو أمر المدارس،

خاصة ما يتعلق بالمدرسة العلمية التى تأسست برونق خاص تحت إدارتى الخاصة، وكان يتشرف هذا الفكر بزيارة الملايين، حيث كانت مركزاً لوفود من الناس، ومن الممكن خلال تلك الرحلة أن يتسع أفق الأتابك من أجل القيام بالإصلاحات القادمة.

كان الأصدقاء يتوافدون للاطلاع، ويستفسرون عن الحقيقة، ومن بينهم "حاجى نائب الصدر الشيرازى"[١].

وكذلك "شمس العلماء الجورجانى"[٢] ، ويقرأ "شمس العلماء" عدة أبيات من قصيدة "ناصر خسرو العلوى" كانت بمثابة الدرس الذى لقنه لى: (شعر)

جاء الحجيج مكبرين، شاكرين رحمة الله الكريم.

قال إن كل ما قلته فى هذا الشأن، قد لا أعلم صحيحه من سقيمه.

قلت أيها الصديق لما لم تحج إذن، ولم تصر مقيماً فى مقام المحو.

لقد ذهبت صوب مكه وعدت مرة أخرى، مشترياً مضايقة البادية بالفضة[٣] .

ويستفيد نوعان من الناس من زيارة مكه، أحدهما الناس البسطاء الذين لديهم نية التقرب، ولا يعرفون كيف ؟ ولماذا ؟ والنوع الآخر وهم أشخاص مفكرون وعلماء قد بلغوا منازل المعرفة، يكونوا قد استوعبوا كلام "ناصر خسرو"، وما أكثر ما يصيرون أسرى للحد الأوسط فى الشك،

---

(١) حاجى نائب الصدر الشيرازى: هو معصوم عليشاه ابن حاجى زين العابدين ميرزا كوجك الملقب برحمت عليشاه، من أشهر مؤلفاته كتاب طرائق الحقائق، وتحفة الحرمين.
دهخدا: لغت نامه، جلد٤٧ص٢٩٩.

(٢) شمس العلماء الجورجانى : هو ميرزا محمد حسين قريب المتخلص باسم "ربانى" ، درس فى إقليم جورجان مبادئ العلوم ، ثم انتقل إلى قم ودرس الفقه ، وأصول الدين ، والحديث ، والتفسير . برع فى الأدبين العربى والفارسى ، وسافر إلى العتبات المقدسة.
محمد معين: فرهنك فارسى ، بخش بنجم (إعلام) ، ص٩١٨ .

(٣) ناصر خسرو: ديوان أشعار ناصر خسرو، بكوشش مهدى سهيلى، تهران١٣٤٨هـ. ش ص٢٥٨

وتلك النتيجة المرجوة لا يحصلون عليها بسبب عناء الرحلة ومصاعبها، ويعجزون عن حل المشكلات الحساسة، وعلى أية حال يقول الشاعر "فرخى": "ختمت القلب بختم السعادة"،[١] فصرت مستعداً للسفر "كثير الإرادة وقليل البضاعة".

وفى صباح يوم الثلاثاء الموافق التاسع والعشرين، ذهبت مع شروق الشمس إلى منزل الأتابك، وكنت مصابا بالحمى، وجلست فى زاوية، وأغلقت فمى عن الحديث، حاشا لله أن أتحدث مضطرباً، وجاء "شمس المعالى"، وكان ينسج النثر والنظم معاً، وكنت أهز برأسى، وفى تلك الأثناء خرج الأتابك، واتجه دفعة واحدة نحو الباب، فودعنا الحضور، وتوجهنا على الفور إلى بلدة "سرخه حصار".[٢]

وكان مخبر الدولة يقف على قارعة الطريق عند مفترق أربعة طرق، وكان المشهد يوحى بأن قرد فى قيد حديدى، وقرود أخرى طليقة، فتفاءلت ووصلنا إلى "سرخه حصار"، ولم نر هناك شخصاً من المشاهير، وبدا على الجوانب كل من "مشير الملك"، والأمير بهادر، وعين الدولة، ومشير الدولة، وسبهسالار[٣] ميرزا وجيه الدولة، وعضد السلطان، وجلس الأتابك مع الأمير[٤] على الدرج، وتجاذبا أطراف الحديث، ومشيت مع ميرزا أحمد خان، وسبهسالار الذى كان فى حالة كسل لمدة حيث اتكأ على ناحية من الجدار.

وكان يبدو مقبوضاً شاحباً، وبدا كلاً من الخجل والوجل على الوجوه، وكانوا يتبادلون وجهات نظرهم بالموافقة والمعارضة، ثم حضر الملك من

---

(١) يبدوان المؤلف كان يقصد الشاعر "لبيبى" بدلاً من فرخى.
محمد دبير سياقى: لبيبى واشعار او، تهران١٣٣٢ هــ.ش ص١١.

(٢) سرخه حصار: إحدى قرى إقليم سمنان الواقع شرق طهران حيث تعد قصبة "سرخة" عاصمة الإقليم، وتبعد حوالى عشرين كيلو متراً عن سمنان. دهخدا: لغت نامه، جلد٢٩ص٤٤١.

(٣) سبهسالار: هو وجيه الدولة ميرزا الملقب بأمير خان نجل أحمد ميرزا عضد الدولة شقيق السلطان مجيد ميرزا عين الدولة، تولى وزارة الحربية فى عهد مظفر الدين شاه خلال ترأس أمين الدولة للوزارة. مهديقلى هدايت: خاطرات وخطرات، ص١١٩.

(٤) المقصود بكلمة الأمير "عين الدولة".

الداخل، لكنه لم يأت إلى الميدان، وحجب الحاجب، وتوسل "الأمير بهادر" إلى "عين الدولة"، وتوجه الأمير إلى الدرب الداخلى، وحضر بعد مثول الملك، ووجه الخطاب الملكى إلى الأتابك وعين الدولة.

وفى وقت قليل ساق حديثاً طيباً، وقال الأتابك: "حيث أن هذه الرحلة بنية زيارة بيت الله، وبقصد حضرة الذات الملكية، أريد أن أقبل القدم المباركة، وفى كل مكان أكون متواجداً فيه سأقوم بمراسم الخدمة، ولو بمناولة الماء لأيادى زوار بيت الله الحرام القادمين من خراسان، فقال: لن أنساكم مطلقاً، أرسلوا البرقيات من كل مكان، يجب مراعاة ألا تطول رحلتكم عن أكثر من سبعة أشهر، ولا يترفع عين الدولة، ويطأطئ "سبهسالار" رأسه، فغادر الجمع الذى كان حاضراً متجهاً صوب عجلات العربة وحتى الأمير لم يمنع من السير على الرغم من إصرار الأتابك، ورافق الوزير "مشير الدولة" وكيل السلطنة حتى خارج بوابة قزوين.[1]

فى الطريق قال الأتابك للوزير مشيراً بإصبعه للخارج: على أية حال ستكون هذه الاستقالة ذات فائدة كبيرة لإيران، وسيكون لمنافسة العلماء ونهضة الحكومة نصيب من هذا النفع، كما سيتحول الحلم إلى حقيقة، أما الانجليز الذين أصيبوا بصداع فى رؤوسهم بسبب فرض تعريفة جمركية فسيهدأ بالهم، وكان الطريق ممهداً أمام الملك مثل روضة شقائق النعمان.

ثم قاموا بإلقاء نظرة أخيرة على درب المنزل، وودعوا الجميع، بعد ذلك غادرنا المكان ومضينا، ورفعنا أيادينا تضرعاً إلى السماء، واجتمع رهط من الناس فى حديقة وكيل السلطنة بين مؤيدين ومعارضين، وجاء لتوديعنا من الموافقين كل من موثق الدولة، ومعير الممالك، وصنيع الدولة[2]، ومخبر

---

(١) قزوين: تقع إلى الشمال الغربى من طهران على طريق"رودبار"، تمتاز بجبالها الشاهقة الارتفاع، كما تعد من المراكز التجارية الهامة فى الشمال، بها مصانع للسجاد.
ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٤ بيروت ١٩٧٩م، ص٣٤٢.

(٢) صنيع الدولة: هو مرتضى قليخان هدايت شقيق المؤلف مهديقلى هدايت الأكبر، ونجل عليقليخان، يعد من رجال الدولة القاجارية، رافق شقيقه الأصغر مهديقلى إلى ألمانيا فى طلب العلم ودراسة الألمانية، وبعد عودته فى عام ١٣٢١هـ تولى رئاسة إدارة البريد والجمارك، وفى أواخر أيام حياته قُتل على يد شخص من جورجيا يدعى "إيوان" بتحريض اثنين من أتباعه وبإيعاز من الروس. مهديقلى هدايت: خاطرات وخطرات، ص٢٨٩.

الملك[١]، كما اجتمع أمين السلطنة وبعض الأشخاص المقربين للأتابك من الأخوة والأبناء، والتقى "أمين الخلوة"، و"سعد الدولة"، و"شجاع الملك" فى "مهرآباد"[٢]، وكان "حاجى شيخ على" فى شاه آباد"[٣] .

فى الليل تم إنهاء الإجراءات فى إحدى العمائر المتواجدة بالمدينة والواقعة على أطراف مدينة "ينجى إمام"[٤]، وأحضر رسول من طرف سبهسالار مظروفاً، كما تشرف عدد منهم بالحضور فى الطريق حيث أنعموا علينا بعربة يجرها جوادان ويقودها سائق إلى "رشت"[٥]، لم يتوقف فى قزوين، وبعد تناولنا لوجبة، انتقلنا إلى قصبة تدعى "بيونك"[٦]، كذلك انصرف "سالار الدولة" نجل مظفر الدين شاه الذى كان قد جاء لاستقبالنا ضمن وفد.

وفى "سنقرآباد" رافقنا الوالى "حاجى معين" الذى كان قد حضر، فى حين لم يرافقنا أحد من المراسم أو التشريفات، وتم صرف وجبة لنا، ودار الحديث حول اختيار الطريق، واستشف من خلال قراءة فكر الأتابك أنه سيتم اختيار طريق المشرق، أى صوب الصين واليابان، وقد دعمت هذا القول، فصرح بالتوجه إلى موسكو، وقد حان وقت النوم، وكانت الأرض رطبة وغير

---

(١) مخبر الملك: شقيق المؤلف وقام بتوديعه قبل سفره إلى مكه.

(٢) مهر آباد: هى قرى موجودة فى أربعة أقاليم تعرف إحداها باسم النهر الأسود فى إقليم دماوند، والثانية فى أبرقو وتتبع إقليم يزد ، أما الثالثة فتوجد فى إقليم ملاير ، والرابعة فى إقليم أراك .
دهخدا: لغت نامه، جلد٣٦ص ١٩١.

(٣) شاه آباد: تعرف باسم شاه آباد الغربية، تعد إحدي مدن ملوك كرمان، وتقع إلى الشمال منها، وإلى الجنوب من إيلام، يوجد بها بئراً للبترول ومصنعاً لإنتاج السكر.المرجع السابق، جلد٣٠ص١٤٦.

(٤) ينجى إمام: تعرف أيضاً باسم قرية فشند وتتبع إقليم الكرج الواقع شمال غرب العاصمة طهران، بها العديد من المطاعم ومياهها من نهر كردان. المرجع السابق، جلد٥٠ص٢٨٣.

(٥) رشت: ثغر يطل على بحر الخزر (قزوين) فى إقليم خصب عظيم الإنتاج، ولكثرة الغابات فى جهاته يقيم الأهالى لسكناهم أكواخاً من الخشب والقش مخروطية الشكل، أما المدينة فقد نسقت على الطراز الحديث وبدت أنيقة فى مبانيها وطرقاتها، تعد رشت أكبر بوابات التجارة الشمالية لانفتاحها على روسيا ودول أوروبا الشرقية من أهم محاصيلها الأرز، والتبغ، والشاى، والحرير، والقمح، والشعير، وتتكون من أربعة مراكز هى مركزى، وكوجصفان، وحمام، ولشت نشا. حسن محمد جوهر و(آخرون): جغرافية آسيا واستراليشيا، القاهرة، د.ت، ص٧٢، وأيضاً عبد الرفيع حقيقت (رفيع): فرهنك تاريخى وجغرافيايى شهر ستانهاى إيران، تهران ١٣٧٦هـ.ش ص٢٣٨.

(٦) بيونك: تعرف بأسماء أخرى منها بوئينك وبوئين وهى عبارة عن بلدة صغيرى فى قزوين وتبعد عنها لمسافة تبلغ أربعة وخمسون كيلو متراً، جوها معتدل ومياهها عذبة.

مفروشة بالسجاد، وكان يوجد عدد من الأسرة لكنها رفيعة بالقدر الذى يسبب قلقاً أثناء النوم، فقمنا بضم الأسرة بجوار بعضها البعض، وأعدوا فراشاً مخصوصاً من أجل راحة الأتابك، واختار "ميرزا أحمد خان" فراشاً، واضعاً أمامه عدة كراسى، وشكّل ضلعاً للنوم، واخترت سريراً دون أى تفكير من خشية الانزلاق أو الوقوع.

فى يوم الخميس الموافق الثانى من رجب، وصل إلى "يوزباشى تشاى"[١] نائب السفير الانجليزى والذى كان قادماً من أوروبا، وكانت له معرفة سابقة بالأتابك، تحدثا لبرهة، وكانت الوزارة البريطانية قد تغيرت، وتخلل حديث تغيير الوزارة فى بريطانيا الجانب الغالب عن تنفيذ التعريفة الجمركية الجديدة، وفى بريطانيا استقالت الوزارة قبل تنفيذ التعريفة الجديدة.

وفى "منجيل"[٢] بادر "سيد أسد الله" مدير الطرق بإعداد وجبة طعام، وكان يرافقنا فى كل مكان لعمل التسهيلات اللازمة لنا.

وجاء "شبل الدولة" من أوروبا، والتقى بنا فى "رودبار"[٣] ، ولم يكن لديه علم بوفاة "احتشام الدولة"، فقام الأتابك بتعزيته، ولم يكن يعرف بذلك، فأخذ يبكى على الفور، وعمت الجميع مشاعر الحزن والأسى، ومضى هذا أيضاً.

---

(١) يوزباشى تشاى: لم يرد هذا المكان على الخرائط، وليست هناك معلومات متوافرة عنه.

(٢) منجيل: تقع إلى الجنوب الشرقى من رودبار على الطريق بين رشت وقزوين، كما أنها تبعد عن رودبار لمسافة ستة كيلو مترات، جبالها شديدة البرودة، وتهب عليها الرياح والأعاصير، يمر بها نهر "سفيد رود" و "شاهرود"، وجسر على نهر "قزل اوزون"، وهى تتبع إقليم رشت، وتشتهر بالقطن والزيتون والفواكه. دهخدا: لغت نامه، جلد٣٦ص١٢٢٥.

(٣) رودبار: يقع جنوب جيلان، إقليم عامر بالضواحى، ويعد مركزاً لإقليم جيلان، يشتهر بزراعة الزيتون، ويمر به نهر "سفيدرود"، ويقع على طريق قزوين – رشت، به غابات كثيفة، من أهم محاصيله القطن، والقمح، والشعير، والأرز، والحبوب، والبطاطس، والبصل، وتبلغ مساحة رودبار ما يقرب من ٢٧٥١كم.
عبد الرفيع حقيقت: فرهنك تاريخى وجغرافيايى شهرستانهاى إيران، ص٢٤٢.

ثم جاء "بيجلربيجى" إلى كهدم[1] ، وتوجه أعيان "رشت" إلى "سنج"[2]، والتقى بهم جميعاً، وتحدث إليهم وهم "عميد السلطنة"، و"محتشم الملك"، و"معين السلطنة"، و"مدير الملك"، و"كاشف السلطنة"، والسيد "سيد مهدى" خطيب وإمام صلاة الجمعة، و"اعتماد همايون"، وغيرهم، وصلنا إلى "رشت" عند الغروب، وانتقلنا خارج المدينة إلى "سالاريه"[3] ، وقدم "شريعتمدار" وانصرف على الفور، وتم تناول العشاء، ومضى الليل طيباً، ثم عوضنا عما مر بنا من نوم سيئ فى منازل الطريق.

ثم وصلت برقية من الوزير "مشير الدولة"، و"عين الدولة"، وكانت رغبة الأتابك حثيثة فى مغادرة الأراضى الإيرانية بأقصى سرعة ممكنة، وألا تحدث مصاعب فى الأمور، فاستبعد أعيان "رشت" أمر ضيافتنا، وصار القرار للاستخارة.

فى يوم السبت الموافق الرابع، قصدنا "انزلى"[4] دون معاناة تذكر، وكانت الإقامة فى عمارة الدولة، والتقى "شمس العمارة" مع "بيجلربيجى"، وبعد تفحصنا للسفينة الصغيرة والمسماه "لنكران" والمعدة للتحرك والخاصة "بولى أوف"، عبرت عن البوغاز فى حذر شديد، وقمنا بتوديع اليابس بعون الله فى يوم الأحد الموافق الثالث فى وقت الغروب.

---

(١) كهدم: تعرف أيضاً بـــ "كوه دم" و "كوتم"، ميناء صغير يقع على مصب نهر سفيد رود فى الماضى، أما الآن فقد تبدل وضعها، يعد وهبة الله بن أبى المحاسن من زهادها.
دهخدا لغت نامه، جلد٤٠ص٣٠٠.

(٢) سنج: قرية فى وادى نوبران من إقليم ساوه. المرجع السابق، جلد٢٩ص٦٧٠.

(٣) سالاريه: قرية فى منطقة فديشة التابعة لإقليم بيرخند تتميز باعتدال طقسها وتشتهر بالغلال والحبوب. المرجع السابق، جلد٢٨ص١٧٢.

(٤) انزلى: ميناء يطل على بحر الخزر حديثاً وكان يعرف باسم بحر قزوين قديماً (درت شدسش‌ص‌دأ) حيث يقع فى أقصى جنوبه الغربى، له تسميات أخرى منها "عنزلى"، ويقال له فى اللغة الدارجة "انزليجى"، وكان يطلق عليه في عهد الملكية اسم ميناء بهلوى منذ عام ١٣١٤هـــ شمسى، تبلغ مساحته حوالى أربعين كيلو متراً ومن أهم آثاره التاريخية "بقعة صالح"، و"بقعة حورية".
عبد الرفيع حقيقت: فرهنك تاريخى وجغرافيايى شهرستانهاى إيران، ص١٠٨.

كان ربان السفينة ويدعى "سيد سليمان" رجلاً تقياً، وقام بمرافقتنا "شكورف" نائب "ولى أوف"، ثم جاء "بيجلربيجى" وسائر المودعين فى زورق فى أعقاب السفينة، والتى بدأت فى الإسراع تدريجياً، ولوح بالمنديل تعبيراً عن الوداع، ثم عاد بعد تأكده من عبور السفينة من البوغاز، وسكن سواد "انزلى" فى الأفق، وغاب اليابس عن النظر، وكان ذلك بمثابة الوداع الأخير مع "شمس العمارة".

- الربان يقلل من القوة معتمداً على الله، لكى تهدأ القلوب فى هذا الطريق. (شعر)

ويصبح الطقس أكثر ظلمة لحظة بلحظة، وغطى "شمس العمارة" وجهه أيضاً بحجب الأفق، واختفت الجبال، وحلت مكانها الظلمة، ويهب النسيم العليل، وكانت سعادتنا بالغة نظراً لهبوبه من ناحية الوطن، ولا يليق أن نطلق عليه اسم إعصار أو ثورة، لكن من أجل سفينتنا يكفى أن تكون الحركات جالبة للفكر، وفى لحظة سطع القمر، فقلت بلغ سلامنا إلى مجتمع الأصدقاء، فضحك ضحكة توارت خلف السحب وانتظرنا طويلاً لعل الوجه الجميل يسطع مرة أخرى، متى ؟ وأين ؟ وذهبنا يائسين إلى كبائن السفينة.

كانت السفينة مؤجرة بالكامل لحساب الأتابك، حيث بلغ إيجارها ألف ومائتى "مناط"[1]، وقد أعطى للربان ونائبه "ولى أوف" خاتماً إضافة إلى قطعة من القماش الصوفى، وكان على متن السفينة مسافران أو ثلاثة، واثنان من الزوار كانوا قد ركبوا بإذن من الأتابك.

كان "أواك" نائب "طومانيانس"[2] مرافقا لنا للقيام بخدمة الأتابك، وبسبب التعجل فى السفر لم تُحمل السفينة بالأحمال الكافية، ومعلوم أن خفة وزن السفينة فى كل مكان لا تساعدها على السير بكفاءة، وأن تلاطم

---

(١) مناط: عملة روسية تعادل قرشاً.

(٢) طومانيانس: بلدة بأذربيجان الروسية، وليست هناك معلومات متوافرة عنها فى كتب الجغرافيا.

الأمواج يسبب متاعب للسفينة بدرجة كبيرة، وكان من نتيجة تمايل السفينة واهتزازها أن حدث لى دوار البحر، ولعل هذا يجب أن يحدث، وكان الربان يقود السفينة بحذر طوال النهار، وكان يمضى بمحاذاة الساحل.

وفى يوم الاثنين الموافق السادس، كنا قد تأخرنا عن الوقت المقرر لوصولنا إلى "باكو"[1]، وبدا من بعيد ضياء الوحشة حيث بدا عن قرب اشتعال بئر للنفط، وفى تمام الساعة الثالثة بعد منتصف الليل دخلنا إلى الميناء حيث مضينا إلى موقع الرسو، ورست السفينة، ولم يكن كلاً من "ناظم الملك" القنصل قائد إيران، ومدير الجمارك الروسية قد يأسا حتى الآن من وصول الأتابك حيث قاما بإرسال سفينة صغيرة بموتور من أجلنا بحيث إذا كان الأتابك متواجداً على متن السفينة يقوم بالانتقال إلى الشاطئ مباشرة خلال هذه السفينة الصغيرة، نزلنا وكان ذلك بمثابة فوز عظيم.

وقد جاء قائد الشرطة ورئيس الجمارك لاستقبال الأتابك وبرفقتهما فرقة موسيقية ورجال الأمن، وقد عادت الفرقة حسب التعليمات بعد مضى الوقت المقرر لها، ونزلنا فى بيت "بطومانيانس"، وفى نفس الليلة حضرت فرقة موسيقية إلى منزل "طومانيانس" حيث عزفت السلام ثم انصرفت، وبعد وصولنا جاء حاكم "باكو" بمجرد علمه من باكو إلى "باطومى"[2] من أجل رؤية الأتابك واستقباله.

---

(١) باكو: هى "باكويه" و"بادكوبه"، مدينة كانت تتبع آذربيجان الروسية، و تتبع حالياً جمهورية آذربيجان فى القوقاز غرب بحر قزوين، وهى عاصمة لها، وكانت فى السابق تخضع لإيران، وتقع فى شبه جزيرة"آبشرون"، بها جامعة عريقة، وآبار للنفط، وتشتهر بالمنسوجات، والصناعات الميكانيكية، والكيماوية.
سعيد بختيارى: أطلس كامل كيتا شناسى، تهران ١٣٧٨هـ.ش، ص٥٠.
وأيضاً دهخدا: لغت نامه، جلد٩ص٢٤٧.

(٢) باطومى: ويقال لها باتومى، وفى الإنجليزية سخضربا، تقع إلى الغرب من العاصمة تفليس عند تقاطع خط طول٤٢ ٥شرقا مع دائرة عرض٤١ ٥ شمالاً تقريباً، عبارة عن ميناء يطل على الساحل الجنوبى الشرقى من البحر الأسود فى جمهورية جورجيا، ينتهى عنده خط سكك حديد القوقاز، أهم الصادرات عبر الميناء النفط والزيوت والفواكه والتبغ والحرير وبها مسجد جامع يسمى عزيزيه.

حدث اضطراب فى أعقاب تحديد أموال كنائس الأرمن فى كل من باكو و"تفليس"[١] ، وقال رئيس الشرطة: لم تر عينى النوم طوال سبعة عشر شهراً، وكان نفر من الأرمن قد تم أسرهم، ويأس أولئك الذين تم إطلاق سراحهم، نحن سبعة أفراد: الأتابك، وميرزا أحمد خان، وأنا، ووثوق حضور، وعبد الله قهوه تشى، وحسين بيشخدمت، وعبد الله خان الذى جاء مرافقاً لى بصفته مصوراً ماهراً.

وكنت قد زرت "بادكوبه" منذ ما يقرب من سبع وعشرين سنة مضت، وكانت عبارة عن قرية متواضعة، ولم يُر شيئاً على حافة الساحل سوى جدار متهالك، وكانت هناك محطة للقوافل تطل على شاطئ البحر، ومن خارجها كانت تطل شجرتان ذابلتان على البحر بعين الحسرة، وتزدان تلك المدينة بعرضها وطولها والميناء، شوارعها منسقة حيث تنتشر الأشجار على معظم جنباتها، وعماراتها شاهقة الارتفاع، يقوم أهلها ببيع آبار النفط فى العام بمبالغ تصل فى جملتها إلى خمسمائة ألف "كرور"[٢]، وبها محلات تجارية كبيرة، ومعظم أهل "طومانيانس" إخوة، لهم مصالح فى طهران، وقزوين، وتبريز، ومركزهم فى "بادكوبه"، وصار أحد الإخوة فى تبعية الروس بحيث صار حق الملاحة فى بحر مازندران (الخزر) لهم، ويستقبلون معظم الإيرانيين، كما يستقبلون الأتابك فى هذه الرحلة فى منزل "جريجور" ابن الأخ الأكبر الذى يدير الأعمال.

يتواجد الإيرانيون الأثرياء فى "بادكوبه" كثيراً، ويفرون من إيران خوفاً من الحكومات، وفى وقت العصر ذهبنا لمشاهدة آبار النفط المشتعلة بناء على إصرار من رئيس الشرطة الذى كان له حق التفتيش كاملاً، وكان منظراً

(١) تفليس: عاصمة جمهورية جورجيا، تعد مركزاً إدارياً كبيراً، وبها جامعة وصناعات، بقيت طيلة مدة تابعة لإيران إلى أن ضمها الاتحاد السوفيتى، ثم استقلت عنه، يطلق عليها تبليس أيضاً.
دهخدا: لغت نامه، جلد ١٥ص ٨٢٣.

(٢) كرور: يعادل نصف مليون (خمسمائة ألف جنيه مصرى)، كما يساوى عند الهنود حوالى عشر ملايين. دهخدا: لغت نامه، جلد٣٩ص٤٨٤.

مهيباً ومخيفاً حيث كان قطر لسان الشعلة حوالى من ثلاثة إلى أربعة أمتار، فى حين كان ارتفاعه يصل إلى ستين أو سبعين متراً.

ومع اشتعال النيران وانبعاث الدخان كان أصحاب القلوب يرفعون رؤوسهم صوب الفلك، فأى الآمال كانت حتى تصير فى كل لحظة طعماً لألسنة اللهب، وهذا البئر الثالث الذى يشتعل والبئران السابقان قد حولوا ألسنة اللهب المطفأة إلى رماد أسود أسفل الآبار، ولما كانت كل الآبار التى على الجنبات فى خطر، فقد صممت مضخات ضخمة يتم نثر المياه من خلال ضمادات بحيث لا تشتعل النيران فى المناطق المجاورة.

جاء "ميرزا زين العابدين تقى أف" الشهير وقنصل فرنسا لرؤيتنا فى أول ليلة، ودعانا حاكم "باكو" للعشاء فى المساء، وتم التباحث حول خط سير الرحلة، حيث تقرر اختيار خط موسكو، وعبر الأتابك عن امتنانه من إعداد خط "باطوم"، وطلب الاعتذار.

فى تمام الساعة السادسة والنصف من صباح يوم الأربعاء انطلقنا ورافقنا رئيس الشرطة وعدد من الحراس، وعزفت الموسيقى نشيد الوداع فى محطة القطار.

كان هذا هو أول منزل فى الطريق ننال فيه احتراماً مخصوصاً، حيث كانت كل أسباب الراحة مهيأة فى القطار أيضاً، تناولنا الطعام فى إحدى عربات القطار، وحللنا ضيوفاً على مضيف تركمانى من أهل التركستان، وهو رجل حسن الطالع ورحيم، ويعد من أهم الشخصيات الإسلامية، وانضممنا فى جمع مع أولاد "وكيل السلطنة" الذين كانوا فى طريقهم من باكو من أجل طلب العلم فى الدول الغربية، وصرنا ستة عشر شخصاً بحساب "ميرزا جعفر خان" شقيق "حاجى سياح" شخصاً.

وحسب القانون المعمول به، حجزوا عربة قطار تتسع لاثنين وثلاثين شخص خاصة بالأتابك، وأخذوا فى المقابل مبلغاً قدره ألف ومائة مناط كأجر

عن ستة عشر مقعداً، وفى "بطروسك"[١] المطلة على بحر الخزر (قزوين)، غادرنا منطقة المياه التى كانت تتصل بإيران، حيث يوجد فى المشرق طريق البحر، والمغرب قليله وكثيره أماكن جبلية، وتبلغ من هنا إلى مشارف صحراء "القبجاق"[٢].

فى "بسلان"[٣] كان قد أرسل النائب "نساخانم" من أولاد المرحوم "ميرزا محمد عليخان كاشى" الفاكهة والحلوى تيمناً بالأتابك، وكان قد كتب رسالة، وأعطى الجواب والإنعام إلى النائب.

وفى "رسطف"[٤] كانت هناك فرصة مناسبة لشراء إحدى الصحف وطابع للبريد، وودعنا قنصل "رسطف" المدعو"عليكى" وسلمنا عليه.

فى مساء يوم السبت الموافق الحادى عشر من رجب، وصلنا إلى "موسكو"[٥] فى تمام الساعة السابعة والربع، ثم جاء التجار الإيرانيون مع "ميرزا نعمة الله" نائب "الحاج حسين آقا" أمين الضرب، الذى كان يعد فى منزلة نائب القنصل واصطحبونا إلى مكان إقامتنا بالمحطة لتحيتنا.

وكان "توماس" نائب "طومانيانس" قد لحق بنا فى العربة، وقام بنقل السيد "آقا" إلى "فندق ناشيونال" الذى اكتمل فى الصيف الماضى، ويعد من

---

(١) بطروسك: ليس لها ذكر فى الخرائط، وكتب التذاكر والمعاجم الجغرافية، ولكن يبدو أنها تقع فى الشمال الغربى من بحر الخزر على الحدود الروسية.

(٢) القبجاق: عبارة عن صحراء شاسعة، يقال لها أيضا قفجاق، تقع فى شمال بحر قزوين فى دولة تتارستان حيث يقال لطائفة الأتراك المقيمة هناك قبجاقى، وكان السلاجقة فى بدايتهم يعيشون هناك ويمارسون مهنة رعى الأغنام، وقد قسم المغول صحراء القبجاق إلى قسمين: صحراء القبجاق الشرقية بين السهل السفلى لنهر سيحون وجبال آلغ طاغ، وصحراء القبجاق الغربية ناحية أنهار دون والفولجا وتحدها من الشرق جبال الأورال، ومن الغرب شط دينبير، وإلى الشمال من بحر الخزر وإلى الجنوب من البحر الأسود.

(٣) بسلان: غير مذكورة فى المعاجم الجغرافية، ولكن يبدو أنها داخل حدود روسيا.

(٤) رسطف: يطلق عليها بالفارسية رستف، مدينة تقع فى روسيا، تطل على ساحل نهر دون شرق بحر أزوف، وتعتبر من الموانئ التجارية النشطة، كما تعد من أهم المراكز الصناعية فى روسيا، ويقال لها أيضاً رستوف، وراستف. محمد معين: فرهنك فارسى، جلد بنجم (اعلام) ص٥٧١.

(٥) موسكو: عاصمة روسيا والاتحاد السوفيتى السابق، عبارة عن وادى يقع على أطراف نهر موسكو الذى يعد فرعاً من نهر الفولجا، تعد مركزاً سياسياً وصناعياً كبيراً، وبها جامعات عديدة، ويقطنها ما يقرب من ثمانى ملايين نسمة.
دولت أحمد صادق و(آخرون): الجغرافية السياسية، القاهرة ١٩٩٨م ص٣٢٠.

فنادق الدرجة الأولى "بموسكو"، ومع ذلك فقد تم قطع مسافة داخل المدينة للوصول من المحطة إلى الفندق المذكور الذى بدأت تظهر ملامحه أمامنا.

يوجد أمام الفندق ميدان، فى وسطه قبة وهى إحدى ذكريات"الاسكندر الثانى"[١] فى الموقع الذى عبر منه خطر الديناميت، وقد علق فى المكان صليب به صورة عيسى، وكان كل شخص يمر من هناك يسحب الصليب إلى صدره (تملك روحى العناء والبلاء)، وقد بعث تكرار هذا المنظر فى نفسى الملل، ولم تعطنا الأمطار فرصة للتجوال والمشاهدة حيث كنا متعبين، وكانت أفضل نزهة فى هذا الوقت التقلب فى فراش النوم.

وفى يوم السبت الموافق الحادى عشر هطلت الأمطار مرة أخرى، ومع ذلك كانت لنا فرصة للتنزه بالعربة فى المدينة، عبرنا من أمام "قصر الكرملين"[٢] للتنزه فى إيوان الكساندر الثانى، حيث كان البناء شاهق الارتفاع، وتوجد قبة لها من ثلاث جهات إيوان واحد كبير، وكان سقف القبة مزدان بصور سلاطين طائفة "رومانوف"[٣]، ثم ذهبنا إلى المتحف، وكانت "موسكو" من المناطق الجديرة بالمشاهدة، كأنها خاتم مصنوع من قطعة الماس صغيرة الحجم.

---

(١) الاسكندر الثانى: يعرف بالكساندر الثانى قيصر روسيا منذ (١٨٥٥-١٨٨١م)، ابن نيقولا الأول، قام بتوقيع معاهدة صلح مع فرنسا بعد حرب القرم، ودخل فى حرب مع الدولة العثمانية طيلة عام ١٨٧٧م، وعقد إثر ذلك معاهدة برلين، ثم قتل.
= The new Encyclopaedia Britannica, P.P. 244 Volume 1, London 1991.

(٢) قصر الكرملين: يقع فى قلب موسكو، وهو عبارة عن قصر عظيم لملوك روسيا، وقد شيد على الجانب الأيسر من نهر موسكو، ويعتبر الآن مقر لحكام روسيا، ويعد من أشهر الأبنية هناك، معناه بالروسية القلعة الحصينة، ويعتبر الكرملين مخزناً للأسلحة الروسية، ويشتمل على إدارات الدولة المركزية وهو من أهم مجامع الأحزاب العمومية حيث تعقد بداخله جلسات اللجنة التنفيذية تولجان. مجلس الشورى، والمؤتمرات الدولية الكبرى، تأسس قصر الكرملين عام ١١٥٦م، وفقد أهميته عام ١٦٢٠م، ثم أُستخدم كمركز للحكومة الروسية حتى عام ١٧١٢م، ومرة أخرى بعد عام ١٩١٨م، وقد شيد من الأخشاب، ثم أعيد بنائه بالطوب فى القرن الرابع عشر بواسطة مصممين إيطاليين، يطل على الميدان الأحمر، وله أربع بوابات رئيسية على مقربة من نهر موسكو.
= The new eneyclaepedia Britannica, volume 7, P.P. 3-4.

(٣) رومانوف: هى أسرة ملوك طوائف روسيا، حيث اعتلى منهم العرش أول مرة ميشيل الثالث الملقب بـ فئودريج عام ١٦١٣م حتى الملكة اليزابيث عام ١٧٦٢م، ثم حلت أسرة هلشتين وجوتورب عام ١٩١٧م وقد انقرضتا فيما بعد.
المرجع السابق، جـ١٠، ص١٥٩ و ١٦٠.

يغطى "موسكو" سوق على هيئة ممر عبارة عن ثلاثة طرق متوازية تقطعها ثلاثة طرق أخرى عمودية عليها، ليس لها نظير في المدن الأوروبية سوى فى ميلانو التى لا تبدو بأية حال أكثر منها رونقاً وجمالاً، وفى وسط الأسواق الأربعة يوجد حوض تفور من وسطه المياه إلى أعلى، وكان مكان افتتاح السوق هناك.

أما الافتتاح الرسمى فيجب أن يكون غداً والذى يوافق الأحد، وكانوا مشغولين بتلك المناسبة، وكانت قد أعدت مصطبة على الحوض حتى يصلى عليها الخليفة، ومن السوق توجهنا مباشرة للتنزه فى كنيسة تعرف باسم "الحرم المحرر"، وهى عبارة عن بناء عظيم الارتفاع تحار فيه العين، مصنوع من الحجارة والأخشاب وعليه طلاء ونقوش لتماثيل صينية مزدانة بالنقوش والزخارف البديعة، وكانت الأعمال والنقوش المذهبة كثيرة فى هذه الكنيسة.

قيل إن موسكو تعرف بمدينة الكنائس، ويشاهد على رأس كل جسر منظر لعيسى، وكان "ميرزا جعفر خان لله" هو سيد الجماعة، ولدى عودتنا إلى الفندق، استفسر الأتابك عن صحة "وثوق حضور" الذى كان يعتريه المرض، وقام بزيارته والاطمئنان عليه.

وحدث أن قام "ميرزا جعفر خان" بالذهاب إلى السوق بعد الظهيرة، حيث اشترى كتاباً لـ "بئيدجر" (مرشد روسيا)، وآخر فى كيفية إعمار سيبيريا، وكتابان فى شئون الصين واليابان.

تعد موسكو من المدن العتيقة، ومن مراكز المغول حيث بقيت عاصمتهم لفترة من الزمن، ويستخدم التاج الملكى حتى الآن فى موسكو، تطل موسكو على ساحل البحر، وترتفع عن سطح البحر لمسافة مائة وأربعة وعشرين ذراعاً، وكانت المدينة القديمة عبارة عن أربعة أحياء هى الكرملين، وكيتاى جرد(١)، وبل جرد(٢)، وسملينوى(٣).

(١) كيتاى جرد: معناها مدينة الخطا.
(٢) بل جرد: معناها المدينة البيضاء.
(٣) سملينوى: المدينة المتواضعة.

الكرملين معناه فى الروسية القصر أو القلعة (قصر المدينة)، وهو عبارة عن جامع للعمارات النفيسة بموسكو ومزار "كيو" موضع زوار "كاترين الثانية"، حيث قاموا بتحويله إلى شارع، ويطلقون على كل ما يقع فى المدينة من الجوانب "شهر خاكى"أى المدينة الترابية، وعن طريق الروافد المائية التى تصل إلى موسكو عن طريق نهر إلى نهر ثم إلى بحر الخزر وبحر بالت.

وفى عهد "بيتر الكبير"[١] انتقلت العاصمة من موسكو إلى "بيتر جراد" وذلك فى عام ١١١٥هـ / ١٧٠٣ مسيحى، وقد حل أشد خراب بموسكو نتيجة لفتوحات نابليون وانتصاراته هناك، حيث تم إخلاء المدينة بإيعاز من "راسبوتين"، ثم أشعلوا فيها النيران، وبعد أن يأس نابليون قام بمغادرة الكرملين بعد أربع وعشرين ساعة، وتنقسم المدينة إلى فرعين، أحدهما شرقى والآخر غربى، تسير السيارات فى فرع، فى الآخر يزرع البطيخ على جانبيه، كما تشاهد أيضاً الجمال والبغال.

يعد الجلد المصنوع من اللباد، والحذاء، والقبعة من مستلزمات السفر إلى "سيبيريا"[٢] ، وقد أعد "عبد الله خان" معدات التصوير.

وحسب القواعد المعمول بها فقد تم حجز عربة قطار، ونحن سبعة أشخاص، وقمنا بشراء عدد ست عشرة تذكرة من موسكو إلى إينكو فى الصين بمبلغ قدره ألف وأربعمائة وستة وخمسون مناط، ومع إعداد منضدة الفندق المزدانة بالأطعمة الممتازة والمتنوعة تناولنا طعام الغذاء، وكان "ميرزا

---

(١) بيتر الكبير: قيصر روسى حكم موسكو فى الفترة (١٦٨٢/١٧٢١م) ثم أصبح قيصراً لروسيا فى الفترة (١٧٢١/١٧٢٥م) وهو شقيق فئودور الثالث قيصر أسرة روما نوف.
= The new Encyclopaedia Britannica, P.P. 530 Volume 25.

(٢) سيبريا: عبارة عن صحراء شاسعة تشمل الجزء الشمالى من قارة آسيا، تمتد من جبال الأورال بين أوروبا وآسيا وحتى المحيط الهادى فى المشرق، يحدها من الشمال المحيط المتجمد الشمالى، تبلغ مساحتها ما يزيد عن ١٢ مليون كيلو متر مربع، ويزيد تعداد سكانها على ٢٥ مليون نسمة وتنقسم من الناحية السياسية إلى أربعة أقسام هى جمهورية ياكوتسك وعاصمتها إيركوتسك، وجمهورية بوريات والمغول، وعاصمتها ورخنة أودينسك، وسيبريا الغربية وعاصمتها نووسيبرسك وسيبريا الشرقية وعاصمتها إيركوتسك الواقعة على بحيرة بايكال، بها غابات كثيفة، وتشتهر بمناجم الفحم الحجرى فى العالم. دولت أحمد صادق و(آخرون): الجغرافية السياسية، ص٣٣٠.

جعفر خان" أكثر منا قدرة فى الأحاديث المختلفة الباردة والساخنة حيث يتقنها بيسر واقتدار، كما كان يقوم بتدريس اللغة الفارسية، ويذكر أشعاراً من قصائد "بسحاق"[1] :

- إن وجدت الأرز المطبوخ بالسمن واللحم الناعم فادمجه مثل العدس. (شعر)

- لو تستطيع فاصنع الزبادى من الباذنجان.

- وإذا أدركت محشى ورق العنب وكأنه حجاب ملفوف، وعليك أن تبقى اللحم المشوى إلى أن ينتهى.

ومن جملة ذلك تذكر الأتابك أنه حل ضيفاً ذات ليلة فى منزل والدى، واستمر المجلس منعقداً حتى الفجر، ونام فى مكان جلوسه، بعد أن أمضى وقتاً لذيذاً.

ذات مرة كنت فى موسكو، ومضت ليلة، وكانت الساعة وقتئذ الحادية عشرة، وذهب كل شخص إلى غرفته، وكنت أنا وميرزا أحمد خان فى كل مكان ننزل فيه مشغولين بالكتابة، وانهمكت فى قراءة الكتب التى كنت قد اشتريتها ومذكرات الوقائع اليومية، ومضى ما يقرب من منتصف الليل عند النقطة التى توقفت عندها.

---

(١) بسحاق: هو أبو إسحاق واسمه الشيخ أحمد أبو إسحاق الشيرازى الشهير بإسحاق الأطعمة يعد من شعراء القرن التاسع الهجرى، قضى معظم حياته فى شيراز، وكان موضع اهتمام اسكندر بن عمر حفيد الأمير تيمور، كان شاعراً يهتم بالأطعمة والأغذية، يشتمل ديوانه على مقدمة فى النثر والقصائد والغزليات والرباعى والمثنوى والترجيع بند لدرجة قلده معها شعراء مثل ظهير الفاريابى، وخواجوى الكرمانى، وحافظ، والعراقى، وعبيد الزاكانى، وسعدى وغيرهم، وله رسائل فى النثر والنظم معاً أهمها "ماجراى برنج وبغرا" أى أحداث الأرز والخنزير، و"داستان مزعفر وبغرا" أى قصة الزعفران والخنزير، اشتملت أشعاره على مصطلحات قديمة بالية فى الطهى، وله رسالة باسم "كنز الاشتها"، وتشتمل على ١٠٨ بيت من الشعر.
زهراى خانلرى كيا (دكتر): فرهنك أدبيات فارسى درى، ص١٩.

فى الثانى عشر من رجب حل يوم افتتاح السوق، وكنت أسيراً لموعد فى ذلك اليوم حيث سيأتى مندوب من السكك الحديدية من أجل استكمال إجراءات السفر، وذهبنا إلى الحديقة الصيفية وقت العصر بناء على دعوة كريمة من"ميرزا جعفر خان"، وكان الجو فى موسكو بارداً، ولم يكن أمامنا فرصة غير هذا اليوم الأخير لمشاهدة تلك الحديقة.

كانت هناك ممشاة فى كل جنبات الحديقة على هيئة بساط، وكانت العمائر على الطراز العربى، والمصرى، والشامى، وقد تهيأت أسباب المعيشة، ويجتمع أهل الحال، ويتسع لنا المجال أن نمكث، وكنا نشير بالبنان، وصار ما لمدلول شعر "شيخ القناعة":

- اقنع بالنظر إلى الفاكهة، يا من لا تصل يدك إلى الغصن. (شعر)

قيل يمارس العشاق عشقهم فى هذه الحديقة وقت الصيف، ويمارسون الدلال، وقد ذهبت البيادر فى هذه الحديقة أدراج الرياح، وصارت السفوح عامرة، والسكارى مستمرون والمفيقون منصرفون، فعبرنا ومضينا.

وبناء على إصرار من المرشد "كاشى"[١]، كان يجب مشاهدة ضواحى موسكو، ومن ضمنها السيرك الذى تستعرض فيه الحيوانات التى تقلد الإنسان، وتظهر قمة الفن فى تقليد الحيوانات، امتلأ السيرك بالفيلة والجياد التى كانت تقوم بحركات معجبة ومدهشة، وعبر الحواجز كان يقف دب على قدميه الخلفيتين بصحبة خمسة عشر دباً تسير على أقدامها الأربعة، وكانت ألوان الدببة بيضاء، وكان قد تم تدريبهم على تلك الألعاب بعد جلبهم من الجهات الشمالية.

أى عمل فى التكسب اليومى لا يصنعه الإنسان؟ لا أدرى أهو تهور أم سفاهة؟! وعلى فرض قول داروين إن الإنسان أصله قرد، واعلم أنه من الصعوبة

(١) كاشى: يقصد به ميرزا جعفر خان.

بمكان أن يتجول قرد مع عدد من الدببة أو أن يكون حتى فى قفص حديدى، ولو أن فى القصص قول ممسوخ، وكان الدب ذا اللون الأسود فى جمع الحيوانات بحيث صار يتقدمهم، وعلى ما يبدو فإنه قد يتصرف ببصيرة.

ولمتابعة البرنامج كان يجب على "ميرزا جعفر خان" أن يقضى ليلة فى الآرميتاج[1] ، فذهب وذهبنا ، وكان هناك مطعم فخيم يذهب إليه الأعيان، ومن المعلومات الخاصة أن فى هذا المكان قاعة واسعة ، نصبت على جانبيها المقابلين لبعضهما البعض مرآة عالية ، ويظهر ظل المجلس من هذه المرآة إلى تلك ، ويشاهد دهليز ليس له نهاية.

ومع اقتراب الساعة من الحادية عشرة والتى تعتبر أول الليل لأهل التذوق، بدأت تعزف فرقة موسيقية ، ولم نجلس أكثر من نصف الساعة لكى تبلغ الموسيقى الأوروبية آذاننا أقل استمتاعاً.

فى صباح اليوم الثالث عشر، هنأت "ميرزا أحمد خان" الذى قام من توه من فراشه قائلاً له: "الحمد لله الذى جعلنا من المتمسكين بولاية على بن أبى طالب سلام الله عليه"، قلت يا على، ونهضت غاسلاً اليد والوجه، استعداداً لتناول الطعام، ولم ندر إلى أين نحن ذاهبون، وتم التحدث مع "ميرزا جعفر خان"، اليوم يجب الذهاب إلى الكرملين وفى الصباح إلى السوق، تم تناول الغذاء بصورة سريعة حتى تكون لدينا فسحة من الوقت أكبر للتنزه فى الكرملين.

يقع الكرملين فى قلب موسكو وتحيط به قصور، وكنيسة، ودير، ومعسكر لتدريب الجند، كما يطل على ساحل نهر موسكو، وتقع حوله عمارات وأبنية كل واحدة منها على طراز مختلف إما رومانى أو يونانى وعلى النسق المعمارى الأوروبى والعربى.

---

(١) آرميتاج: معناه الخانقاه أو محل العبادة وزاوية الاعتكاف، ويوجد مطعم أو فندق بهذا الاسم فى معظم المدن، ويتفنن المكان بالأنماط المختلفة، ويتم ذلك غالباً بعد الطهى فى الآرميتاج.
مهديقلى هدايت: سفر نامه مكه، ص١٤.

قيل بناء على ما سبق ذكره إنها ليس لها طراز معين بل متنوعة، وقد شبهها بعض السائحين "بالحمراء"[١] ، كما شبهها بعض الكتاب بقصور ألف ليلة وليلة، ويتبقى خارج القلعة برج وجدار محكم، ومن أعلى قصر الكرملين منظر لمدينة موسكو قلما يشاهد نظيره، وتبدو للناظر من بعيد قباب ذهبية تجذب الأنظار.

تعد "اوسبينسكى سابور" (سماء رحيل عيسى) مكان لاعتلاء سلاطين الروس للعرش بحيث يجب أن تتوج رؤوسهم برؤوس المقدسين، ويعد الجرس المكسور من معالم الكرملين الشهيرة حيث يصل وزنه نحو عشرين ألف كيلو جرام، وهو يرتفع قدر الإنسان ست مرات، ووجد قبله جرس "نوتردام" بباريس، وهو ليس أكثر منه ارتفاعاً، كما أنه ليس فى حجمه، ومعلوم أن زيادة الوزن تكسر الشيء نفسه، ويعد موت الشاب من أسباب الرشد الكبير، تقع كاتدرائية "أنكارناسيون"[٢] (إلباس اللحم فى حلول الإلوهية) فى أعظم مواقع الكرملين ولها تسع قباب ذهبية، ويبدو الإفراط فى النقوش والتصاوير الملونة للتماثيل المقدسة، وكذلك فى أبنية كنائس موسكو الخاصة والموجودة بالكرملين، اذهب وشاهد فهى غنية عن الشرح والبيان.

ترتفع منارة كنيسة "نيقولا" المقدسة لمسافة تصل من اثنين إلى ثمانية أذرع، كما يوجد جرس "نوجرد" الشهير فى هذه المنارة، ويمكن مشاهدة السلالم المحلية الحمراء فى الأماكن الرسمية لإمبراطور "تسار" فى تلك البقعة أيضاً. تعد مكتبة قصر الكرملين ومخزن أسلحته من الأماكن الجديرة بالمشاهدة، وخلاصة القول إن كافة المعلومات المتعلقة بروسيا توجد مجموعةً فى الكرملين.

---

(١) الحمراء: عبارة عن قصر شهير فى مدينة غرناطة بأسبانيا، ويطلق عليه فى اللغة الأسبانية جرانادا ، يذكر جورجى زيدان أنه يعد من القصور الشهيرة وينسب لأبى عبد الله الأحمر حيث بنى من الطوب الأحمر فى أواسط القرن السابع الهجرى.
دهخدا: لغت نامه، جلد ٨ ص ٢٤،٢٥.

(٢) الكاتدرائية: هى الكنيسة الأسقفية المركزية.

قضينا الليل فى الأوبرا لمشاهدة إحدى المسرحيات عن قضية المرأة العقيد، وتم تناول طعام العشاء فى مطعم اسمه "يار"[١] دون أن تمس أيادينا تلابيب الحب، وقمت بكتابة رسالة من قبل الأتابك إلى "كونت لاندروف" وزير الخارجية مضمونها أننا سوف نتجه صوب طريق سيبيريا فى طريقنا إلى الصين وأقصى بلاد المشرق فى الرابع والعشرين من سبتمبر، حيث لا يوجد أى قلق فى بلاد الروس، وبدون سابق معرفة يمكن أن تحدث مصاعب فى الصين واليابان، والمرجو أن تكون هناك توصيات مماثلة من طرف المسئولين من سفراء الدول العظمى.

وقد تضمنت الرسالة تقديم الشكر والتحية على حسن الاستقبال فى "باكو" وطوال الطريق حتى "موسكو"، وبدا الاستعداد للسفر من كل جانب، ووصلت برقية موقع عليها من "مشير الدولة" مفادها "لا تذهبوا إلى فيينا حسب الأوامر الملكية، وكانت الإجابة أننى سأذهب من طريق لم تتصوروه مطلقاً.

وفى تمام الساعة التاسعة والأربعين دقيقة حسب توقيت "بيتر"[٢] ، ذهبنا إلى محطة قطار "كورسك"، ولم يكن المرافقون حتى هذه الساعة على علم بهدف الأتابك، وتعجبت الجماعة التى كانت قد جاءت لتوديع الأتابك، وربما يكون قد ورد بخاطرهم:

- أخشى ألا تصل إلى الكعبة أيها الأعرابى، فهذا الطريق الذى تمضى فيه يؤدى إلى بلاد التركستان.[٣] (شعر)

---

(١) كلمة فارسية معناها الحبيب أو الصديق.

(٢) بيتر: مخفف "بطرسبورج" التى كانت عاصمة روسيا حينذاك، وعرفت قديما باسم لينينجراد، يحدها من الجنوب موسكو ومن الغرب استونيا ومن الشمال فنلندا، كذلك عرفت باسم سان بطرسبورج وحالياً تعرف باسم وسانكت بيتر بورج.
= Oxford encyclopedic World Atlas P.P. 90 Fourth Edition, U.S.A. 1997.

(٣) سعدى شيرازى: كلستان، تصحيح محمد على فروغى، تهران د.ت ص٧١.

دقت أجراس المحطة الأول والثانى والثالث، وعلا صفير القطار، وأجريت مراسم التوديع باليد والعين والأهداب والحاجب والمنديل، وكان الأتابك متأثراً لتوديع "صادق خان"، وسائر الإخوة، وأولاد "وكيل السلطنة" وغيرهم، خاصة فى الطريق الذى كان قد تم اختياره، وكان من الواضح أنهم لا يعلمون شيئاً عن هذه القافلة طيلة أسابيع، ويودع "ميرزا نعمة الله" كأنه يريد أن يقول كلمات قد تعلمها بصحبة آلة موسيقية ويرددها كالببغاء، كما يودع "ميرزا جعفر خان" بالدموع وحرقة بين الصدق والاصطناع.

ويدور فكر "توماس" أن يسرع بالذهاب، وكان "محمد صادق خان"، و"عباس خان"، و"أبو الحسن خان" ينظرون إلى الأتابك متأثرين، مضت عشرون دقيقة، لم يبد بعدها أى اثر لموسكو.

وفى الطريق مكان يدعى "سامارا" وهو جدير بالمشاهدة حيث حل الليل لننام، وقيل إن فى "سامارا" هذه تمثال للاسكندر الثانى[1] ، وأربع صور مستعارة من أعماله وهى:

١) تحرير الرعية من عبودية المالك.

٢) العمل على استقلال طوائف الصقالبة.

٣) الاستيلاء على القفقاز.

٤) القيام بفتوحات فى وسط آسيا.

كان من الأفضل أننا لم نر الفقرة الثالثة حيث كانت من أكثر الأعمال العظيمة ضرراً لنا، وعند حلول الليل عبرنا نهر الفولجا، وفى اليوم الموافق السادس عشر، كان مسير الطريق فى تلال وأراضى غير مستوية، ووصلنا إلى صحراء "القبجاق" التى كانت تشعرنا بالملل على الدوام.

(١) الاسكندر الثانى: المقصود به الكساندر الثانى قيصر روسيا حسبما ذكر المؤلف.

وأثناء الليل عبرنا "جبال الأورال" [1] وكان من الأفضل لنا أن يتم عبورنا من الصحراء أثناء الليل وأن نعبر الأماكن الجبلية أثناء النهار، ولو كان لدينا علم بذلك لقمنا بشراء التذاكر من مكان لآخر.

تفصل "أورتشومجا"[2] فى الأورال بين قارتى أوروبا وآسيا، ويوجد بجوار محطة السكك الحديدية على مقربة منا هرم قد تم نصبه كتب على وجه منه سهم يشير إلى اتجاه أوروبا، وعلى الوجه المقابل سهم يشير إلى اتجاه آسيا، والأورال عبارة عن منطقة جبلية غنية بالذهب حيث يستخرج منها الذهب الأبيض من الجانب الغربى، فى حين يستخرج الذهب الأصفر من الجانب الشرقى، كما توجد قطع من الماس فى بعض المناطق وهى عبارة عن أحجار كريمة ذات قيمة عظيمة ومنها نوع يعرف باسم "المالاخيت"[3] .

توجد خلف الأورال مدينة هامة تعرف باسم "تشليابينسك"، وهى جزء من ولاية تسمى "أرن بورج"، وتتعهد إدارة السكك الحديدية أن تكون قد أعدت فى أماكن مختلفة المستشفيات، والأزقة، والمنازل للسكنى حيث يجمع المهاجرون لدى وصولهم.

وفى المنطقة المجاورة لـ "تشليابينسك" قد أعدت المنازل ولوازم معيشة ما يقرب من ١٢٠٠ شخص فى الشتاء و٢٠٠٠ شخص فى الصيف، وقد عبر من

---

(١) جبال الأورال: عبارة عن سلسلة جبال شاهقة الارتفاع تفصل بين قارتى آسيا وأوروبا، تمتد فى اتجاه شمالى جنوبى يصل طولها إلى ٢٤٠٠ كيلو متر، يبلغ أقصى ارتفاع لها ١٨٩٤ متر، تعتبر من أكبر مراكز الصناعة فى روسيا وبها احتياطى من الحديد والفضة والنيكل والذهب الأبيض والمنجنيز والذهب الأصفر والفحم الحجرى وغيره.
دهخدا: لغت نامه، جلد ٨ص٤٨٢.

(٢) أورتشومجا: هى المنطقة العازلة تحديداً بين قارتى آسيا وأوروبا فى الأورال، وهى جبال تنتمى إلى الحركة الهرسينية (من بداية العصر الكربونى حتى العصر البرمى)، تبلغ أعلى قممها نارودنايا وقمة تمانزتاو.
- Philip's world Atlas, P.P. 24,
محمد المعتصم مصطفى و(آخرون): الجغرافيا الإقليمية لأوراسيا، القاهرة ١٩٨٨م، ص١٣٢.

(٣) المالاخيت: تعد من أرقى أنواع الأحجار الكريمة التى يستخرج منها الماس.
دهخدا: لغت نامه، جلد٤٣ص٨٧.

هذا المكان منذ عام ١٨٩٣م وحتى رحلتنا تلك ما يقرب من ستمائة ألف مهاجر.

ويعرف "وثوق حضور" بعض الكلمات الروسية، فكان فى غالب الأحيان يسهل مأموريتنا فى هذه الأماكن، وكان رئيس القطار ألمانى الأصل، ويجب أن يقوم بالتفاهم مع الخادم عن طريق الإيماء والإشارة من أجل إعداد مأدبة طعام لنا، وكانت الكرات الثلجية ترافقنا الطريق من موسكو إلى كل مكان، وكان أغلب ما يشغلنا هو إرسال برقية سريعة، حيث كان مكتب البرقيات يبعد لمسافة ١٠٦٦ متراً[١]، ونقوم بشراء كارت وطابع فى كل مكان، ونرسل إلى الأصدقاء رسالة وسلاماً، أين نحن؟ وأين طهران؟ ولو كان ذلك فى العهود السالفة لطالت السنون حتى تصل رسالة من تلك المناطق إلى طهران أو لا تصل، وتوجد صحراء قاحلة وعرة جدباء على الأطراف الشمالية بين "أومسك"[٢] و"تومسك"[٣]، وما زلنا لم نر البادية.

وهذه الصحارى شاسعة بلا نهاية وهى عتيقة للغاية ومقبضة، ولم يشاهد شئ من النواحى الجنوبية منها أحياناً سوى الثلج الأبيض المتجمد، وفى معظم الأحيان يظهر فى الطريق عمران على مسافة، كذلك لم نر هناك طائراً سوى الغراب، "انظر إلى صياح هذا الغراب ونواحه"[٤]، وقد استيقظنا ثانية من النوم ومازالت لم تظهر شمس طهران لتذكرنا.

لا يوجد فى هذا المكان من رحلتنا أى من الفوائد الخمس، لا مشاهدة، ولا اكتساب للمعيشة، ولا علم، ولا أدب، ولا صحبة طيبة، يفصل خط السكك الحديدية بين مكان يعرف باسم "تايجا" و"تمسك"، وتعد "تومسك"

---

(١) يذكر المؤلف أن كلمة "ورست" تعادل ما يقرب من ١٠٦٦ متراً.

(٢) أومسك: مدينة تقع فى سيبيريا إلى الشمال من كازاخستان، يحدها من الغرب تشليابلينسك، ومن الشرق نوفوسيبرسك، وهى على الطريق إلى "إيركوتسك".
- Oxford Encyclopedic world Atlas, P.P. 90.

(٣) تومسك: مدينة فى سيبيريا، تقع إلى الشمال الشرقى من أومسك. المرجع السابق، ص٩١.

(٤) منوجهرى دامغانى: ديوان منوجهرى، باهتمام محمد دبير سياقى قصيدة ٣٥ تهران١٣٢٦هـ.ش.

أول مدينة فى سيبيريا، وتوجد بها دار للفنون تنقسم إلى شعبتين، الأولى للطبيعة والطب، والأخرى للحقوق، ويوجد بها ما يقرب من نحو أربعمائة طالب يقومون بتحصيل العلوم، كما توجد بالمدارس دراسات تمهيدية كثيرة فى مجال الطب البيطرى، وتربية الأطفال وغير ذلك، وهى ليس لها نظير فى طهران بأكملها، يا إلهى أى حال هذا !، ويمكن أن تشاهد أقدم الآثار الإنسانية فى متحف دار الفنون "بتمسك".

تحتوى مكتبتها على مائة ألف مجلد، وقد أقاموا ثلاثة وعشرين جسراً صغيراً وكبيراً من منطقة الفولجا وحتى "إيركوتسك"، يعد بعضها ذات شموخ، وإذا لم يكن الروس قد أقاموا جسر "منجيل" لتم قطع طريق طهران — رشت، حقيقة يجب الخجل منها.

أيركوتسك:[1]

فى يوم الخميس الموافق الثالث والعشرين، كان قد تبقى على الظهيرة ثلاث ساعات، يجب أن نصل إلى ايركوتسك، وكان ذلك بمثابة عيد بالنسبة لنا، فهو يوم التحرر من سجن القطار، أشرق الصباح سريعاً وجمعنا أغراضنا، وكنا نحصى صخور الطريق حيث هدأ القطار من سرعته، وسوف نصل فى تمام الساعة الواحدة بعد الظهر، فسخطنا على سائق القطار، وقلنا لعامل العربة مستنكرين: أى فائدة ! لا يوجد علاج سوى الصبر، يجب طى أربع محطات، وقد طالت الساعات، ومضت كل ساعة وكأنها يوم، ومضت أيضاً المحطة الرابعة، فحمدنا الله على ذلك.

وفى هذه الأثناء ظهر القطار، سبحان الله ماذا حدث ؟ قيل يجب البقاء هنا حتى يمضى القطار القادم، ورفعنا أيادينا تضرعاً إلى الله، يا إلهى اكتب

---

(١) ايركوتسك: مدينة تقع فى روسيا إلى الشرق من سيبيريا فى الجهة الجنوبية الغربية من بحيرة بايكال، تشتهر بالملح والمعادن والفحم الحجرى، وتعد مركز مهم لصناعة الفلزات والصناعات الميكانيكية وتجارة الأخشاب.
دهخدا: لغت نامه، ٨ص٥٦٥.

السلامة لهذا القطار حيثما هو موجود، ووصل القطار، بعد أن مرت كل دقيقة وكأنها ساعة، كنا محبوسين ثمانية أيام فى القطار، وخرجنا من موسكو فى الخامس عشر، وكان يبدو سواد المدينة من بعيد، وقمنا بجمع أغراضنا مسرورين، ويوجد فى هذا الطريق جسر مرتفع، وقد شاهدنا الناس وهم يروحون ويغدون أسفل الجسر، وفق قول "اسماعيل خان" فقد كان المكان أسفل الجسر مرتعاً للسكارى، ولا أدرى وضع الأشخاص الذين يعبرون أسفل هذا الجسر إن كانوا ثمالى أم لا ، فالبشر هم بشر فى كل مكان.

وعلا صوت صفير القطار، وعلمنا أننا قد وصلنا إلى المحطة، فشكرنا الله، يقال إنهم قد انشأوا فندقاً جديداً يقبل النزلاء عليه فى "ايركوتسك"، وقد افتُتح ليلة أمس، وكان عامل الفندق المتواجد بمحطة القطار سيىء المظهر، سألنا رئيس المحطة الذى كان ألمانى الجنسية، فأرشدنا، وتركنا عنده الحقائب، وذهبنا إلى الفندق بعربة الفندق، وكانت لدينا حالة من الوجد لا يمكن وصفها.

لم يكن مدخل الفندق مشرفاً، وكان المكان أمام الفندق مبللاً بالقار بشكل يسترعى الانتباه، وعلى أية حال فقد دخلنا، وكان المنظر داخل الفندق أفضل من خارجه خلافا للعادة.

وأرشدنا الحارس إلى الطابق الأول، وكان تصورنا أنه يليق أن يكون أكثر ترتيباً، وصعدنا إلى الطابق الثانى، فلم يكن هناك فرق، فعدت وحجزت سبع غرف، والغريب أنه لا توجد فى هذا الفندق غرفة مزدوجة فى حالة أن يكون المسافرون نساء، وخطر ببالى مرة ثانية ربما أنهم قالوا لو أنهم متخاصمون قد يتصالحون، ولو أنهم متنافرون يقيم كل واحد منهم فى غرفة على حده.

كان وسيط الأعمال بالفندق اسمه "لئوه" ومعناها فى الألمانية (الأسد) وقد ساروا فى الطرق المؤدية لأجزاء الفندق بمشربة فى اليد ولحاف على الكتف، وتم ترتيب أماكن الإقامة فى أقصر وقت، وكانت هناك فرصة لتناول طعام العشاء، حيث توجد بالفندق قاعة متسعة لتناول الطعام، وإيوان خاص بالموسيقى، وقد أقيم حفل كان يمكن الدخول إليه واستكملت الأشياء الناقصة بالغرفة أثناء جولة فى وقت العصر، وكان من الأفضل الاستغناء عنها.وكان الجو فى غاية البرودة، فذهبنا إلى محل لبيع الجلود بسبب الطقس، وكان صاحب المحل مسلماً من أهل "غازان" ويدعى "شيخ الله شفيع أوغلى"، وشوهدت عنده كل أنواع الجلود من الحيوانات المحللة والمحرمة.

شوهدت بين البائعين جلود رفيعة وأخرى سميكة، وبناء على إصرار من صاحب المحل تم شراء معطفين وأربع قبعات، ولم يكن الأتابك فى حاجة لشراء معطف[1] ، وتم شراء ياقة قميص من جلد الثعلب تبدو كاللؤلؤ الفضى بمبلغ ثلاثمائة مناط، وقضينا وقتاً، وقد حفظتنا هذه الملابس من البرودة، وخرجنا بعد تحويل مبلغ ألف ومائتى مناط، ولو كنت تنظر بطرف العين يخيل إليك أن لؤلؤاً صغيراً يقف على طرف كل شعرة من ذلك الجلد، وكان كل البائعين فى محل الجلود من الرجال.

وفى صباح يوم الجمعة الموافق الرابع والعشرين من رجب اغتسلنا، وينقسم الحمام إلى جزئين، أحدهما أكثر حرارة للسونة، والآخر من أجل الاغتسال، وأثناء تناول طعام العشاء، طافت بخاطرى أبيات "لبابا طاهر"، وقلت للأتابك: إنه لجميل أن تأمروا بإرسال هذين البيتين إلى طهران، فأجاب: اكتبهما بنفسك، قلت: لمن ؟ قال: "لموثق الدولة مغرور ميرزا"، فكتبتهما على

(١) تصنع المعاطف من جلود البغال، والمقصود هنا جلد السنجاب، وهو حيوان يشبه الثعلب، والسمور من فصيلة القطط وغيره حسبما ذكر المؤلف.

بطاقة معايدة، وكان ذلك مناسباً تماماً مع رحلتنا ومقصدنا، وقد صنع وردة فى طهران.

- إن أذهب من هذا العالم إلى عالم آخر، أنضم إلى الصين وماتشين[1] (ما وراء الصين) وأبعد منهما. (شعر)

- أسأل من حجيج الحج، هل هذا الهجر كافياً أم أكون أكثر بعداً.

ومن كثرة الفراغ قررت أن أعطى "ميرزا أحمد خان" درساً فى اللغة الفرنسية، وانشغلت فترة من النهار، وأحياناً كان يطوف بخاطرى شعر"أحمدا"[2] فأنشده:

- انظر إلى طرة تلك المعشوقة الصينية حملت، بحرارة القلب الملتاع على كفها وألقت به نحو ثنياها. (شعر)

مضت سنوات وكان يطوف بخيالى أحياناً أن أنظم غزلية على هذا الوزن والقافية، ولم يجلبها، وذات يوم أثناء نظم إحدى المثنويات، اتقد فكرى، وطاف بخاطرى كثير من الأشعار، لقد قالوا حقاً إن الشعر يجب أن يكون فى جملته مخزناً للطبع، وأول المطلع هو:

- ألقت السماء بأشعتها من جبينه، فبدا القمر وألقى بضيائه على أرضه. (شعر)

- أشرقت شمس وجهه من أفق الحسن، وفى كل موضع ألقى ملك القلب تحت جوهره.

(١) ماتشين: المقصود بها الصين الكبرى أو أصل الصين لكن القدماء كانوا يقصدون بالصين المناطق المتاخمة لكاشغر وبلاد الختن فقط. نظام الملك طوسى: سياستنامه، باهتمام عباس إقبال آشتيانى، تهران ١٣٧٣هـ.ش ص٢٠٨.

(٢) أحمدا: شاعر شعره سخيف لكنه يبعث على السرور، كان يلقب بملك المعارف وأشعاره خالية من لطف المعانى والوزن المطلوب والمضمون الجديد المبتكر. دهخدا: لغت نامه، جلد٤ص١٠٩٩.

- قال مدعي إن النار لم تحمل السجدة إلى التراب، وألقت من باب القرب مقلتيه.
- صار العشق عاصياً فلا تبح بالأسرار فبدا مرة أخرى، ونقض عهد الأزل من الفلك الخالد.
- لقد ألقى الجميع بعهد الحب والوفاء على التراب، فحمله إلى هناك حيث ألقى الدرع روحه الأمينة.
- تفقد جوهراً وألقى بكل العالم، طالباً أمر دره الثمين.
- ما أكثر ما يقول الزاهد في المدينة عبثاً عن التقوى، ورأى كفر طرة معشوقتنا وأخرجها عن دينها.
- ما أكثر ما أن يتفق العقل مع العشق والعشق يرعى، والآخر يلقي بنفسه في أرضه.
- حرارة التدبير بسبب التقدير لعله غافل، حقاً حقاً ذهب إلى الخطأ وألقى بنفسه.
- وصاحبت ابنة الكرم شيخنا إلى الدنيا، وألقى الفلك رأيه الرزين بسبب غم الظلم.
- ذهب الصبر في زاوية القلب وصنع كميناً، انظر إلى أهدابه التي هي كالسهام عندما صوبها من الكمين.
- انظر إلى طرة تلك المعشوقة الصينية التي حملت بحرارة القلب الملتاع على كفها وألقت به نحو ثنياها.
- كان المهدي من القواد في صف العشاق، وهذا هو الزمان ألقى به في الصف الأخير.

وإظهاراً للطف، ردد "الأتابك" هذه الأبيات "لعاشق الاصفهاني" من موسكو حتى هذا المكان:

- وأسفاه لا يمكن تلافى الجفاء، فى اليوم الذى يتعرف فيه الأحبة على أهل الوفاء[1] . (شعر)

وخلال الفترة التى كنت أدرس فيها فى برلين، وصلت فى الجغرافيا إلى المبحث الخاص بسيبيريا، وأثرت تلك الرغبة فى قلبى سائلاً نفسى: هل سيكون من المتاح أن أشاهد "ايركوتسك" و"بحيرة بايكال"[2] ؟ نحن هنا فى "ايركوتسك"، وفى ضواحى البحيرة التى تقع على الطريق إلى "منشوريا"[3] .

أثناء الليل ذهبنا من أجل قضاء وقت فى المدينة التى كانت تسمى "طاطرى" وهناك شاهدنا مسرحية، عبارة عن قصة الملك "فيوج" وكنت أعرف أنها مثل القصة التى كنت قد شاهدتها وقد كتبوها أصلاً باللغة الألمانية، كان الجو صافياً لدى عودتنا إلى الفندق، والنجوم تتلألأ فى السماء، كما كان إنسان العين متجهاً صوب صفحة السماء الزرقاء، وقد غطت الكرات الثلجية الجبال والصحارى، حيث امتزج زبد الكرات الثلجية بزرقة السماء، وقد أكسب الجو لوناً جميلاً.

يوجد متحف أيضاً فى "ايركوتسك"، وتصادف أن كان مغلقاً، ونظرًا لوجود الأتابك فتحوا أبوابه تحية له، فذهبنا نتفقده، فهو يجمع نموذجاً للطيور والأعشاب والأحجار الكريمة والزينة، وبه ما يقرب من خمسمائة صنم لآلهة

(١) رضا قليخان هدايت: مجمع الفصحاء، جلددوم تهران ١٣٣٦هـ. ش ص ٣٤٦.

(٢) بحيرة بيكال أو بايكال: عبارة عن بحيرة عميقة، تقع فى جنوب سيبيريا على حدود منغوليا الشمالية، وتصب فى نهر ينيسى عن طريق نهر آنجارا السفلى، يبلغ طول البحيرة واحد وثلاثون ألف وخمسمائة كيلو متراً، من أشهر المدن الواقعة عليها "اولان اوده"، كما تعد هذه البحيرة من أعذب البحيرات فى العالم، وتبلغ مساحتها حوالى ٣٠٧٠كم٢، وتزيد النهاية العظمى لعمقها إلى ١٩٠٠ متراً حيث يمتلئ منخفض وادى الأخدود الموجود وسط مناخ معتدل بالماء عندما لا يكفى البخر لمعادلة تصريف الأنهار فى الحوض.
كتاب المعرفة: البحار والمحيطات، جنيف د.ت، ص٢٩.

(٣) منشوريا: إقليم يقع إلى الشمال الشرقى من الصين، تزيد مساحته عن المليون كيلو متر مربع، يقع فى جنوبه البحر الأصفر وشبه جزيرة كوريا الصينية، به صحراء شاسعة، وجبال شاهقة الارتفاع، يزيد تعداد سكانه على الخمسين مليون نسمة، انفصل عن الصين عام ١٩٣٢م، وكانت عاصمته مدينة موكدن (مغدن)، من أهم مدنه كيرين وخاربين أو هاربين.
دولت أحمد صادق و(آخرون): الجغرافية السياسية، ص٥٢٢ – ص٥٢٨.

تلك المناطق وكلها مصنوعة من البرونز، والحديد، والخشب، والحجر، والطين، والخزف الصينى، يشفى كل واحد منهم الأمراض خلافاً للمثل القائل "لكل داء دواء".

كان رفاة شخص يدعى "اسكلت" من الأشياء الجديرة بالرؤية، قيل إنه تم تحديد زمنه إلى نحو ألفى عام مضت، الله أعلم، كانت عظامه فى مكانها، وقد رقدت على الرمال، كما وضعت زينته وحربته المصنوعتان من الحجارة بين ضلعيه.

لم يختلف الهيكل عن هياكل اليوم، ويقال إن بعض أعضائه قد تهشمت، وسقطت فى مكانها، وكان وجهه سليما، ولا شك أن الجلد كان جافاً ولونه أسود على العظام، وفى الطابق العلوى توجد مكتبة المتحف وهى عبارة عن مكان لمجمع الفضلاء، ويحافظ علماء الدولة على المتحف ويصونونه أيضاً، وهى نفس وجهة نظر الحكومة، ولدى العودة من المتحف كان فكر الأتابك متجهاً صوب محلات بيع الجواهر النفيسة، وشوهد نموذج لأحجار الأورال القيمة من شفاف وغيره، وقام الأتابك بشراء بضعة أزرار للكم، كما اشترى خاتماً مصنوعاً من الماس أيضاً.

وكان ضمن الأحجار الشفافة حجر يتغير لونه بحيث يبدو لونه أخضر أثناء النهار، وأزرق أثناء الليل. تعتبر "ايركوتسك" المدينة الثانية فى سيبيريا، وتشتهر من حيث الموقع بأنها من أجمل البقاع لأنها تقع فى ملتقى نهرى "ايركوت" و"آنجورا" على ارتفاع يصل إلى ألف وثلاثمائة وستين قدم فوق سطح البحر، كما يبلغ تعداد سكانها ما يقرب من واحد وخمسين ألف نسمة حسب إحصاءات عام ١٨٩٧م، ولم تتلائم النظافة ومصابيح الشوارع مع سائر الأوضاع، وبها حديقتان عامتان.

أغلبها كنائس إذ أن بها عدد يصل إلى أربع وعشرين كنيسة أرثوذكسية فى مقابل كنيسة واحدة كاثوليكية، وبها كنيسة تنسب إلى

"لوثر"[١] زعيم البروتستانت، والأرثوذكس يعارضون الكاثوليك، على عكس البروتستانت الذين يعارضون كلاً من الأرثوذكس والكاثوليك، للجميع معبود واحد، والعوام خداعون، فى ظاهرهم يبدون الطيبة والرحمة، وفى الخفاء يضمرون الشر والبغضاء، ويوجد فى ايركوتسك معبد لليهود، ومسجد للمسلمين أيضاً، وكلاً منهما ينكر الآخر ويعارضه، الدين تهذيب للأخلاق كما أن الإسلام يدعو للخلق القويم، لكنهم لم يحفظوا أنفسهم عن الأهواء، مثلما قال سعدى:

- **كان يتنازع يهودى ومسلم، فيتملكنى الضحك من حديثهما. (شعر).**

- **قال المسلم للطاعن لو أن قبلتى هذه، ليست صحيحة فيا إلهى اطرد اليهودى.**

- **قال اليهودى: أقسم بالتوراة، لو أقول الكذب فأنا مثلك مسلم**[٢] .

ولكل من أتباع الطوائف البوذية "الشامانيين"[٣] و"البوريات"[٤]، و"اللاميين"[٥] معابد بوذية صادفتنا فى طريقنا، كما يوجد خمس وأربعون مدرسة، وأربعة عشر دارا للرعاية من أجل الفقراء، والأطفال المتسولين، وللأرامل والأيتام والعاجزين والمؤسسات الخيرية والعلمية التى تعمل بكفاءة عالية، ويبلغ تعدادها واحد وعشرون مؤسسة، بالإضافة إلى مكتبة المتحف.

---

(١) لوثر: نسبة إلى مارتن لوثر، الزعيم الإصلاحى الألمانى الذى عاش خلال الفترة (١٤٨٣/١٥٤٦م)، وكان ابن مزارع، وكان قسيساً وأستاذاً فى الفلسفة بجامعة أرفورت، وأدخل مذهباً جديداً هو البروتستانتية فى الدين المسيحى، ويقال إن تعاليمه راجت بصورة كبيرة فى ألمانيا والنمسا.
دهخدا: لغت نامه، جلد ٤٢ ص ٣١٧.

(٢) سعدى شيرازى: كلستان، تصحيح محمد على فروغى، ص 214 مع التصرف فى الشطرة الثانية من البيت الثالث والأصل: وكرخلاف كنم همچو تومسلمانم.

(٣) الشامانيون: أتباع شامان، وهو راهب معتنق مذهب التتار.

(٤) بوريات: مكان فى جنوب سيبيريا ومركزه مدينة "اولان أوده".

(٥) اللاميون: أتباع "لاما" ومعتنقى مذهبه، ولهم طقوس خاصة فى عبادتهم وهى فرع من البوذية، وانتشرت اللامية فى التبت جنوب منغوليا ومنشوريا بالصين وغيرها.
المرجع السابق، جلد ٤٢ ص ٦٩.

يوجد بمكتبة المدينة سبعة وعشرون ألف مجلداً، ومرصد يعمل أيضًا، وللمدينة دخل سنوى يصل إلى ستمائة وواحد وثمانين ألف وخمسمائة مناط منها مبلغ مائتان وخمسة وسبعون ألف مناط تأتى كإعانات من أصحاب الهمم، ويصل رأسمال البلدية إلى ما يقرب من خمسة ملايين مناط وتصل أجرة العربة التى يجرها فى اليوم الواحد ويقودها سائق من الفندق إلى محطة قطار السكك الحديدية إلى أربعين سنتاً وستين "كبك"[1] .

فى يوم الأحد الموافق السادس والعشرين كان يجب التحرك، الطقس صاف، وتبلغ درجة الحرارة واحد وعشرون درجة تحت الصفر، وفى تحركنا من الفندق إلى محطة السكك الحديدية لم يكن قد تبقى شيئاً يبلغ مسامعى سوى تساقط الثلوج، كانت ملابسنا ملائمة للرحلة، وقد غطينا رؤوسنا ووجوهنا.

تبلغ المسافة من "ايركوتسك" إلى "بحيرة بايكال" واحد وستون كيلو متراً، وتقطع فى ساعتين ونصف تقريباً، وقد رافقتنا فى الرحلة من "ايركوتسك" سيدة مع ابنة تبلغ من العمر سبع أو ثمان سنوات، تعرفت على الأتابك على مائدة الطعام، وكانت ذاهبة إلى "برت أرطور"[2] حيث يقيم زوجها هناك ويعمل رئيس للميناء، وفى "بطر"[3] تعرفنا على "أرفع الدولة"، وصارت قبعتنا الإيرانية سبيلاً للتعرف علينا فى المجلس، تحولت البحيرة إلى ثلوج، ومن أجل عبور ذلك المعبر بالسفينة، قاموا بالعمل بكساحات لإزالة الثلوج.

---

(١) كبك: عملة صغيرة تعادل قرش روسى، لونها أسود وهى سكة نحاسية زهيدة القيمة. دهخدا: لغت نامه، جلد ٣٩ ص ٣٣٣.

(٢) برت أرطور: مدينة فى شبه جزيرة "ليائوتونج"، وهى عبارة عن قاعدة بحرية على شاطئ البحر الأصفر، تعرف فى اللغة الصينية باسم "لوشون"، وباليابانية يقال لها "ريوجون"، وفى عام ١٩٥٠م تم إطلاق اسم "لو-تا" عليها.

(٣) بطر: هى بطر سبورج اختصار سان بطرسبورج الشهيرة بلينجراد سابقاً.

لم يتم استكمال تشييد خط السكك الحديدية الذى يجب أن يصل بين طرفى البحيرة[١]، تبلغ مساحة سيبيريا من الناحية الجغرافية مائتان وثمانية وأربعون ألفاً وتسعة عشر "فرسخاً"[٢]، أما إيران فمساحتها تبلغ أربعة آلاف فرسخاً، وقد هاجرت طوائف "الهون"[٣] من جنوب صحراء سيبيريا إلى أوروبا، وفى رحلة ماركوبولو ليس هناك اسم لسيبيريا.

وفى سنة ٩٥١ هجرية كانت هناك مدينة تعرف باسم "سيبيريا" فى خريطة "مونسطرودابى"، وفى خريطة عام ١٠٢٣م توجد مدينتان أخريتان باسم "طومن" و"تبلسك"، وكان موطن جنكيز خان يبعد لمسافة تتراوح بين ستة أو سبعة فراسخ جنوب "ايركوتسك" فى بلدة تعرف باسم "تولا"، ويوجد قبره هناك فى نفس المكان.

الأراضى هناك شاسعة، والمياه وفيرة، وكذلك الغابات ومراعى الأغنام، وتعد المناجم الكثيرة فى سيبيريا مخزناً لروسيا، التى ليس لها نفس مساحة سيبيريا، فوجهوا أنظارهم صوب أراضى الآخرين:

- لا تقنع عين لمحب الدنيا، حتى يذهب للقبر ولا يملأ عينه سوى التراب. (شعر)[٤]

---

(١) لقد كان المهندس طرسكينسكى يعمل فى امتداد خطوط سكك حديد إيران، وطريق جلفا - تبريز، وهو نفسه الذى عمل فى امتداد خطوط روسيا - سيبيريا عبر بحيرة بايكال حسبما ذكر المؤلف.
مهديقلى هدايت: سفر نامه مكه، ص٢٥.

(٢) فرسنك: تعريبها فرسخ، وهو يساوى عند المسلمين ١٢٠٠٠ ذراع، وهو يعادل أيضا عند العرب ٥٩١٩ متر، كما يقال إنه يساوى ثلاثة أميال أو ستة كيلو مترات.
دهخدا: لغت نامه. جلد ٣٧ ص ١٦٧.

(٣) هون: اسم قبيلة من قبائل الترك من أصل تتارى، كانت تعيش حول جبال آلتاى، ثم انتشرت فى مناطق أخرى مثل التبت وشمال الصين وصحراء منغوليا الحالية وصحراء التركستان وقيرقيزستان والمناطق القريبة من جبال الأورال، ومنذ ما يقرب من ثلاث آلاف سنة قبل الميلاد، ارتبط أهل الصين بعلاقات طيبة مع قبائل الهون، وعقدوا معهم صلات.
دولت أحمد صادق (دكتورة): الجغرافية السياسية، ص٥١٨.

(٤) شعر من الكلستان لسعدى الشيرازى شاعر العصر المغولى، ويعد الكتاب ومعناه الحديقة من أشهر كتب النثر الفارسى الممتزج بالأشعار فى التربية والحكم والأخلاق، ويشتمل الكتاب على مقدمة وثمانية أبواب زهراى خانلرى كيا (دكتر): فرهنك ادبيات فارسى درى، ص٤٢٤.
وأيضاً: سعدى شيرازى: كلستان، تصحيح محمد على فروغى، ص ١١٨ وأصل البيت:
- كفت جشم تنك دنيا دوست را يا قناعت بركند يا خاك كور.

وأستخلص فى هذه البقعة التى إليها فى رحلتى، حرص الدول العظمى على القيام بغزو شعوب لا تنعم بالأمن والاستقرار، وتنكر عليها طبيعتها الشخصية فى حياتها الخاصة.

يجب مكافحة البرد فى المناطق الشمالية، ويعيش السكان على الصيد البرى والبحرى، الغزلان متوفرة فى تلك المناطق، ويرغب الأهالى دائما فى تناول الطعام الشهى، وتحتسى طائفة تدعى "بنفشه آلتاى" من سكان المناطق الجبلية نوعاً من الشاى يعرف باسم "شاى شاقير"، وتعد الجلود هناك من مصادر الثروة فى سيبيريا، حيث يقومون هناك بدباغة أنواع من جلود البغال. يعيش الثعلب الأبيض بكثرة فى بعض المناطق، كما يعيش غزال المسك فى جبال "آلتاى"[1]، وهناك مخازن ضخمة لروث الطيور البحرية على شواطئ بحيرة بايكال حيث يمكن استخدامها كسماد طبيعى للمزارع لسنوات طويلة.

وضع "نيقولا الثانى" أول حجر أساس لخطوط سكك حديد سيبيريا فى عام ١٣٠٩هـ / ١٨٩٠م، وأكمله من بعده "وستك"، وتعد سكك حديد سيبيريا بمثابة الشريان الحيوى فى مختلف الممالك والتى تمتد حتى منشوريا.

ولو كانت منظمات حقوق الإنسان معنية بالإعمار، لكان من الواجب تقديم التبريكات لسكان تلك المناطق، لكن للأسف لم يتم ذلك، ولابد لأسير النوم أن يستيقظ، ومن أسف أيضا أن الناس لا يعرفون معنى اليقظة، ويستيقظون فقط فى الوقت الذى لا يكون فيه جدوى من العمل (بعد فوات الأوان).

كانت سيبيريا سجناً كبيرًا لروسيا بصورة رسمية حتى عام ١٨٩٩م، وقام "بطرس الكبير" بإرسال الأسرى السويديين إلى منفى سيبيريا، حيث

---

(١) آلتاى: عبارة عن سلسلة جبال شاهقة الارتفاع بين منغوليا الغربية والتركستان الصينيه فى ولاية سين جيانج بطول ١٦٠٠ كيلو متر، كانت تتبع الصين ثم استقلت عنها والآن تقع فى منغوليا.
- Philip's world Atlas, P.P. 30.

ألقى بهم من السفينة على ساحل البحر فى أقصى البقاع، وقد كانت قمة التلذذ فى نفى مجموعة "زنج أو كليتش" إلى سيبيريا مع سائر الأسرى والمتهمين بقتل "ساروويتش ديمترى" وكان خبر مقتل ساروويتش فى عام ١٨٩٣م بمثابة تقصير إعلان جرس الكنيسة، وكان وزن الجرس يصل إلى تسعة عشر "بوطاً"[١] .

فى الثالث عشر من يونيو عام ١٨٨٩م تقرر أن تبقى أراضى سيبيريا تحت تصرف وسيطرة المهاجرين كملكية أبدية، بحيث ينتقلون للعيش فى تلك البقاع حسب رغباتهم الشخصية، وتخضع لسيطرة كل شخص من كبير وصغير ما يقرب من مساحة تعادل عشرة آلاف متر مربع. ويعفى الأهالى من سداد الضرائب طيلة ثلاث سنوات، ثم يقومون بسداد نصف قيمة الضرائب فى الثلاث سنوات التالية، وبعد إتمام سدادها كاملة، يقومون بسداد مبلغ اثنين مناط وواحد وسبعين كبك عن كل سهم، وتؤجل الخدمة العسكرية لمدة ثلاث سنوات، ويقوم الأهالى بسداد قيمة المساعدات التى تقدم إليهم مع التقاوى بعد ثلاث سنوات أيضاً.

ومنذ عام ١٨٩٩م تم إلغاء اسم السجن عن سيبيريا، وتمت مساواة الأهالى فى الحقوق مع الشعب الروسى.

طول طريق سيبيريا ونفقاته:

الخط	مدة العمل	الطول	النفقات
سامارا – أوتا	من ١٨٨٦ حتى ١٨٨٨م	٤٥٣كم	٢٤مليون و٢٢١ ألف مناط (٥٣ألف كيلو و٢٧٧ مناط)
اوتا – زلاتوست	من ١٨٨٨ حتى ١٩٩٠م	٢٩٨كم	٢٠مليون و٤٣٩ ألف مناط (٦٨ألف كيلو و٤٣٩ مناط)
البقية حتى بايكال	من ١٨٩٦ حتى ١٩٠٠م	٢٢٥٧كم	١٥٩ مليون مناط.

(١) بود أو بوط: كلمة روسية عبارة عن وزن واحد يساوى ما يقرب من خمسة أمنان تبريزية ونصف. دهخدا: لغت نامه، جلد١٣ ص ٥٠١.

تعادل مساحة بحيرة بايكال أربعة وثلاثين ألف كيلو متر مربع أى ما يقرب من فرسخ، وهى من أكبر البحيرات القديمة من حيث عذوبة مياهها، أما بحيرة "ميتشجان" فى الولايات المتحدة، وبحيرة "نيانيتسا" فى أفريقيا فهما أكبر منها، وترتفع البحيرة عن سطح البحر لمسافة ١٥٦١ متراً.

ويقال إن "جزيرة الخن" فى بحيرة شامان بوريات ودالا مسكن للشياطين ومأوى لأرواح الشياطين الإنسية، ويعتبرها المغول مسقط رأس جنكيز خان وأعقابه والحقيقة أنه بعد خروج جنكيز خان من الجزيرة انصرفوا عن تلك العقيدة، وقد أبيض وجهه فى المائة والعشرين من عمره، ويقال إن قطعة من قمم الجبال بالجزيرة شبيهة بجمجمة الإنسان، وصارت تلك الشبهة سبباً فى هذه الاختلافات حيث يحملون النذور فى كل ركن من أركانها.

ويقومون بتأدية الصلوات وينتظرون هذا الحجر الذى هو على شكل إنسان أن يرسل سمكة إلى سطح البحيرة فتمنع الزوارق من الغرق، ويقال إن البحيرة تكسر ثلوجها أحياناً من تلقاء نفسها وسبب ذلك ليس معلوماً، وقد كسرت كاسحة الجليد الثلوج فى البحيرة فعلاً وصنعت خطاً من أجل العبور، والسفينة مستعدة أيضاً، ويجب أن تعبر إلى الجانب الآخر من البحيرة.

وفى أوقات الضرورة من الممكن للسفينة أن تحل محل القطار فى النقل من هذا الجانب إلى ذاك، وفى الساعة الثانية بعد الظهر استعدت السفينة للتحرك ولكن بصورة أكثر هدوء بسبب الثلوج فى انحنائه، ويجب عليها أن تقضى مدة أربع ساعات وسط المياه، وليس هناك تلاطم للأمواج، وقد أصيبت الرؤوس بصداع، وكان سبب ذلك تحرك السفينة على هذا النحو كمسطح الحذاء.

الطقس صاف والسماء والشمس فى نقاء، وأطراف الغابة تكسوها أشجار الصنوبر، وتبدو قمم الجبال من بعيد بسبب الثلوج كأنها العاج، ولم تعط ثورة البحيرة وهيجانها فرصة للمسافرين للاستفادة من هذه المناظر، وكان على ظهر السفينة طفل صغير يناهز من العمر سبع أو ثمانى سنوات يشبه ابنى "نصر الله" إلى حد كبير.

وفى الساعة السادسة والربع بعد الظهر وصلنا إلى "ميسوا"، استعد القطار للانطلاق، وتم إعداد عربة خاصة ملحقة بالقطار من الجهات الرسمية من أجل راحة الأتابك، فكانت مزدانة، وكان بها صالون وإيوان، وشوهدت فى الإيوان خريطة توضح معالم الطريق تخرج من تحت العربة، وتختفى رويداً رويداً، وكان من المعلوم أن تكون توصية وزير خارجية نواحى بايكال أكثر تأثيراً، وكنا قد طلبنا توصية من أجل زيارة الصين واليابان، وكان الطقس أكثر دفئاً فى مناطق "منشوريا"، وفى الساعة الثالثة فجرا تم العبور لمسافة اثنين كيلو متراً إلى منطقة تسمى "شيتا" وموقعها "خلف بيكال"، ولم يكن الطقس صافياً هناك بدرجة كبيرة، وكان الهدوء يسود كل مكان نيلاً، ويقال إن السمور وهو من فصيل القطط الليلية يعيش هناك، والفراش هو أكثر الأماكن صفاء.

ونظراً لطول المسافات فإن اتساع طرق العربات فى روسيا أفضل، لا يجلس أكثر من أربعة أشخاص فى كبائن العربة، وسائد الجلوس مرتفعة، وهى عبارة عن فراش للنوم، ثم أعد مكان مريح من أجل أربعة أفراد، ومضى ليل يوم الثلاثاء الموافق الثامن والعشرين، ودقت الأرض على الفلك، وأشرقت الشمس، "أشرق الصباح لتبدو رؤوس الآلهة، من البحر كأنها "الحيتان"[(1)] .

وفى وقت السحر وصلنا إلى قلب "منشوريا"، وقد انفصل الطريق عن الطريق الرئيسى الذى يؤدى إلى "نرتشينسك"، تبلغ المسافة إلى بايكال نحو ١٠٣٥ ميل، والطريق من هناك إلى ما بعد "نهر آمور" ممهد بطبيعته، واليوم

---

(١) شعر لجلال الدين الرومى الشهير بمولوى، يعد من أعظم شعراء التصوف فى إيران فى القرن السابع الهجرى، من أهم آثاره "المثنوى المعنوى" ويقع فى ستة مجلدات، ومجموعة رباعياته وديوان غزلياته المعروف بديوان شمس تبريزى، ومن نثره كتاب "فيه ما فيه"، و"مجالس سبعة"، و"مكاتيب". زهراى خانلرى: فرهنك ادبيات فارسى درى، ص ٤٩٢.
وقد جاء البيت مع التصرف وأصله:-

باز وقت صبح آن اللهيان برزنند ازبجر سرجون ماهيان.

جلال الدين محمد بلخى: مثنوى معنوى، ازروى نسخة نيكلسون، تحقيق عزيز الله كاسب، تهران ١٣٧٠هـ. ش ص ٨٤.

فإن الطريق يمتد إلى أعلى، والقطار يحتاج للسير بسرعة أكبر، ويعود من الخط الآخر ويعوض المسافة، وهو يسير ببطء أكثر فى المسافة التى يزيد ارتفاعها عن الأخرى، ويختلف سطح الأرض فى البقاع التى يسير فيها.

انطوت هذه المرحلة، وارتفع الثلج على الأرض كأنه غابة، وكان ذلك يشبه طريق طهران – قزوين إلى حد ما، وفى موضع التقطت لنا صورة مع زوجة رئيس ميناء "برت أرطور"، والاختلاف الذى وقع بسبب الوصول إلى منشوريا هو أن العربة الرسمية التى تم إعدادها لن تذهب إلى الأراضى الصينية، ولاشك أنها كانت أكثر رونقاً، ولكن الفارق الكبير أنه لا يوجد بها عربات أكثر، وقد أسهمت النزهة فى الطريق والصحراء بشكل كبير فى مرور الوقت. العجب فى نسيان النعمة، ولو لم يكن هناك نسيان، ماذا نصنع مع مرارة الزمان؟

وفى يوم الأربعاء الموافق التاسع والعشرين وصلنا إلى قلب "منشوريا" التى يطلق الصينيون عليها اسم "لون شان – شن"، أى المقاطعات الثلاث الشرقية، وتبلغ مساحتها ١٨٠٠٠ فرسخ مربع، أى أنها تعادل ضعفى مساحة اليابان، وبها مناجم للفحم الحجرى، والحديد، والرصاص، والفضة، والذهب، ولها ميناء مثل "برت آرطور"، ويبلغ تعداد سكانها خمسة عشر مليون نسمة (٣٥ كرور)، وهم من أصل صينى، ومنشورى، وكورى، وبعض الطوائف الأخرى.

كانت البوذية هى الدين الغالب على سكانها، والزراعة هى شغل الأهالى الشاغل، ويصنعون هناك مشروباً من الذرة البيضاء، كما يصنعون زيوتاً من علف يقال له "داداو"، وهم يهتمون بزراعة الخشخاش، ولديهم أنواع من التبغ يدخنه كلاً من الرجال والنساء على السواء، و يرغبون أكل البصل والثوم والفلفل بكثرة، ولديهم أنواع خاصة من أخشاب "البلوط" التى تنمو عليها دودة الحرير"القز"، وتتغذى على أوراقها.

وكان من شروط روسيا لإقامة - سكك حديد منشوريا أن يتبع السيادة الصينية بعد مرور ثمانين عاماً (فى ٢٧أغسطس ١٨٩٦م)، على أن تتركه الصين قبل ذلك الوقت، وينتفع بخط آخر للسكك الحديدية، ويصبح من حق الصين السيادة عليه بعد مرور ست وثلاثين سنة، وأن تشترى خط السكك الحديدية، وتضع له حساباً.

وتقرر تشكيل هيئة من أجل حسم الخلافات بحيث يكون رئيسها صينياً، بالإضافة إلى تسعة أشخاص من قبل الشركة، وليس من المعلوم ما سيصنعه الرئيس مع الأغلبية من أجل أن المقامرة فى سبيل المصلحة.

وفى يوم الاثنين الموافق السابع والعشرين من رجب، كان علينا أن نسير فى الطريق ببطء لأن الطريق اليوم غير ممهد بصورة كاملة وهو قريب الشبه من طريق "جاجرود طونلى" بإيران، ولا يقال إن "قروغربيله" ليس بها خط سكك حديدية.

واليوم الذى يوافق الثامن من أكتوبر هو يوم روسيا، وحسب إنذار اليابان فإنه يجب على الروس أن يقوموا بإخلاء منشوريا (يأتى للنظر بأنه شكل مثير للضحك)، وقد لحق بنا شخصان ذوا منصب من الشباب الروسى واللذان قد تخرجا من المدرسة حديثا قد لحقا بنا وهما يذهبان إلى "برت آرطور"، وفى عربة تناول الطعام بحثا عن وساطة للتعرف على قبعتنا، وكان أحدهما يعرف الفرنسية.

وأحياناً تكون لديه أخبار عن الأماكن فيجلبها للأتابك، وكان الخبر المهم هو خبر حرب اليابان، وهم يسعدون عندما يكون الخبر منفياً.

فى يوم الخميس الموافق غرة شعبان وصلنا إلى "هاربين"[1] قرب الظهيرة والتى ينفصل عندها طريق الشرق عن طريق الجنوب، ويقال إن من الأشياء

---

(١) هاربين: أو خاربين إحدى المدن الهامة الواقعة بإقليم منشوريا، وبها تتشعب خطوط السكك الحديدية، بها صناعات متنوعة، يقطنها أكثر من مليون ونصف نسمة، تقع هاربين فى أقصى

القيمة القيام بزيارة لـ "خاباروسك"[1] وهى من الأماكن الجديرة بالمشاهدة، وقد حال التعب دون التحرك والرغبة فى الوصول إلى هدف، وكان الأساس فى هذا أنه ماذا سيكون جديرا بالمشاهدة فى "خابا روسك" لأولئك الأشخاص الذين شاهدوا لندن وباريس؟.

كان هناك جمع كبير أمام محطة القطار، وكانت غرف المحطة مكتظة بأجناس من "بوريات"، وقد أثاروا الضوضاء، وكان هذا يشبه سرادقات البربر عندنا إلى حد كبير، ويتفرق المسافرون ويتوقف القطار طيلة ساعة، وقد التقطت الصور التذكارية، وتم إعطاء وعود لبعض الأشخاص حتى نرسل إليهم نسخة من الصور، فماذا سيصنع عبد الله خان ؟، وفى الواقع كان الوعد بلا مكان، وتعطى وعود كثيرة منها فى الحياة، وفى ذلك يقال على سبيل الاحتياط "إن شاء الله".

جاء الرفقاء العسكريون بخبر سعيد أن الحرب قد توقفت، ونحن نهدف أيضا إلى السفر لليابان، واستمتعنا بوقتنا، على أية حال فإن السلام أفضل من الحرب، كان بالمطعم بائع مسلم يعرف اللغة التركية، تحدث الأتابك معه لبرهة، ثم اشترى منه بعضا من الفستق والخبز.

تذاكرنا حتى "اينكو"، ويصبح السفر من "اينكو" إلى "بكين" بواسطة القطار، ولكن لم نشاهد "برت آرطور"، ولم يقال شىء حسن عن إعداد الطريق، وسمعنا مرة أخرى عن ذلك، ولا يوجد فى "برت أرطور" منزل، قلنا لسائق العربة إننا نريد أن نرسل برقية من هنا ليحجزوا لنا مكانا بالفندق، وكتب كل شخص منا بطاقة بريدية إلى ذويه بمكان البرقية وزمانها، وتم إنجاز هذه المهمة.

شمال شرق الصين وتتبع مقاطعة هيلونجانج Heilongjang بإقليم منشوريا، ويمر بها نهر امور (Amour) الذى يصب فى بحر أوكتسك.

- Oxford Encyclopedic world Atlas, P.P. 113,

(١) خاباروسك: مدينة يطلق عليها أيضا خاباروفسك وليست هناك معلومات متوافرة عنها فى المعاجم الجغرافية.

فى يوم الجمعة الموافق الثانى من شعبان وصلنا إلى "مغدن"[(١)]، الأوضاع هناك شبيهة بأوضاعنا، وتشاهد جنبات الطرق عامرة بالحدائق ومعظمها تتخللها أشجار الصفصاف، وتوجد بها خنازير حمراء باهتة اللون.

تعد "مغدن" من المدن الكبيرة فى منشوريا، وتسمى باللغة الصينية "شينج يانج" وتعدادها ١٨٠ ألف نسمة، و"منشوريا" هى مسقط رأس طائفة "الخواقين"، وموضع لقبورهم فى العهود السابقة، ولها اختصاصات فى هذه الناحية، ويوجد هنا قبر التنين المقدس وهو رمز أسطورى فى معظم أرجاء تلك البقاع، وقد تباحث الأهالى الذين هم فى كدر وتعب حيث جعلت الشركة العنيدة الطريق يمر وسط التنين المعبود، وحتى تبعد الطريق لمسافة فرسخ فرضا، وكان للمرحوم التنين المقدس قد وقامة ما شاء الله يناطح السماء، وقد شوهدت الدواب حاملة الأحمال هنا فى الآونة الأخيرة، وكانوا قد قيدوا الجمال والبغال والجياد والجاموس.

توقفنا فى مغدن لمدة ساعتين، وكانت محطة القطار عبارة عن مكان وضيع، والجنبات مكتظة ومزدحمة، اختلط الحمالون وبائعو العملة والعاطلون فى وقاحة، ولم تكن لدينا فرصة للخروج من العربة، وقد التقط عبد الله خان صورة لشخص صينى كان يبدو رأسه وجسده دون حديث أو إكراه، فذهب الصينى حيث ضبط الكاميرا، وحدث اهتزاز، وأقبل كبحر يحركه القطار مسرعاً وخائفاً، وقال ارجعوا لى وجهى، وجاء شخص يعمل مترجما لتوضيح الأمر، قال: لقد جعلتم وجهى فى هذه العلبة، فطالما وجهى فى العلبة، ولو أموت، فلن أذهب إلى السماء، بالله بحق الأرض، وحق أجدادى، رد لى وجهى لأهدأ، وقد أثر فينا حال ذلك السيئ الحظ والمضحك فى نفس الوقت، ماذا نصنع بالفيلم بعد أن أدخلناه فى الكاميرا ؟، لا يمكن رؤية وجهه من خلال الفيلم، ولن يتوقف عن التردد، فى تلك الأثناء تحرك القطار، وظل

---

(١) مغدن: تعرف قديما باسم Mukden، وحاليا باسم "شين يانج" Shenyang، وهى عاصمة مقاطعة "ليوننج" Liaoning ويمر بها أحد الأنهار.

- Oxford Encyclopedic world Atlas, P.P. 116.

الأسف، سبحان الله أن يقوم شخص من طهران بهدف الزيارة وعمل الخير، ويطوى الطريق لمسافة سبعمائة فرسخ، ويجعل فى "مغدن" رجلا حظه سيئ.

ومن هنا يتأكد مرة أخرى وجود استراحات فى "برت "آرطور"، وفى الليل سوف نصل إلى "اينكو" حيث ينفصل من هناك طريق بكين، أخذنا تذكرة "برت آرطور"، وبقينا على إصرارنا، وكان"دالنى"[1] ميناء تجاريا يبعد عن "برت آرطور" الميناء العسكرى مدة نصف الساعة، وستتغير بواسطة العربات هنا، ولما كان للأتابك عربة خاصة، لم يغيروها، تضايقت زوجة الأميرال[2] (أمير البحر)، وطلبت من الأتابك غرفة خاصة، وقد أعطيت غرفة من العربة للمعزى إليها، ودخلنا "برت آرطور" فى يوم السبت الموافق الثالث من شعبان بعد مرور ساعة من اليوم.

أحضر الأميرال عربة مخصصة لفرد واحد إلى "برت آرطور" نقل فيها زوجته وابنته، لم يعرنا أى اهتمام، ولم يكن لدى أى شخص علم بوصول الأتابك، لم يكن "آلكسيف" حاكم أقصى الشرق فى الميناء، ولم يكن هناك علم بالمكان، ولم تذكر حتى السيدة أو زوجها شيئاً عن المساعدات التى تم تقديمها لها فى إعطاء مكان لها بالعربة، وبدا للخيال أنه سيظهر بعد قليل مكان به استراحات، حملنا حقائب السفر خارج العربة، وهبت رياح عاتية، وكان قد كتب فى واجهة القطار على الباب لفظ "شاى"، قلنا طالما أنه تتوفر خدمات بالفندق فسوف نحتسى الشاى هناك، وقد اشمئزوا من احتساء الشاى بسبب مرور ذبابة قد ضايقتهم.

فى تلك الأثناء علم أنه لا توجد استراحة فى "برت آرطور"، وكان هناك فندق ليست به غرفة خالية، قلنا سنعود إلى "دالنى"، يقال إن أسباب المعيشة هناك أكثر ملائمة لنا، وبعد تردد كثير قال خادم العربة من الأسلم لكم

---

(١) دالنى: تعرف باسم Dalian عبارة عن ميناء يقع فى المدخل الشمالى لخليج تشيلى بالصين.
- Philip's world Atlas, P.P. 27.

(٢) اميرال: كلمة مشتقة من الكلمة الانجليزية Admiral بمعنى قائد.

البقاء داخل نفس العربة، فوافقت الغالبية على هذا الرأى، وحل وقت تناول الطعام.

- **تطوى هذه البطن عديمة الفضل، ليس لديها صبر أن تحمل قط[1] .**

(شعر)

كان الفندق يبعد لمسافة ما، وكانت هناك أيضا صعوبة لذهاب الأتابك سيرا على الأقدام، فأرسلنا إشارة باليد من أجل طلب عربة، فقالوا يجب أن ترتاح الجياد لبرهة من الوقت، ومن الممكن أن يتحقق ذلك فى وقت العصر، وكان لابد من قطع المسافة سيرا على الأقدام، والتحرك بسرعة، وحكى خادم العربة قصصا فى الحب والغرام من هنا وهناك سببت لنا المضايقات، وفى وقت العصر أردنا التجول، وكانت وسيلة التحرك فى الصين واليابان عبارة عن كرسى مستدير يقال له المحفة، ويطلق عليه فى اللغة الصينية "جين ريكتشا" يسحبه الحمالون، ويطلقون عليه اسم "كولى"، لا يختلف عن لفظ "كولى"، لكن الكاف هنا مضمومة، وكان الأتابك يحتاط، وجلست أنا وميرزا أحمد خان، فشعر الأتابك بالاطمئنان، وركب العربة وتدعى "ريكتشا" لمسافة، وتجولنا فى غير استمتاع، وفى لندن توجد عربات تشبه "ريكتشا" تلك تجرها الجياد.

وفى الأحيان التى يريدونها تسير بصورة أسرع، فإن ذلك يستلزم حمالين واحد يجرها من الأمام والآخر يحملها من الخلف، وعشنا النهار فى ملل، والليل فى كسل، وأسعدنا قلبنا فماذا كنا سنصنع إن أصبح المبيت فى العربة لعذر عسير؟ فليست أسباب لوازم الحياة أفضل من عدمها، فى موسكو كنا قد طلبنا من وزير الخارجية أن يوصى علينا، ولا شك أنه قد أوصى، ولا شك أن زوجة حاكم الميناء الذى رآنا قد أخبرته أنها على معرفة بالأتابك أيضاً،

(١) سعدى الشيرازى: كلستان، تصحيح محمد على فروغى، ص ١٣٥.

تذكروا أيها القراء الأعزاء هذه الحالة فى أذهانكم حتى أعرضها فى مكانها.

فى يوم الأحد الموافق الرابع من شهر شعبان، استيقظنا مبكرا فى الصباح، وقد أضئ الأفق من جديد.

- ينثر الفلك الذهبى مرة أخرى، ذرات الذهب على الأرض الجبلية. (شعر)

- قاد بالنهار بسيفه النارى، زنوجا بالليل من اليمين ومن اليسار.

- أصبح الجيش ميدانا فى النهار، واصطف الجيش ليلاً.

يجب النهوض والاصطفاف صفاً واحداً، لم يكن لليل من وظيفة سوى النوم، وعلى افتراض أننا كنا قد نمنا بباريس فى "ليزه بالاس"، ربما لم نكن قد نمنا جيدا، فلم يكن لنا سوى هذا البقاء، لكن ما الذى يجب عمله؟ وتهب رياح عاتية غاية فى البرودة، فيهتز جزء من الفندق الذى نقيم فيه، ويمر الغبار من أمام العين، "يجب الترحال كثيرا حتى يطهى ما هو غير ناضج"[١] .

وسير العوالم هو رؤية الصوفى حتى يتم التعرف على ما يمر به الغريب، بحثت فى الأمر فقيل تأتى الليلة سفينة من "دالنى"، وتغادر إلى "تشيفو"[٢] ولكنها صغيرة وقذرة، غضب الأتابك من الحالة التى كانت عليها فى "برت آرطور"، وكان يريد أن يمر كل شئ بصورة أسرع، وشرح كل من "وثوق حضور"، و"عبد الله خان" الحالة بعد ذهابهما ورؤيتهما لقذارة السفينة، فلم يتأثر، وأرسلنا التذكرة إلى "تشيفو" أحد موانئ الصين والمحاذى لـ "برت

---

(١) الشطرة الأولى لأحد أبيات سعدى، والشطرة الثانية هى: "لا يصفو الصوفى طالما لا يحرك كأساً". سعدى شيرازى: كليات سعدى(غزليات)، باهتمام محمد على فروغى، تهران١٣٢٠هـ.ش ص٣٣٤.

(٢) تشيفو: يطلق عليه فى اللغة الإنجليزية Chifeng، مدينة تقع فى الصين تتبع مقاطعة منشوريا فى شمال غرب الصين عند تقاطع خط طول ٥١١٩ شرقاً ودائرة عرض ٥٤٣ شمالاً تقريباً.
- Oxford Encyclopedic world Atlas, P.P. 116.

آرطور"، فاستلموها، وجاءنا "أليس" أحد رفقاء الطريق بخبر، وأبدا ملله، وقال لقد تردد نبأ إيقاف الحرب.

يعد "برت آرطور" ميناء طبيعى، تحوطه الجبال من ثلاث جهات، له بوغاز عريض يطل على البحر، ويمكن مشاهدة ما يزيد على الألف سفينة ما بين كبيرة وصغيرة فى مراسيها، ونتيجة لعدم وجود جمارك فى "برت آرطور"، فإن هناك غاية فى الرخص، على عكس شيراز "فالسجادة هناك ثمنها مرتفع للغاية"[1]، ولكن لا رؤية للعرب ولا للبن الناقة، البحر به مد وجذر ملموس، الجذر فى وقت الصباح وحتى العصر، والمد فى الظهيرة وآخر الليل، كان النسيم عليلاً وقت العصر، وأخذت الأمطار تهطل، يجب التوجه صوب السفينة التى تدعى "نينجوتا"، وكان خادم العربة هو الشخص الوحيد الذى يبحث عن حل لمشكلتنا، وكنت أطلق عليه اسم "لَله باشى"، وكان مشغولا بتقديم الغداء لضيف، وكان يجب عليه أن يأتى بسرعة أكثر حتى نربط الحبال بالسفينة، لكنه جاء متأخرا، وهطلت الأمطار بصورة أغزر، صار الطقس أكثر برودة، وتهب الرياح العاتية، وكان ظهور رئيس الفراشين "ناتشالنيك"[2] بمثابة فوز كبير، تدفق الحمالون، وكانت كل حقيبة من أمتعتنا فى أيادى الحمالين، وكان من اللازم مراقبة ذلك الوضع عن كثب، وأمسك رئيس الفراشين بإحدى العربات بيده، وركب الأتابك وميرزا أحمد خان، وترجلنا أنا ورئيس الفراشين حيث يوجد بمحاذاة البحر العديد من الصناديق التجارية، واعترضنا بشدة على عوائق كانت تسد طريقنا أثناء السير على الساحل بصورة مزعجة، وعرف أن الماء قليل والسفينة بعيدة، يجب العودة والذهاب من

(١) إشارة إلى هذا البيت لحافظ الشيرازى:
– لا يرفع ما يبيعه من الخمر فى الكأس إلى المكان، ما أجمل سجادة التقوى التى لا تساوى كأساً.
حافظ شيرازى: ديوان حافظ ، تصحيح محمد قزوينى ودكتر قاسم غنى ، تهران ١٣٧٧ هـ.ش ص١٢٩.

(٢) ناتشالنيك: كلمة روسية معناها رئيس الفراشين. مهديقلى هدايت: سفر نامه مكة، ص٣٦.

طريق آخر، وللأسف فإن الطرق إما مستقيمة ويابسة أو لا تهطل بها أمطار على الأقل.

- **هكذا الليل مظلم والطريق مخيف والأمطار منهمرة، فكيف يعرفون حالنا، ونحن نطيب لنا المحافل. (شعر)[1]**
- **كنا نصيح ونسعد ونشكر الحق، على تحملنا مشقة ذلك الطريق بين الوحل والطين.[2]**

لحسن الحظ كان يرافقنا فانوس حقير، وقد طل برأسه فى الأرض، مرروناً بمنطقة موحلة، فى البداية صار المرور كأنه المشى على الحبال خوفا من التزلج، يجب العبور على جسر مخيف مصنوع من لوح خشبى ويصطدم بالمياه ويهتز أثناء العبور، فخارت ركبنا، يجب الذهاب إلى "باركاس"، وتحول الروابط الحديدية دون ذلك، سرنا برفق، وعبرنا من نسيج الأسياخ الحديدية، ماذا كنا نفعل ؟

ماذا نحن من طريق منحرف ؟، جئنا ولو لم يكونوا قد قدموا للسفينة، لأخذنا قراصنة البحر إلى "بيرات"، وتهب ريح عاتية بنفس الصورة، وتهطل الأمطار، الجو معتم بصورة غير عادية، ولم نفهم أنا ورفيقى "ناتشالنيك" لغة بعضنا البعض، وكان الفرج بعد الشدة، حيث كان كاتب "باركاس" يعرف قدرًا من الفرنسية، فقررنا أن يوصلنا فى البداية ثم يعود ويحضر الحقائب.

وفى تلك الرياح والأمطار كان يجب رفع درج السفينة إلى أعلى، أحيانًا يغطس الدرج فى الماء، وأحيانًا يرتفع بقدر بحيث لا تدركه القدم، وفى مرحلة ما رفعنا السلم بالسلامة إلى أعلى لا بصورة قدر قلقنا لاختيار هذه السفينة بحيث يمكن القول إن هذه السفينة ليست لها صلة بعاصفة البحر، إلا

---

(١) هذا البيت من نظم حافظ الشيرازى مع التصرف فى الألفاظ على النحو التالى:
شب تاريك وبيم موج كر وبى جنين هايل　　كجا دانند حال ما سبكباران ساحلها.
حافظ شيرازى: ديوان حافظ، تصحيح محمد قزوينى وآخر، ص١٣.

(٢) هذا البيت من نظم المؤلف.

إذا "جاء نداء يقول: ثق بألطاف الله"[1]، كان "وثوق حضور" يراقب الحقائب، إلى أن وصلت.

عاد رئيس الفراشين، وأهداه الأتابك متلطفاً خاتماً، وذكره بالخير، ومقارنة بالعربة فإن السفينة كانت كقصر "الخورنق"، ولكن إذا كانت العربة تهتز من الريح، فإن السفينة تتراقص فوق موج البحر، لأن الرقص يحول الانقباض إلى انبساط، فقلنا فى الميناء يتم الرقص على الألحان الموسيقية وستتحول السفينة فى البحر إلى مدينة راقصة.

يبلغ سعر التذكرة حتى "تشيفو" أربعة ونصف مناط، وهناك سعران لتناول الطعام على متنها وهما مناطان، ومناط ونصف، ولا شك أننا ملوك، فطلبنا النوع الأول، كما أن جميع رفقاءنا ملوك، ولم يكن من الممكن توفير نصف مناط، وكان على متن السفينة غرفة لتناول الطعام، وكان بها حجرة أخرى، هيئتها حقيرة، بها سريران من الخشب تحت تصرف المسافرين، وجوها أفضل من غرفة تناول الطعام، لا تصلها رائحة الطهى، ولا تزيد المزاج اضطرابًا، ولم يكن على ظهر السفينة غيرنا سوى سيدة إنجليزية كانت تعرف الفرنسية والألمانية والصينية، وكانت تقيم فى الصين لعدة سنوات.

وعلى أية حال كان من الواضح أن السيدة من الجاسوسات المقتدرات، وكانت تحمل بعض الصور عن "برت آرطور"، كما جمعت بعض المعلومات الجغرافية الدقيقة أيضًا، وهى ترى أن عملها الأفضل يتمثل فى كونها جاسوسة مسيحية.

كان يرافقها شخصان ألمانيان عبارة عن رجلاً وامرأة، وعرف من حديثهما أن السفينة يجب أن تتوقف فى "تشيفو" لمدة يومان أو ثلاثة، وينتشر الأجانب الأوربيون فى أنحاء الكرة الأرضية، ويتحدثون بلغاتهم فى كل

---

(١) الشطرة الثانية لبيت حافظ الشيرازى، والشطرة الأولى هى:
- "كنت أقول حديث الشوق للسحر مع الريح".
خواجه حافظ شيرازى: ديوان حافظ شيرازى، تصحيح محمد قزوينى وآخر، ص٣٥٣.

مكان، ويسيطرون على الطرق والآبار، ولديهم قدرة على اكتساب المعلومات، صعدنا إلى سطح السفينة، وتجولنا أثناء خروجها من حوض الماء الكبير العميق، وعرف أنه لم يتم تحميل الحقائب، وبدأ تلاطم الأمواج لعدة ساعات أخرى، وتراقص المكان، وقضيت أوقاتًا عصيبة، وليس المهد حسب مزاج شخص، من السهل تصوره على ظهر السفينة كقوس قزح.

وفى يوم الاثنين الموافق الخامس ألقوا سقاطة الخلف وكانوا يسحبون الهلب حتى توقفت السفينة عن الحركة، فخرجنا من البوغاز متبخترين كبراً ووقاراً، ويغمرنا السرور، وكان الماء ضحلا فى الحوض، فأصبحت السفينة أكثر اهتزازاً على الرغم من ثباتها فى أعماق البحر، رأينا أثناء تناولنا للغداء أنهم يلجمونها بالأحبال، فقلنا: لماذا هذا ؟ أجابوا: من أجل أن تستقر فى موضعها، فتحسبنا الأمر، وخرجت السفينة من البوغاز مشكلة دائرتين تتصلان ببعضهما على هيئة سهم، ولمنع السرقات تبدو المدافع من المخابئ، ومع ملاحظة هذه الأوضاع يزداد إعجابنا باليابانيين إضافة إلى أن اليابان هى المملكة الآسيوية، لكنها لم تتخلف مثلنا، ولحقت بالغرب.

ارتفع عنان الأمواج فى الوقت الذى بعدنا فيه عن البوغاز، وحدث اهتزاز بالسفينة، ولم تبق لأى شخص قدم ثابتة، وحدث نفس الوضع للرجل الألمانى والسيدة الإنجليزية، ويقاوم الأتابك هو الآخر، ماذا أقول عن أحوالنا ؟ وبنفس القدر الذى لم يظهر فيه أساس نفور الرفقاء جلب الاضطراب تصور ثورة السفينة والتى بلغ صداها الطابق العلوى، واشتد التلاطم ليلاً، فلطمت الأمواج السفينة بشدة، وحدث التلاطم بصورة شديدة مرتين حتى أن الأتابك سقط على الأرض من أعلى الأريكة العلوية، ولم تعطه حركة السفينة الفرصة للنهوض، كنت قد جلست واضعًا رأسى على يدى ممسكًا بالسلم، وأحسست فقط بضغط غير عادى، وحاولت بكل وسيلة مساعدة الأتابك على النهوض حتى نهض فعلاً ووقف على قدميه أخيرًا.

وقد علق صندوق فى زاوية بمدخل السفينة المسقوف من أجل إعانة الفقراء، وقد تحركت بعض النقود التى بداخله من جهة إلى أخرى بسبب اهتزازات السفينة الشديدة، حدث هذا مرتين أو ثلاث، وفى الصباح لم يكن أى شئ من الأشياء قد بقى فى مكانه، وكانت بعض الأوانى قد انزلقت رغم تغليفها وانكسرت. وكان قد بلغ ميل السفينة ٣٨ درجة مئوية مرتين أو حسبما أقر مهندس السفينة وقيل وصلت إلى ٤٣ درجة، وعند ٤٥ درجة يكون احتمال العودة والغرق أقوى.

فى تمام الساعة السادسة والنصف من مساء يوم الثلاثاء الموافق السادس، ظهر الفنار أو المصباح البحرى فى "تشيفو"، يقال إنه كان كوكب الإنقاذ الذى يخرج كالرأس فى الأفق، وشعرنا أننا سننزل على الأرض فى وقت قريب، وثبتت أقدامنا، واختار الربان محاذاة الساحل، وقال: ليس من الممكن السير فى هذا الطقس، وبنفس القدر فإن النقود فى ميزان الحركة لا تتحرك تجاه الجانب الآخر، وكان لابد من قضاء الليل على الباخرة حتى بلوغ الفجر.

فى صباح يوم الأربعاء الموافق السابع تحركت السفينة، وشعرنا بسرعتها، وعرف أن الربان قد وضع فى حسبانه المنطقة الأكثر هدوءا، لكنه أعطى البشارة بحيث يمكن الترجل ظهراً، ومقارنة بميناء "أنزلى" يبدو بالميناء مبنى أسهل فى درجاته بسبب الحوض، ورأينا أنه ليس من حقنا لوم الصينيين بحيث يجب أن يصنعوا ميناء آخر فى البحر، ويقوم الأوربيون بإعادة ترميم النواقص بأيديهم ونحن نهملها ونعيد إصلاحها، ولو أننا نخسر كهولتنا فى سبيل هذا، وكان ناصر الدين شاه قد رأى بعيونه الملكية أثناء رحلاته إلى الدول الأوروبية صعوبة الرسو فى "أنزلى"، فقول إن فى أوروبا تنجز الشركات معظم الأعمال طالما قد أخذت أيادينا ألا نقيم شركة، يريد راعى الأغنام قطيعاً من الأنعام، والحارس الذى يكون العدل والعلم عضده هو الذى يملك فى يده عصا غليظة أيضاً.

فى الساعة الثانية والنصف بعد الظهر اقتربت السفينة من اليابس، والتفت القوارب الصينية حول السفينة ليستعد حاملو الحقائب بشكل أسرع لحمل الأحمال، ليمسكوا الحبال ويصبحوا أعلى من جدران السفينة ويحملون على رؤوسهم ولا يسحبون بأياديهم، وأخذ يمسك أحد أفراد السفينة بضفيرة صينية وعقدها، وكان من الواضح أن هذه الحكومة لا تملك ثمانمائة "كرور"، وكانت قوارب الصيد الصغيرة متواجدة بكثرة بصورة غير عادية، وكان حراس الزوارق يرتدون زياً رثا، وصبرنا بناء على نصيحة الربان، ووصلنا إلى "باركاس"، ونزلنا إلى اليابس.

تقع "تشيفو" على شاطئ البحر على هضبة، وتحوط الخضرة ساحل البحر، كما توجد عمارات قليلة متناثرة بين الحدائق، وقد منحت المكان منظراً جميلاً، وتبدو هنا آثار الخريف الجديد، والطقس ألطف، وبعد برودة "برت آرطور"، هناك فرصة للتنفس، وقيل يوجد فى "تشيفو" فندقان، ويعد فندق "بيتش"[١] هو الأفضل، فذهبنا إليه، جاء "آجنت" صاحب السفينة ليقوم بتوصيلنا، والتقينا بالقنصل الروسى "تيدمان"، وأوضحت المقابلة عدم معرفته بقدومنا، واتضح أنه ليس على علم بمجيئنا على متن هذه السفينة، وتعرف بنا قبعتنا فى أى مكان.

وكان رئيس البريد الذى يعرف الألمانية قد عبر عن ترحيبه بنا قائلا: أنا مستعد للقيام بأى مهمة، وتقرر أن يأتى غدا للحديث عن خارطة رحلتنا، ولم أتناول أنا وميرزا أحمد خان الطعام طيلة الأربع والعشرين ساعة الماضية، وعند وصولنا إلى الفندق، طلبنا الخبز والشاى حتى نسترد أنفاسنا، ثم نفكر فيما هو آت، وبعد تناول الخبز والشاى جئنا إلى الشرفة المطلة على البحر، وشاهدنا على امتداد بصرنا سفينتين حربيتين صينيتين تثيران ضوضاء بسبب المد والجذر، فحمدنا الله على سلامتنا، وفى تلك الأثناء جاء الأتابك إلى الشرفة

(١) بيتش: كلمة إنجليزية أصلها Beach معناها الشاطئ.

وهو قرير العين وأمر بإرسال برقية إلى طهران، أرسلت البرقية كما هو متبع مع كارت بوستال من أجل الأصدقاء.

وكان صاحب الفندق أسبانياً، يرتزق يوماً ويبقى بلا عمل يوماً آخر، ويعمل الأسبانى فى "تشيفو" من أجل كسب العيش، ويعرف بعضاً من الفرنسية.

ويتحدث أهالى سواحل الصين لغة خليطة من الإنجليزية والفرنسية، ويقرون نفس الأمر، ويطلقون عليها "بيجن انجليش"(١) ، ويقال ربما دخلت إليه كلمات من اللغات الهولندية والأسبانية أيضاً ، وبسبب الاختلافات الكثيرة بين اللهجات الصينية فإن أهالى الموانئ الشمالية والجنوبية الذين يقدمون لا يتكلمون بتلك اللغة ، ويقال للخادم هنا كما هو مصطلح عليه فى اللغة الإنجليزية "بوى"(٢) .

ويخدم الصينى بصورة طيبة وهو وفى للغاية، ويحمل الكثير من الأوربيين الخادمات الصينيات معهم إلى بلادهم، وفكر الأتابك فى هذا الأمر لبرهة، ثم انصرف. وكان عدم تعودنا على الأحوال فى الصين يجلب التشاؤم، ويبدو بعد التعامل معهم أن أخلاق هذا الشعب وتربيته هى الأفضل بالنسبة لأكثر الشعوب.

- الجسد الآدمى شريف بالروح الآدمية، وليس الثوب الجميل دليل على الإنسانية(٣) .(شعر)

وفى كل صباح تعم "تشيفو" البرودة، ولا توجد رطوبة ، لكن يجب العمل، وفى صباح الثامن من شعبان كان يجب الذهاب لاستبدال العملة بعد تناول الشاى، سألنا عامل الفندق فقال يجب أخذ عملة شنغهاى لأن عملة

---

(١) بيجن انجليش: يقصد بها الكاتب خليطا من اللغة الإنجليزية الممتزجة بالصينية ويقال لها فى الإنجليزية Bejing English.

(٢) بوى: كلمة يقال لها بالإنجليزية Boy أى ولد، ويقصد بها هنا الخادم.

(٣) سعدى شيرازى: كليات سعدى (مواعظ)، تصحيح محمد على فروغى، ص ١٢٢.

"تينسين"[1] الورقية ليست رائجة فى كل مكان، وتختلف العملة الصينية من مدينة لأخرى وليس لذلك أهمية، من المفترض أن ترحل السفينة غداً صوب "تينسين"، ومضينا للحصول على التذاكر، أعطانا رئيس البريد الذى كان رجلاً رحيماً وعداً بالمتابعة، وكان يقوم بمعاونتنا دون ضجر فى كل موانئ الصين كانت توجد منطقة خاصة بالأوربيين حيث يبقى منهم فى مدنهم ، وهى نظيفة للغاية ومنفصلة عن المدينة الصينية.

ذهبنا فى جولة بالمدينة الصينية، وكانت معابرها ضيقة، وقد احتل أصحاب الدكاكين جزء من المعبر، وكتبوا على الأماكن الخالية من الممر الضيق إعلانات وهى عبارة عن قطع من القماش قاموا بتعليقها بطريقة مستقيمة فى الطرق الضيقة تماما مثلما يفعل الصباغون، وكان فى طريقنا بائع للطيور المشوية، يعزف على العود عندما لا يكون لديه زبائن من المشترين، مررنا عليه عدة مرات، وكنا نستفسر منه عن أحواله، ولم يترك عزفه أى أثر فينا، وكان تأثيره بلا نغم، أعطاه الأتابك عدة دولارات.

أردنا مشاهدة الفندق الصينى، حيث دلنا عليه المترجم الذى يدعى "هون" وقد استأجرناه للعمل معنا، ورأينا القنصل الروسى على قارعة الطريق، وقد قادنا أحد الخدام إلى الفندق قائلاً: هذا أنظف فندق هنا، وهو مزدحم بدرجة ما، وكانت الجدران والأرضيات فى الصين مطلية باللون الرمادى، وطوبهم بنفس اللون، وقيل إنه فى أثناء القيام بالطهى ينثرون الماء فيصير لونه أسود، وكان المطبخ فى مدخل الفندق، وللدخول كان يجب المرور بفناء صغير ثم يتم الصعود إلى أعلى عن طريق الدرج الضيق حيث كانت الغرفة فى مواجهة إحدى الحارات.

---

(١) تينسين أو تنجين: أحد الموانئ الواقعة جنوب شرق بكين أو بيجين، يطل على ساحل بيخو، ويقطنه ما يقرب من خمس ملايين نسمة، يعد مركز للصناعات الكبيرة والمعادن والكيماويات والأنسجة والأغذية، ويعد هذا الاسم قديماً، أما اسمه الحالى تين جين، يحده من الشمال تانج شان.
دهخدا: لغت نامه، جلد ١٥ ص ١٢٤١.

والبهارات المستخدمة فى أطعمتهم عبارة عن زنجبيل مضروب بالملح، وبذور البطيخ عديمة الرائحة، والزعفران المصحون، والخل الأسود، والأرز المطهى بالماء، تجولنا لفترة وتعجبنا، وفى تلك الأثناء جاء بضعة أشخاص من أجل تعاطى الأفيون، فغادرنا المجلس.

تم قضاء الليل فى مشاهدة إحدى المسرحيات، وكان الفراش يسير أمامنا حاملا فانوسا مستدير مثل فوانيسنا، وكان يتقدم الظلام أمامنا، كما كان "هون" يحمل الفانوس هو الآخر، وضمناً هو أيضاً المترجم، وكان معظم الحديث الغالب على المجلس بنعم أو لا، وورد إلى خاطرى شعر يتعلق بكلمة فانوس تحديداً فى القول:

- يا أساس الكبر ومنبع الغرور، فانوسك الصغير من أحسن الفوانيس. (شعر)

تعد ساحة المسرح مربعة، لكنها مستطيلة فى ناحية مكان العرض والتمثيل، ويقال لها فى الاصطلاح مكان العرض وثلاث جهات أخرى للإيوان للأسفل وللأمام يعرف بـ "اللوج" وتوجد كراسى بالصالة أيضاً، وتم حجز منضدة ومقاعد لنا فى الإيوان المواجه للمسرح، وبمجرد أن جلسنا جاء شاب ووضع على المائدة وعاء من بذور البطيخ التى ليست لها رائحة، ثم أحضر عدة كئوس من مشروب حمضى ووضع فى كل فنجان قدراً من الشاى الجاف وصب فوقه ماء مغلياً من إناء فضى ثم غطى الفناجين بالأطباق وذهب، وعلم أن تقديم البذور مع الشاى يعد أمراً ضرورياً.

وليس من عاداتهم وضع قوالب السكر مع الشاى، ولو حدث تقاعس منا فى تكسير البذور، كان المترجم "هون" يسحبها كلها عنوة، وكان يعامل كل الزبائن بنفس المعاملة إلا أنهم كانوا يحضرون الماء المغلى من أجل ملوك الصين، وكانوا يبللون فيه قطعة قماش ثم يعصرونها، وكان الملوك يمسحون رؤوسهم ووجوههم بها، وتصورنا أنه من أجل تأثير الأفيون كان يغدو جمع من الناس إلى الساحة ويروحون، وكانوا يتفوهون بأشياء لم نفهمها وكأنهم

يدعون، ولم يكن هناك اهتمام بما يقصده الصينيون، وكان هناك كمان من وتر واحد وكان لحنه ونغماته فى آذاننا أشبه بصوت وصياح رفيع عال، ولو شبه بشىء فهو أشبه بصوت الثعلب فى علوه وانخفاضه.

وكان الشىء الذى جلب انتباهنا هو تغيير الملابس لحظة بلحظة، ويؤدى حضورا وغيابا، ولم نفهم شيئا من المسرحية، وقمنا فقط بمشاهدتها، وكان يبدو أنهم جميعا من الرجال، وكانت توجد غرفة فى ركن، وكانت تجلس بداخلها مجموعة من النسوة، ولم يكن حتى ذلك الوقت مألوفا اختلاط الرجال بالنساء، وتشاهد أحياناً صورة المرأة الصينية وهى تضع على وجهها كمية من مساحيق الزينة الحمراء ونظيرتها البيضاء، وكن يستخدمن تلك المساحيق بصورة تفوق الحد المعقول.

كان الأوربيون يعرفون الألحان الصينية معرفة جيدة، وكانوا على دراية تامة بها، سمعنا الألحان من بدايتها حتى نهايتها، ولم نفهم شيئا منها ، وحسب ما فهمناه من ترجمة "هون" كانت قصة المسرحية عبارة عن نصيحة "ماندارين" إلى جماعة من الطغاة يبغون فى الظلم والجفاء والقتل والسلب وعدم الإصغاء إليهم، وصل اليوم رد برقية الأمس، حيث مضت ست ساعات فى الطريق ومن المفترض أن تصل البرقية من طهران إلى الصين ثم أوروبا، ومنها إلى الولايات المتحدة الأمريكية فآسيا حيث تطوى أقاصى الأرض على الأقل فى خمسة آلاف فرسخ، ويقوم موظف مكتب التليغراف بتوصيلها، وقد ذكرت من قبل أنه عند وصولى من أنزلى إلى طهران وصلت بنفسى قبل وصول البرقية، انظر لاختلاف الطريق من مكان لمكان وأن مكتب تليغرافنا من أكثر الإدارات تنظيماً عندنا.

وفى صباح يوم الجمعة الموافق التاسع قمنا بجولة فى أرجاء المدينة، ومضى وقت العصر فى لعب البلياردو، وعندها تذكرت الدكتور الشيخ "محمد خان" خال الأتابك وكان يضيف فى المواضع الضرورية أعدادا مثل ١٦

و١٨ و٢٠ و٢٥، وبعد البلياردو قمت بعمل عدة مكالمات تليفونية واتصالات خاصة بالأتابك، وكتبت درسًا لميرزا أحمد خان.

وفى يوم السبت الموافق العاشر تحركت السفينة صوب "تين سين" ميناء بكين، كانت السفينة إنجليزية الجنسية ويطلق عليها اسم صينى هو "شين كين"، وفى أثناء قيامنا بجمع المعلومات، أحضروا بطاقة لشخص يابانى كان قد طلب الالتقاء بالأتابك، أخبرت الأتابك بذلك، فأجاب: انظر ماذا يقول ؟ يبدو أنه صحفياً، ولم أجالس منذ فترة رجلاً أصلع، وسألنى لفترة أسئلة ذكية، وكان يتحدث بلغة إنجليزية ضعيفة، وكنت أفهمه أيضاً بصعوبة، هدفه أن يسألنا: ماذا رأيتم من اختلافات الروس فى منشوريا؟ قلت: لم أكن بصدد بحث هذا الموضوع، ولم تبد هناك إصلاحات عسكرية يعلمها كل شخص، فأصر بشدة، ورأيت أنه طالما لا أقول شيئاً فلن يدرك شيئاً، فقلت يجب أن يكون لديهم مائة ألف شخص، وأنتم مع فاصل البحر كيف تريدون خوض حرب مع الروس ؟ قال: لدينا معلومات كافية أن الروس ليس لديهم أكثر من أربعين ألف جندى فى تلك المناطق، ولا يمكنهم الإتيان بالمزيد بصورة سريعة، ومعداتهم محدودة، وحتمًا ستنتصر اليابان فى النهاية.

نحن اليابانيون لدينا رغبة صادقة وحثيثة لخوض غمار الحرب، لكن الروس يماطلون، وحان وقت تناول الطعام، ولم استحسن حديثًا كهذا، ولا فى أى جزء منه، حيث اضطرنى الرجل أن أضع يدى على رأسى، وطاف بخاطرى سؤال: ألم يكن يدعو ألا تقوم الحرب رغبة منه فى الحرب ؟، وهذا نوع من التناقض نفسه، وفى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر جاء رئيس مكتب البريد، ثم وصل القنصل الروسى فى تمام الرابعة بقارب خاص، وذهبنا أنا والأتابك وميرزا أحمد خان ورئيس مكتب البريد فى زورق إلى السفينة.

وجاء الرفقاء بمركب صغير بموتور، وأحضروا الحقائب، وعلى أية حال كانت السفينة فى "برت آرطور" ممتلئة ونظيفة أيضاً، وبمرور الوقت كان

كل ما بدا من الريان جميلاً، البحر ترتفع أمواجه بصورة لطيفة، وتغدو الزوارق وتروح يحضرون الحقائب ويحملونها فى تفقد، ودعوا الرفقاء، وانطلقت آخر صفارة إنذار، وتحركنا فى تمام الساعة الخامسة، وكانت تشاهد مصابيح الميناء والسفن الحربية "بلونها الأبيض" لفترة وهو رمز السلام كان الطقس مغيماً ، ويتساقط رزاز المطر، وبدت نتوء قطعة أرض صغيرة، واختفت "تشيفو" عن الأنظار، وفى منتصف الليل تقريباً صار الطقس صافياً والقمر منيراً، كما بدت صورة القمر على صفحة الأمواج كأنها نهر من فضة متدحرجة، وكلما ابتعد المكان بدا منظر رائق فى فناء أخضر.

كانت لى مناظرة مع القمر حيث قلت له عما قريب ستظهر واضحاً فى طهران، وما عليك إلا أن توصل سلامنا إلى الأصدقاء، نظرت فى الساعة، فكانت منتصف الليل، فتصورت طهران فى الليل، أى علم لنا أن فى طهران يوجد شخص ينتبه إلينا ويرافق فكرى ولكن ما الفائدة ؟ وقد خطفنى النوم وسط هذا الفكر.

وفى يوم الأحد وصلنا إلى بوغاز "بيخو"[١] وانغمسنا فى الطين، وأصبح الوحل عائقًا للحركة، وأقام سداً، فامتلأ البوغاز بالطين والرواسب القابعة فى الأنهار الكبيرة، والتحقنا بالسفينة الأخرى التى كانت قد قبعت فى الطين منذ ثلاثة أيام مضت، وكان من أفضل الأعمال التى يجب القيام بها تناول وجبة طعام، وكان قد جاء إلى البوغاز مندوب شركة "استيم لنج"، لنقل المسافرين إلى الشاطئ وكان من الواجب السير طيلة ساعة ونصف فى البوغاز ثم نصف ساعة أخرى فى مجرى النهر.

كانت "تاكو" مكاناً صغيراً يعمل معظم سكانها فى الصيد وأعمال الملاحة البحرية، ويمتد الخط الحديدى إلى "اسكله"، وكانت لدينا برهة من

(١) بيخو: يقال لها بى هو Bo Hai، تعرف بالشط الأبيض، اسم شط فى الصين، يمر من أنهار بى بينج، وتين سين، ويصب فى خليج Chihli "تشه لى"، ويبلغ طوله حوالى ٤٥٠ كيلو متر.
محمد معين: فرهنك فارسى، جلد بنجم، ص٣٦٦.

الوقت تصل لعشرين دقيقة، ولا ندرى بأى لغة نتحدث، ماذا نفعل ؟ ولم يعرف المهندس المرافق حيلة إلا صنعها، اشترينا تذكرة، وتم إعطاء كل شخص تذكرته فى يده تحسباً لتأخر وصول الحقائب، ركبوا هم، وبقيت أنا من أجل تجميع الحقائب، وصلت الحقائب وركبنا جميعاً، وكان مدير الطرق صينياً، ورجلاً مؤدباً وعطوفاً بصورة غير عادية، وسأل عن عدد الحقائب، وقال اذهبوا وستصل، ووصلت بالفعل.

لم يكن هناك مجال للانقباض، وبعد مرور حوالى الساعة والعشر دقائق، وصلنا إلى "تين سين" حيث كان مندوب من الفنادق فى المحطة فى انتظارنا، وكانوا قد حددوا لنا فندق "ايستر"[1] فى المستعمرة الإنجليزية لنقيم فيه، وكان يطل على حديقة ساحل فيكتوريا، وهو من أفضل الفنادق، وقام المندوب بجمع الحقائب، وأرشدنا إلى الفندق.

وبعد عدة دقائق جاء مسيو "لابطو" القنصل الروسى إلى الفندق، وعلم إنه كان قد ذهب إلى محطة القطار، ثم أتى من المحطة وعبر عن سعادته الغامرة، ودعانا لتناول وجبة الغذاء، وشغلنا فى النظافة، وغيرنا ملابسنا، وفى الساعة الثامنة مساء أرسل عربة، وذهبنا إلى القنصلية، وبعد تناول الطعام، مضى وقت فى الحديث عن أحوال الصين ووجهة نظر الأوروبيين، وقد تضمن خطاب الخاقان الحديث عن الطغاة الخونة من اليابانيين، ومر بخاطرى شرح العريضة التى كان يذكرها "سعد الدولة" أحيانا على سبيل المزاح، وقد وضع عريضة مؤلمة للعرش الخاقانى أولئك الطغاة الذين شقوا عصا الطاعة، ووطأت أقدامهم بحر الصين، ولا شك أن هذه العريضة كانت تعود إلى الحروب السابقة، والعالم الغافل يرويها على سبيل الفكاهة.

ولو أن الصينى على دراية بأوضاع العالم، وطور نفسه بصورة ملائمة مع الزمان رغم أن تعداد سكانهم يصل إلى ثمانمائة "كرور"، لكان نفس الحق

(١) ايستر: معناها فى اللغة الإنجليزية easter المشرق.

مع الإمبراطور "ويلهلم الثانى"[١] الذى أظهر إعلان البلاء الأصفر، وكان قنصل حكومته يلومه على سلوكه السياسى، وكان يقول: "هؤلاء القوم يستعملون أيديهم فى كل وقت، حكايتهم وحكايتنا حكاية الريح والبعوضة، والسيل والتنين، يريدون أن يلقوا بنا جميعا فى خليج "بيتشيلى"[٢] ، وانقضى المجلس بتلك الكلمات.

واليوم موضوع قصة المائة شخص الذى جعلهم ثلاثة عرايا، ولم يلم أحداً، قالوا: كان يرافقنا ثلاثة أشخاص ونحن مائة فقط" حقاً يمكن أسرهم بالاتفاق مع الدنيا"[٣] بحسن المعاش وملاحة القماش، وحاولوا العمل بعيداً عن الميدان، غافلون عن أن فى أقصى الغرب يوجد قوم سوف يغيرون على رؤوسهم فى اليد إنجيل، وفى اليد الأخرى آلات الحرب، عطش التجارة مع خنجر الجسارة، هنا كلمة وهى أن هذا العمل له أسبابه.

أوربا لها السبق فى العلم والصناعة، حيث أحكمت قبضتها اليوم على العلم والصناعة، لقد تقدمت أوربا، ومع الأسباب التى تمتلكها فإن لها السبق غدًا نتيجة للاختراعات الحديثة التى يبحثون عنها، ولا يتركون للآخرين فراغ البال للحصول على فرص العمل، فى كل لعبة من ألاعيبهم يقومون بشغل الأمم ثم يحملون منقولاتها، بعد أن يكون قد طوى البر والبحر بالنهار، لم يمض الليل فى كل مكان، ولا يترك العين طليقة فى كل فراش، يرى سبعة ملوك فى المنام، وا آسفاة أننا لا نرى فى المنام ما نتمناه، وقد نظمت متآسيًا بناصر خسرو:

---

(١) ويلهلم الثانى: إمبراطور ألمانيا، كان رجلاً مغروراً وطالباً للجاه، نشأ بينه وبين بسمارك خلاف كان نتيجته أن نحاه ويلهلم عن منصبه فى عام ١٨٩٠م، ثم اختلف مع بريطانيا وانحاز إلى فرنسا، ثار عليه الشعب عام ١٩١٨م ثم هرب إلى هولندا واستقال بعد ذلك بفترة.
دهخدا: لغت نامه، جلد٤٢ ص٤.

(٢) خليج بيتشيلى: يطلق عليه فى اللغة الإنجليزية Chihli، ويعرف أيضا باسم خليج سدإ شإ بوهاى، وتطل عليه موانئ مثل مغدن، وتين تسين، ومياه الخليج من البحر الأصفر.
- Atlas of world History, P.P. ١٢٨, London ١٩٩٢.

(٣) الشطرة الثانية لبيت حافظ الشيرازى والشطرة الأولى هى: "لقد اتفق حسنك مع ملاحة الدنيا".
حافظ شيرازى: ديوان حافظ شيرازى، تصحيح محمد قزوينى وآخر، ص ٨٠.

- **خلقت الدنيا ممتلئة بالنعم، وخلقتك من أجل المشاهدة.[1] (شعر)**

فى يوم الاثنين الموافق الثانى عشر حدثت ضوضاء فى الصباح أمام الفندق، نظرنا فوجدنا فرقة من الجيش الألمانى كانت تمر، وعلم أن أحد رتبهم العسكرية كان فى طريق عودته إلى الوطن، فانتشروا حوله، وكان مشهدًا يدعو للأسف.

يعيش الأوربيون فى "تين سين" هادئو البال لديهم الفرص للاستمتاع بأنفسهم وغالبا ما يقضون أوقاتهم فى ممارسة الألعاب الرياضية، والقنصل الروسى مغرم بالخيل وسباق الخيل، وكان برفقته جماعة، وفى نفس الليلة الماضية دعى الأتابك، واليوم هو الأول فى السباق، شاهدنا جياد من سلالات "منشوريا" وهى سلالات ليس لها أى ميزة من وجهة نظرنا، كانوا يمتدحون صدورها وأعناقها الطويلة وذيولها وآذانها وحوافرها، راهنوا عليها بشروط، وذات مرة وفى إحدى السنين كان "فتحعلى شاه"مشتركاً فى سباق للحمير بحديقة القصر، وهنا تتسابق جياد تعرف باسم "تاتو"[2] .

انتظر القنصل ست مرات حيث حصل حصانه على المركز الأول، وكنا نشجعهم، وبعد إتمام سباق الخيل ذهبنا فى جولة بالحى الروسى بناء على دعوة من القنصل الروسى ، واختصت دول أخرى مثل بريطانيا وفرنسا بحق الامتياز منذ العهود القديمة وقاموا بتشييد مناطق نفوذ لهم على أطراف المدينة الصينية، وتحيط المصابيح الكهربية بالحى الفرنسى، وقد شيدت ألمانيا وأمريكا واليابان أحياء تتصل بالمدينة الصينية على طرازها الخاص بعيدا عن أعين الصينيين، واستولى الروس الذين أصبحوا ذا شأن على منطقة جديدة، وكانوا قد انشغلوا بتشييدها، كما شيدوا حديقة من أجل القنصلية، ووضعوا نصب تذكارى للقتلى فى طريق الاعتداء على الحدود وحقوق

(١) ناصر خسرو: ديوان اشعار ناصر خسرو، به كوشش مهدى سهيلى، ص ٣٥٤.

(٢) تاتو: نوع من الجياد قصير القامة، ذا شعر طويل على جسده، وعنقه وذيله، يشاهد كثيرا فى بلاد البلقان خاصة فى رومانيا، ويعرف بالحصان التتارى، وعند العرب باسم "تتو".
دهخدا: لغت نامه، جلد ١٤ ص ٤٨.

الصينيين أطلقوا عليه اسم "الجندى المجهول"، تناولنا طعام العشاء فى ضيافة القنصل، واعتذرنا عن الغداء، وكانت قد وصلت برقية للاستفسار عن أحوال مشير الدولة"، وتم إرسال الرد عليها.

يبلغ تعداد السكان فى المدينة الصينية حوالى سبعمائة ألف نسمة، وتعيش معابر المدينة دائماً فى حالة من الضجيج والصخب الناتج عن الجمال والأبقار والحمير والعربات المصنوعة من الأخشاب حيث تصدر أصواتاً مكروهة فى سيرها، ولم يكن هذا بجديد علينا، حيث كان موضوعاً مؤلماً للرحالة الغربيين، وذات صباح خرجنا فى جولة بالمدينة الصينية، وكانت المحلات التجارية الكبيرة مشيدة داخل أبنية، وكانوا يتعاملون بها، واشترى الأتابك قطعة قماش قيمة للغاية من أحد المحلات التجارية، وتم تناول الشاى.

وفى اليوم الموافق الرابع عشر ذهبنا إلى قصر "يوئن شيكاى" لمقابلة نائب السلطنة فى "بيتشيلى" برفقة القنصل حيث بدت هناك علامات واضحة للإطار العلمى الأصيل، وكان يرافقنا مترجم الفندق الذى كان يعرفنا على تلك الحدود، وكان مطلعاً بدوره على ذلك إلى حد بعيد، وقطعنا الطريق فى ممرات سقفها مغطى وهى شبيهة بمنازلنا تقريباً، والقصر به حديقة كبيرة، وبدا الطراز الأوربى واضحاً وقد انتقل بدوره إلى الأبنية الصينية، وفى الجزء الصينى شوهد مدخل ومخرج مثل بيوتنا، وقد اختار نائب السلطنة ست زوجات، وفى مداخل القصر توجد طبول وأجراس من أجل التنبيه، وأحياناً يكون حجمها كبيراً بلا حدود، وعلى مقربة من كل باب يوجد جنديان للحراسة.

كان رئيس الحرس مختصًا باستقبال الأتابك فى الغرفة التى كان بها أثاث على الطراز الأوربى، وهذه الغرفة أو الشكنة كما هو مصطلح عليه بها أثاث، وكانت خاصة بعلاج مدمنى الأفيون، وبها غرف نوم للملك أيضاً، وكانوا قد افترشوها بسريرين كل واحد له يدين على طرازنا وبه أريكة ولحاف ومتكأ أو مسند، وكانت هناك مسافة بين السريرين بنفس القدر.

"ضع الرأس فى نفس المكان فقد احتسيت الخمر"[(١)] ، وللأبواب أحياناً ثلاث فتحات، فتحة كبيرة فى الوسط من أجل عبور العظماء، وبوابتان صغيرتان لعبورنا نحن الفقراء، وللأشخاص العظماء هياكل مخيفة حيث يمرون أمام البيوت، وربما قد تسبب هذا الطراز فى شكل الشيطان الذى يعلو أبواب حماماتنا فى رسم صورة "رستم" ولم تكن سيئة.

قام "ليهونج تشانج" الوالى الأسبق لـ "بيتشيلى" بعمل خدمات لائقة فى عصره، من ضمنها تأسيس شركة للسفن البحرية، وينتقل والى "بيتشيلى" فى الشتاء إلى "باتينج"، وكان حريم المنزل قد انتقلن إلى ذلك المكان أيضاً.

وكان للأوربيين وقفة من أجل التخفيف من أحوال الآسيويين فى كل مكان وغير ذلك، من ذلك إصدار الأوامر بفتح درب الوسط للقنصليات التى تصل درجاتها تحت المستوى، ولو يذهب أمير فى وقت ما إلى الصين، يجب أن يفتح له الباب، وليس فى الدنيا أبواب مغلقة إطلاقاً أمام أوربا، وهم ينفذون من كل شق مهما بلغ صغره، فى برلين توجد بوابة "براند نبورج" التى لها خمس فتحات، فتحة فى الوسط خاصة بالإمبراطور، واثنتان للراكبين واثنتان للمترجلين.

فى يوم الخميس الموافق الخامس عشر نزلنا ضيوفاً على القنصل لتناول الأغذية الصينية، ولحسن الحظ أنهم أعدوا أطعمة أخرى وما أجمل ما صنعوه، وأغلب الأطعمة هناك من الأسماك الصينية، والأرز، ولحم الخنزير، وأنواع الطيور، وكل أنواع الخضروات، وبعض الأنواع البحرية الأخرى، وهم لا يأكلون لحوم الأبقار والأغنام، وزيوتهم نباتية، ويقال إنهم يأكلون كل ذى روح حتى بعض الديدان، ويحرم البوذيون على أنفسهم اللحوم وخاصة لحوم الأبقار، ولا يستحسنون أن يفتح هذا الحيوان الأخرس فمه لخدمة الحيوان المتكلم.

---

(١) الشطرة الثانية لبيت جلال الدين الرومى، والشطرة الأولى هى: "اصغ لألفاظ الحكيم فقد قطعت" جلال الدين محمد بلخى: مثنوى معنوى، تحقيق عزيز الله كاسب، ص ١٤٩.

وقد وضع القنصل على المائدة نماذج من أطعمة الأعيان والأشراف والخاصة بهم، ومن ضمن الأطعمة أسماك تعرف بـ "ريش ماهى" و"أشيان سلنجان"، وكلاهما كان من النوع الأبيض عديم الرائحة واللون، و"السلنجان" عبارة عن طائر يشبه الخطاف الصغير مدنى الطبع واجتماعى وبأعشاشه نوع من الصمغ يلصق باليد، ويملأ أجزاء العش بذلك الصمغ بحيث يبدو وكأن به أفرع بيضاء اللون، وكان يزحم العش بأسماك "ريش ماهى" الناعمة الملمس، وقد ابتلعنا قدر منها من أجل خاطر المضيف، والنوع الثالث من تلك الأطعمة الحجرية والملكية هو بيض الدجاج الفاسد، نعوذ بالله من القشرة التى أزالوها من عليه، ومن شدة العفن كدنا نتثبت فى أماكننا، وعرف أنهم يقومون بحفظ ورعاية البيض تحت الأرض لمدة سبع عشرة سنة بنظام معين، ويتركوه ما يقرب من الأربعين سنة من أجل الملكة، رجوناه أن يترك القشر على البيض دون تقشيره، كان بياضه قد أسود لونه، وصفاره أصبح بلون النحاس.

ولحسن الحظ أنه قد انقضى الأمر، وفتح باب الغرفة، ولم نتفحص سرطان البحر، والضفدعة المائية، فهم يأكلونها فى أوروبا أيضًا، ويقومون بطهيها مع الأرز وقليل من السكر. ومن آداب الضيافة الصينية أن يضع صاحب البيت يده خلف رأسه، بينما قد جمع بعض الأصابع.

ويجب على الضيف ألا يتأمل بعض الأصابع مفتوحة، وإلا يجبر بتكليف من صاحب البيت أن يأكل ما يقدمه له، ولو يفيض من حلقه، ومكان الشكر ألا يصبح هذا التقليد فى شأننا.

ويشرف الفندق على حديقة المدينة، وفى الجهة المقابلة توجد عمارة تعرف باسم "جردون – هال" وهى خاصة بالجلسات الرسمية بالمكان وبعض الضيوف، وفى أحد أركان الحديقة المذكورة وعلى مقربة من الفندق جرس معلق كان تحت سيطرة الإنجليز، ويقوم بالحراسة اثنا عشر شخصاً يستطيعون التوارى تحت الجرس وقت المطر وقد التقطت صورة هناك.

ولصناعة الأجراس فى الصين رونق خاص وتوجد بجوار البوابات فى كل مكان طبلة وجرس يدق عليها بدلاً من النقر على الباب.

والحال أنه يتحتم علينا أن نكون فى بكين، وقد حالت جاذبية محبتنا لضيافة "لابطو" دون الإسراع فى التحرك، وفى يوم الجمعة جاء دور سباق الخيول، فأرسل تذكرة للأتابك، وذهبنا وكانوا قد سجلوا اسم الأتابك ضمن أعضاء النادى، وفى أحد الشهور حدث أن كان هناك سباق رسمى للخيول لمدة أسبوع وكان يجب أن سداد دولاران كل أسبوع، اليوم فى الصباح المبكر عبرت مجموعة "اولان" الفرسان الألمان من أمام الفندق، وكانوا ذاهبين لاصطحاب صاحب المنصب الجديد، وفى الجولة الأولى لهذا السباق لم يرفع حصان القنصل الراية، واضطر لرفعها فى الجولة الثالثة، ومن أجل الأشخاص الذين ليس لديهم رغبة فى سباق الخيل توجد هذه المجالس المجلبة للملل وعلى خلاف هذه المرة دخلت فتاة روسية جميلة، وبدا المحفل على درجة عالية من الحسن، قلت بلا اختيار:

- حسناوات الصين لو ينظرن إلى طلعتهن البهية، كأنهن قد نقشن صورهن فى متحف تماثيل الصين. (شعر)
- هن كالسرو فى القامة ووجوهن كالبدر، وليس فى البدر موضع لى للبحث عن الملح.
- هذا وجه القمر أم وجه إنسان، وكلما أمعن النظر إليه أزداد وقوعاً فى الشك.[1]

وقد جاءت أمها من أجل الهيمنة على الأملاك، وما أشاهده أنها مالكة لقلوب الناظرين وحد الحسن والجمال نفسه، فهى موضع اهتمام أهل الذوق

(١) مهديقلى هدايت: سفر نامه مكه، ص٥٣.

وجديرة بكل تملق، وقد أتت لتفقد الخيول الخطائية، وحتى أمحو كل تلك الصورة لفتاة الختن وشحمة الأذن البلورية، تذكرت سعدى:

- **يا من صيد قلوب العشاق فى شركك، أنا مشغول بك وأنت مشغول بعمرو وزيد.**[1]

وقد أعطى النسوة العجائز مزهريات من الفضة إلى الفاتحين، ولا شك أهار كانت رغبة الجميع وأن يسلبن القلوب من يد فاتح الدولة، وللأسف انعقد المجلس، جئنا إلى الفندق، واستراح كل الأعضاء ولعل القلب قد استقر بنفس المكان، ومر وقت العصر فى تسوية الحسابات والحصول على التذاكر، وفى الليل تجمعت العربات فى جنبات الفندق، وسلكت طريقى فى إيوان الفندق، وكنت أفكر كيف يجب أن يقضى الوقت، كان أحد سائقى العربات يعرف أكثر من غيره، يحاول إفهامنا بالإيماء.

أنه يمكن أن يجول بنا، فعرضت الأمر على الأتابك، فقال، طالما أن سائق العربة معروف من قبل الفندق فلا ضرر من ذلك، فذهبنا، فاصطحبونا إلى مكان أو اثنين فى المحلات الأوربية، ولم يكن هناك جديد، وغادرناهما ثم اصطحبونا إلى المنطقة اليابانية، طرقوا الباب، وتركونا لدى صاحب البيت وكان رجلاً يابانياً طلعته سوداء وشعره أبيض، وكان الفناء وجنبات العمارة يشبهان إلى حد كبير أفنية طهران، بحيث تخيلنا أننا نعرفه، وبجوار الفناء كانت هناك قاعة حيث نادى المدير فدخلت عدة مطربات من الباب "لم يدخل شخص بهذا الحسن من الباب"[2]، أتين بملابسهن المتعددة الألوان وفى أيديهن أدوات موسيقية والربابة الخاصة بهن، وعزفن ألحاناً خاصة بهن يقال لها "سامسون"، وكان فرش الغرف من الحصير، ويتركون لكل واحد أريكة،

(١) سعدى شيرازى: كلستان، تصحيح محمد على فروغى، ص١٥٩.
(٢) الشطرة الأولى من غزلية لسعدى الشيرازى، والشطرة الثانية ترجمتها: "ولم تنجب أم أخرى ابن مثلك".
المرجع السابق، ص١٥٩.

فجلسنا وجلسن، ومضى وقت كى يرتبن أوتارهن الموسيقية، وجاء دور العزف، فأحضروا إليهن مشروب "الساكة" والخضروات، فأكلهن وشربن، فاستعدن وقمن بالعزف والرقص، والرقص اليابانى يشبه الرقص الأسبانى مع الفارق ففى الرقص الأسبانى تشكل المرأة مع الرجل طرفان، وفى الرقص اليابانى يتلامسان ويقلدان حركة الفراشة فى العشق. نغماتهن فى اللحن أكثر تأثيراً من الآلة الموسيقية ذاتها بحيث تبدو مستحسنة أيضاً فى آذاننا، وأحياناً يقمن بتغيير أزياءهن أيضاً ويمزجن الألوان ببعضها، وكان المجلس ساخناً، وقضينا ساعة شيقة، حدث ضجيج وشعرنا بالنفور، نظرنا إلى الساعة، وكانت قد مرت حامية بعد منتصف الليل، فتذكرت شعر سعدى:

- **راح الجميع للنوم ومضى منتصف الليل، وعينى والفراشة كلتا هما لم تنم. (شعر)[1]**

وكانت أجرة كل واحد من "الخواتين" دولار، وأعطينا عدة دولارات ثمن المشاهدة، ذهبنا إلى الفندق، وكنا فى حالة انبساط كامل وهناء مفرح، وكان أكثر شيء قد جذب أنظارنا بساطة اليابانيين والأسر دون رياء، ومن الممكن للقراء المتأخرين أن يختاروا تصورهم للمجلس. وعندما كنت قد أعطيت النسخة[٢] إلى المرحوم عميد الدولة تاج الدين ميرزا، كتب فى الحاشية: لا يحتاج الذوق السليم إلى معذرة خصوصاً من أجل الشخص الحكيم.

وفى يوم السبت الموافق السابع عشر يجب التحرك الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة عشر بعد الظهر إلى بكين، وقمنا بسداد حسابات الفندق والبقشيش وقد اشترينا تذاكر، وكتبنا رساله إلى القنصل عبرنا فيها عن شكرنا لحسن الاستقبال، وأرسلت معها قطعة سجاد صغيرة وكان ملك

---

(١) سعدى شيرازى: كليات سعدى (غزليات) باهتمام محمد على فروغى، ص١١٨.
(٢) يقصد نسخة سفر نامه المكتوبة بخط اليد.

كوريا قد أهدى القنصل الروسى الأسبق قطعة قماش على هيئة ستارة، وتركها على سبيل التذكار فى القنصلية بـ "تين سين" فهم من مضمونها دعوته له بطول العمر والسلامة وكتبت بالخط الصينى، وقد أحضروا خريطة فى حوالى مائة قسم مشغولة ومطرزة بالإبرة، أرسلتها لعبد الله خان، فقام بالتقاط صورة لتلك الستارة.

تبعد "تين سين" أو "باب السماء" عن سطح البحر لمسافة ثمانية فراسخ، وتطل على ساحل نهر "بيخو" (بحر الشمال) وهو ممر ملاحى، وقد اشتهرت بأنها ميناء بكين، ويفوق تعداد سكانها حقيقة تعداد سكان بكين، وتعد أول مدينة بعد "كانتون". وتعد المدرسة النظامية المشيدة فى "ليهونجتشانج" مقرًا للقنصلية الروسية، وفى الشتاء تملأ الثلوج النهر، وتنقل البضاعة بالزحافات.

وكان قد أرسل أحد الشياطين الإنسية مقالة إلى "تين سين" قاموا بنشرها فى جريدة باسم المكان فى يوم وصولنا، والخلاصة أن الأتابك لم يستلطف ذلك الأمر، فقرأنا ذلك وضحكنا. وفى "تين سين" يجبر الكاثوليك على عبادة الأصنام فى الكنيسة التى تملكوها حيث قام الشعب بتخريبها أثناء الثورة فى عام ١٨٧٠م، وقتل الجشعون الزهاد، وأجبروا حكومة الصين على تجديد ذلك البناء، وسددوا مليونى "تائل"[(١)] إلى أهالى القتلى، وشيدوا منارتين على نفس الطراز على جانبى الكنيسة بأمر الخاقان ومنع الاعتداء على الكنيسة بحيث تكون كلمات الحكمة والنصيحة غالبة فى كل مذهب، ولا يوجد أساس مذهبى أسخف من المذهب الكاثوليكى، ورفعوا علم الحرية من أجل التخلص من تلك العقائد فى أوربا، وبذلك تم تخريب أساس كثير.

---

(١) التائل: عملة تزن ٣٧ جراماً وكسور فضية تعادل ما يقرب من سبعة ريالات ونصف. مهديقلى: سفر نامه مكه، ص٥٦.

يطلق أهل الصين اسم "ابن السماء" على الخاقان، ويريد الكاثوليك بقبضة المدافع والبنادق، أن يصلوا الابن الجديد إلى قلب الناس، ويغيرونه، وكلاهما باطل "قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد".[1]

بكيــن:

وفى الساعة السادسة وخمس وأربعين دقيقة بعد الظهر وصلنا إلى سور الصين العظيم، وكأننا بلغنا قزوين، وهو ذو حجم ضخم، وكنا نتصور فى عاصمة مملكة الوسط كرسى الحكومة يوازى ثمانمائة "كرور"، محل عرش ابن السماء "خانبالغ"، مقر حكومة "قبلاى قاآن" حيث سمعنا وقرأنا الحكايات من هناك فماذا سنرى ؟ وفى إيوان السماء مبنى الخاقان "هناك يهبط العقاب الطائر".[2]

يسألوننا فماذا يقولون لنا وكيف يتقابلون معنا ؟، وفى المدينة الصينية أصاب فكرنا البعيد توقف، سار القطار بجوار حافة السور، فترجلنا لمسافة وكنا متحيرين ماذا نصنع ؟ وكانوا قد قالوا فى "تين سين" أنه لا يوجد فندق متواضع ببكين على مقربة من محطة القطار، وفى تلك الأثناء ظهر سمسار وتجمع بعض الحمالين، وأرشدونا إلى فندق بكين، ذهبنا مائة قدم، وكانت توجد بوابة[3] ينبغى أن تؤدى إلى مدينة التتار، ومازالت التصورات تجول بفكرنا ماذا سيكون خلف السور ؟

وكنت قد قرأت فى كتاب رحلات ماركوبولو عن مدينة التتار، وطوينا قطر السور الذى يصل إلى ما يقرب من ثمانية عشر ذراع، وسرنا فى الطريق إلى الجانب الشمالى، وعلى جهة اليد اليمنى، يوجد حوض تتجمع فيه المياه القذرة شكله غريب، وليس لأهل المدينة تحمل لعفونته الشديدة، وهذه

---

(١) قرآن كريم سورة ١١٢ الإخلاص.

(٢) هذه الشطرة مع الشطرة الثانية لها وهى: "ماذا يأتى من البعوضة النحيفة؟" وهى من الأمثال الشهيرة ولكن لا يعرف قائلها.

(٣) المقصود على ما يبدو بوابة "تشينمين" والموجودة حالياً.
مهديقلى هدايت: سفر نامه مكه، ص٥٧.

الطاقة التى من الممكن لها تحمل بيض الدجاج المتعفن، ولا يعطى التراب فرصة لفتح العين، الأرض لونها معتم، وصلنا إلى ميدان، وكان فى الجهة الشمالية مبنيان إحداهما محاصر بجدار قصير، والآخر يشرف على الميدان، وفى البداية دخلنا إلى فندق بكين، ولم نمل إليه ورأينا المكان لا يصلح للبقاء بداخله، ولكن أين نذهب ؟

وانهكت قوى "عبد الله خان" من كثرة السير، وتم اكتشاف أن فندق أوربا يقع فى العمارة المطلة على الميدان وهو أفضل من فندق بكين من حيث النظافة بالرغم من وجود تكدس به، وكان هذا الاكتشاف العظيم بمثابة غنيمة، فلجأنا من الأسوأ إلى السيء، وفى الطابق السفلى توجد غرفتان كبيرتان إلى حد ما، إحداهما مكتب وصالة للبلياردو، والأخرى عبارة عن صالون أو حجرة للضيافة ومن ضمنها غرفة لتناول الطعام، وبين الغرفتين دهليز مسقوف، وسلم يرقى للطابق الثانى أو الأول وعدة غرف أخرى، وانحصر نزلاء الفندق فينا فقط، فقللنا من تصورنا للموقف، وقمنا بالنظافة، وتمت التوصية على طعام الغداء، ولم يكن هناك تكليف فى المساء سوى هذا، وكان مدير الفندق ألمانى الأصل، ومعه مترجم سويسرى اسمه "مابى هاى جرد".

وفى البحث الليلى علم أن المسافة بين هذا الميدان والسور قليلة للغاية، وهنا يجتمع كل السفراء فى المنطقة الأوروبية وما كان من رغبة بالأمس فى أن نذهب غدا إلى "خانبالغ"، واليوم يجب أن ننهض سريعاً، ونزلنا بالإكراه من كل المحافل شبه المكسورة. وفى يوم الأحد الموافق الثامن عشر كنا بصدد مقابلة السفير الروسى، كان يبكى فسألناه عن الأوضاع، وكان مترجمه الخاص قد قال إنه يراقب أحوال الأتابك، ذهبنا إلى السفارة الإنجليزية، السفير الروسى يدعى "لسار" والسفير الإنجليزى مستر "ساطو"، والمترجم الروسى يدعى "كلسو"، وقد كان النائب الأول للسفارة الإنجليزية الأسبق ويدعى "والطرطونلى" فى طهران وهو على معرفة بالأتابك، وتحدثا فى كل

شأن، وقام بدعوتنا لقضاء ليلة يوم الاثنين الموافق التاسع من نوفمبر معه. وجاء المترجم الروسى إلى الفندق، وتباحثنا، وقال إن المبنى الملكى مكان جدير بالمشاهدة، وتقررت زيارتنا إلى القصر عن طريق السفارة.

ويفوق معبد السماء علو المعابد، ولا يلزم التصريح لزيارته، ومع هذا لا يأتى الخاقان إلى المدينة فى الشتاء، وتقيم الوالدة الملكة معه فى المصيف، قلت فى نفسى من أجل ذلك لا يرى وجهكم.

وفى وقت العصر ذهبنا فى نزهة، ولم يكن الطقس صافياً والصحراء خالية، وكانت "تين سين" ذات حركة وجلبة، أما بكين فهى ساكنة وتخلو من الجلبة والضجيج الناس هناك ويعيشون فى يقظة، وهنا نيام، وعلم بصفة عامة أنه فى بكين لا يوجد الاختلاط والصداقة لأنه فى قديم الزمان اشتهرت الصين بمقولة (الرسول) صلى الله عليه وسلم: "أطلب العلم ولو بالصين"[1] حيث كان للصينيين منزلة فى العلم والصناعة وقد ذهبنا إلى الصين، فالناس فى حالة ذبول وقد احترقت رؤوسهم.

كان من الضرورى أن نأخذ فى اعتبارنا النظر للخريطة من أجل التوقف لمدة عشر أيام فى بكين، وبحكم التحليق الذى هو فى طبع البشر، بدأنا بمعبد السماء، وفى يوم الاثنين الموافق السادس عشر تم التوقف عند معبد السماء، وتوجهنا إليه مع مترجم الفندق بعد تأجير ثمان "محفات"، ويعد معبد السماء من أبنية "يونجلو" من سلسلة "مينج" فى عام ٨٢٤ مسيحى.

---

(١) تصحيح الحديث: "اطلبوا العلم ولو بالصين"، والصين جزء فى غرب مملكة الوسط وهى مجاورة للتركستان، والمقصود بمملكة الوسط فى حديث الكاتب هى الصين حسب تقسيمات القدماء، مثلما يقول محمود الكاشغرى فى ديوان الألفاظ التركية: الصين "تشين" من ثلاث إلى ست فى الأصل، الصين العليا فى مشرق طفغاج والصين الوسطى، والخطا (ختا)، والصين السفلية برخان على حدود كاشغر، ولكن فى زمننا (أى زمان الكاشغرى) وفى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى أطلقوا على طفغاج كلمة ماتشين، كما أطلقوا على الختا كلمة الصين (انتهى) وبرخان هى التركستان الشرقية. وفى الحقيقة تعد هذه العبارة متداولة، ولا يوجد سند حقيقى لهذا الحديث. مهديقلى هدايت: سفر نامه مكه، ص٥٩.

وبعد الحرب الأخيرة كان الخاقان معترضاً فى بعض الشئون لفترة، وقرر أخيراً الاهتمام بترميم الأماكن التى خربت، وفى أقل من عام كان يجب على الخاقان أن يأتى إلى صفة السماء دفعة واحدة، وأن يجلب إلى المكان أى إلى الملأ الأعلى تشريفات ومراسم البنوة، ولم يؤد هذه الوظيفة طيلة عامين، وكان يجب على السماء أن تهيئ الصين أفضل من هذا بصفة خاصة لأمر الأرض.

كان الواجب على أبناء الملوك، والأمراء، والأعيان أن يتعاونوا فى زيارة السماء، وفى اليوم الموعود يزينون الحديقة والبلاط بكل ما هو حسن، ويستقر الأثاث الخاص فى مكانه، ويحضر جمع غفير من طبقة المشاهير والخدام، ويمارس المغنيون مهامهم، وفى الليل يخرج الخاقان أولاً من مكانه المخصص بالقصر إلى خارجه أمام الباب المذكور بالشارع حتى نهاية حدود مدينة الصين، عرض هذا الشارع ثمانية أذرع وطوله ألفا ذراع، والوسط مفروش بالحجارة بعرض ستة أذرع والأحجار منحوتة.

وفى نهاية الشارع توجد حديقة موصولة بسور مدينة الصين من الجهة اليمنى تعرف باسم "مكان صلاة الزراعة"، وتوجد على الجانب الأيسر حديقة واسعة بها مصطبة وبلاط منسوب إلى السماء، وسرنا من نفس الطريق بدون ضوضاء، كان معنا ثمان محفات وستة عشر سائق محفة، ووقف العامة والمتفرجون فى صفوف على جانبى الشارع من أجل مشاهدة عبور الخاقان، وسجدوا، ولا يجب عليهم أن يشاهدوا شمائل الخاقان، ويتحركون من بعيد وقريب ملتزمين على قدر مراتبهم، ويودع أهل الطرب الراقصون والعازفون القافلة، والمطرب حر فى كل زمان ومكان.

والخاقان أو راكب الفيل أو فى المحفات الذهبية على هيئة الطاووس أو شكل التنين الذى يحمله الخدام الخصوصيين على الكتف، جميعهم بملابسهم الفاخرة، ولو ظهر الخاقان من بعيد كان الحاضرون يسجدون من أجله، كما يقوم المغنيون بالغناء من أجله، الذهب الأصفر اللون الخاص

بالخاقان وأملاكه وكل ما يتعلق به من عمارات، وأثاثات، وملابس، الكل باللون الأصفر، يرشون الرمال الصفراء على الأرض فى مكان عبور الخاقان من أول الشارع إلى آخره، وليس علينا الالتزام بتلك المراسم.

قال المترجم: يذهب الخاقان أولاً لمبنى الزراعة من أجل التشرف بالأرض، هناك حكمة تقول: "أسلك ذلك الطريق الذى سلكه المريدون"، ونحن نتقدم نحو معبد الأرض، وهو عبارة عن فناء واسع بلا أشجار ينقسم إلى سبع أجزاء، وفى الطرف الخارجى إلى الجنوب توجد قاعة واسعة، وفى طرفيها توجد غرفتان ومكان عبارة عن مخزن لتخزين الحبوب الزراعية، المحراث والمسبعة ومقشرة الخشب وكل ما يتعلق بالخاقان لونه أصفر أما الباقى فلونه أحمر.

وفى موقع تخزين البيض جاء الخاقان والوزراء لزراعة كل جزء، ثم يدعون، وسيكون محصول تلك الأراضى نموذجاً لمحصول المملكة، هذه عادة قديمة وهى تشجيع للزراعة والمزارعين، وكان الإنجليز قد نقلوا الأثاث والعمارة وكل شئ هناك، حيث توقفوا فى هذا المكان، وكانت قد بقيت فقط الآلات الخاصة بالحرث.

ومن هنا يذهب الخاقان إلى معبد السماء، وتابعنا أيضاً عمل ابن السماء، الحديقة واسعة جداً، وفى أطرافها حدائق أخرى بحيث يقومون فيها بتربية الحيوانات التى يريدونها من أجل التقرب إلى الإله فى هذه الأماكن، لا يعملون ويستريحون وعلى مسافة فرسخ بعيداً عن الحدائق، وتشاهد عند الدخول أشكال من تلك الحيوانات فى حالات مختلفة ويجب الذهاب من هذه الحديقة إلى مكان متسع به عمارة تتجه صوب المشرق، وقد تبقى فى هذا المكان كرسيان أو ثلاثة ألوانها سوداء، وبدا الملل والضيق حتى على وجه مترجمنا الذى كان قد درس فى سويسرا، ويعتنق الدين المسيحى.

وفى هذه العمارة يجب على الخاقان أن يقضى الليل، وأن ينشغل فى التضرع والخشوع فى الظلام والسجود، ويراعى الصمت والسكون التام فى هذا المكان، بحيث لا تتصرف حواس الخاقان، وتمارس هناك الوظيفة المذهبية فى حضور القلب، وفى اليوم التالى تمارس مراسم التطهر والتى هى بداية التقرب للإله، ويتم الدخول من هذا السور إلى الحديقة الكبيرة بحيث يكون فى وسطها مصطبة مستديرة ذات قطر يتراوح بين ثلاثين وأربعين ذراعاً مصنوع من حجر المرمر الأبيض وتشتمل على ثلاثة طوابق بعرض أربعة أذرع ولها درج من جهاتها الأربع، ونقوش ومناظر هذه المصطبة فى متنها وحواشيها أغلبها لطائر التنين[1] ، وشوهدت فى أعقاب ذلك فتحة لنصب العلم والراية وقاعدة المصباح.

عدنا من هذه الحديقة إلى الحديقة الأخرى، وهنا بجوار السور مصطبة مرتفعة تتقابل مع ثلاثين درجة سلم، وجوانب السلالم بها صور للتنين المنقوش بالزخارف، وأعلى المصطبة العلوية صورة فلك مستدير، بداخله أربعة تخوت ملكية، فى أركانه غرف، والتخت الملكى مواجه للدرب الجنوبى المرتفع موضع عرش الخاقان موضع حفظ ألواح السماء والأرض وثمانية أشخاص من أجداد الطائفة جميعها قد لفت بالحرير الأزرق الفاتح. الألواح عبارة عن صفحات خشبية تم طلاؤها بلون ماء الذهب، وقد كتبت عليها الأسماء مرة أخرى بماء الذهب، وحاكم السماء والأرض وكل ما هو من "شانج ته" أو أسماء أجداد الطائفة والألواح الأخرى التى عليها أسماء الكواكب والذوات الجوية يجب أن تقدم جميعها قرباناً للإله، العرش نفسه مصنوع من المرمر، وهناك آداب يجب العمل بها مع تلك الألواح والنقوش الحجرية.

---

(١) التنين: التنين حيوان اسطورى يجمع بين الزواحف والطير، ويقال له مخالب أسد وأجنحة نسر وذنب أفعى، ويتخذ فى بعض البلاد رمزاً قومياً، وله يد أو رجل فيها أربعة أظفار وخامسة فى الكف، وفى رأسه جمة شعر، ومنه نوع بحرى، وتتخذه الصين رمزاً قومياً لها.
مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، جـ١، ص٩٣.

هذه العمارة التى خارج القبة لها ثلاث ضفائر مستديرة منبتها عالى، إحداها فوق الأخرى، وسقف القبة والضفائر مغطى بالطوب الخمرى والأصفر، وتنمو الزينة الرئيسية هنا فى داخل الإزار، يبلغ ارتفاعها ما يقرب من عرض ذراع، وقد انشغل الناشرون بنقل بعض من تلك القطع للتحضير والرعاية، قد تعرفوا عليها من جديد، كان العمل مستمراً على رأس كل ذراع مربع طيلة أربعين يومًا، وأساس القبة يقوم على أربعين عموداً وهو مصنوع من خشب الأشجار القوية الاحتمال والذى يزرع وينمو فى جنوب الصين، ولا يوجد شيئ آخر بهذا القطر، ويبلغ قطر الأعمدة حوالى ذراع وارتفاعها نحو أربعة عشر ذراعاً ملوناً باللون الأحمر.

وفى مكان زيارة الخاقان ينقلون تلك الألواح من بلاط السماء الذى هو نفسه أصل المعبد إلى العرش المرمرى فى الحديقة وسط عظمة ليس لها حدود، ويودع أبناء الملوك والوزراء والأعيان والأشراف والأمراء والعلماء وحاملو الرايات والمغنيون تلك الألواح، وقد زينت المصطبة بالأعلام والستائر وأنواع الزينة الأخرى، وتشاهد الحديقة وعرش المصابيح أثناء النهار، ويحضرون أنواع المفروشات المنبسطة والألواح إلى المصطبة فى وقت الغروب، ويعد الطابق العلوى عرش مقام الخاقان، وقد رفعوا فوقه أنواعاً من الزينة، وقام الخدم بحمل كل الملابس الحريرية السماوية الزرقاء، ويضعون لائحة "شانجته"[1] وثمانى لوحات للأجداد على السطح العلوى، ويضعون لائحة الشمس والدب الأكبر والكواكب السيارة الخمسة وصور لثمانية وعشرين نوعاً، ولائحة باسم سائر الثوابت فى الطابق الثانى فى جانب، وفى الجانب الآخر المقابل ألواح القمر والريح والأمطار والسحاب والرعد.

---

(١) شانجته: هو زعيم طائفة الملوك فى الصين ويلقب باسم "يين" أيضًا، وكانت تلك الطائفة تحكم خلال الفترة من القرن ١٦ حتى ١٩ ق.م.
دهخدا: لغت نامه، جلد ٣٠، ص١٣٤.

وضعت موائد خاصة مع أغطية الموائد المخيطة بالذهب مقر الألواح، وقد انتشرت أمام كل لائحة الشموع والكافور والمباخر إضافة إلى الهدايا وقدم "شانجته" اثنتى عشرة قطعة من القماش الحريرى الممتاز باللون السماوى هدية لكل واحد من الأجداد، وثلاث قطع من الحرير الأبيض وهدية سائر الألواح سبع عشرة قطعة بالألوان المختلفة، وعن الأطعمة وهدية "شانجته" هى عجل مذبوح فى إناء نفيس من أجل سائر الناس على اختلافهم وعنز جبلى، وخروف، وخنزير، وعلى كل مائدة ثلاثة كؤوس من الشراب، وأنواع الفواكه، والخضروات والأدوية حتى البصل، والثوم، والملح، والفلفل.

وعندما تمت هذه المقدمات وزين البساط، أشعلوا المشاعل، وأحرقوا البخور، ويسير الخاقان بكل طمأنينة وعظمة فى كبرياء وهيبة متبختراً متبختراً ناحية العرش، ويصعد الدرج ويجلس فى المصطبة العلوية، وفى تلك الأثناء يصطف أبناء الملوك والأمراء وأصحاب المناصب فى صفين على قدر درجاتهم، ويغنى المغنيون والمطربون بآلاتهم الموسيقية، ويقف الجميع فى صمت، وقد كانت تلك علامة التقرب إلى الإله، وفى المكان يقرأ أو يدعو القارئ بألحان خاصة، ويضع الخدم الأطعمة المحتوية على اللحوم والخضروات على العجل للتقرب إلى الإله، وينشغل الخاقان بتلاوة الأدعية، ويسأل اهتمام النفوس القدسية فى العالم العلوى بحال الضعفاء فى العالم السفلى.

ويثير المطربون والممثلون بأغانيهم الصخب فى ذلك الجو، وتمر لحظة، ويعترى الجميع الصمت، ويقول مناد من بعيد وكأنه من السماء: "أعطوا الماء واللحم كرحمة"، وفى هذا المكان يقدم مسئولو البلاط وقواد الجيش كأس الشراب وإناء اللحم إلى الخاقان، ويتناول الخاقان قدراً من كليهما، وقبل تناول الشراب واللحم الذى يمر بثلاث مراحل، يسجد ثلاث سجدات بعد كل مرة، ويضع رأسه على الأرض، ويؤدى كل الحاضرين الذين جاءوا للمكان رسوم الأدب بنفس المراسم، ويشعلون النار فى الهدايا من مأكل وملبس ومشرب فى زاوية من الحديقة.

قيل إن الخاقان يجب عليه أن يتدرب لمدة عام على شئون المملكة وكيفية اتخاذ القرار تحت قبة السماء قبل التقرب إلى الإله، وفى الواقع كان يتم تحديد ميزانية السنة الجديدة وإقرار برنامج الوظائف ضمن هذه المراسم، ولا يغادرون القبة طالما لم يتم الوصول إلى هذه النتيجة.

يأتى الخاقان إلى هذا المكان مرة فى العام من أجل التوبة عن ذنوب العقوبات المنهى عنها، وفى هذه المرة يرتدى الملابس الخشنة، ومن أعلى المصطبة المصنوعة من المرمر يذكر أنواع العقوبات الخاطئة، ويطلب الصفح، وفى تبديل الشمس إلى برج الجدى رمز (الثورة الشتوية) يجب على الخاقان أن يعرض على الوالد الرحيم الأحداث التى وقعت طيلة العام فى معبد السماء، ويعود فى أول السنة الصينية من أجل كسب التأييد، وكذلك فى الخريف من أجل صلاة الاستسقاء[1] إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

لقد كان معبد الزراعة هو معبد الأرض فى الأزمنة السالفة، وفى عام ٩٣٨ قال رجال الدين يجب أن يكون معبد الأرض خارج المدينة، لهذا قاموا بتشييد معبد فى شمال المدينة من أجل الأرض، واختص المعبد الداخلى للأرض بالزراعة، وسنت صلاة الزراعة منذ عهد "شون"، وكان هناك اهتمام خاص بأمور الزراعة، وفى أماكن الزراعة كان يجب على الخاقان والأصحاب أن يرتدوا الملابس الخاصة بالزراعة.

المراسم فى معبد الأرض تشبه معبد السماء، وكانت هناك صلاة من أجل جلب الذوات اللاهوتية، ويكون العمل هنا مع الذوات الناسوتية وهى البحار الكبيرة الأربعة، والأنهار الأربعة الكبيرة، والعشر جبال المعظمة للصين، وهنا تجلب أيضاً الألواح إلى المعبد، حيث يقومون بإحراق كل الهدايا

---

(١) الاستسقاء: طلب هطول الأمطار، وهى سنة مؤكدة فى الإسلام، فعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلنها فى الناس، وهى طلب السقى ووقتها عند صلاة العيد، ويستحب أن يعلن عنها الإمام قبل موعدها بأيام.
أبو بكر جابر الجزائرى: منهاج المسلم، بيروت ١٩٦٤م، ص٢٥٣.

التى تعود إلى أرواح الأجداد ثم تصعد للعالم العلوى، ويلقون بالباقى فى البئر حتى تصل إلى الذوات الناسوتية.

(كوآئى) الأعرج يريد حذاءه:

كان هناك اهتمام بالغ منذ الأزمنة القديمة بالبوابات، وقد كان للبوابات مثل بواباتنا ثلاثة مداخل، وكانت "كولو" أكثر تلك البوابات أهمية حيث كانت الطبول تقرع عندها، وشاهدناها فى الجولة، وهى بحاجة إلى الترميم بصورة كلية، ارتفاعها ثلاثون ذراعاً وبها مائة درجة سلم، وقد تبقى من أثاثها طبلة قطرها أربعة أذرع وجواد أصفر اللون مكسور، وتقع بوابة "تشونجلو" على مقربة من بيت الطبول وقد علق فى سقفها جرس كبير يزن حوالى ثلاثة مائة "خروار"[1] ، وكانوا يقومون بالإعلان عن تحديد ساعات الليل باستخدام ذلك الجرس، وقيل إن صوته كان يبلغ كل الأمكنة، ويردد أهل بكين قول مفاده: كان "كوآئى" الأعرج يطلب حذائه.

قيل فى القصص إن "يونج لح" قد أمر "كوانلو" الصانع الشهير بأن يصنع ذلك الجرس، فصنعه مرتان وانكسر، فأمره أن يعيد صناعته للمرة الثالثة، وقال: لو انكسر هذه المرة سوف يقتل صانعه، وكان للمعزى إليه فتاة جميلة ووحيدة، فتذهب إلى البانى وتسأله قائلة: ماذا سيكون حال الجرس الثالث ؟ فيجيب قائلاً: سوف ينكسر مرة أخرى ما لم يمزج أساسه بدماء فتاة، وتشفق الفتاة على والدها، فتلقى بنفسها أثناء الصب فى القالب، ولم يفلح العمال فى إنقاذها، وتبقى فردة حذاء فى يد العامل، وعندما أدخلوا الجرس للتجربة من أجل سماع نغماته، سمعوا صوت الفتاة كانت تردد عبارة "أريد فردة حذائى".

كانت الشوارع طويلة ومتسعة فى مدينة التتار، حيث تتشعب إلى ثلاثة أفرع، وقد شيدوا بينها دكاكين لبيع الكبدة، والصباغة وغيرها، كان

(١) خروار: وزن يعادل ثلاثمائة كيلو جرام تقريباً.
محمد التونجى (دكتور): المعجم الذهبى (فارسى عربى)، بيروت ١٩٩٣م، ص٢٦٤.

عرض الشارع الأوسط أحد عشر أو اثنى عشر ذراعاً، وعلى الجانبين تتداخل العمارات فى بعضها البعض وهى حديثة البناء، وفى الصين تزدان العمارات على شكل ضفائر عريضة منقوشة بالحفر ومذهبة.

فى يوم الثلاثاء الموافق العشرين انحصر برنامج اليوم فى مشاهدة المدرسة "الكنفوتسية" ومدرسة "لاما"[(١)] ، ذهبنا وشاهدناهما وهما يقعان بالقرب من الجزء الغربى من المدينة، وتم تحديد مدينة بكين فى السجلات باسم "لى" منذ ما يقرب من ألفى عام، وقد اختار "قبلاى قاآن" ذلك المكان مقراً لعرشه وبلغ أوجه، وقد تهدم اليوم ما يقرب من نصف آثار "خانبالغ" التى وصفها ماركوبولو فى رحلته، وكل ما تبقى من مدينة التتار الحالية (الجزء الجنوبى) منذ المائة الخامسة من الهجرة، وأطلق عليها اسم "بكين" العاصمة "وبيتشنج"[(٢)] ، تعنى "كرسى الشمال"، وبعد انتصار "منشو" عاد لمعظم المدينة اتساعها وتبلغ مساحة مدينة الصين ومدينة التتار ما يقرب من فرسخين مربعين وضعفى مساحة طهران، وسواء هذه أم تلك فهما محصورتان بين سور قلعة ضخمة.

ولمدرسة "لاما" فناء فسيح، توجد فى جوانبه حجرات مثل مدارسنا، وقام الشخص المتواجد بالمنزل باستضافتنا على فنجان من الشاى المر، وكان حديثة شيقاً، ومعظمه عن شكوى من اعتداءات الأوربيين حيث تعانى كل الطبقات منهم، وقد وضعوا مائدة فى القاعة الملكية، كذلك وضعوا فى الطرفين ست مناضد والقاعة الملكية خاصة بالشيخ، والمناضد الجانبية خاصة بنوابه، ويجلس المستمع على الأرض.

وشيد "باطاليون الثانى"[(٣)] فى الجزء الثانى داراً للمدفعية البحرية الفرنسية، وأقام هو نفسه فى هذه المدرسة، وبدت آثاره العسكرية منقوشة

---

(١) لاما: أى موطن التبت، اسم أهل الدين ذوى المقام الرفيع فى التبت وتعرف رئاستهم باسم "دالاى لاما".
دهخدا: لغت نامه، جلد ٤٢، ص٦٩.

(٢) بيتشينج – بيجينج (بى – شمال، جينج – العاصمة).

(٣) باطاليون الثانى: ليست هناك معلومات متوافرة عن هذا الحاكم.

على الجدران، وقد بقيت كأثر من وحشية الغزاة السفاكين (فخراً للوطن)، ولم يشاهد شئ من آثار المعبود المذهبى فى هذه المدرسة.

والمدرسة الكنفوتسية التى يطلق عليها "تى وانج مياء" تشبه المدرسة اللامية، وقد حل الخراب بمعظمها، ويعملون على ترميمها ، وليست هناك معلومات عنها، وقد امتزجت المذاهب المختلفة بعضها ببعض فى الصين، وكان كل من الثلاثة كنفوشيوس، ولا أوتسه، وبوذا موضع اهتمام، وكان كل من "لا أوتسه"[١]، و"بوذا"[٢] حكر الصوفية، وكانا محل اهتمام القصر الآخر، وكان كنفوشيوس الذى صرف اهتمامه بهذا القصر موضع نقد (المذاهب الحالية)، ولا تضايق إحداهما الأخرى بأى حال، وقد تركت الدولة الكل على حاله والسلوك هو سلوك كنفوشيوس.

كنفوشيوس:

يطلق عليه "خونج فوتسه" وقد ظهر فى المائة الاثنتى عشرة قبل الهجرة، وكتبوا أيضاً أنه ظهر قبل هذا التاريخ بستمائة سنة، كان أبوه رجلاً عسكرياً، فقام بتعليمه حتى صار معلماً، وكان يقوم أيضاً بالأعمال الرسمية، بلغ منصب بالوزارة، وكان من قراراته الواضحة اكتمال العقيدة، وسلك القانون فى الحياة الحكم، وقد بقيت قدمه ثابتة فى العقيدة، وترسخت فى رأسه مبادئ أبيه منذ الطفولة، وقد عانى من شظف العيش

---

(١) لا أوتسه (لاتوتسو): فيلسوف صينى، عاش حوالى سنة ٦٠٠ ق.م، ألف كتاباً باسم "طريق الزهد"، تركزت معظم تماثيله فى ركوبه الجاموس.
محمد معين: فرهنك فارسى، جلد ششم، ص١٧٦٣.

(٢) بوذا: مؤسس الديانة البوذية، معناه اليقظ أو المطلع أو العاقل، يعرف باسم "ساكيامونى" أى حكيم قبيلة ساكيا، أو ساكيا سينها، عاش فى القرن السادس والخامس قبل الميلاد، كما يعرف باسم سيدارته جوتمه، وكلمة جوتمه مأخوذة عن اسم العرق الذى تعلق به عائلته، أبوه يدعى "سودودنه" وأمه تدعى "مايادوى"، كان أبوه حاكماً للهند على قبيلة ساكيا فى "كابيله وستو" فى شمال الهند جنوب غرب نيبال، وكانت أمه إبنة أحد الحكام أيضاً ولذلك كان بوذا من طبقة النجباء والأمراء، ولد فى حوالى سنة ٥٦٠ أو ٥٠٠ ق.م وعاش حتى سن الثمانين.

- Yi-Fang wu: China Rediscovers Her west p.p. 12, London 1942.

وقسوة الحياة فى بداية حياته، ويعرف أن أساس الحياة الدنيا والسعادة فى الآخرة يكمن فى طاعة الصغير للكبير.

وقد سن قانون "الياسا" على هذا الأساس حتى يجذب قلوب المنفذين لتعاليمه، ويسلموا بالأمر، وفى نفس الوقت لا يدع لهم مجالاً للفكر، ويعد نزول البلاء نتيجة طبيعية لظلم الحكام، ويقدر مكانة الأسرة ويطلب من الأفراد أن يكونوا تابعين لرب الأسرة (الأب صاحب النفوذ)، وتطيع الأسرة أولى الأمر، ويسلموا الأمر إليهم، الخاقان والجميع فى درجات، الآباء جسم مخلوق، يجب أن يسلكوا ما يرضى الآباء الروحانيين.

والسماء هى روح الأرواح (رب الأرباب)، الضياء مظهر الخير، والظلام مظهر الشر (أهورامزدا واهريمن)، وقد ظهرت الموجودات بتأثير السماء والأرض (الفاعل والقابل)، ويصير هناك قسمان بعد الوفاة سماوى وأرضى، وروح الخاقان فى السماء قسيمة الروح الكلية، وأرواح الموتى مراقبة لأعمال الأحياء، الحسن والقبح يتبعه الثواب والعقاب، وتبقى الأرواح ماثلة فى الدنيا معهم، ويعد غضب السماء سبباً لنزول البلاء وانقراض القوم.

وأورد كنفوشيوس تعليمات يصعب اتباعها وفق قول سقراط: لماذا نتحدث عن أمور، لا يعطوننا قوة لفهمها ؟:

- المطالب كثيرة، والفرصة قليلة، وتذهب مفردات أقوالنا من بين أيدينا. (شعر)[1]

من نصائح كنفوشيوس عدة كلمات مفادها: "تسيطر القوة الروحانية على القوة الجسمية وتفوق السماء كل القوى"، الطاعة واجبة لخمس طبقات لبعضهما البعض: الوزراء من السلطان، الأبناء من الأب، والمرأة من الزوج، والأصغر من الأكبر، والصديق من الصديق.

(١) بيت من نظم المؤلف مهديقلى هدايت حسبما ذكر. مهديقلى هدايت: سفر نامه مكه، ص٦٧.

ويستحق الرئاسة الشخص الذى يتحلى بالأخلاق الحميدة، الطهارة أصل الشرف، وهى وسيلة التقرب إلى السماء، وتطهير الذنوب يكون بالإكثار من الثواب، المال والجاه منبع الغرور، الحميمية والصداقة هما أساس الأخلاق، وأصل انتظام الأمور، هل أعطى كل من الخاقان وماندارن صفة الأبوة فى تربية الأبناء، لقد اسلموا القلب لتعاليم كنفوشيوس لا والله، وقد راعى كنفوشيوس فى قوانينه التى تدعى "الياسا" الحدود أكثر من الحقوق، ويقال إن الحقوق هى نفسها الحدود.

ويعد قصاص الدم واجباً للأب على الابن، والأخ على الأخ، والصديق على الصديق، وموسى هو أول شخص وضع القصاص حقاً للقضاء والحكومة، وقد جمع الإسلام بين أمرين، الحكم بالقصاص والدية وهى حق للوريث، ومن الأمور الكثيرة التى يحدث حولها شبهات القتل العمد والخطأ، وأغلب الظن فى هذا أن القصاص يعد فى كل الأوقات من اختصاص الحكومة، إن الرئاسة التى تحدث عنها كنفوشيوس فى طبقات المجتمع، خاصة برئاسة الأب على الابن، ويلزمها منع تعدد الزوجات، وهذا ليس ممنوعاً فى قانون كنفوشيوس.

ولم يدع كنفوشيوس النبوة، فنفوذه السياسى أقوى، ذلك أنه اتخذ لوناً مذهبياً عن طريق التعلق بالأرواح أو عالم الشهود والاختلاط ببوذا خلال العصور، وقد بسط شعب الصين من عظمة هذه القوانين لعدة قرون وأصبح كل من صاحب العلم والفن، وصاحب الصنعة والأثر يعتقد أن الأرواح تكون فى راحة وضيق نتيجة أعمال الخلف، وهذه العين الحارسة مستترة فى الذمة والوجدان، ويمكن القول أن أصول مذهب كنفوشيوس تتميز على قواعد أفلاطون.

لا اوتسه:

كان استاذاً لكنفوشيوس، وله كتاب فى الأخلاق اسمه "ليبيانج" وقد اشتهر بالنسبة للاوتسه باسم "الطفل الكهل"، يقول "أبو سليمان فخر الدين عيسى" صاحب كتاب "البناكتى": عندما ظهر بوذا الذى يدعى "ساكمونى" لأمه فى هيئة نور، وبقى فى بطنها طيلة ثمانين عاماً، جاء إلى الدنيا بشعر أبيض، ويذكرونه باسم "شانج لاءكن"، ويعد اسمه مطابقاً لما ورد فى معجم "لاروس"، وفى الكتب الألمانية ذكروه مؤخراً باسم "كنفوشيوس"، وقد تنحى عن الخدمة فى أواخر عمره باحثاً عن كتاب "تائته كينج"[1] .

وقد ألف كتاباً اسمه قانون الإخلاص وترجم إلى اللغات الفرنسية والإنجليزية والألمانية، ويعتمد أساس فكره على "تاء" أى "طريق العقل"، وتيمناً بذلك الاسم يجب الذهاب صوبه، ومعرفته، والتقرب إليه، وبالإخلاص له يتم الوصول إلى المعرفة أو محوها بحيث لم تكن هناك وسيلة أخرى سوى الفيض من قبل تاء، ولهذا السبب يقال لـ "تائته" أنها "ياسا لا أوتسه" وهذا ليس بجديد أيضاً.

ويبحث كل من "كنفوشيوس"ولا أوتسه" عن طريق الخير، ويريد كنفوشيوس من الناس أن يصلوا إلى الأخلاق عن طريق الطاعة العمياء للعالم، واقتفاء "لا اوتسه" الحسن فى الوصول وجلب الفيض من المبدأ، ويدلل كنفوشيوس عن طريق المشهودات، أما "لا اتسه" فهو يدلل عليها بطريق المعنويات، وفى بعض الأحيان يكون أصحاب مذهب "تاء" سياسيين بالضرورة، وفى أحيان أخرى يمنحون الطبيب حياة خالدة، وكما يذيعون أخباراً عن عدد الكواكب الآتية.

(١) تائته كينج أو دائود جينج حسبما ذكر المؤلف، ص٦٩.

رواية صينية فى الخلقة:

كان هناك شئ قبل السموات والأرض، لا ندرى اسمه، ونطلق عليه "تاء"، فى هذا الوقت كان فى السماء ملك، نطلق عليه اسم "تين كون" أى (ملك السماء)، وظهر ملك آخر فى السماء، هو مبدأ الخلقة، له اسم، هو الماهية، وهو موجود وإن لم ير، لكن الفضاء لم يكن خالياً، وعندما صعد إلى أعلى، بدت السماء، ثم نزل إلى الأرض السفلية، هذا الذى نقوله أنا و"تاء" يظهر فى الموجودات، ومن قرن إلى قرن أعطينا صورة الكمال لكل شئ، وسواء عند كنفوشيوس أو لا أوتسه فهما ظهور الإرادة العليا لنا.

البوذية فى الصين:

لقد كان "سيد هارتا" ابن ملك من طائفة الـ "ساكيا"، وقد رأى الدنيا بلا ثبات، وتنحى عن العرش والتاج، قال عنه البوذيون إنه بمعنى "اليقظ"، وقد اشتهر باسم "ساكيامونى"[1] أى "ساكيا المنزوى"، كما أطلق عليه "السياح" أيضاً، وتقول القصة إنه نزل من السماء على هيئة فيل أبيض، وينسج فى صورة نور فى خمسة ألوان إلى أمه، ويولد من ضلعها الأيمن، فى المائة الثالثة عشر قبل الهجرة.

يقال أحياناً يكون للزمان متطلبات خاصة، وكان ظهور "كنفوشيوس" و"لاأتسه" فى الصين، و"بوذا" فى الهند، و"الحكماء المشهورين" فى اليونان، "وزرادشت" فى إيران فى أحقاب من الزمان، وفى وقت ظهوره، ظهر "البراهمة" فى الهند، وصار "بوذا" منكراً لرياضاتهم بشدة، وعلى ذلك لن يكون ضرر الجسد سبباً فى نجاته، يجب على الروح اكتساب المحاسن وترك الرذائل، وتصل بحسن العمل إلى مقام "نيروانا" أى (محو الجسمانية والاتصال بالحقيقة).

---

(١) ساكيامونى: اسم بوذا، كما يقال له "سيد هارتا".
مهديقلى هدايت: سفر نامه مكه، ص٧٠، وأيضاً دهخدا: لغت نامه، جلد ١١ ص٣٥٧.

يقول: المشقة توأم مع الحياة الدنيا، والمشقة توأم مع التعلقات، وتزول المشقة بترك التعلقات ويتأتى ذلك باضمحلال الجسد، المشقة تكون حيلتها قطع العلاقة ومحو الجسمانية كالمصباح المحترق الذى لا يتبقى منه شئ، ويشير سنائى[1] إلى نفس المقام قائلاً:

- امح جسمانيتك أيها الصديق لو تريد عمراً أبدياً قبل الموت، فقد أصبحت الجنة لإدريس قبلنا من مثل هذا الموت. (شعر).[2]

كان البراهمة يقولون إن فى الخلق طبقات، وكانوا يصنفون كل طبقة، فى حين قال بوذا ليس فى الخلق اختلاف، ويمكن لكل شخص أن يبلغ كل مقام بحسن خلقه، وكان ينادى "بالرسخ والفسخ والنسخ"[3] ويجب الاستعداد على حسب الاختلاف أن يعوض البدن، ويعد هذا المثل من الرياضة، يقول الملا فى هذا السياق:

- تخلصت من الجمادات وصرت ذا جسم، وتخلصت من النماء وعشت. (شعر)
- مت من الحيوانية، وصرت آدمياً، إذاً لماذا أخشى الموت والعدم.[4]

---

(١) سنائى الغزنوى: من شعراء القرن السادس الهجرى المشهورين، عاصر الغزنويين والسلاجقة، سارت أشعاره فى البداية على نهج الشاعر فرخى السيستانى، ومسعود سعد سلمان ثم انتقل إلى عالم التصوف، من أشهر مؤلفاته كتاب حديقة الحقيقة.

(٢) حكيم سنائى غزنوى: ديوان سنائى، باهتمام مدرس رضوى، تهران ١٣٢٠هـ.ش ص٤٩.

(٣) الفسخ والرسخ والنسخ: هى عقيدة متصلة بتراث الفرس العقائدى القديم، الفسخ هو خروج الروح من جسم آدمى إلى جسم حشرة، والرسخ هو خروج الروح من جسم آدمى إلى الشجر والنبات، والنسخ خروج الروح من جسم آدمى إلى جسم آخر. وهناك أيضاً المسخ وهو خروج الروح من جسم آدمى إلى جسم حيوان.
أبو المعالى: بيان الأديان، القاهرة د.ت ص٢٩.

(٤) من شعر المثنوى لجلال الدين الرومى مع التصرف فى بعض الألفاظ على النحو التالى:
- ازجمادى مردم ونامى شدم   ازنما مردم بحيوان بر زدم.
- مردم از حيوانى وآدم شدم   بس جه ترسم ؟ كى زمردن كم شدم ؟
جلال الدين محمد بلخى: مثنوى معنوى، تحقيق عزيز الله كاسب، ص٤٩٨.

كانت وفاة "ساكيامونى" فى عام ١١٢٨ قبل الهجرة، وبعدها أقاموا الزينات احتفالاً بعقائده، خاصة فى التبت حيث كان ظهور اللامية من البوذية، وصنعوا تمثالاً "لبوذا" ووضعوه فى المعابد، ومن أجل القصر تركوا فى أيديهم مراحل المسخ والنسخ من أجل التقرب إلى الإله، وذبحوا الحيوانات للتغاضى عن المعاصى، وانتقلوا من ممارسة الرياضات القلبية إلى الرياضات العادية، وقالوا فى النهاية تظهر الأرواح المقدسة من أجل هداية الخلق إلى صورة البشر، وقد كان "بادماباتى" ضمن ذلك بحيث تمثل فى صورة "دالاى لاما"[١]، ومنذ ذلك الزمان يطلقون على رؤساء المذاهب اسم "دالاى لاما"، حيث ظهرت روح بوذا فيه، وينتخب فريق مذهب "لاما" فى مدينة "لاسا"[٢] وهو أساس السلطنة، التى وتهتم الحكومة الصينية بها.

ووجه الخلاف بين "دالاى لاما" و"البابا" أن البابا دائماً هو الشخص الذى تحل فيه روح عيسى، أما "دالاى لاما" فقد يكون متعدداً، وعندما يطوف "دالاى لاما" بين المواليد حتى يروا روح ذلك المرحوم المغفور تظهر فى مكان بين الحاضرين، فيختاروه، وتجاهد الحكومة حتى تحل روح "دالاى لاما" فى الأسر المطيعة للدولة، وليس معلوماً أى طريق يجب أن يسلكه البشر حتى لا ينجرفوا إلى عبادة الأصنام.

وفى متابعة المذهب اللامى" فإن الحكومة ليس لها اهتمام ببوذا، وليس لمعابدهم على الرغم من كونها مرتفعة وملونة رونقاً خاصاً، ومعظم المكان محل اهتمام أهل السؤال، ويعتبر أتباع مذهب "كونفوشيوس" و"تاء" مجال وجود البشر بالذات الطيبة والكاملة. والبوذيون ناقصون وغير كاملين تركنا هذا الباب ومضينا.

---

(١) دالاى لاما: لقب يطلق على زعيم البوذيين فى التبت الواقعة جنوب غرب الصين.
دهخدا: لغت نامه، جلد ٤٢ ص٦٩.

(٢) لهاسا: عاصمة التبت.
مهديقلى هدايت: سفر نامه مكه، ص٧١.

فى الهند غلب مذهب البراهمة على البوذية وتعد تعليماته صورية أى نوع من (الرياضات) وأقرب إلى ذهن العامة وبالحدود الصعبة التى لا تؤدى إلى التخلف، ويكون التوسل ضرورياً للروحانيين والنذر والحاجة فى كل لحظة، وقد طالب بوذا بألا تكون هناك طبقية، فالكل متساو، ويصلون بصلاحهم الداخلى إلى المقام الإلهى، حيث يجب عليهم أن يفضلوا أسرى العبودية من الناس على أنفسهم، ويأخذوا أغنامهم فى أعقابهم أيضاً.

وعندما أعطوا تقريراً فى همدان أن صياداً اصطاد الذئاب برصاصة واحدة فى أقدامها كان ذلك الأمر موضع تعجب، فكشف عن سفح الجبل الذى ينتهى إلى مكان سفلى، وتهاجم مجموعة ذئاب الصياد فهرول وجرت فى إثره البقية بعد أن رأته طعماً فيسقطون جميعاً.

مساعى دعاة المسيحية فى الصين:

طبقاً لما جاء فى الخبر اكتشفوا فى عام ١٦٢٥م فى "شانج ان"[١] من مدن "شنسى" أنه نقش على الحجر أن دعاة النسطورية قد وجدوا طريقهم إلى الصين فى عام ٧٨١، ونالوا اهتمام العظماء هناك، خلافاً لأولئك الدعاة الذين كانوا محل نفور، وفى عهد "قبلاى قاآن" كان هناك ممثل للبابا "نيقولا الرابع" فى بلاط الخان، وفى عام ١٧٢٤ كتبت رسالة بخط يد الخاقان وكانت ضد نشر المذهب الكاثوليكى، واعتذروا للدعاة بانضمام بعض معلمى العلوم الإنسانية فى الصين، وفى عام ١٨٤١ وتحت الضغط الشديد تحقق فصل الميثاق والتصريح بالدعوة إلى الحرية.

سمعت أن الدعاة كانوا يضعون صور الأصنام بكميات كبيرة على شاطئ البحر، ويأخذون الأصداف، ويبيعونها إلى الأهالى من أجل المنفعة، ويرتدون الملابس الصينية ويضعون ضفائر على رؤوسهم.

---

(١) يطلق عليها اليوم "سى ان" أو "شى ان"، وليست هناك معلومات متوفرة عنها.
مهديقلى هدايت: سفر نامه مكه، ص٧٣.

يجوز أن يتشابه المذهب المسيحى فى الصور التى تستخدمها المذاهب المحلية كصورة مريم وعيسى والحواريين التى يتركونها فى المعابد أو الكنائس، وبساط المحراب، تنتشر المسيحية فى الصين بصورة كبيرة، ولا تؤثر عليها الاضطرابات السياسية، نعم لقد أدى دعاة المسيحية خدمات من خلال المدارس والمستشفيات، وقد اعتنق الشباب المذهب المسيحى من أجل الدراسة المجانية وكذلك المعمرين من أجل حماية أنفسهم من تعديات عمال الدولة، وفى أغلب الأحيان يعودون إلى دياناتهم الأصلية بعد تلبية احتياجاتهم، وللمؤمن مع الصنم نذر وحاجة، قال القسيس: ماذا تصنع ؟ أجاب قائلاً: لا يجوز أن تكون حاجتى من بلاط إلهك، فقد جئت لدى ربى.

الإسلام:

فى عصر يوم الأربعاء الموافق الحادى والعشرين ذهبنا إلى مسجد المسلمين، وهو أول مسجد فى مدينة التتار وكانت حالته يرثى لها[1]، وذهبنا إلى أثر مسجد آخر فى المدينة الصينية، وقد أطلقوا على ذلك المسجد اسم "جين من ويطولييسه"[2]، واستضافنا الملا نور الدين مؤذن المسجد وكان من أهالى بخارى، ويعرف بضع كلمات من العربية، كما كانت عنده كتب دينيه فى الفقه والقرآن والمذهب الحنبلى، وكتاب فى قواعد اللغة الفارسية، من جملة ذلك كتب النون ما قبل المفتوحة والعلامة المصدرية والتى فى الألمانية يقال لها النون ما قبل المكسورة، وصحن المسجد ليس متسعاً، مساحة رواق المسجد المسقوف تبلغ عشرة أذرع فى ثمانية أذرع تقريباً وهو مصمم على شكل بسيط من الحجر المنحوت، على مقربة من الرواق كان يرتفع الإزار السفلى فى شكل منقوش، وعلم أن هناك آخر قد نقش على حجر عرضه مقداره

(١) من المحتمل أن يكون مسجد "دون تس" الواقع فى شارع وان فوجين.

(٢) من المحتمل أن يكون المسجد الذى يقال له اليوم "نيوجه"، ويبلغ قدمه حوالى ١٠٠٠عام. هديقلى هدايت: سفر نامه مكه، ص٧٤.

عشر عقدات ويبلغ قطره نحو وثلاث عقدات طوله ذراع ونصف أيضاً، تحت قبة وسط الفناء، قلنا لا شك إنهم يستفيدون من هذا الأمر.

فى اليوم التالى جاء إلى الفندق الملا نور الدين وابنه محمد شريف الذى كان ملثماً ويرتدى عمامة على رأسه، وكانت باقى ملابسه من الملابس الصينية، تحدثنا لفترة، وقاما بدعوتنا إلى المسجد لتناول طعام العشاء، فقبلت الدعوة، وكان المسجد بحاجة إلى الترميم، فأعطاه الأتابك مبلغ مائتى دولار، وشكره الملا نور الدين، وذهبا.

كان أول خبر عن وصول الإسلام إلى الصين قد نشر من خلال رسالة "وهب أبى كبشا"، فى العام السادس من الهجرة من قبل حضرة الخليفة، ومنذ ذلك الوقت كانوا قد قاموا ببناء مسجد فى مدينة "كانتون" بإذن من الخاقان وكان ذلك فى سنة تسعين للهجرة، ثم جاء داع عن طريق البر إلى "سينجانفو"، واستوطن ما يقرب من نحو ألف مسلم فى "شن سى".

فى عام ١٣٨ هجرية غادر أربعة آلاف محارب من قبل الخليفة "أبى جعفر" بمساعدة الحكومة إلى الصين لصد هجمات المغول، واعطوهم مساكن فى المدن الكبيرة، وحصلوا على تصريح للاتصال بالصينيين، وانتشر التجار العرب فى الموانئ الصينية مع الصينيين، وفى عهد المغول هاجر عدد كبير من المسلمين إلى مملكة السماء، وفى ناحية تسمى "يون نان" كان يقطن نفر غير قليل من الهمج، وذهب شخص يدعى عمر من أهل بخارى صوب هؤلاء الناس من أجل إدخالهم فى الدين الإسلامي، وقد دخل أكثرهم فى الإسلام.

وكان جنكيزخان يحكم هناك وقد عاق تقدم الإسلام والمسلمين، وقام بتأسيس مدينة "منشوريا"، مع هذا يعتقد أن عدد المسلمين فى الصين يصل إلى أربعين كرور (أى ما يقرب من عشرين مليوناً)، وقيل إن فى مدينة بكين يتجاوز المسلمون الخمسين ألف شخص، والمسيحيون الذين أنفقوا الأموال والآلاف ضحوا بأرواحهم من أجل نشر المسيحية والتبشير بها، وحدثت

معارك طاحنة بسبب ذلك الموضوع، ولولا تسلط حكام الدول لانتشر الإسلام لأنه أفضل دين مبنى على تنظيم أمور الحياة.

فى وقت ما أردت أن أتعلم اللغة الإنجليزية وكنت أمام "طيلر" مدرس اللغة الإنجليزية بدار الفنون، وذات يوم قال فى الحديث: ميزة المذهب المسيحى فى الشأن هو الإجبار فأجاب: لو لطمكم شخص على خد، تسلمون له الخد الآخر أيضاً، قلت يجب التعامل فى القانون بالأيدى، وفى أغلب الأحيان يكون للطمة ضرب ركلتين، شأن القرآن أكمل، وهو أن تكظموا غيظكم، وإذا لم تستطيعوا فالرد على ذلك بمثله، والحال لو يظهر حضرة المسيح، فلا أعلم ماذا سيقول مع السلوك الظالم للأمة؟ وهذا السلوك الذى تصرفت به أمته مع الأمم الأخرى. إن الأديان هدفها إصلاح الأخلاق، وقد غيرت الأخلاق والعادات الأديان، فقد ضحت الدول بالغالى والرخيص من أجل المنفعة.

فى بكين تسير تقاليد الأخوة فيما بين المسلمين مجرى التنفيذ، ولم يشاهد طالب حاجة مسلم، ولا يأتى من جهة ما لطلب عمل، يصل عدد المسلمين فى العاصمة بكين إلى ما يقارب نصف عدد المسيحيين[1] ، لكن يجب الأخذ فى الاعتبار أن المسيحيين قد وضعوا فى كل مكان صنماً مكان صنم، وقد حطم الإسلام الأصنام فى كل مكان وبخصوص الزينة والصور فهى ممنوعة فى المساجد، ويصلى المسلم عاقداً النية، ويتوجه المسيحى صوب التماثيل لأن لديهم عبادة الأصنام أيضاً، وقد طلب الشاعر "هاتف"[2] الاعتذار، لكن لا توجد فرصة من أجل الدين، ولا تتضمن الشاعرية والكناية:

---

(١) هذه العبارة مغايرة للعبارة المذكورة فى نفس الصفحة أعلى، حيث حدث سهو فى أحد الموضعين

(٢) هاتف: هو الشاعر هاتف الاصفهانى الملقب بمير سيد أحمد من شعراء القرن الثانى عشر الهجرى وقد عاصر الدولة الأفشارية والزندية، كان موطن أسرته آذربيجان، لكنها هاجرت إلى اصفهان فى عهد ملوك الدولة الصفوية واستقرت هناك، قام هاتف بدراسة علوم الحكمة والطب والرياضيات، كما كان له باع فى الشعر والأدب. كان أستاذاً فى اللغتين العربية والفارسية، سارت غزلياته على نهج سعدى الشيرازى وحافظ وله قصائد شهيرة فى التصوف والعشق الإلهى، وقد توفى عام ١١٩٨هـ.

زهراى خانلرى كيا (دكتر): فرهنك ادبيات فارسى، ص٥٣٢.

- يا هاتف يدعو أرباب المعرفة تارة ثملين، وتارة أخرى هم مفيقون. (شعر)
- بسبب الخمر والكأس والساقى والمطرب، وبسبب المجوسى والدير والشاهد ورباط العنق (حبل يربط به المسيحيون أعناقهم).
- يكون قصدهم إخفاء الأسرار، ليظهرونها أحياناً بالإيماء.
- أنت تعلم أن سرهم فى صدورهم، وهذا نفسه هو سر تلك الأسرار.
- لأنه واحد وليس هناك سواه قط وحده لا إله إلا هو. [1]

حصلت على ترجمة للأمر المرسوم فى المسجد، وعلم أنه منذ ثلاثمائة عام كان هناك وزير سيئ النفس يسعى لإيذاء الأهالى أثناء الليل فى المدينة، ونتيجة لذلك كان من الممكن أن يتفشى الفساد، وتأمل الخاقان الأمر لبرهة، وذهب إلى المسجد ليلاً مستبدلاً ثيابه، وكان يجلس فى زاوية، واكتشف أنه شهر رمضان وكان الناس منشغلون فى دينهم بالعبادة، فلام على الوزير، وأصدر أمراً بترميم المسجد ورعاية شئون المسلمين وتدبير أمورهم.

فى اليوم الموافق السابع والعشرين يجب الذهاب إلى السفارة الروسية لمقابلة وزير الخارجية، وكنا قد التقينا به من قبل، وعلى اختلاف الدرجات توجد ثمانية أساليب للأدب معمولاً بها فى الصين، السلام معناه "شيه شيه"[2]، ويتم ذلك من خلال ضم الأصابع التى يجب أن تكون طليقة، وقد انحنوا فى مواجهة الصدر، قائلين "سلام سلام" مكررين الانحناءة بالرأس أو بالرقبة للمقامات الرفيعة متألقين فى التعظيم، ومن ناحية أخرى يقومون بثنى

---

(١) رضا زاده شفق (دكتر): تاريخ أدبيات إيران، تهران ١٣٢١هـ.ش، ص٣٧٦.

(٢) شيه شيه أو بالأدق "شه شه" وتعنى متشكر، يؤدى الكاتب التحية بقوله "سلام"، ويعادل بالصينية "تيها".
مهديقلى هدايت: سفر نامه مكه، ص٧٧.

الركبة، وأحياناً الجلوس على الركبة أو التكرار وفى النهاية السجود أمام الخاقان ثلاث سجدات.

يكون السجود ثلاث مرات، وفى كل مرة يكون من الصعب ضرب الرأس فى الأرض ثلاث مرات بلا دوار، ولكن يتم تنفيذ ذلك، وقد جرى تعاقب مثل هذه الآداب لفترة ما بين السفراء ورجال البلاط، وكان السفير الأمريكى ينصرف عن المراسم، ونتيجة لقطع العلاقات يقنع الخاقان بثلاث تشريفات، ولكل من هذه الآداب أسماء خاصة بها بحيث يكون ذكرها مضيعة للأوراق والوقت أيضًا.

كان ارتداء أى زى رسمى على الرأس واستخدام النظارة من الأمور الصعبة أيضاً، قيل لو أن أحد المبعوثين البارزين اقترب لابد وأنهم يأخذون بساعده، وعلى هذا النحو يتم تشجيعه والاحتفاء به، والنظارة فى الصين ليس لها حاجة وزجاجها صافياً وهى لزوم الفضل أو إظهار الفضل، التشرف بمقابلة الخاقان بالنظارة يكون خروجاً على الأدب.

ومن المعلوم أنهم يطلقون على غير الصينى لقب قوقازى، ونحن نستطيع بدأبنا فى التعرف على غير الصينى أن نقتنع بتحريك رؤوسنا مرة أو اثنين، وبغض النظر عن آداب الأوربيين الخاصة فإن هذه الآداب تبدو لديهم أكثر غرابة، وهى ليست بغريبة لنا، "وإذا كنت فى بلدة فعاشر بآدابها"، اليد اليسرى أيضاً لدى الصينى تمثل علامة الاحترام، لأنها الأقرب إلى القلب، وعموماً فقد طوينا شارعاً أو اثنين، ووصلنا إلى منزل وزير الخارجية الذى يقع خلف إحدى الحارات، ولم نر شيئاً من الإشارات سوى لافتة أعلى الباب. وكان بالمبنى الأول فناء كل جانب فيه ينقسم إلى ثلاثة أقسام معتادة بالنسبة لنا ثم العمارة.

وفى ساحة المبنى كانت توجد قطع من الفحم مستديرة الشكل، وعريضة، ذهبنا إلى مبنى آخر على نفس الطراز وكانت هناك قاعة مربعة الشكل وواسعة بالإضافة إلى الإيوان البعيد المقابل للجهة الجنوبية، وبها

مزهرية ورد موضوعة على الأرض ويبدو وكأنه مقطوف، وكان هناك جزء مفتوح وسط الورود، وكانوا قد وضعوا منضدة صغيرة وبضع كراسى، واستقبلنا مترجم الوزير حتى وسط الإيوان، وكان وزيره على مقربة من الدرب، وكان زى الوزير مشابه لزينا إلا إضافة إلى رابطة الصدر، وكان رجلاً حسن الطلعة.

كان من شروط الأدب أن يتم دخولنا إلى القاعة محاطين من الجانبين بمراسم الآداب المعتادة ودار الحديث حول أين كنتم ؟ ومن أين تأتون ؟ وإلى أين تذهبون ؟. ولم يتصور جناب الوزير ولم يكن على علم أننا من إيران وأن إيران لها اسم فى كتب التاريخ، وعرف ضمناً أن هناك إذن لنا من أجل التنزه وزيارة القصر، فتناولنا قدحاً من الشاى، وتم التصريح لنا بذلك، وكان المترجم بصحبتنا، ولم يكن هناك اسم لوزارة الخارجية فى الصين، وأغلب الظن أن الأوربيين قد وضعوا هذا الاسم مع الوفد الذى يتعامل مع الأجانب منذ سنة ١٢٧٧ هجرية ويعنى فى اللغة الصينية "سونج لى يامن".

ويعد دستور كنفوشيوس هو الأساس الإدارى للصين، وهو مدون فى ٩٢٠ مجلد عدا الأجزاء المتعلقة بالعلم والأدب. إن الأخلاق وحسن المشرب تكون فى المعاملة وليست فى النسب. وليس للخاقان اختيار كبير، وهو ابن السماء ومراقب القانون، وتعد درجة العلم والأخلاق شرطاً للدخول فى الخدمة، ويمكن لكل شخص الوصول إلى أى مقام بسبب العلم والأخلاق، ولديهم فى الصين مجلس شورى حكومى يتكون من خمسة أشخاص معمرين محنكين برئاسة شخص من أبناء الملوك، ولو أن من بينهم شخص على درجة كافية من العلم والخلق فإنه يقبل للدخول فى الخدمة، ويعتبر من طائفة ماندارين. ولديهم ثمان فروع فى تقسيم الوظائف هى انتخاب مفتشين من طائفة ماندارين - الشئون المالية - المراسم - النظام - العدل باسم الحدود - المصالح العامة - الخارجية ويقصد بها (الممالك المفتوحة) - إدارة نشر المعارف واختبار الدارسين الذين يدرسون دراسات حرة.

وكتبت على باب وزارة الخارجية أربع كلمات هى خارجية الصين، إقبال السلام، رغبة السلام، يعطى الله الإقبال، ومنذ الوقت الذى فتحت فيه الشئون الخارجية على الصين، ازداد الاضطراب والعنف، وضعفت الدولة، وللأسف فإنهم كانوا ينظرون إلينا أيضاً كأجانب، والأوربيون عندما وصلوا إلى "سونج لى يامن"، لو أن السفير أو وزير الخارجية كانت لديه رغبة فى الاستيلاء على بعض الأراضى فإنه يتمسح للحصول على امتياز جديد، ولو أنه من دعاة التبشير فإنه يطلب الدخول فى البوذية.

وكانت الإدارة قد أنشئت فى الصين منذ الأزمنة القديمة، الإدارة لها تفتيش مستقل يدعى "توتشايوئن" يتكون من ستين شخصاً ورئيس من التتار والصين وهم لديهم رؤية مؤثرة على كل الشئون الإدارات حتى شخص الخاقان، قيل ذهب مفتش لحضور حفل تنصيب الخاقان الأخير للعرش، فقال ليس لذاتكم العالية الحق فى القيام بعمل مراسم البنوة فى مسجد الأجداد، أنتم لستم ابن الخاقان المغفور له، وهذا مخالف للقانون، قال هذا وقتل نفسه.

ماندارين:

يقال إن "ماندارين" الذى جاء من أجل رجال الدين هو مسئول تعيين موظفى الحكومة فى الصين، ويقال فى اللغة الصينية لموظف الدولة "كوان"، وقد جاءت لفظة ماندارين من الكلمة البرتغالية بمعنى الآمر، وقيل إن هذا الاسم قد اشتق أيضاً من اللفظ الهندى "مانطرن" بمعنى الوزير والمشير، وفى الصين يعد كلاً من الدين والدولة بمثابة التوأم، كما تعرف مراتب ماندارين بقطع القماش التى تخاط فى الصدر أو ظهر اللباس.

وفى كل فرع فإن الخدمة على تسع درجات، من "تاى تو" حتى "كوانج فو" وقد رُسمت على تلك الأقمشة أشكال الحيوانات والطيور: الكركدن، والأسد الهندى، والفهد، والدب، والنمر، والدب المنقط، وكلب البحر، والذئب ذو القرنين، من أجل الجيش، أما من أجل الحكومة يكون الكرك،

والديك الذهبى، والطاووس، والطائر المتوحش، وديك الغابة بلونه الفضى ذو اللحم الطيب، والطيور التى تتغذى على الأسماك، والدجاج الصينى، والغراب، ولهم تميز مقبض الحزام على هيئة وردة وزرار وجهة العمامة والوردة والياقوتة هى أعلى درجة فى مقبض الحزام وأدنى درجة هى الفرع.

زر العمامة فى المرتبة الأولى هو الياقوت، والثانية حجر لونه سماوى، والثالث شفاف، والرابع غير شفاف، والخامس والسادس حجر أبيض ودر ومرمر، والسابع ذهب مصقول، والثامن ذهب مزركش، والتاسع فضة مزركشة، ورفع العمامة نوع العقاب والعباءة والصفراء الخارجية للفروسية رمز تنين (منذ عام ١٨٨٢ السابع من فبراير) لو أنها الرداء وهى الأعلى امتيازاً لأنها قد صارت ترحماً على "ليهونج تشانج" و "السيرروبرت هارت".

وقد كان فضل العرب أيضاً فى الرداء الأصفر، ويبدو فى رباعية.

- **ذلك الابن الجرى الذى هو فى الحسن فريد، وصار فى نظرنا بطلاً فى أسبوع واحد. (شعر)**
- **تقبل اليوم برائحتك الذكية إلى أنوفنا، إما بلا نظير أو بردائه الأصفر.**

والعلم الأصفر الذى يقام على الجانب الأيمن بمثابة امتياز وقرينة لقيد الجورب الإنجليزى، عندما أنشدت:

- **قطعت سيدة جوربها، فهى مدنسة يوم القيامة. (شعر)**
- **وقيد ادوارد الثالث وقال، حلقه يتناسب مع الحذاء.**
- **فصار قيد الجورب علامة، لا ينالها سوى الملوك.** [1]

وريش الطاووس علامة أيضاً، ثلاثة عيون، الأولى، والعينان الأخريتان وقد تساووا مع فرنسا باتخاذ ريش الطاووس دليل الافتخار، ويجيز بعض أتباع

(١) مهديقلى هدايت: سفر نامه مكه، ص٨٢.

"ماندارين" تلوين أيدى محفاتهم باللون الأحمر، وكان فى عصر خاقاننا المغفور له امتلاك درب المنزل المصنوع من الجص والغرفة البيضاء نوعاً من الامتياز، ومن الملفت للنظر كتابة كلمة خاصة بخط اليد على الحرير الأصفر بحيث تمنح للشخص مقابل خدمته فى الجمرك.

نعود ونتحدث فى أمرنا وهو أن ذهابنا كان بدعوة من الملا نور الدين، استعدت العربة، وقد أعد عبد الله خان الكاميرا، وكان مكان الاستقبال عبارة عن غرفة، ووفق اصطلاحنا تم وضع ثلاثة مسطحات بقوائم بدلاً من المنضدة فى وسط الغرفة، ووضعت مأكولات من كل صنف عليها، ولم يكن طعاماً خاصاً بعشاء ولا غذاء لكنه بين الاثنين، ولم تكن بعض الأطعمة سيئة بالنسبة لأذواقنا، وجاء نور الدين وأولاده الثلاثة مرتدين كلهم عمائم، فى زى جميل، وبدا من سحنتهم أن أمهم صينية، وقد قدم أحد أجدادهم إلى الصين، وقد نسوا اللغة التركية ويفهمون قدراً من العربية.

ويقال إنهم يقرأون القرآن، ويفهمونه بتفسير صينى، وقال إن المسجد كان قديماً مكاناً ضيقاً فقلنا لقد شيد فى المكان باجتهاد وزير الخاقان فى عهد "مينج" أى منذ نحو ثلاثمائة عام مضت ومعروف للخاقان أن تلك الجماعة لا تبغى الاضطرابات والفتن، ولهم هوس أن يشيدوا المسجد من الحجر، وكان نور الدين يبدو متقد الفكر، وبدا أنه يسايرهم أسلوب معيشتهم، كما كان ينظر إلى بقدر من التعجب والحيرة "نظرة العالم فى السفيه"[1] وكان الأتابك منتبهًا، وقال: هذا شافعى"، وكان الملا نور الدين حنبلى المذهب، أى خلاف شديد أوقعوه بين المسلمين، وحفروا الآبار فى الطريق حباً فى الجاه.

---

(١) الشطرة الثانية لبيت من بوستان لسعدى الشيرازى والشطرة الأولى هى "نظر المتعب فى أنا الفقيه" سعدى شيرازى: كليات سعدى (بوستان) به اهتمام محمد على فروغى، ص٣٧.

شراء بعض التحف:

كان الأتابك سباقاً للأشياء التى قد صنعت فى الصين مثل الكؤوس الخشبية، والتى تعد اليوم من قبيل التحف العتيقة، وكانوا يستخدمون اللعاب فى الأعمال الصينية والمعروف باللون الأحمر والذى اندثر أصله أيضاً اليوم.

ذهبنا إلى دكان كان به علبة مصنوعة من الخشب مستديرة قطرها خمسة وعشرون سنتيمتراً وأربعة أصابع، قال إن ثمنها ألف وثلاثمائة دولار، ولم يأخذها الأتابك حتى خفض السعر إلى ألف دولار، والدولار المكسيكى رائج هنا وكان يساوى خمسة ريالات، وكانت عنده مزهرية يتدلى من عنقها اللعاب الأحمر بصورة عشوائية، ولم يكن لديه معلومات عنها سوى أنها قديمة وعتيقة للغاية، وكان سعرها سبعمائة دولار ولم يتم شراؤها، عدنا إلى الفندق غافلين عن أن ما قمنا بشرائه قد جاء فى أعقابنا إلى الفندق.

وكان الباعة الجائلون قد علموا أن المسافرين قد وصلوا فانقضوا علينا، وفى المساء فرشوا بساطاً على البلياردو، من جملة ذلك عدة قطع من القماش الحريرى رخيصة جداً قد افترشوها، وكان معلوماً أنها من الأشياء التى حصل عليها الجنود أثناء إغارتهم على الخارجين، ولم يكن الباعة الجائلون على علم بها، ويبيعونها فى الخارج ومحرم عليهم فعل ذلك، وكل يوم كان يفرش البساط، وأحياناً كانت تباع القطع بحيث تنفق ما فى جيوبنا، وكان من نصيبى عدة قطع من تلك الأقمشة الحريرية، وكان الأفضل من رؤيتها فى الدكاكين، وتم شراء بعض القطع الصغيرة الحجم حيث كانت كقفص الزينة وتسمى "بيبلو" (وهى من الأشياء الظريفة بالنسبة لى).

وتم أيضاً شراء بعض الأوانى الصينية ماركة "تامين" و"مين"، ولا شك أن الهراوة وهى إحدى الآلات الحربية القديمة التى يستعملها الأبطال قد اشتراها الأتابك بألف دولار، أما أنا فدفعت مائة دولار فقط، والجفنات الخشبية التى كان الأتابك قد اشتراها كانت تباع فى حراج طهران، وقد باعوا فى روضات

الشقائق بعضها بمبلغ ثلاثة أوربما تومانان، ويستغرق الصينى فى الحفر والنقش على الخشب وقتاً طويلاً.

قصر الخاقان:

فى بكين لم نركب أكثر من عربة فى اليوم الواحد، وقيل إن ذلك الأمر ليس مرغوباً، والمحفات متداولة هناك، والمحفة المحترمة هى التى تحمل على الأكتاف، وكان دليلنا فى الطريق مترجم السفارة الروسية، وكان "شارج دافر" حديث القدوم إلى المكان وطلب السماح بأن يأتى مرافقاً لنا، وكنا سبعة أشخاص وقد أوصينا بسبع محفات، كل محفة تكفى لشخص واحد طولها متر، يرافقها ثمانية حمالين، ويحملون المحفة فوق أكتافهم ومن أسفلها أيديهم، وإيجار كل محفة مبلغ خمسة عشر دولاراً، وبلغ طول القافلة حوالى اثنين وأربعين ذراعاً، وكان لابد من ترك مسافة بينها، وكان متوسطها حوالى ستين متراً.

والحمالون من أجل تعويض ما فاتهم من الطريق يعلنون أوامرهم للمحفة المتقدمة بالإسراع ومرة فى مرة يصيحون بشدة، وتستمر الغوغاء، ومضينا فى الطريق نصف الساعة، وفى طريق غير ممهد كان يوجد قصر فى حارة ضيقة وعلى جانبه خندق ضيق، ويتطلب السير مزيد من الحذر، ويحتاج لمزيد من الأوامر، وفناء القصر به حدائق والمكان يعرف بـ "المدينة الصفراء الممنوعة" أو الحمراء والتى كانت تختص بالقصور، وقد استخرج الغالبية مطرقة الحضارة من خيط الثوب المفلول والبالى.

وتحيط بأطراف القصر حديقة واسعة نصفها خرب، وقادونا إلى منزل، كان إيواناً وبعد ذلك عدة غرف متواضعة جداً، وكان على ما يبدو منزل "الخواجه باشى"، وكان رجلاً قوياً وعالى القامة يشبه فى الكمال "معتمد الحرم"[1] وظننا أنه هو نفسه، وكانوا قد وضعوا الحلوى والفاكهة، وتمت مراسم الاستقبال، وبعد أن تم التعارف رافقنا فى جولتنا، وكان من الواضح

---

(١) معتمد الحرم: حاج آقا جوهر خواجه باشى من سادة الحرم فى بلاط الدولة القاجارية. مهديقلى هدايت: سفر نامه مكه، ص٨٥.

أن "الخواجه[١] باشى" كان مهموماً نتيجة لحالة الخراب والدمار التى اعترت القصور ووضعها السيئ، ويجوز أنهم لم ينظروا إلينا بصورة طيبة، فى البداية شاهدنا عمارة تتكون من طابقين وظاهرها بسيط على الطراز الأوربى، وكان واضحاً أن البوابات كانت مغلقة بمشبك حديدى، وقيل إن الملكة الوالدة الماجدة كانت محبوسة فى هذه العمارة حتى قبل مجىء الخاقان بثلاثة أشهر "الملك مدلل"، طافت بخاطرى قصة "مجد الدولة" من آل بويه وأمه "سيدة"، واهتدينا من هناك إلى عمارتين أخرتين، وقد كانتا عبارة عن مسرح شتوى وصيفى، ويعرف اصطلاحا "بالمسرح"، ووصلنا إلى عمارة الملكة، وكانت هناك قاعة يوجد على جانبيها إيوان صغير أعلاها، وهو عبارة عن طابق بلا كراسى، وكانوا قد وضعوا وعائين صغيرين صينيين فى وسط القاعة بحيث كان يحترق بداخلهما طائر صغير وينفذ البخار أو الدخان من صدره، ولم تشاهد زينة فى القاعة.

وليست هناك معلومات متوافرة عن العمارة، وكانت توجد فى جانبى القاعة مدفأتان بحيث كانوا يلقون أمامهما صور وتماثيل من الصدف والعاج، وكانت من الأعمال الممتازة وهدية من قبل ملك اليابان، ولا شك أنه يعد جزءا مما تم نهبه بعد الحرب، وتعد هاتين الهديتين فى نظر الرفقاء الروس عظمة فوق الوصف، جعل إحداها للتمجيد، وقيل ستظل الأخرى تخصنا طيلة أربع سنوات أخرى، دارت كل تلك الأحاديث بالفرنسية، ولم يخجلوا منا.

وأغلب عمارات الصين مصنوعة من الخشب وتبخيرها موضع الخطر، ولديهم مواقد مصنوعة من الطين أو الصينى من أصل تنور السماور بحيث ينفذ الهواء من داخله وبأطرافه ثقب أيضاً، يشعلون فيه الفحم والغريب أنهم لم يضطربوا، وتركنا القاعة على الفور والتى لم تكن لتتحمل.

يوجد أصل عدة السلطنة فى المدينة الحمراء التى هى جزء من المدينة الممنوعة، ويعد الفناء المقدس للحرم، وقاعة للامتحان، والمكتبة، وقاعة

(١) خواجه: كلمة فارسية معناها السيد أو الأستاذ.

العرش، ومقصورة الأجداد جميعها فى المدينة الحمراء والتى لم نرها، وهذا الجزء الذى كان بابه مغلقاً من الخارج، وكانت الأماكن الخربة تبدو بعيدة، وكان سبب الاعتذار عن تعمير ذلك هو أن يبدأوا بتشييد المعابد.

وحتى عام ١٩٠٠م لم تكن القدم الأجنبية قد وطأت فى هذا الفناء. فى عام ١٨٧٣م اندفع ممثلو الدول الأجنبية مرة واحدة، واستقبلوا فى المدينة الصفراء وكان ذلك لمدة خمس دقائق، ومن الأماكن التى زاروها المعبد الأبيض، وأعدت سفينة صغيرة أو زورق كبير، وكانت يجب أن تمر فى البحيرة الواسعة، وكانت السفينة تشبه إلى حد كبير الإيوان فوق الماء ومزدانة كثيراً، وقد حملوا معهم نموذجاً من الأشياء التى كانت على متنها، وكان العجب فى هذا أنهم لم يكونوا قد حطموا تلك السفينة.

وقد جلسوا وأكتافهم ملاصقة بصورة مرتبة، وكان جزء من السفينة مغطى، جلسنا ومضينا من أسفل كوبرى مصنوع من المرمر الأبيض المملوء بالثقوب حتى الجهة الأخرى من البحيرة لمسافة، مشينا حتى أسفل التل، وصعدنا، وكان عبارة عن غار، ودخل "خواجه باشى" لبضع خطوات وسجد وخرج، وذهب بعد أن قام بمراسم توديعنا وليس للأجنبى حق الدخول إلى ذلك الغار، ولم نذهب نحن إليه أيضاً، وكانت هناك تبة أخرى تم اجتيازها، ووصل إلى مكان وانحدر إلى موضع منحدر بسرعة، وكان يوجد نفق مصنوع من حجر المرمر ومزدان بالنقوش والتصاوير.

كما كان هناك سطح أعلى الدرج، وعلى السطح توجد مصطبة، وأعلى تلك المصطبة بناء عال ومزين (مقصورة عشر آلاف بوذا) مصنوعة من حجر المرمر الأبيض أو الصينى، وفى داخل العمارة يوجد مكان كالفناء المستدير قطره ثلاثة أذرع، وفى وسط هذا الفضاء مصطبة يعتليها تمثال بوذا. وكل ما بداخل هذا الفضاء عبارة عن حجرة وجدار، والمتن وما حوله مصنوع من القوالب الصينية البيضاء، وبين كل قالب من الطوب، كان يبدو نصف جسد بوذا ظاهراً للعيان. وكان المتحضرون قد قاموا بتحطيم كل ذلك، وقيل

إن الجنود الألمان كان لهم منزل فى وسط مدينة الخاقان، وكانت تلك فى الحقيقة صورة محزنة.

وعلى حافة هذه التبة كانت توجد مقصورة خاصة فيها كراسى مكسوة بالحرير، والتى لم نرها وعلى ما يبدو لم يكن يتبقى منها شئ، وتبلغ مساحة المدينة الصفراء حوالى ٦٧٠٠ "جريب"[١] أى ألف ذراع هى محاطة بجدار يبلغ ستة أذرع، ولبعض الخواص فى هذه المنطقة عمارة، وتتبقى من أبنية أطراف التل المقدس مقصورة الحياة التى تعرف فى تلك اللوائح باسم خواقين الماضى فى طرف وعظماء المملكة فى الطرف الآخر، فقط بالاسم وبدون رسوم أو نقوش، وعلى حافة التل المقدس توجد شجرة بها أشواك رائحة وردها جميلة معقودة بالسلاسل، وقد علق آخر خاقان من سلسلة "مينج" بنفسه بتلك الشجرة بعد يأسه من صد هجوم "منشوريا".

وصف البلاط:

وقد تم شرح كافة نظم البلاط فى كتاب من ٤٨ جزء، وتنجز وظائف البلاط فى أيدى ست إدارات هى: المضيفة، وبيت الحراسة، وسادة خصوصيون لمراقبة السيدات، والمراسم، وحراسة القصر، واصطبل هكذا مثل الذى عندنا، وعلى مائدة الخاقان يجب أن توجد يومياً ستة أمنان[٢] من لحم الخنزير فى الطعام ومن ونصف فى الشوربة، ودهون من الخنزير، واثنين من لحم الغنم المطهى، وبطتين، ونوعين من الطيور الأخرى، وخمسة وسبعون فنجاناً من الشاى.

---

(١) الجريب: مساحة من الأرض تعادل عشرة آلاف متر مربع.
محمد التونجى (دكتور): المعجم الذهبى (فارسى – عربى) ص٢١٨.

(٢) المن: وزن يعادل ٣ كيلو جرام، وهو معيار قديم كان يكال به أو يوزن وقدره إذ ذاك رطلان بغداديان، والرطل عندهم اثنتا عشرة أوقية.
مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، جـ٢ القاهرة ١٩٨٥م ص٩٢٤.

وفى سفرة الملكة يوجد أربعة أمنان من اللحم المشوى، ومنان ونصف من الحساء، وبطة، وطير، واثنا عشر إناء من المياه بالإضافة إلى عشر فناجين من الشاى، وعلى هذا المنوال فإن لكل من المعلمات آداب الحرم وسائر الخدم والسادة سفرة خاصة، وقد تقرر منذ سنة ١٢٤٥م أن يتم خصى الأشخاص الذين يتم القصاص منهم على أن يكونوا من بين خدام قصر الحرم.

ويكون تنظيف المدينة فى عهدة حراسة القصر، ويجب أن ينثر التراب الأصفر أيضاً فى ممر الخاقان فى عهدة الإدارة، وفى جزء من المراسم شعبة خاصة لتنظيم أمور الآداب وتعاليم كل فصل: آداب السير فى الطريق، وارتداء الزى، وآداب العرس، والعزاء، والضيافة وغير ذلك، ويلتقى أهالى الصين فى يوم معين بالإمبراطور مرتدين الزى الشتوى والصيفى، قلنا لرجل: ما هذا الذؤابة التى على الرأس ؟ قال: فى كل وقت يذبح فيه الإمبراطور، نقص منها نحن أيضاً.

سفرة الأرواح:

قلنا إن لكل أسرة فى الصين مصلى من أجل الأجداد، فى جهاز سلطنة القصر، وتلك القاعة التى قد كتبت فيها أسماء الأجداد على لوحات بماء الذهب حفظت فى صناديق منقوشة بالذهب، وأول عمل يكلف به الخاقان بعد اعتلاء العرش أن يؤدى صلاة الأجداد وتقديم الهدايا التى هى عبارة عن: ثلاثة كؤوس من الشراب، وكأسين من الحساء، وقطع قماش مخيطة وغير مخيطة، وخنزير، ولحم الغنم المشوى لكل شخص.

وعندما تصير المائدة جاهزة يأتى الخاقان إلى القاعة، ويقوم بتأدية مراسم "سانكوكين كو" أى (السجدة المفصلة)، وبعد إنجاز المراسم يسلم تلك الهدايا إلى النار بحيث تصير دخاناً وتصعد إلى السماء، ومن ضمن صلاة الأجداد يجب السقوط على الأرض ثمان عشرة مرة والسجود أربع وخمسون سجدة، ويجب على الحضور الاقتداء بذلك.

- سجدت رؤوس الملوك المرفوعة، محتاجة على أعتاب بلاطه. (شعر)[1]

يجوز أن يعاد النظر فى هذه العادات، وهى دليل على غلبة القوانين ووسيلة اطمئنان الرؤساء للتابعين، والتابعون للرؤساء، والالتفات إلى الوظائف.

السبت الموافق الرابع والعشرين:

دعينا إلى مأدبة العشاء فى السفارة الروسية، وكان هناك وزير مختار من اليابان، تعرفنا عليه، وفى وقت العصر ذهبت إلى المكتبة واشتريت بضعة كتب بعضها صينى، أى تعب حل بى، لا أدرى، إنه مرض، وفى جولة العصر شاهدنا بعض عمارات أبناء الملوك والتى كانوا قد خربوها وبدا عليها السلب، ولجأت الدول المتحضرة لأتباع عيسى بناة الكنيسة، وحكومة الصين ليقتلوا أبناء الملوك، ما أبشع القسوة، وفى الليل حللنا ضيوفاً على السفارة الإنجليزية، لقد جئنا إلى الصين، ولم نتجاوز المنطقة الأوربية، ولم نر سوى منزل وزير الخارجية وبعض مناظر من أجزاء المدينة المقدسة بتوصية من السفارة الروسية.

جاء مترجم وزير الخارجية، وكان قد وضع بطاقتين، والبطاقات أحد وجهيها لونه أحمر مكتوب عليه بعض حروف باللغة الصينية، جاء المترجم الروسى، وكان القرار هو أن تأتى غداً ونذهب إلى دار الفنون، ولا تكتب أسماء شوارع بكين فى أول الشارع، وما كان مكتوباً لا نستطيع قراءته، وعن القرار الذى اتخذه مترجم الفندق مشيراً إلى العلامة، وقد مررنا من معبر العصفور ذى الحظ السعيد، فشارع الببر الحجرى وحارة القرد، فى طريق مستقيم لا نهاية له، فى البداية تصطدم النظرة إلى هذه الأسماء بالعقل، أى اختلاف مع شارع ابن آوى العامر، وحارة ماسورة، ومعبر صالح اللوطى فى طهران أو حارة الأسد والحمامة وحارة الثلاثة صقور فى برلين أو شارع الجيش الكبير فى باريس ويصير الأمر سبب التسمية.

(١) سعدى شيرازى: بوستان سعدى، به اهتمام محمد على فروغى تهران ١٣١٦هـ.ش، ص١.

فى بحث لفظ الصين:

بناء على ما ورد فى معجم البلدان فقد حكمت سلسلة الصين فى تلك الدولة فى المائة التاسعة قبل الهجرة (يجوز فى الجزء الغربى) وقد أطلق اسم الطائفة فى الخارج على المملكة، وفى الألفاظ الصينية تأتى السين مسبوقة بالتاء الساكنة[1] بصورة كبيرة، تبدو لفظة "تشين" اصح من "الصين"، لأن أهالى المملكة يطلقون عليها اسم "تشونج كو" يعنى مملكة الوسط، والصين هى نفسها "تشونج"، ذلك أن الأوربيين يطلقون عليها اسم "شين" ومن أجل ذلك فإنهم قد أخذوها من "تسين"، ذلك الجزء الذى يطلق عليه الصينيون اسم "تشونج" هو أصل الصين، عدا "منشوريا" ومنغوليا، والتبت، وسونجاريه، والتركستان الشرقية، وكوريا، وقد أطلق الهنود على المناطق الواقعة فى جنوب النهر الأزرق اسم "مهاتشين" التى صارت فيما بعد تعرف بـ "ماتشين".

المدرسة:

الأحد الموافق الخامس والعشرين: ذهبنا بالاتفاق مع "كليسو" المترجم الروسى لرؤية المدارس، ولم تكن دار الفنون مدرسة، وإنما كانت من أجل تعليم اللغات الأجنبية والتى تأسست فى عام ١٨٩٩م وخاصة اللغة الإنجليزية، وفى المدرسة الأخرى كان يقوم المعلمون اليابانيون بتعريف عدد من الشبان الصينيين بحقوق الأمم، ومدير المدرسة أمريكى الجنسية، وفيما عدا المعلمين الصينيين كان هناك معلمون من الأمم الإنجليزية، والفرنسية والألمانية والروسية، وفى كل لحظة كان يشتغل المعلمون بتدريس الطب والرياضيات والفيزياء والكيمياء.

وشوهدت فى المدرسة شجرة كانت ثمار فاكهتها تشبه حبات العنب وأوراقها كالشعر، يستخرجون منها الزيوت، وفى الصين لهم معرفة تامة بآدابهم وقانون كنفوشيوس الذى هو موضع اهتمام، ومع الصعوبات الموجودة

---

(١) يعنى تسن.

فى قراءة وكتابة اللغة الصينية، فإن عدداً كبيراً من السواد الأعظم ليست لهم دراية تامة بالمعلومات عنها ولا يقبلون فى الخدمة، وفى الأساس فإن التعليم لم يكن تحت رعاية الدولة، هناك معلمون وأهالى يدرسون عندهم فى أحد الفروع، والامتحان يكون برعاية الدولة، لكن مدرسة "هانلين" الموجودة فى بكين تحت رعاية الدولة.

والكلمات الصينية تتركب من صوت أو صوتين على سبيل المثال يقال "ما" بمعنى حصان، و"فو" بمعنى رجل، و"ما فو" بمعنى أعظم (الرجل الحصان)، و"تا" عظيم، و"فون" بمعنى الريح، و"تافون" بمعنى الطوفان، والصعوبة الكبرى فى النطق بحيث يمكن أن يكون للكلمة الواحدة باختلاف القصر والمد أو حركات النغم خمسة معانى، ويلزم من أجل كل لفظ مثلاً "ما" أو "فو" خمسة أشكال فى المعانى المختلفة، والصعوبة تقع على غير الصينى فى ذلك النطق الغير العادى.

بضع عبارات من الكتاب الأول فى التعليم: فى العالم ثلاثة قوى: السماء، والأرض، والإنسان. والضياء ثلاثة أنواع هى: الشمس، والقمر، والنجم، وبين الثلاث طوائف ارتباط حقيقى: بين الرئيس والمرؤوس، العدل، وبين الابن والأب المحبة، وبين الرجل والمرأة الموافقة، والأشياء الخمسة التى يجب مراعاتها هى: الإنسانية، والعدالة، والأدب، والحكمة، والصداقة.

من الأكبر المحبة مطلوبة، ومن الأصغر الأدب، ومن الأمير الصيانة، ومن الوزير الصداقة، والارتباطات فى الكلام الصينى ليست كلمات تأتى فى أثر بعضها مثلاً: (الأمير، الصيانة) و (الوزير، الصداقة)، ويكتب الخط الصينى من اليمين إلى اليسار وتحت أيضا. ويقرأون الصفحة خط بخط من أعلى إلى أسفل.

وفى الصين يتم التحدث بسبعين لهجة مختلفة، بحيث لا يفهمون مقاصد بعضهم البعض، لكنهم يقرأون الكتابة، ولكن مثلما قلنا يتغير المعنى مع

اختلاف النغمة فى النطق، مثال ذلك نغمة كلمة "بلى" فى الجواب الشخصى الذى يقرأ نحن "بله" بقصر، فى التعجب "بله" بحذف الياء ومد الكسرة، وفى جواب مع الحسرة "بله" بحذف الياء ومد الفتحة، ومثل الخط الصينى مثل الأعداد يقرأونها باللغات الفارسية والتركية واللغات الأخرى، وتختلف الكلمات: واحد بالفارسية، والعربية، والتركية بحيث يقرأ أصحاب اللغات المختلفة فى الصين كل الخطوط الصينية.

وفى كل المدن الصينية عمارات حكومية منفصلة من أجل الامتحان، وهم فى الامتحان فى غاية الدقة، ومكان الامتحان عبارة عن فناء واسع فى الوسط وله باب، ويراقب الحارس دائما الباب بحيث يجعله مغلقاً فى مكان الامتحان.

وداخل الفناء أمام الباب توجد حارة واسعة، وتتشعب من تلك الحارة حارات أخرى، وعلى الجانبين توجد حجرات فى أثر بعضها يوضع بداخلها منضدة وكرسى، وفى الحارات يتواجد حراس حيث يغدو الطلاب ويروحون، وتعطى مسألة كل الطلاب، ويجب أن يبقى بالحجرة حتى يحل المسألة، وفى مدينة بكين توجد فى مكان الاختبار أربع عشر ألف حجرة، وقيل إن فى المدن الأكبر من حيث تعداد السكان مثل "كانتون"[1]، "وشنغهاى" وغيرها تصل إلى ما يقرب من أربع وعشرين ألف حجرة.

المحكمة:

فى أى مكان يقوم الأهالى بالشكوى فى المحاكم، ونحن نقنع بتلك الحكاية.

---

(١) كانتون: من المدن الكبرى فى جنوب الصين، تشتهر بالصناعات الميكانيكية الكبيرة، وصناعة المنسوجات، ويقطنها ما يزيد على ستة عشر مليون نسمة، واشتهرت فى الماضى بحرب الأفيون مع بريطانيا.
دهخدا لغت نامه، جلد ٣٩، ص٢٨٤.

حكاية:

شكى شخص من محكمة إلى "كانج هى"[1] ، وبعد فترة وصل الرد ، كم كنا سعداء الخاطر لأن تشكون من المحكمة ، لماذا يجب على أبنائى ألا يسلكوا سلوك الأخوة ويتركون أعمالهم بين يدى المحكمة ؟، وينصح المعمرون والمسئولون هم الحكماء وهم أهل رأى وفتوى بحيث هم أسرى فى يد عمال المحكمة ، ما يسنونه ينفذ ، الشىء المستحدث فى الصين هو التباطؤ فى الإعدام شنقاً ويجب التنفيذ ، بواسطة لوحين يتصلان من الجانبين ويسقطان حول الرقبة بعد ذلك، ويستلزم حكم القصاص توقيع الخاقان، وفى توقيع العقوبات ينفذ قطع الأعضاء.

جدار المدينة:

يوجد سور مدينة التتار ومدينة الصين على مقربة من الفندق بحيث يكون متنزها لنا ، ويبلغ عرض السور ثمانية عشر ذراعاً ، وارتفاعه اثنى عشر ذراعاً ، وتوجد أبراج على بعد مسافات مختلفة بحيث تكون أكثر ارتفاعاً عن سقف السور الأصلى لمسافة تبلغ من عشر إلى اثنى عشر ذراعاً ، وتبدو كلها على ما يبدو من الحجر المنحوت. وشاهدنا من أعلى السور جهاز عروس يحملونه ، ولم يكن مجللاً بالدرجة ، وكان الجهاز يزن حوالى ثلاثمائة كيلو جراماً وكان شبيهاً بوضعنا عبارة عن أطباق من الصينى، وفراش للنوم، وصندوق أو هودج يجره بغل، والمسافة بينها مناسبة وكان طول قافلة العرس يبلغ حوالى مائة ذراع.

وقد أقاموا هذا السور الصينى من البحر الأصفر حتى حدود "جبى" المواجهة للتتار والمغول، وقطره عشرة أذرع وارتفاعه عشرة أذرع بخلاف الأبراج، وعلى الرغم من وجود هذا السور فقد انتصر المغول والتتار على الصين، وتسللوا إلى وسط المدينة من السور، ذات يوم كان الصدر الأعظم

---

(١) كانج هى (شى): هو إمبراطور دودمان تشينج (منشوريا) حكم منذ عام ١٦٦٢م وحتى ١٧٢٢م مهديقلى هدايت: سفر نامه مكه، ص٩٢.

الأسبق لإيران يشاهد سور المدينة ضمن جولة له فى المكان الذى لم يبق منه أثر لشوكة جنكيز خان، لا هيبة الصين، واعتدى المتمردون الأجانب وتجاوزوا فى الجسارة حد البحر، واستولوا على بكين نفسها، بل إنهم دخلوا المدينة الممنوعة، وأشعلوا فيها النيران، وبقى فيها كذبهم ورياؤهم.

- هكذا تكون عادة القصر المخادع أحياناً شامخاً، وأحيانا أخرى فى الحضيض. (شعر)[1]

يوم الاثنين الموافق السادس والعشرين:

ذهبنا قبل الظهر لرؤية السفير اليابانى والذى كنا قد تعرفنا عليه فى السفارة الروسية، وبعد أن قام بتحيتنا كثيراً قال: لقد وصلت إلى التعليمات من وزارة الخارجية أنه لو كانت لديكم الرغبة فى السفر إلى اليابان، يجب أن يكون لدى علم قبل ذلك بوقت كاف، وكان معلوماً أن وزيرنا المختار فى هولندا قد أخطر وزير اليابان المختار بسفر الأتابك ناحية الشرق الأقصى، وعبر عن سعادته بذلك.

- يحلق العظماء المسافرون بأرواحهم ليحملوا اسمهم الطيب إلى العالم. (شعر)[2]

وعند توديعنا قال: عند سفركم لليابان أرسلوا إلى برقية بأى سفينة سوف تسافرون ؟ وبأى ميناء سوف تنزلون ؟ وفى وقت العصر جمعنا أغراضنا، وكان من المعلوم أننا مكلفون فى الليل بأن نحضن معشوقة النوم فى إبطنا، وصرنا بلا علم بتسليم العالم الذى أصبح حكايته طرفة.

---

(١) شعر من شاهنامه الفردوسى.
(٢) شعر من سعدى الشيرازى.

يوم الثلاثاء الموافق السابع والعشرين:

الرحيل فى الفجر، عندما يتحرك القطار وقت العصر لم يكن لدينا فكر بنوم الفجر اللذيذ، وشوهدت تتمة مؤشرات السفر، وجاء الملا نور الدين أيضاً معه محمد شريف لتوديعنا، وكان قد أحضر قطعة نثرية بخط الملكة كذكرى للأتابك وشكره على المساعدة التى كان قد قدمها إلى المسجد، فى الصين يتم إظهار التلطف الخاص فى كلمة أو اثنتين، ويكتب العظمة على ورقة، وذلك عظيم أيضاً، ويعطيها لشخص، وخط يد الملكة هذا يشتمل على حرفين باللغة الصينية لمفهوم السلامة وطول العمر بحيث يأتى فى يد الجنود أثناء الإغارة على منازل الأمراء، وكان الملا نور الدين قد اشتراها أيضاً بدولار واحد.

كانت لدينا رغبة جامحة للغاية كى نذهب لزيارة أماكن قبور سلسلة "مينج" حيث نستغرق فى الطريق يوماً ليس أكثر، وكان الحق معهم، ولكن مع غربة السفر فى المحفة، والضيق من البقاء يومين فى الطريق كان من الأحرى صرف النظر عن تلك الزيارة. مضى من الظهيرة ساعتان وعشرة دقائق وودعنا بكين، ووصلنا إلى فندق "ايستر"[1] فى تمام الساعة السابعة، وفى صباح يوم الثامن والعشرين ذهبنا إلى البنك من أجل استبدال النقود، وكان معلوماً أن النقود الصينية بلون الفضة تأخذ شكل الفنجان وهى عبارة عن قطعة حجرية، والنقود الذهبية عبارة عن ورقة صغيرة من الذهب والفضة الصغيرة مع الطباعة.

وتم شراء عملة ذهبية بمبلغ ثمانين دولار من أجل الأتابك، وفنجانين أو ثلاثة من الفضة إحداهما لى كى أملكها. وتم إخطار القنصل عن طريق رئيس البنك، وجاء إلى الفندق على الفور، ودعانا لتناول طعام الغداء، ولم نتصور توقفنا فى "تين سين" أكثر من يومين، لأنه لم يكن قد مضى على

---

(١) فندق ايستر - [illegible] فندق المشرق بالإنجليزية.

السفينة تسعة أيام حتى تعطلت، ولحسن الحظ كان يوجد مكان للضيافات الشتوية، ولم يملك القنصل الفرصة كى يدعونا كل ليلة، وبعد التحرى عرف أنه ليست هناك سفن حتى اليوم الرابع من شهر رمضان، وفى وقت الفراغ ذات صباح تنزهنا لشراء بساط من البائعين الجوالين، وكان حساب الفندق قد سدد، وتخلصنا من الأشياء العديمة الفائدة.

يوم الثلاثاء الموافق الرابع من رمضان:

كنا قد أمضينا أسبوع على كل نحو، وأخبرنا مدير الفندق بأنه تم وضع ثلاث سفن فى الاعتبار ستتجه مباشرة نحو اليابان، ولكنها لم تدخل البوغاز، ولم يكن أمامنا فى الطريق أى خيار، إحداها كانت تتجه صوب "شنغهاى"، وكانت قد بقت فى "شن"، وعلينا أن ننتظر وصولها بعد أربعة أيام، والسفينتان أو الثلاث سفن قد دخلت إلى البوغاز، واستقروا بمرسى المدينة، فى "سينطو" المرتبط بشركة هامبورج وحالتها أنظف.

ويقوم مدير الفندق بعملية ترغيب حيث أنه من نفس البلد قائلا إنه لو كان هناك تأخير لمدة يومين، فإن "سينطو" سنرى أنها ستقوم بالتعويض عن هذا التأخير، وتقررت الاستخارة، وحل النوم، وقمنا بالتوصية على التذاكر، وحاسبنا عليها، وكلفنا بتجهيز الحقائب، ونزلنا ضيوفا بمنزل القنصل على مأدبة الغداء، وفى وقت العصر ذهبنا إلى السفينة وعلم أنها لن تذهب هذه الليلة، ورافقنا القنصل، وكان ضيفا فى المساء، وشعرنا ببطالة قوية.

وتوقفت السفينة منهكة، عدنا إلى الفندق، وكنا قد دفعنا حسابات الفندق، وذهبنا مرة أخرى إلى بساط اليابانيين، ومضت ساعة فى الحديث، وفى المساء عدنا إلى السفينة، وفى صباح يوم الأربعاء الموافق الخامس من رمضان سحبوا خطاف السفينة، وانطلق الجرس إيزاناً بالتحرك، وجاء دور توديع "تين سين" إضافة إلى ما كان قد حدث من شفقة القنصل الروسى وعلمه باللغة والحديث إلى أقسام الفندق ومعرفته بالمدينة، وكان توقفنا فى "تين

سين" له مذاق حلو، وبدت الألفة، خلافاً لبكين، وفى أثناء هذه التصورات ابتعدت السفينة عن الميناء، وبقيت المدينة، وذهبنا نحن.

- **لا تعتمد على ما يمضى، فما أكثر ما سيمضى دجلة من بعد الخليفة فى بغداد. (شعر)[1]**

والسفينة "سينطو"[٢] نظيفة خلافا لـ "نينجوتا"، وكأس صحبتنا ممتلئ، وكان المسافرون معنا عبارة عن أربعة أشخاص، ثلاثة أشخاص ألمان وشخص أمريكى، وكان يذهب الشخصين الألمانيين إلى "سينطو"، والثالث من قبل الشركة الإنجليزية لتفقد مشترى الحديد، وهدفه رؤية "سينطو"، ويعتقد أنه جاسوس اسمه "شولتسه"، لكن ذلك الأمريكى المسمى "يعقوب" فهو شاب حسن الطلعة قد جاء لفحص أغراض تجارية ويعرف اللغة الألمانية أيضاً، وهذان الألمانيان أحدهما اسمه "بيرج" والآخر "منسل" وكلاهما خلافا لـ "شولتسه" الحسن الطلعة وأهلاً للصحبة، سيعود "شولته" إلى "تشيفو" وكان مستحباً بصورة غير عادية.

وعلى كل فقد مررنا من "تاكو" فى الثانية من بعد الظهيرة، ووصلنا إلى البوغاز فى الثالثة والنصف من بعد الظهر. وخلافاً لما كان متوقعاً من الانتظار قليلاً فى الماء، وقبعت السفينة فى الطين، وسنتحرك خلال يومين وبقينا فى أماكننا، وفى صباح الجمعة نجونا من تلك المصيبة بعد قضاء تسعة أيام فى "تينسين" ويومان هنا، كان الوقت ثميناً وقد ولى، وفى صباح يوم السبت وصلنا إلى "تشيفو"، وجاء الطبيب إلى السفينة، وتفقد أحوال المسافرين، وأخذ "السامبان" مواقعهم على أطراف السفينة، ذهبت إلى اليابس، وسلطت رأسى على فندق "بيتش"، وصعدت إلى أعلى، وكان المنظر جذابا.

---

(١) شعر لسعدى الشيرازى.
(٢) سينطو: اسم ميناء فى الصين.

وبأعلى السفينة كانت توجد غرفة، وتحت سقف تلك الغرفة كان قد تم توقيع معاهدة بين الصين وإنجلترا فى عام ١٢٩١م عرفت باسم "لى هونج شانج"، وكان عبد الله خان مرافقاً، وكان الأتابك قد ذهب هو الآخر إلى اليابس، فجاء عباس وأخذنى معه، وتم تناول الغداء فى الفندق، وفى الثانية من بعد الظهر تقدمنا فى طريق "سينطو"، البحر هادئ، ومضى الوقت بصحبته الرفقاء، والتحق بنا فى "تشيفو" امرأتان وستة أطفال، لدينا عزوة ونشعر بمتعة.

وعلى سطح السفينة كنت أعد جملة من مهامى، وتلك العلامات المنصوبة على السطح وتلك الحلقات التى يجب أن تلقى بمهارة، وفى نفس الوقت التقطت صورة أيضاً، و"منسلتين" الذى كان مرافقنا من "تاكو" ومترجم القنصلية فى "هانكو" كان بصيراً بأوضاع الصين وعن كيفية التغلب على المصاعب فى موانئ الصين، فى عام ١٢٨٥م قام الإنجليز ومن بعدهم فرنسا باحتلال موانئ الصين، وسببوا المضايقات، وقاموا باستئجار الأراضى لمدة ٩٩ عاماً، وافترشوا البساط فيها للسيطرة الأبدية، واستأجروا المحلات فى الموانئ الرئيسية للصين ويديرونها تحت سيطرتهم، ولا يعرف الصينيون حتى أبسط حقوق أصحاب المحلات، فى عام ١٣١٨م قد حملت سائر الدول عمامة مصنوعة من اللباد مثلما قلت فى "تينسين".

وتزدان فى شنغهاى المنطقة الإنجليزية، لدرجة أن التجار الفرنسيين الذين أقاموا فى المنطقة الإنجليزية قد اشمأزوا من عمالهم، وقد أعطت كل من أمريكا وانجلترا إلى الأهالى نوعاً باختيارهم، وعندما أقام السويسريون كانتون أداروها، كما تدار المنطقة الفرنسية على يد قنصل فرنسا بدون الرعاية القومية، وهذا يعد خطوة من الدولة فى طريق الحرية، فى التقسيم الإنجليزى والأمريكى لكل تاجر الحق فى التعبير عن رأيه فى حدود المبالغ التى يعطيها، ويشكل أصحاب الرأى جماعة، وينتخبون هيئة من أجل الإدارة عبارة عن تسعة مستشارين ومحاسب.

ولما كان أكثر السكان من الإنجليز أو الألمان كانت الأغلبية معهم، لكن ليس هناك مانع من إقامة أغلب الجنسيات الأخرى بتلك المنطقة سواء فرنسيون أم برتغاليون بالصورة التى يعتبرون فيها الصينى أجنبى قوقازى، وتعتبر كل القوميات جنسية واحدة فى شنغهاى، وبدون شك، فإن الهيئة العاملة فى الشئون المحلية تعرف باسم مجلس المدينة Municipal council، ومفتشى المالية، ونظام الطالب، ودائرة الأمن، والفوائد العامة وغيرها يكونوا تحت إمارة هذه الهيئة، وتنشر نتيجة الأعمال فى الجريدة الرسمية، وتقوم الهيئة المذكورة فى السياسة بالحماية المشتركة للممثلين الرسميين لبلاط بكين، وترتبط الهيئة مع الحكومة عن طريق القنصليات.

وليس هناك أى نوع من تسلط حكومة الصين على الصينيين الذين يسكنون هذه المناطق، ويتخذ العديد من الصينيين أماكن للإقامة فى شنغهاى، وهانكو، وتين سين، وكانتون ملاذاً، وفى شنغهاى يقيم فيما عدا المنطقة الفرنسية حوالى ٢٦٠ ألف شخص فى المنطقة الأوربية، ومحلاتهم تابعة للحكومة من كل النواحى، وفيما عدا المحاكم فإن قوانين كنفوشيوس تنفذ تحت رقاب شخص أوربى.

الأحد الموافق التاسع:

كان الطقس جميلاً بصورة غير عادية، والبحر صافياً كالمرآة، وكان المعهود أن نصل إلى سينطو بعد الظهر، والتى تضع ثمانية جيوش ألمانية أيديها عليها بعد الحرب، وبعد جلبة المحاربين المتزايدة قاموا بتأجيرها لمدة تسعة وتسعين عاما، وتراجع الألمان بسبب البعد عن البحر والغفلة عن الاستملاك ووضعوا الكاميرون فى أفريقيا أثناء سفر والدى إلى ألمانيا تحت طائلة العقاب وألقوا باللهب فى "داونينج استريت"[1].

(١) اسم شارع فى لندن وبالمنزل رقم ١٢ منه مقر هيئة الحكومة البريطانية.
مهديقلى هدايت: سفر نامه مكه، ص٩٨.

وبعد تناول طعام الغداء بدا الميناء واضحاً، وكانت سفينة حربية ألمانية قد ألقت بخطافها أيضاً أمام الميناء لنشر التربية والحضارة، وللآن لم يصنعوا جسراً، وتتوقف السفينة بعيدا عن اليابس بمسافة، ويقام على أطراف مدينة الصين مشروع لمنطقة ألمانية، عبارة عن قطعة مسطحة، وملحق بها عمارات، وأسفل ذلك التل تقام على أطرافه منازل قليلة للغاية، وقد شيدت أعداد منها، وتم تكليف أصحاب المبانى أن يشجروا جنباتها، ويقوموا بزراعة عدد كبير من أشجار الصنوبر التى جلبوها من ألمانيا، وفى القطاع الأوسط يوجد فندق وعمارات إدارية وتجارية، وتلفهم المصابيح الكهربية، وقد انتقلت النظافة أيضاً إلى المدينة الصينية، وتم تناول الشاى فى فندق برلين.

وفى أحد الدكاكين أمر الأتابك بشراء نقود تعد حرية بالقروش الصينية السوداء والتى انتهى العمل بها تقريباً، وحسب العادة المألوفة تم شراء بطاقات معايدة وتم إرسالها، وقابلنا ربان السفينة موسيو "هانزن" وكان رجلاً طيباً، وظللنا منتظرين وتحركنا فى الساعة الخامسة والنصف، وتوقفت السفينة الطويلة الشكل كالأنبوب، وذهب الريان وأصحاب المناصب بالسفينة إلى الساحل، وبعد العودة علم أن مهندس السفينة قد غرق.

كان للمهندس معرفة بمدير القهوة فى "سينطو"، ويذهب لتناول القهوة معه، يجوز أنه قد أسرف فى تناول ماء الشعير، وفى العودة نشرت الخبر زوجة مدير القهوة التى كانت شابة وقد وضعت مولودها حديثاً، وتريد أن تأتى إلى السفينة، وكانت تركب رويداً رويداً وجرى فى إثرها المهندس الذى كان رجلاً ضخم الجثة بدرجة كبيرة، وتعود قفزاً رويداً رويداً، وتخنقه تلك المرأة، وينقلون المهندس إلى المستشفى ولا تزال الروح فيه "إنما الخمر.. رجس من عمل الشيطان"[1]، وقد بقى الطفل ذو الشهر الواحد على يد أبيه، وكانت حادثة مدمية للقلب، ومضى الليل فى أسف، وركبت السيدة السفينة أيضاً، وهى لا تعلم آداب المجلس بصورة صحيحة، حتى ذلك الحد الذى طلب فيه ربان

(١) قرآن كريم سورة (٥) المائدة آية ٩٠.

السفينة الاعتذار لها على مائدة العشاء، وبدت السيدة حسب قول "فاضل خان جروسى" فاتنة وماكرة، ولم يؤثر عملها للآن على بياض شعرها وسواد وجهها أو جفاف ثديها وصفار أسنانها.

لقد سلمت حكومة بريطانيا بقاعدة وهى أن يكتبوا على البضائع المصدرة مكان الصنع، نقل منسل قائلاً: كنت فى أحد الدكاكين بكلكتا، وجاء رجل إنجليزى، وطلب شراء سيف، فأعطوه سيفاً صناعة بريطانية، فرفض، وقال: "أعطنى صناعة ألمانية"، وبعد تناول طعام العشاء دخل بصحبته رفقاء الترياق، وقيل إن مروجى التربية يروجون الترياق.

- **لو يرفعون الستار والحجاب من الأعمال، يصير معلوما فيما نعمل ؟** (شعر) [1]

حتى قالوا إن حكومة هولندا قد منعت أن على أهالى المنطقة ألا يعتنقوا المذهب المسيحى بحيث تسقط دعواهم على رؤوسهم.

- **صار قرص الشمس فى سواد، وصار يونس فى فم الحوت.** (شعر) [2]

للقمر هالة وعلامة الثورة، ولما كان لأى حكم فى العالم استثناء، لم تصر هناك ثورة، الجو كامل الملائمة، ولا يصير هناك تصور قط بحيث نكون فى الجدى (شهر ديماه)[3]، وأحضر عبد الله خان بعض الصور التى كان قد التقطها بعد أن صنع منها نسخاً مكررة، وتجولنا وأعطينا نسختين إلى الربان ولكل واحد من الرفقاء.

---

(١) البيت الثانى تكملة رباعية للقاص ميرزاى صفوى، وليست هناك معلومات متوافرة عنه فى كتب تراجم الشعراء.

(٢) شعر من كلستان سعدى.
سعدى شيرازى: كلستان، تصحيح محمد على فروغى، ص٢٤.

(٣) دى ماه: الشهر الشمسى العاشر من شهور السنة الإيرانية، ويقابله الكانونان من السنة الميلادية
محمد التونجى (دكتور): المعجم الذهبى (فارسى عربى) ص٣١٩.

يوم الاثنين الموافق العاشر:

استيقظنا من النوم، وتناولنا الغداء والعشاء معاً حيث جعلنا وقت الفراغ أن نقضى الوقت أحياناً فى نزهة على سطح الباخرة، وعند شعورنا بهبوب قدر من الرياح قررنا الاجتماع فى الغرفة، ودار حديث حول وضع العروس الصينية، وكيف أن الصينيين يوافقون على الزواج من المرأة الثيب بدلاً من الفتاة البكر، ويتعجب السادة الأوربيين من هذه العادة، وكانوا يعتقدون أن الفتاة تصبح فاقدة لبكارتها، كما أنهن فى بلاد المشرق بلا تربية، وبالقدر الذى تشعر فيه الفتاة بالطمأنينة فإنها لا ترى الرجل بدرجة كافية[1]، لقد قلت أن فى شرعنا "هن مصدقات على فروجهن"، ولكن لذلك مواضع أخرى.

أذكر من كتابى "تحفة مخبر": (شعر)

- يا حسرتاه إن فتوى الطبيب بهمدان طرفة، فليس من الضرورى أن تكون للفتاة علامة.
- لكن تصبح هكذا فالمرأة من الأصل بنت، وأنت لست مرتبطاً بها وهى فى حضن الأم.
- قفزت وتنهضى أنت دليل تلك الوردة الجافة، أم أنه جرح وقوس مقطوع لذلك الخياط.
- أم خيالات للاستمتاع والتمتع، وقد أعطت الحلقة رويداً رويداً الانبساط.
- لو يعط آلاف الأطباء هذه الفتوى، فمتى تتخلص الفتاة من عدم الاعتبار.

---

(١) من عادة الصينيين أنه عندما تصير الفتاة عروساً يقومون بإعادتها إلى بيت أبيها وبرفقتها خنزير مقطوع الرأس، ويكون من الأفضل إرسال الخنزير ممزق البطن، كما يعد الخنزير بلا رأس من مراسم تجهيزات العروس، ويتم تناوله فى يوم دخلتها فى فراشها.
مهديقلى هدايت: سفر نامه مكه، ص١٠١.

- **لو يكون للرجل تأمل فى الأمر، لقدم المساعد قليلاً فى الميدان.**
- **ومن خلف الحجاب قدمت الهمة، ولو كان الطريق مفتوحاً فليس ذلك سواً.**

ولم يشاهد فى مشرق الأرض، وليس لى علم عن ذلك فى بلاد الغرب أيضاً. لقد قرأت فى كتب التاريخ أن اليونانيين القدماء كانوا يفضلون المرأة الثيب، وكانت الهدايا التى تمنح للفتاة، تحملها كجزء من جهاز عرسها إلى منزل زوجها.

حقاً تختلف الأجناس، فمن الطبيعى أن تمر الفتاة أحياناً فى حياتها بمراحل ومن الممكن أن ينعكس أثر ذلك عليها قليلاً لكن لم يشاهد كونها فاقدة لها بصورة كلية، وإذا حدثت حالة من كل مائة ألف، فلا يبرز ذلك حدوثه للآخرين، ثم دار حديث بيننا عن أطراف أقاويل النسيان.

يوم الثلاثاء الموافق الحادى عشر:

كان وصولنا إلى شنغهاى بمثابة باعث على البهجة والسرور، كما كان من المفترض أن تسير السفينة مسافة فى بوغاز النهر حتى تصل إلى المدينة.

تقع المستعمرة الأوربية على شاطئ البحر، وكان منظرها يبدو جميلاً للغاية من بعيد، ودعنا طاقم السفينة، ومضينا نحو الشاطئ، قيل لنا إن فندق "ايستر هاوس"[1] وتعنى فى الإنجليزية المنزل الشرقى (فندق داود) الواقع فى المستعمرة الإنجليزية يعد أفضل فندق هناك، فذهبنا إليه، وبدا نظيفاً وأنيقاً، به غرف للضيافة مزدانة وقاعة للإطلاع، وقاعات كبيرة لممارسة لعبة البليياردو، كما توجد بداخله كافيتيريا لخدمة البلدة أيضاً.

(١) ايستر هاوس: كلمة إنجليزية Ester House وتعنى المنزل الشرقى.

وفى الطريق تم الالتقاء بالقنصل الروسى، تعرفنا عليه ومضينا، وكان أول عمل يجب القيام به هو غسل رؤوسنا ووجوهنا ، وحسب ما هو متفق عليه وصلنا مع ميرزا أحمد خان من أجل القيام بخدمة الأتابك، وكنا قد استعدينا لإعداد طعام الغداء له، وكان فى حالة شديدة من الضيق ويتحدث إلى من خلال قسمات وجهه، وكان الحق معى من وجهة نظرى، كما كان الحق معه من وجهة نظر حضرته المعظمة، على أية حال تم تبادل الأحاديث بيننا، ثم تبدل الغضب إلى شفقة، وتم تناول طعام الغداء، ونظم الأتابك هذا البيت فى مواضع عديدة:

– الغرض من الغمزة إظهار الحسن وإلا فلا حاجة منها، مثلما كان جمال عظمة محمود من ضفائر أياز.[1] (شعر)

وفى وقت العصر ذهبنا فى جولة بالمدينة حيث يقع الشارع الرئيسى نفسه على شاطئ البحر، وقيل له (بند)، وهذا الاسم فارسى الأصل، ومن هنا تصل عدة شوارع إلى داخل المدينة وهى المنطقة ذات الحدائق الغناء والتى تصل إلى مكان المصيف، ومضى الليل فى لعب البلياردو، وبعد تناول طعام العشاء جاء الإيرانيون وهم أبن رضايف، وحاجى محمد تقى، ووكيل حاجى محمد حسن نمازى وغيره، وكانوا قد قرأوا عن رحلتنا فى الصحف، وسمعوا عن وصولنا من القنصلية الروسية، كلهم تجار وممثلين عن التجار، وفى أغلب الأحيان كانوا يقومون بالتجارة فى الشاى، تعد "هانكو" القريبة من شنغهاى والواقعة على ساحل البحر الأزرق من المراكز الرئيسية لتجارة الشاى، ومن أنواع الشاى المرغوبة فى الصين شاى أولنج، وبكو، وسوشنج.

---

(١) حافظ شيرازى: ديوان حافظ تصحيح محمد قزوينى ودكتر قاسم غنى، ص٢١٣.
السلطان محمود الغزنوى ملك الدولة الغزنوية الذى فتح بلاد الهند وحطم معبودها سومنات، وكان يتعشق أحد الغلمان ويدعى "أياز".
ادوارد جرانفيل براون: تاريخ الأدب فى ايران من الفردوسى إلى السعدى، نقلة إلى العربية د / إبراهيم أمين الشواربى، القاهرة ١٩٥٤م، جـ٢، ص٥٢ و١٣٩.

الشـــاى:

كنا نعلم أنهم لا يشربون الحليب فى الصين، والحليب الذى كانوا يقدموه لنا فى الفندق كان يستورد من الولايات المتحدة، وفى بداية الأمر لم يكن الشاى المر مستساغاً إلى أذواقنا، ولكن تم التعود عليه سريعاً، وبمضى الوقت يحتسى الشاى مراً بطعمه ورائحته، ولا يكررون إضافة الماء إليه "وصاحب البيت أدرى بما فى البيت"[1] وهم يحتسونه خفيفاً (قليل اللون) أو ثقيلاً (كثيف اللون) مع السكر أو بدون سكر.

وقلما يوجد شخص لا ينفق أمواله فى العام على احتساء الشاى، ويعد متاع مملكة الوسط الواقع فى ضواحى العالم ووسط البلاد متميزاً فى فن إعداد الموائد واكرام الضيوف ، ويعد موسم قطف أوراق الشاى فى فصل الربيع بعد مرور عيد النيروز بأربعين يوماً.

ويعمل آلاف الأولاد والفتيات فى قطف أوراق الشاى ، ويعلقون فى أيديهم السلات لجمع أوراق الشاى فيها، ولاشك أن هناك لذة فى احتساء الشاى فى محلات صنعه فى ذلك الموسم، لو كان الحظ حليفاً ستتحول مرارته إلى حلاوة، وقد أسموه عيد الرعايا، وتصبح أطراف أصابع الأيدى مخضبة بلون الدم فى أماكن قطف الشاى، وكان من الأحرى أن يرددوا فى هذا الموضع شعر سعدى:

- **لا تسألنى كيف صارت يده مثل حمرة قلبك، اسأله فأصابعه فى لون الدم[2] (شعر)**

يعد الشاى من صنف "بكو" والذى تشبه أوراقه الصوف أو وبر القماش الأبيض من النوع الممتاز، ويميزون الشاى من خلال لونه بين قوته وضعف رائحته، ويجمعون الشاى فى أرضه ويدخلونه فى قوالب وعبوات، وفى ميدان

(١) دهخدا: امثال وحكم، جلد دوم تهران ١٣٥٢ هـ. ش ص ١٠٥.
(٢) سعدى شيرازى: كليات سعدى(غزليات)، ص ٤٧.

يشبه ميدان سبزه فى طهران قمت بشراء أربع عبوات من الشاى الأخضر عندما رأيتها، ولم أر نظيراً لها فى الطعم والرائحة، رائحته قوية وله طعم التمر هندى، وفى شنغهاى حكيت تلك القصة "لحاجى نمازى"، وأحضر عدة عبوات من الشاى للأتابك، ووصلتنى علبة أيضاً، ولكن ليس لها أبداً ذلك الطعم والرائحة، ولم أكن أعرف إن كانت من نوع "أولنج" أم "بكو".

الحريـــر:

الصين موطن الحرير حيث يعد من الأمتعة المرغوبة فى محلات البيع بشنغهاى، كان فى شارع "نانكينج" دكان يقع على مكان مرتفع عن الأرض به قطع من أقمشة الحرير الخام الجميلة، تم شراء عدة قطع منها، إن الأقمشة الصينية على الرغم من أنها لا تضارع الأقمشة الأوربية فى النسيج واللطف والأناقة، والنقوش والرسوم إلا أنها تنسج بأجهزة غاية فى البساطة والبدائية.

دودة الحرير:

وفى مكان تربية دود القز لا يتناول العاملون هناك البصل والثوم، ويرتدون الملابس النظيفة، وهذه الأمور يجب أن يتم اتباعها عند مشاهدة تلك الدودة الضعيفة، وحتى الكلام بصوت مرتفع يعد ممنوعاً بين غازلى الخيطان والحبال الظرفاء، كما يجب على المتنزه أن يغسل يده ووجهه عند دخوله إلى تل تربية دود القز، وهناك إن لم يجدوا الماء فعليهم التيمم "يمسحون التراب بقبضة أيديهم على رؤوسهم". ولا يجب الذهاب للعزاء بتغطية الرأس بغطاء أبيض، وكذلك المرأة الحامل.

وقد كانت الملكة "هوانج لى" أول امرأة قامت بتربية دود القز وأخرجت الخيط الحريرى الرفيع من شرنقة دود القز، وكان ذلك قبل الهجرة بثلاث آلاف سنة، ويطلقون عليها ربة أنواع الحرير، ويعتبرونها فى زمرة المقدسات، وتوجد مقصورة فى أبنية المدينة الصفراء باسم "يوئن فى" ربة نوع الحرير، ويجب على ملكة الصين أن تحمل الهدايا فى كل عام إلى هناك، وتقوم بعمل

المراسم، ويجب أن تقطف الملكة أوراق التوت من الحديقة الخاصة بالمقراض الذهبى كما يقطفها الملوك بالمقراض الفضى ويحملوها من أجل الدود ، ويعد اليوم المذكور من أيام الأعياد ، ويعمل به فى شتى أنحاء الصين.

ويمر بالخاطر أنهم لم يكونوا فى ذلك الزمان قد عرفوا غزل الخيوط الحريرية للآن، ويعد الحرير خيط الله مع مغزل الغريزة الطبيعية ، وقد نقل ماركو بولو حكايات عن أهمية "خانفو"[١] التى تعد من المراكز الرئيسية لتربية دود القز، ومن الأمثال الصينية: "الشخص السعيد الحظ هو الذى يولد فى "سوجو"،[٢] ويحيا فى "خانفو"، ويرددون قول: "السماء فوق" و "سوجو" و "خانفو" تحت، وفى شمال الصين يجلبون دود القز ليعيش على أشجار البلوط، ويقال إن هناك نوع من دود القز يعرف باسم "كريمخان"، يجب أن يأخذه لنفسه ويصنع الحرير من أجل الناس، ويضحى بروحه من أجل هذا العمل ويذهب عن الدنيا عديم الرغبة.

ولا يوجد فى الصين مرض دود القز الذى ينتشر بصورة كبيرة فى كل من فرنسا وإيطاليا ، وقد ظهرت بوادر التربية فى الآونة الأخيرة فى "تشه كيانج" بسعادة بالغة ، والسفينة التى يجب أن تنقلنا إلى اليابان تدعى سيبيريا ، ويجب شراء التذاكر قبل السفر بوقت كاف وأن تختم، وتم الاعتذار للحاج محمد تقى.

والمشغولات الذهبية والفضية الصينية تبعث على الدهشة وكنا قد سمعنا أنهم ينظفون ما يقرب من سبع طابات للخيطان من العاج المتعرج، وكان فى إحدى الحجرات طابه كانوا قد خرطوا منها ثلاث، واشتراها الأتابك، ولا أدرى ما سيحدث لو سقطت من اليد ؟ ولم تفتح صناديق الأتابك فى حياته فى طهران.

---

(١) خانفو، نفس الميناء الذى سمع اسمه ابن بطوطة الرحالة الشهير عبر مياه الخليج ، من شعر الشاعر سعدى من أفواه المغنيين الصينيين.

(٢) سوجو: من المدن الشهيرة الواقعة فى شرق الصين والمعروفة بمدينة الحدائق.

الأربعاء الموافق الثانى عشر:

ذهبنا للتنزه فى الحديقة الصينية، وتعرفنا على واحد من أعيان المدينة، دعانا لتناول الشاى فى الحديقة التى تقع على شاطئ المدينة، فذهبنا، وهو رجل معروف، وقام بشرح بعض أوضاع الصين المؤلمة للقلب، واشتكى من ظلم الأوربيين، ويسعى ضمن الأشخاص الذين يريدون القيام بعمل إصلاحات، وللأسف كانت أمتعته وملابسه كلها صناعة أوروبية، وهذه هى أول خطوة تجاه سوء الحظ، فى ظاهره القناعة والغفلة عن الاستفادة المعنوية.

- لما تصيح كالطاووس ؟ أجاب: من ؟ لا، ثم لا يا طاووس السيد أبو العلاء. (شعر)[1]

وينتهز الغرب خسارة بلاد المشرق بكل السبل والوسائل، ويضع فى الصينى أسباب التخلف المعنوى، فعندما هاجم الإنجليز والأمريكيون اليابان فى ذلك اليوم، بحيث يجب أن تفتحوا علينا باب المراودة، ولا تتركون لنا أى أثر من الذهب فى اليابان بلا فائدة، يجب على الصينى أن ينتبه أنه يجب أن ينزل من السماء، ويرى أى خبر على وجه البسيطة، ويقوم بالمعارضة بالمثل.

وكان من نتيجة "حرب كانتون" أن يبيع الإنجليز إلى الصين فى العام الواحد أفيون بما قيمته ثلاثين مليون تائل، ويريد الإنجليز أن يضعوا العمامة فوق كل مكان به لباد ، ويضعون العمامة على رؤوس كل شعب بالوسائل الميكانيكية وفى نفس الوقت يريد أربعمائة مليون نسمة أن يصلوا إلى الطريق أيضاً، وفى مواجهة الوحوش[2] لا يعمل الطلسم والشعوذة عمل لا إله إلا الله، ولا يستطيعون بخداعهم مواجهة السلوك الميكانيكى للغرب، ويصنع الفلك عمل مائة شخص، والنقل عن طريق البحر أرخص ستين ضعف، حيث تصدر

---

(١) جلال الدين محمد بلخى: مثنوى معنوى ، ازروى نسخة نيكلسون ، تحقيق عزيز الله كاسب ، ص٣٦٦.

(٢) كلمة ئى: تعنى بالصينية (وحش أو حيوان متوحش).

عبر الموانئ أمتعة لمسافة ستين فرسخ للخارج ، وكذا أمتعة تستورد داخل البلاد بالإيجار.

وكان "ليهونج تشانج" الذى قام ببعض الإجراءات المفيدة ، قد اصطدم أيضاً بمسائل وقد ذهبت أعماله أدراج الرياح، وغاصت فى أحشاء البحر، وطالما أن الغرب ليس له شأن بمذهب الصينى، فليس له شأن بمذاهب الآخرين، ولكن المسيحيين يطلقون لأياديهم العنان ، ويكون ذلك من أسباب النزاع ووسيلة للتدخل، وفى النهاية يكون للناس السيطرة طبقاً لأحام الدولة.

وليست هناك يد تعلو اليد الصينية فى الزراعة والصناعة اليدوية، فلديهم الخبز ويحيون بالقناعة، وفى أرض كتلك وشعب كهذا تكون الغفلة من قبل أولياء الأمور محلاً للأسف كهذا الحد، ولا يجب اللوم على الصينيين، فهم يصنعون أعمالهم بأيديهم، وأقاموا جداراً فى مواجهة الأشرار الشماليين، وكانوا يصنعونه بسهولة، ولا يعلمون أنه يبعد عنهم لمسافة ألف فرسخ إناس يغيرون على رؤوسهم بالمدافع والبنادق طامعين بأعينهم فى أموالهم، ومع الصناعة الحربية التى شوهدت، لم تكن هناك حيلة غير الرقص لضربهم.

يطلق على سور الصين اسم "وانجلى ليتشانج" وهو (سور عظيم يبلغ طوله عشر آلاف لى) أى خمسة آلاف كيلو متر، وقبل الهجرة بألف عام كان السور ينقسم إلى ثلاثة أقسام، وقد زادوه تدريجياً، وجعلوه متصلاً من "سوجو" إلى "شان هى كوان" الواقعة على ساحل خليج "بيتشيلى"، ولا يعلمون أنه فى النهاية سيغير على رؤوسهم من ناحية البحر بلاء التربية.

الخميس الموافق الثالث عشر:

قمت بإنجاز بعض الأعمال فى الفندق، وقام الأتابك بالاستحمام، وانشغل ميرزا أحمد خان بالمكاتبة، وسمعنا أنه يوجد متحف بشنغهاى، فقلنا إن الأشياء الجديرة بالمشاهدة يجب أن تكون موجودة بالمتحف، فذهبنا تواقين

لمشاهدة كل ما فى المتحف، وكانت عمارته حقيرة للغاية، وكانت هناك امرأة عجوز تكنس المدخل والسلم، وكان الغبار والتراب مرتفعاً فى الجو ويعبئ المكان، وكان يجب أن نعود من نفس المكان، وتحملنا ذلك الغبار والتراب بصورة خيالية، كانت توجد عدة غرف كلها خالية ومفروشة، وكانت قد وضعت بأحد الأركان فى زاوية الغرفة بعض الأكواب الخزفية المكسورة، كما كان يوجد بأحد الجوانب قفص قد وضع بداخله بعض الطيور المتوحشة أيضاً، وكان ريشها مغطى بالنبيذ، وكان شئ يدعو للسخرية، وأعطينا احتمالات بأنه قد تكون هناك أشياء قد سرقتها يد التربية، وكان توديعنا للمتحف بمثابة وداع للصين.

الجمعة الموافق الرابع عشر من رمضان:

حل يوم السفر، وفى الليل ذهبنا بناء على دعوة من ميرزا محمد تقى إلى أحد بيوت الشاى الصينية وشاهدنا جلسة ليلية على الطراز الصينى بشنغهاى، وكان علينا الذهاب إلى المنطقة الصينية، وكان يوجد شارع متسع، وقد قمنا بجولة فيه وهو ملىء بالمصابيح الكثيرة ويدعى (شارع فوتشو)[1] ، وكانت توجد على جانبيه عمارات على الطراز الصينى ذات طابقين، دخلنا إلى أحد تلك المنازل، وصعدنا إلى الطابق العلوى حيث كان به اثنين أو ثلاثة أشخاص من الإيرانيين.

وفى أحد جوانب الغرفة كان يوجد ما يشبه المسرح، وكانوا يقومون بعرض إحدى المسرحيات الصينية، موضوعها يتركز حول مقتل ضيف صاحب البيت، ولم يرق لنا بال لرؤيتها، وكان المجلس ملائماً بدرجة ما، وقال ميرزا محمد تقى: هذا الصوت لمغنى معروف هنا يجب رؤيته، وكانت توجد امرأة وشاب، وعرف أن ثلاثة حمالين قد أحضروها على أكتافهم حيث لم تستطع السير فى الطريق على أقدامها، والحمار ذو الحافر يسلك الطريق على أربعة

(١) فوتشو رود: وتعنى فى الصينية شارع فوتشو، رود كلمة إنجليزية Road معناها الطريق.

أيادى وأقدام، وكان يجب أن يحملوا النساء ذوات الحوافر على أكتافهم، وطاف بخاطرى شعر عبيد:[1]

- عندما يعطونه قدح الخمر من يد إلى يد، يحملونه من كتف إلى كتف. (شعر)

ومن المعلوم أن السيدة كانت تتدلل، وطال الوقت حتى شرفوا بالحضور، ولم يتأت من السيدة شيئاً سوى الغمزات، وكل ما غنته، لم يتم الاستمتاع به، ووقع المجلس أسيراً للتثاؤب، ووهبت لقاءها إلى أدائها وقد قال سعدى:

- إذا لم تستقر اللعبة الصينية كأنها حامض، لظن أدعيائها أنها حلوى[2] (شعر)

الحنظل فى هذا المكان، وحور الجنة لعاب سيئ لشيطان جهنمى، قلت:

- عين مطوية وحاجب مسحوب، عندما يجلس مراً لم يبد له أثراً فى العين[3] . (شعر)

السبت الموافق الخامس عشر [الخامس من ديسمبر]:

الجو بارد، وتهب رياح عاتية، يجب الذهاب بقوارب ذات موتور حتى بوغاز البحر الأزرق، وتسير السفينة ما يقرب من ثلاث ساعات نحو الظهيرة، واشترى حاجى "محمد تقى" ثلاث تذاكر درجة أولى، وأربع تذاكر درجة

---

(١) هذا البيت على ما يبدو للشاعر سلمان الساوجى، وعندما سمعه عبيد الزاكانى شاعر العصر التيمورى قاله على سبيل السخرية، وقد نظم سلمان هذا البيت فى وصف امرأته ، ويقال إن عبيد قد جاء لخدمة سلمان حيث نظم سلمان قطعة شعرية فى هجاء عبيد وصفه فيها بالوضاعة والإلحاد، ثم لحق به عبيد فى بغداد وحضر إلى مجلسه وعندما علم سلمان بالأمر من أهالى قزوين نظم عبيد دون إشارة منه هذه الغزلية الشهيرة عن سلمان، وقلب شطرتى البيت مع بعض التصرف.

(٢) هذا البيت لسعدى الشيرازى مع التصرف.

(٣) مهديقلى هدايت: سفر نامه مكه ، ص١٠٩.

ثانية، والتذاكر مباشرة حتى سان فرانسيسكو ، وتذكرة الدرجة الأولى ثمنها خمس وأربعون ليرة شاملة الغداء، وبعد تحركنا لمسافة ما هطلت الأمطار، ونفد ما معنا من نقود، ولم تكن هناك فرصة سانحة للذهاب إلى البنك، ولن يسافر وثوق حضور وباقى الرفقاء بالدرجة الثانية حيث يريدون السفر بالدرجة الأولى بأى صورة كانت، قام حاجى بمحاولات فى الأخذ والعطاء وحصل فى النهاية على تذاكر بالدرجة الأولى، واستقر الرأى أن يرسل حاجى فرق الحوالة إلى اليابان ، وقمنا بتوديع مودعينا، وأسكنا قلوبنا نحو البحر، وتتلاطم أمواج البوغاز بعمق قليل، ولكن السفينة ليست تلك التى كانت فى حيرة فى صراعها مع الأمواج.

وينبع البحر الأزرق "يانج تسه كيانج" من الحدود الشرقية للتبت، وهو من الأنهار العظيمة بالكرة الأرضية، من حيث وفرة المياه وتتفوق عليه أنهار "كنجو" فى أفريقيا، و"الأمازون" و"ريودولابلاتا" فى الولايات المتحدة الأمريكية، ويبلغ طوله نحو سبعمائة وسبعة وسبعون فرسخاً، مياهه ملوثة بالطين صفراء اللون وزرقته تكمن نتيجة انعكاس صورة السماء عليه، وفى كل ثانية يقدم البحر الأزرق للمحيط الكبير نحو عشرين ألف ذراع مكعب من المياه، ويبلغ طول سطح السفينة أربعمائة وخمسين فرسخاً ، ويكون المد والجزر محسوساً عندما يصل إلى تسعين فرسخاً فى مجرى النهر، وتستمر السدود فى تخزين المياه عند مصبه.

تقع جزيرة "سونج مينج" فى وسط البوغاز ويعيش بها اثنان مليون نسمة، ويطلقون عليها منطقة شنغهاى التجارية، وهى ليست لها نظير سوى فى كلكته، وفى المنطقة الفرنسية ليس لى علم عن معاناة جمهور الأهالى بسبب تدخل القنصلية فى شئونهم، يعد قلب المدينة الصينية نظيفاً، ولكن لا يجب الذهاب صوب ضواحيها، أو بمعنى أصح يجب سد أنف أو إغماض العين أحياناً من القذارة، وقد الحقت مدرسة عشوائية عظيمة الأهمية بمركز شنغهاى

للأسلحة[١] وتدرس فيها الطبيعة والرياضيات، والسياسة وحتى القوانين الأساسية.

الهجرة (الخطر الأصفر):

ولو أن شعوباً أخرى سيطرت بالسيف، وقد جعلت الصين سيطرتها بسواعدها ومحاريثها وأخضعت الأهالى حسب قالبها فى المناطق الغير خاضعة لها، وقد كانت مناطق معيشة الصينى أصلاً فى "هونان"[٢] و"شنسى"[٣]، وقد اتجه الصينيون صوب المناطق الواقعة إلى الجنوب من النهر الأصفر وذلك فى المائة التاسعة قبل الهجرة، وكانوا قد اختلطوا بالأهالى الذين كانوا يعيشون هناك بصورة بدائية فيها لا مبالاة وذلك بصورة فيها رحمة وشفقة، وكان (مهاتشين) على عهد سلسلة هان[٤] (٦٢٨/٤٤٠ هجرى قمرى) قد بسط يده حتى المناطق الواقعة شمال بحر الخزر وقام بتعميرها، ولم يسيطر على نواحى إيران، وبعد ظهور الإسلام فى المائة الثالثة للهجرة قل نفوذه فى مناطق آسيا الوسطى، ولكن "المغول" و"منشو" أغاروا على الصين نفسها من الأطراف الشمالية، وأصبحت عودتها إلى الصين مستحيلة.

ونتيجة لضيق المكان اتجهوا صوب جزيرة "فرموزا"[٥] ومنذ ذلك الوقت وطأت أقدامهم البحر، وتوجهوا صوب جزر الهند وخاصة جزيرة جاوه، وفى جاوه تفوق عليهم الهولنديون، ووفقاً للقوانين كانت تمنع الحكومة الصينية الهجرة، وتقوم بتنفيذ سياسات شديدة القسوة، وكان السبب فى ذلك أن المهاجرين قد اختاروا الإقامة كقلب واحد فى فرموزا والمناطق الأخرى،

---

(١) جبه خانه ، أسلحة خانه ، قور خانه: مركز المهمات ومخازن السلاح.

(٢) هونان: محافظة فى جنوب الصين.

(٣) شنسى: محافظة فى وسط الصين.

(٤) هان: أسرة ملوك الصين التى حكمت هناك فى القرنين الأول والثانى للميلاد (٦٢٨/٤٤٠هـ).
دهخدا: لغت نامه ، جلد ٤٩ ص ٩٤.

(٥) فرموزا أو تايوان: جزيرة تقع جنوب شرق الصين وعاصمتها تايبيه ، وتبلغ مساحتها نحو ١٣٨٣٢ مليون متر ويقطنها أكثر من ثمانية ملايين نسمة. المرجع السابق، جلد ٣٧ ص ١٩٤.

وازدادت مراودة وحوش الغرب يوماً بعد يوم مع متاع السماء، وكان السبب الرئيس فى ذلك منع الهجرة، وفى عام ١٢٥٧م أفتتح ميناء "آموئى" للتجارة الخارجية بموجب معاهدة "نانكينج"، وتحققت الهجرة بصورة أكثر، وفى معاهدة ٢٤ أكتوبر من عام ١٢٧٧م وقعت حكومة الصين وثيقة حرية الهجرة، يعد المهاجرون الصينيون إناس يتسمون بكثرة العمل وقلة المؤونة، وقد وقعوا فى مصيدة قبضة عمال المستعمرات، مكان شراء الذهب فى يد بلا مروءة، ومنعت الحكومة عادة تأجير الشخص حيث كان العمل قد ساهم فى حركة الشراء والبيع.

وكان شكل السفن التى تحمل المهاجرين يشبه تلك التى تنقل الحجيج، زحام غير عادى، كأنها أغنام تعيش على سطح السفينة، الأثاث منعدم والازدحام كثير، وأحياناً يكون هناك صياح وصراخ بسبب اندفاع حفنة من المتسولين الطلقاء، ويعد كل من مستأجرى الأملاك ومديرو المناجم، والمتصدون للمصانع الساعات فى انتظار وصول المهاجرين، وقد تربصوا فى مكان وصول السفينة مثل الذئب الذى هاجم قطيع الأغنام، وكان أغلب المهاجرين بمثابة قروض للسفينة، وقد صاروا أسرى الدلالين بحيث يقومون ببيعهم إلى المحتاجين.

وللآن لم يستطع قانون قط أن يحفظ حقوق الإخوة العاجزين فى مقابل الإخوة الممتلئين بالجفاء وبلا حياء، إن ألفاً من أرواح الصينيين فداء لجيب دودة أوربية، وكان العويل والصياح يتأتى من أفواه العبيد والغلمان مع مراقبة سلوكياتهم ، لكن حال العبيد والغلمان كان أفضل من حال العمال والأحرار، وارتضت الحكومة الإنجليزية فى سنغافورة[1] وجود القليل من الدلالين والمهاجرين بصورة محدودة، ولم تكن هذه المرة نتيجة الشعور بالرأفة

---

(١) سنغافورة، شبه جزيرة وأيضاً ميناء يقع فى نهاية شبة جزيرة مالاكاى فى جنوب آسيا حسبما ذكر المؤلف.
مهديقلى هدايت: سفر نامه مكه، ص١١١.

ولكن من أجل ترغيب من لا مأوى لهم فى الاتجاه نحوهم، ويمنع القرار الشفهى الإقامة لأكثر من شهر، ويعرف بالقرار الكتابى فقط والموقع من المفتشين الرسميين بالقوة، ويجب أن تعطى صورة من القرار إلى العامل مكتوبة باللغة الصينية.

ويجب على العامل عند التوقيع أن يكون بالغاً (عمره ١٦سنة)، وتنحصر مدة التأجير فى ثلاثمائة وستين يوماً، وتكون مدة العمل تسع ساعات يومياً أو بالمدة وذلك بتوقيع المسئول الصينى، ويزيدونه عن كل ساعة إضافية علاوة جراماً من الذهب، أى ما يعادل خمسة نقود[1] عن اليوم الواحد ويعطون من لا مأوى لهم أكثر من ثلث المساعدات ولا يجعلون كسوراً من الأيام فى كل شهر.

ووضعوا حداً لإيجار المنازل أيضاً ولا يطالبون ومن أجل قبول شخص لا مأوى له بأكثر من خمسة ريالات كإيجار وطعام يومى بعشرة ريالات، وكانت مساعدة حكومة الصين لمن لا مأوى لهم أخذ وجه التذكرة.

ولما كانت المرأة لا تستطيع أن تغادر أرض الصين دون الحصول على إذن أبيها وأمها، فقد كانوا يجيزون ذلك للرجال المتزوجين على أن يعودوا للوطن مرة أخرى، ويقومون بإنفاق مدخراتهم وأرصدتهم المالية فى وطنهم الأم، والتى كانت غالباً تصل من ٢٠٠ إلى ٥٠٠ ريال ذهب.

ويذهب أغلب المهاجرين ويصل عددهم إلى ما يقرب من (١٩٥) فقط إلى الخارج، وفى "هانكنج" كانت ترسل الدلالات الفتيات والنسوة إلى سنغافورة بالطرق الخداعية، ويفرط الآباء والأمهات فى بناتهم من أجل حفنة دولارات، وإن كان هذا الصنف يقنع بالقلة القليلة لما وقع فى شرك الخداع المضنى، ولا توجد فى برلين ولندن أى من تلك المنازل العمومية التى تعرف باسم (ديار

(١) بول: عملة نقدية واحدة تعادل أقل من "الشاهى" وهى العملة الرائجة فى العصر القاجارى، وهى عبارة قرش أسود.

الفحش)، وهى متوافرة فى باريس حيث يجب على هؤلاء الضعفاء ان يقضوا بقية أعمارهم فى سجون الشهوات، ويكونوا وسيلة لحياة البهائم الأنسية، وقد فر البعض أحياناً، ثم اكتشفت الأمر، وقد قامت الحكومة بمعاقبة المتصدين لذلك وهم الراغبون الناهون فهم فى باطنهم لديهم الرغبة لممارسة العمل وفى الظاهر لا يريدون ذلك ويكونون موضع اللوم لكن ما العمل ؟ فإن طبع قواد النساء إلى الرجال والخلق الوضيعة هى الحصول بكل حيلة على تصريح بمنح النساء للرجال، إن معاملة الدلالين للمهاجرين والحاجة إلى دلال مطلع على خبايا الطريق والوكر كان يحدث بصورة محرمة، ووصل لحد تعرض المهاجر للبيع والشراء.

ويؤمن الصينى بأن لكل أفراد البشر ثلاثة أرواح: الأولى تبقى فى جسد المتوفى ومنها احترام القبور، والأخرى فى اللوح حيث يبقى اسمه فى مقصورة الأجداد، أما الثالثة والأخيرة فهى انتقاله إلى عالم الأرواح حيث يرسلون الهدايا من أجله، وليس للهدايا أى اعتبار فى المقدار والقيمة، والأهمية فى تعداد ما أرسله المرسل لهذا السبب فإن كثرة الرجال (الأولاد الذكور) فى الأسرة مطلوبة، وقد ترسخ هذا الاعتقاد منذ آلاف السنين وصار سبباً فى ازدياد السكان، والرجل الذى ليس له ابن وأحفاد ذكور يكون تعيس الحظ ويبقى فى العالم محروماً من الهدايا، ولهذا السبب يزوجون الأبناء للفتيات سريعاً ويزوجون الفتيات للأزواج، ومن أجل حفظ النسل السليم والسلالة القوية فمن المكروه تزويج زواج الأقارب، حيث لا تشترك أسرتان فى اسم واحد.[1]

وقد كانت تلك القاعدة موجودة فى الصين منذ القدم وهى أن تكون الفتاة تابعة لأسرة الزوج، والعادة أن يحتووا المطلقة فى أسرة الزوج، ويستنكف الصينى بشدة نكاح المرأة سيئة السمعة، لذلك فهو يطمأن للفتاة

---

(١) فى هذه العقيدة عدة حكم: الحفاظ على بنية الأولاد، منع الفساد فى اختلاط الرجل بالمرأة والمراقبة فى النذور بحيث تصل فائدته إلى الفقراء، إزالة صعوبات الحياة فى الحضارة وضعف الإيمان فى تدين الجميع، وإدخال الخلق إلى الروح.
مهديقلى هدايت: سفر نامه مكه، ص١١٣.

التى لم يرها غيره، ولا يسعدون لغير ذلك، ولو أن هناك فتاة واحدة من بين مائة ألف فتاة فإنها تكون فاقدة لما يطلبونه من الفتاة، ولا يعممون ذلك الاستثناء، ذلك أن الفتيات اللعوب هن أسرى فى أيادى القوادين سيئيى النفوس وهن رهن للتوسل إليهم كى يكن فى فخ رجل قصير.

ومع كل ذلك الاهتمام بالزراعة عن طريق كثرة تعداد السكان وقلة وسائل منع الحمل والنقل، فقد حدث قحط شديد فى ممالك الصين، وقد سنت الحكومة الأمريكية القوانين العديدة لمنع المهاجرين الصينيين فيما عدا العمال الذين هم فى حاجة إليهم، ويعتقد الصينى أنه لو مات فى الخارج فإن روحه لن تصعد إلى السماء، ولهذا فهو يسعى جاهداً حتى يعود إلى أرض الوطن وأن ينفق مدخراته وأرصدته فى وطنه الأم.

يختلف الباحثون فى أمر الصين، فبعضهم يعتقد أنه عندما أدركت البلدان الغربية آلات الحدادة والنجارة فإن ذلك سينقلها للاهتمام بالعمل والقناعة فى المعيشة وستكون لها الريادة، ويقول البعض الآخر إن الصينى سوف لا يقبل مذهب الغرب، وسيقهر فى أعقاب الأفكار الجامدة، ويختلف تفسير معنى الحضارة عندهم، يتصور الصينى هذا وينسى أن الغرب ليس لديه كسر فى الأفكار الخام عن الشرق وليس أكثر منه تجربة وكذلك ليس أكثر منه نضجاً: "كتعليق شكل الخنزير من قبة القميص"، "لا تحفر البيت بالقدم فالأبرص من أجل فتح الحظ وغيره".

كان بعض التجار يقولون على متن السفينة إن الزعم الصينى له اعتباره كونه أكثر من وثيقة يابانية وقولهم ليس عليه غبار، أما أصحاب الرأى الثانى فيعتبرون اللامذهبية من مستلزمات التربية، والحال أن عشر أعشار أهل أوربا دهريون، وإن ضيق الثياب وفضفضتها وطول العمائر أو قصرها أو الأثاث ومستلزمات البيت كلها ليست من علامات التحضر، إن تقدم أهل الغرب فى الصناعة لا يتم النظر إليه بظرف، ولكن النظر إلى سهولة العمل كنتيجة لحسن الاتفاق. يعد الالتقاء بالقوى البخارية والتفوق (واختراع الأسلحة الفائقة)

واقتباس هذين الركنين ليس منافياً لقانون الأبوة التى فوق قدرة الصين واستعدادها.

وأضيف إلى ذلك أن هذا الضعف من التقدم الأوربى سيصير فى النهاية بلاء على أرواحهم، إن البلاء الميكانيكى أقوى من البلاء الأصفر.

لقد صارت أوربا فى المائة سنة الأخيرة صاحبة نفوذ نتيجة لغارات وغزو أمريكا، لإفريقيا، وآسيا، لكن نفس النفوذ هو هدم جذور الممالك مرة واحدة والانتفاع بها، وستصير أسبانيا، والبرتغال، وهولندا تحت حمل الأسلحة كلها عظام صغيرة، إلى متى تصير العظام رميمة، ويتم القضاء عليها ؟

إن الحضارة المزيفة اليوم تتظاهر بالزخارف والتجميل الزائد، وقد نالت عظمتها من الاحتياطى الموجود فى أقطار العالم، ويجب الحصول من الآن فصاعداً على رأسمال الحياة بعرق الجبين وكد اليمين، فى هذا الميدان فإن المعظم يتحمل الطاقة بضيق ويعيش بالقناعة ويتغلب على الصعوبات التى تواجهه أفضل من قيامه بالغزو، ولا يأتى اليوم الذى يقبل فيه الصينى التبعية للأجنبى بصورة أو بأخرى، لكن الصينى يخفى بأقل تصميم وتذكره سوى أنه سوف لا يحرم من التبعية لليابانى فى الحصول على الفيض السماوى والارتباط بالأجداد.

ويأتى فى ارتباط الحكومة الصينية الاعتقاد بالأرواح الثلاثة التى قلناها، " لقد وضع السكارى أساساً طيباً للخمارة"، ويقال إن أرض المشرق تعتقد فى الخرافات، وأى خرافة ليست فى أرض الغرب ؟ يرون الإبرة فى كف قدم الآخرين، ولا يرون مسلة خياطة الأكياس فى أعينهم.

نبذة تاريخية:

ينقسم تاريخ الصين إلى عصور تصل إلى ستين عاماً، وكانت صناعة الطباعة متداولة بينهم منذ ما يقرب من خمسة آلاف عام باختراع "فوهى"، ومع

هذا فإن تاريخ الصين يمر مثل سائر التواريخ بقصة، حيث كان هناك قوم وقد أغار عليهم قوم آخرون من جبال "كوئن لون"، فانتقل أصحاب الأرض إلى الجهات الجنوبية، الأرض هناك شاسعة وتعادل سبعة أضعاف مساحة إيران وسكانها مطيعين، الأنهار كبيرة وأغلبها ممرات ملاحية وطرق هبة من الله.

وصار هناك ارتباط كبير واصبح الاهتمام بسلسلة الأجداد سبباً بأن كان لديهم اهتمام غير عادى فى تحديد التاريخ، ومن أهم خصالهم الصبر والقناعة والهمة لإنهاء الأعمال والثبات، صادقى العهد، وأذكياء فكرهم متقد وهم فى الحساب عقلاء ومقتدرين، فى بادئ الأمر كانت لديهم عادة انتخاب الرؤساء حتى عهد "هيا" (ألفى عام قبل الهجرة) حيث صارت الرئاسة بالوراثة، ومنع الاضطراب كنفوشيوس من تنظيم الدستور من أجل السياسة والحياة (ألف ومائتين سنة قبل الهجرة).

وكان "تسين" (بسكون التاء) على رأس السلسلة الرابعة حيث قتل كل ملوك الطوائف، وسمى المملكة باسمه، وتوسل إليه الأمراء طالبين بحقوقهم للإمارة فى كتاب "شوكينج"، وأحرقوا ذلك الكتاب، وقتلوا أربعمائة شخص من المروجين لذلك الدستور، وقام "هان" على رأس السلسلة الخامسة بجمع الأخبار والمعلومات، وأثناء جمع دستور كنفوشيوس وامتزج القبيح والجميل معاً، وقد تقدم أحد أمراء هذا العصر حتى بلغ بحر الخرز، وقد كانت البوذية منتشرة فى الصين فى ذلك العصر، وقامت السلسلة الثامنة عشر بتنفيذ الأوامر فى الصين حتى بزوغ دولة جنكيزخان.

لقد كان الدستور بشئونه الكلية والجزئية وتأكيد العصمة والعفة أساس ازدهار الحياة الصينية، وبلغ حد التعديل بين ما هو عام وخاص، إن تقسيم الأرض وتفكيك الحروف والمشاغل وملائمة وسائل الاهتمام بالمعارف، وقد اعتمد أساس الجيش على الثوار المؤازرون للجيش، "وكان قد تبقى

الأسف على هذا الأساس"، ولو أن تاريخ رشيد[١] يشتمل على رواية شرح أحوال المغول، فإن "سفر نامه" لماركوبولو تحتوى على الإلمام بأحوال بلاط "قوبيلاى"[٢] ، ويطلق رشيد على النهر الأزرق اسم "قراموران"، وهى ناحية تقع بين الصين وماتشين، وقد أطلق المغول على الصين اسم "الخطا"، وموطن جنكيزخان "أنان كلوران" من ضواحى "قراقورم"[٣] على أطراف بحيرة بايكال، وقد أورد الجوينى[٤] شعراً فى بداية التاريخ يقول فيه:

– إن الشخص الذى يكون مهيأً للدولة، إن لم يبحث عنها تبحث عنه الدولة. (شعر)

هكذا تكون الحقيقة وإلا فأى تناسب بين "قراقورم""ونانكينج"[٥] "وكنارجنج"[٦] "والدانوب"[٧] ومع هذا فقد وطأ المغول أرض الصين، فى عصر السلسلة العشرين لمينك (٧٧٠ – ١٠٥٤ هجرى قمرى)، قدم البرتغاليون إلى "ماكاو"[٨] ، وسار دعاة المسيحية فى الطريق، وتوسع الأسبان والهولنديون فى

---

(١) المقصود كتاب جامع التواريخ لمؤلفه رشيد الدين فضل الله الذى ألفه فى عام ٧١٠ هجرية حسبما ذكر مؤلف سفر نامه.

(٢) قبلاى أو قوبيلاى قا آن، خليفة وشقيق منكوقا آن ابن تولى خان، ابن جنكيز خان وشقيق هولاكو خان مؤسس سلسلة "يوان" بالصين (المتوفى عام ٦٩٣ هجرية).

(٣) قراقورم: مدينة فى منغوليا، وقد كانت عاصمتها لفترة ما، واليوم صارت خراباً، وكانت تقع فى المسار العلوى لنهر أرخون وفى غرب العاصمة الحالية لمنغوليا أى "اولان باتو".
المرجع السابق، ص٤٩.

(٤) المقصود عطاملك الجوينى صاحب كتاب تاريخ جها نكشاى والذى ألفه فى عام ٦٥٨هجرية حسبما ذكر المؤلف.

(٥) نانكينج: معناها العاصمة الجنوبية، مدينة تقع فى شرق الصين فى ولاية كيانج سو التى كانت عاصمة سلسلة مينج لفترة.
مهديقلى هدايت: سفر نامه مكه، ص١١٦.

(٦) كنج: نهر فى الهندوستان كبير للغاية منبعه جبال تدعى سوالك، ويمر من وسط الهند وبنجلاديش ويصب فى عمان، ويعتقد فيه الهنود ويتفاءلون به ويغتسلون فى مياهه ويضعون فيها باقى رماد الجثث وعظامها فيعد ذلك بمثابة فوز عظيم، ويطلق عليه اليوم نهر فيزوم.
دهخدا: لغت نامه، جلد ٣١ ص٤٧٥..

(٧) الدانوب: نهر فى أوربا.

(٨) ماكاو: فى جنوب غرب هونج كونج فى الصين.

فرموزا ونينجبو[1] فى التجارة، وحدث الاضطراب، واتجه "منشو" من قبائل التتار صوب بكين، وحل "شونتشى" ملك منشو باسم "سينج" بدلاً من "مينج" عام ١٠٥٤م وحسب رواية قام مينج وملكته بإتلاف شجرة تدعى "أقاقيا" أعلى تبة الفحم.

وتقوم السلسلة الواحد والعشرين للآن بتنفيذ الأوامر فى الصين[2] ، وفى عهدهم ظهرت شوكتهم، وفتحوا فرموزا بنواحى "سونجارى"[3] والتركستان حتى طشقند[4] ، وكاشغر[5] ، والتبت، وانهى الخان الخلافات على حدود الدولة عام (١١٠١ هجرى قمرى) بالحرب مع الروس، وكانت روسيا ترسل سنوياً قافلة إلى بكين، وكانت تحتوى القافلة على تحف بدلاً من الفواكه المجففة فى موكب الخاقان مقابل اكتساب المعلومات (١٠٥٦هـ.ق).

وفى عام ١٠٧١هجرية وضعت فرنسا أقدامها فى الميدان، وسلكت بريطانيا عام ١٠٨١ هجرية ومن بعدها ألمانيا الطريق إلى كانتون فى عام ١١٩٦هجرى، وللآن هم معروفون باسم شعب العقابين والعقاب الواحد، وفى عام ١٢٢٣ هجرية استولى البروتستانت على مملكة الوسط، وفى عام ١٢٣٠ هجرية صدرت الأمر بإخراج الكاثوليك، ورفعت طوائف بوريات والقرقيز[6] رؤوسها وأسس ملك خوقند[7] بناء ليس جميلاً، ومن الجانب الآخر جعل الأفيون الرغبة الصينية مرة، وقامت الحرب مع الإنجليز بسبب بيع الأفيون (١٢٥٠هـ.ق).

(١) نينجبو: فى جنوب شنغهاى وجنوب شرق خانقو.
(٢) فى تاريخ هذه الرحلة عام (١٩٠٤ ميلادية).
(٣) جونجارى (دزونجارى) مكان وصحراء فى شمال ولاية سين تشيانج (التركستان الصينية).
(٤) طشقند: مدينة الشاش القديمة فى بلاد ما وراء النهر.
(٥) كاشغر: مدينة تقع فى غرب ولاية سين تشيانج.
(٦) واحدة من عشرة من طوائف من مسلمى الصين وهم من أصل تركى ولغتهم التركية حسبما ذكر المؤلف.
(٧) من مدن ما وراء النهر القديمة والتى تقع فى جنوب شرق طشقند وشمال فرغانة.

ولم ينجز "اللورد نابير"[١] العمل بهمة، وصدر الحكم بضبط الأفيون الموجود، وقد وصلت كميته إلى ما يزيد على عشرين ألف صندوق بما قيمته مليونان وخمسمائة ألف ليرة، وقاد كلاً من "السير جورج آلبرت"[٢] مع ثلاثة آلاف جندى و "بوتينجر"[٣] مع ألفين جندى الحملة العسكرية، ولم يكن للصينيين مدافع، فقاموا بتسليم كانتون وشنغهاى عام (١٢٥٨هـ.ق).

وخسرت الصين حوالى ٢١ مليون دولار (خمسة آلاف)[٤] وتعهدت بإعطاء ثلاث سنوات، وصارت موانئ كانتون[٥]، وآموى[٦]، وفوتشو[٧]، ونينجبو، وشنغهاى سوقاً للتجارة الإنجليزية، وفى معاهدة نانكينج كان لأمريكا نصيب أيضاً فى النفوذ (١٢٥٩هـ.ق). وفرنسا التى كانت قد أرسلت أيضاً المساعدة أضافت فصلاً على الاتفاقية وهو أن يكون الصينى حراً فى قبول الدين المسيحى، ولم يصدر المنشور اللازم، فقامت فرنسا بالتهديد بالضرب بالمدافع، وفتح البابا أيضاً باب الاتفاقية عام (١٢٦٣هـ.ق)، وازداد البغض الصينى يوماً بعد يوم. وكانت الأطراف ترى ضرورة تدارك مينج فى معارضة منشو.

ثورة تاى بينج:

وكانت تنشد الجماعات الرافضة المعروفة بزهرة النيلوفر والشاى الخاص وغيرها فى الأطراف اتفاق الثلث، والسماء، والأرض "وزاد فيهم نغمة أخرى (١٢٦٠هـ)، وارتبط المسيحيون بتلك الجماعة، وفى عام ١٢٦٧هـ قام أحد الأمراء يدعى "تاى شانج" بالصلح الكبير بالترويج للمسيحية ودعا نفسه

---

(١) اسم قائد إنجليزى.
(٢) قائد إنجليزى.
(٣) قائد إنجليزى.
(٤) أى أن الدولار كان يعادل خمسة ريالات فى ذلك الوقت.
(٥) كانتون: تقع فى جنوب الصين شمال ماكاو.
(٦) آموى: تقع فى مواجهة جزيرة فرموزا.
(٧) فوتشو: تقع فى شمال آموى حسبما ذكر المؤلف، وليست هناك معلومات متوافرة عنها أيضاً.

ملكاً، وطبع التوراة والإنجيل ولم يقبل تعميد دعوته الواضحة بملاحظة ابن السماء "ودالاى لاما"، ودعا نفسه شقيق عيسى، وأدخل هذا الشخص نانكينج فى حوزته، وفى سنة ١٢٧٤هـ كان يحكم وصار مفوضاً من قبل الحكومة فى بعض التصرفات، وفى تلك الأثناء حدثت حرب إنجلترا وفرنسا، وعلا صوت خافت للتقويم فى الصين.

وكان الإنجليز قد أعطوا بموافقة فرنسا إنذار العار فى الشكوى من تأخير تنفيذ معاهدة نانكينج عام ١٢٧٤هـ، وفرضوا رسوماً جمركية عليهم حيث هددوهم بالقصف، واستهزأ سياسيو إنجلترا وفرنسا على ساحل "تيمس" و "سن" فى المباحثات بأساس الاتفاقية، وعملوا مع ثمانية آلاف شخص، وتم تسليم كانتون، وأرسلوا المذكرات إلى بكين بموافقة بلاط بطر سبورج وواشنطن، ولم يصل الرد، ودخلوا إلى خليج بيتشيلى عام (١٨٥٨ هجرى مسيحى)، وساروا فى "تاكو"، ولم يصل الخبر من السماء، وضربوا الأرض بالمدافع، وذهبوا إلى "تين سين" فى عام ١٢٧٦هجرية، واستولوا على شنغهاى، وجاءوا إلى تونجتشاى" على بعد خمسة فراسخ من بكين.

وطلب الخاقان أن يعودوا إلى "تين سين" حتى تعقد المباحثات، وقيل يجب أن يأتى سفراء كل من إنجلترا وفرنسا إلى بكين، وألا يرافقهم أكثر من ألف شخص، وصار أصحاب المناصب الإنجليز والفرنسيين موضع هجوم فرسان التتار وقتل بعضهم وأسر البعض الآخر (فى ١٨ ديسمبر)، واشتعلت نيران الحرب، وفر خمسة آلاف من التتار بلا عار، ويطلب للآن بلاط الصين العودة، وفى الخامس من أكتوبر استولى الفرنسيون على القصر الصيفى وقاموا بالهجوم عليه، كما أشعل الإنجليز النار فى ١٦ و١٨ أكتوبر، ووصل كل من "اللورد آلجين" السفير الإنجليزى، و"البارون جوس" السفير الفرنسى إلى بكين يومى ٢٤ و٢٥ أكتوبر، وعقدت معاهدة (وتم توقيع معاهدة)، ونشر ذلك الصحف، وعاد الجيش الأجنبى إلى "تين سين"، ومكثوا هناك[1] وفى يوم

(١) فى تاريخ رحلة الكاتب أى فى عام (١٩٠٤م).

الثانى والعشرين من أغسطس عام ١٨٦١م (١٢٧٨هـق) وصل "هين فنج"[١] إلى الأرض بصعوبة، وصعدت ثلثى روحه إلى السماء، وكان عمر "كيت سى يانج"[٢] ستة أعوام، فناب عنه "كنج" وبمرور الوقت أعاق طريق الروس، والبرتغال، والأسبان، وبلجيكا، والدانمارك ووقع معهم معاهدة تجارية، وطلب مساعدة إنجلترا وفرنسا من أجل طرد "تاى بينج"، وطلبوا من الله أن يتم حرق "تاكينج" وعائلته.

وأدخل "كنج" إنجلترا وفرنسا فى تعليمات النظام، وثار أتباع ماندارين، وخرجوا فى طلب اعتذار المعلمين فى أكتوبر عام ١٨٦٤م.

- **يجوب الجميع وراء المنفعة ولا يجوب أحد وراء الحسن. (شعر)**

ولم تخمد ثورة "تاى بينج" حتى ثارت ثائرة المسلمين، وحدث اصطدام، وفر سليمان بن عبد الرحمن الذى كان رئيس القوم، واستمرت الحكومة الإسلامية تحكم فى كاشغر حتى عام ١٢٩٣ هجرية، وحلق "كيتسيانج" فى السماء والذى كان قد لقب بـ "تونجتشيه" (منسق النظم)، وخلفه ابن أخيه الذى قلنا عنه وكان يبلغ من العمر أربع سنوات باسم "كوانج سه او"[٣] (خلف الشرافة)، وكانت مشكلة المعاهدات مثارة، والصينى قيد القوانين ويديه مكبلتان، ويخرج الأوربى من بين حجرين ويريد ألا يكون لديه ضيق من الضغوط، ويحدث اضطراب فى المملكة ويسقط أثناء الصيد، وجاء الألمان إلى الميدان أيضاً، وهدفهم طرد سارقى البحر، ويمنع الأمريكى المهاجرين، يقول بلسان الحال: نحن نأتى، وأنتم لا تأتون، وصل هوس اليابان أيضاً إلى الغليان.

وتنظر كوريا، وتمادى الخوف من عام ١٢٩٠هـ حتى ١٢٩٩هـ ومهدت الاتفاقيات لذلك، وفى عام ١٢٩١هـ لجأوا للخاقان ولم يطلق الصينى على

---

(١) هين فنج (شى ين فنج) إمبراطور الصين حسبما ذكر المؤلف.
(٢) كيت سى يانج: ابن الإمبراطور الذى وصل إلى الملك تحت إشراف أمه الملكة الوارثة "سوشى".
(٣) كوانك سه او: هو نفسه كوانج شو حسبما ذكر المؤلف.

الأوربيين لقب "ئى" أى المتوحشين (الحيوانات)، ولم يقولوا شيئاً بحقهم، وكأنهم لم يظلموهم، وللإنصاف لا يقال على الشعب (حيوان) فعلى بعد ألف فرسخ يهيلون المدافع والبنادق على رؤوس القوم بحيث لا يعطوهم فرصة للاختصام قائلين لهم نريد أن نضربكم، استغفر الله أن يكون مثل هؤلاء القوم حيوانات، وينفذون بأعينهم الشريرة من بعيد إلى آداب ومعتقدات القوم، وفى كل مكان ينادون بالحرية، ويتدخلون فى كل شئ.

وعلى ذلك يقول الشعب لا تأتوا إلى منزلنا من أجل اكتساب المعيشة، ولاشك أنه لا يطلق على هذا القوم لفظ "وحش"، ولم يسمع لفظ "أوء" ! ولا يخاف الطفل فأطفال السماء لا يخافون، قالوا لا يريد شعبنا أن يأتى إلى أرضكم، إذهبوا أنتم التجار أيضاً من أرضنا، وفى "قلجاى"[1] بقى الخلاف مع الروس متوقفاً عن طريق الحرب مع العثمانيين، وقد أعطى القرار مع "ماركى سينج" فى بطرسبورج[2]، وفى هذا الصراع استولت فرنسا بموافقة بريطانيا على "آنام" و "تنكينج"[3]، ولم يستطيعوا كسر الصلح السابق للحن الحرية فى نصف أفريقيا، وقيل سوف تكون الرئاسة المعنوية لهم مع الصين.

استولى "ياماكاتا" على كوريا، واستولى على منشوريا وبرت آرطور، وكذلك جزيرة "واى هاى واى"[4]، وبتدخل كل من إنجلترا، وفرنسا، وألمانيا وصل آكلو الجيفة السياسية "واى هاى واى" إلى إنجلترا، وأعطوا فرموزا إلى اليابان، واستولت ألمانيا على "كيانتشو"[5]، واستولت روسيا على برت أرطور، واعتبر الإنجليز أن "النهر الأزرق" عملياتهم الخاصة، واستولت فرنسا على ضواحى "تنكينج" الواقعة على خليج "كوانتشه اوان"، ولم يتم عمل رسوم

(١) قلجاى: من المدن الواقعة شمال التركستان الصينية حسبما ذكر المؤلف.
(٢) بطر أو بطرسبورج: هى لييننجراد.
(٣) تنكينج: فرع من الهند الصينية السابقة التى كانت تحت سيطرة فرنسا.
(٤) فى عام ١٨٩٤م، وياماجاتا على ما يبدو اسم قائد يابانى.
(٥) كيانتشو: أرض تحت سيطرة الألمان فى الصين فى جنوب ولاية شان تونج، استولت عليها اليابان فى عام ١٩١٤م ثم عادت إلى السيادة الصينية فى عام ١٩٢٢م حسبما ذكر المؤلف.

الأخوة والعدل بصورة كاملة، "يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم"[١] . وأعد "كانج يووى" وهو من أهالى شنغهاى على الملك أن يدير شئون المملكة بمساعدة إنجلترا وأمريكا مثل اليابان وكان معارضاً لعمته "جرجه"[٢] ، ورافقه أعيان المملكة بالنظر إلى المصالح التى تعم عليه مع الملكة التى كان لها نفوذ حتى الآن، وحبسوا الخاقان فى ٢٢ سبتمبر ١٨٩٨م.

ولم يحدث اختلال فى السماء ولكن الأرض هى التى اختلت، وفر "كانج يووى" إلى إنجلترا متن سفينة إنجليزية، وقطعوا رأس أخيه، ونشروا الخبر فى جريدة "لويد آسيا" باسم ابن السماء: "كنا قد وضعنا فى اعتبارنا إصلاحات لتحسين أحوال الملك والشعب، ولم يكن المقصود تبديل الأصول القديمة ولم نتشوق إلى أصول جديدة ... وتم إلغاء بعض إدارات الحكومة، وكان الاتجاه نحو الاقتصاد، رأينا أننا إن كسرنا مكان، لأضاف ذلك مكان آخر لهذا عدنا إلى النظام المألوف.

إن الجريدة ليس لها مصرف فعلاً، تتشوش الأفكار، ونذير عدة مدارس فى بكين كنموذج، ونسخنا ذلك الحكم حيث تتبدل قصور الأجداد إلى مدارس، وكان المقرر أن يكون حكم موظفو الدولة دائماً من وجه الصداقة، وينشرون هذا الأمر فى المملكة.

يقول "شانج شى تونج" فى المقارنة بين الحياة فى المشرق والدول الغربية: عندما نرجع إلى التاريخ نرى أنه قد عاش فى الصين العالى والدانى فى أحوال ملائمة ويكدون ولا يشكون، والناس تشكو فى بلاد الغرب ويستمروا فى الترصد للاضطرابات، ونسمع فى كل يوم أن هناك اضطراب فى المنطقة الفلانية، وقاموا بهدف قتل الوزير الفلانى أو الأمير، وبالنسبة لنا فإن السكك الحديدية ضرورية للاطلاع على أحوالهم ولغاتهم من أجل التعرف والدراية بمكرهم، يقول العرب: "من عرف لسان قوم أمن من مكرهم".

---

(١) قرآن كريم سورة (٣) آل عمران، آية ١٦٧.

(٢) جرجه: يقصد الكاتب بسخرية آخر ملكة للصين الملكة الوارثة سوشى (تزوشى).

نقول إن أول خطوة فى سياسة الدولة تنظيم أحوال معيشة الأهالى فى قانون كنفوشيوس الأراضى مرتبطة بابن السماء، والناس أما زراع أو صناع أو تجار، أو موظفين بالدولة، وتساهم الدولة بالأراضى طبقاً لحاجة كل فرد، الزارع مشغول بالزراعة ويعطى شيئاً للدولة، وكان التاجر مشغول بالتجارة وليس له حق الزراعة، يقوم الصانع أو الحرفى بالاكتساب ويتقاضى معاشاً عن سعيه، وقد كان للأرباب المناصب حقوق القناعة، وبصورة كلية فإن حياة الصينى تتجه صوب الاقتصاد.

فى دستور أفلاطون فإن أهالى اليونان إما زراع وصناع أو تجار أو موظفين بالدولة، والصناع والزراع مشغولون بأعمالهم، والتجارة الخاصة بالأجانب الذين ليس لهم البقاء أكثر من عشرين عاماً فى أراضى اليونان، وليس لأى شخص حق الإقامة أكثر من الحد المقرر، وليس لموظف الدولة الحق فى الزراعة ولا حق الملكية، يجب أن يؤدى الحقوق ولا يؤسس أسرة.

فى أوربا يستغنى التقدم الصناعى والاختراع عن ساعد العمل ويؤدى إلى ثورة فى الحياة، وقد ألقت وسائل النقل البخارية بالسواعد عن العمل، ونقلوا المواد الخام إلى كل مكان، وباعوا الأمتعة المصنوعة إلى كل مكان، واستولى المتصدون على المنافع بلا حدود، وظهر الاختلاف بين العامل ورب العمل، وفتحت عين الرقابة، وزادت الشكوى من الخلاف بين الغنى والفقير فى المعيشة، وصارت فى المصانع مجموعة ضخمة من العمال.

وبالتدريج تم إزالة المصانع الكبيرة بأخرى صغيرة وتلف السوق، وبقى إناس بلا عمل، وسقط أتباع كارل ماركس فى أنين، وقالوا بأن رؤوس الأموال المزيفة والمصانع الضخمة والطويلة أصبحت فى خطر، يجب جعل الضواحى صغيرة، وبدا الحديث عن الاحتكار ورأس المال، وحدث خلاف ونزاع كل يوم بين الطبقات والجماعات من الناس ومسعى كل الدول فى الصادرات، وإن يكون فى طيهم أصحاب الخبز، وعم الكساد السوق والأمتعة بلا مشترين، وتؤثر الحروب من عصر إلى عصر على الاقتصاد،

ويعرف سوق البيع أن الأوربيين لا يتركون الصينى وغير الصينى على حاله، وأنه فى الوقت الذى وطأت فيه أقدام الأوربيين أرض الصين يوماً بعد يوم، فإنهم قد نحوا السهولة (جانباً) فى مملكة الوسط، كتاب بلا عقل كثيرون يخدعون عقول الناس المستريحة بشعاراتهم الكاذبة، يلوثون الماء بالطين، ويصطادون الأسماك، وفى النهاية يعم الاضطراب أحوال العامة أكثر فساداً من ذى قبل، يلتقون متأخراً وقد لعبوا بالقافية.

نعم إن فى جماعة مكونة من ألف شخص يكون عشرين شخصاً فاقدين لكل أنواع اللياقة بسبب وصولهم للكهولة، ويكون لخمسمائة شخص ما يلزمهم من الحد الأدنى الضرورى، ويعيش ثلاثمائة شخص فى رفاهية ورغد، ولمائة شخص شيئاً يزيد عن حد الكفاف وهم قادرون على التجمل، ويكون ثمانون شخصاً أصحاب قدرة أو يحتكرون أو يبذرون، والحديث هنا عنهم حيث جعل الإسلام العاقبة الطيبة عندهم، وقد ورد فى حق هؤلاء قول "خذ من أموالهم صدقة".[1]

والخطأ الذى قد أوردوه فى العمل اضطراب حياة ألف شخص بسبب تجاوز ثمانين شخصاً للحدود، الوضع القانونى أن يكون ما يزيد من عائدات كل شخص لتأسيس شركة موضع الاستفادة العامة، وهذا يمكن أن يعطى نسبة من الأمن والعدالة لكل تقصير على هيئة حق.

نصيحة من مائة نصيحة فى "تحفة مخبر":

- **يقال ما هذا المرض فى قلب الهرم والشاب، اعلم أن سبب هذا المرض ما كان فى الدنيا. (شعر).**
- **كان المال منثوراً فجمعه بحرص، وإذا لم يكن ذلك ما حرص على جمعه.**

(١) قرآن كريم سورة (٩)، التوبة آية (١٠٣).

- **لم يكن للمال المنثور مثل تلك الفائدة، وعندما جمعت الأموال صارت الفوائد للعيان.**
- **فهذا المثل جمعت شيئاً يا عسل، إن لم تكن نحلاً فالحرص يحتاط للروح. (شعر)**
- **تخفق من أجل مرام النحل، فلن تجد من عسله أثر آخر مطلقا.**
- **إذا أمض واحضر من النحل ذلك العسل وأعطه، وخذ منه الفائض وأعطه كمن ليس لديهم عسل.**

عندما لا يكون هناك سوق يبقى العامل بلا عمل، رأس المال قليل والطلب كثير، لو لم تكن هناك قدرة فى الدولة، فلن يكون هناك شراء سوى الطعام القليل، والقميص، والحذاء، والقبعة (العمامة)، ويبقى أقل من ثلث الناس بلا عمل.

ادخر عقيل[1] شيئاً من الخراج الذى كان يعطيها له بيت المال، ودعاه حضرة أمير المؤمنين عليه السلام، فشكى من قلة المؤونة، فأمره بعد الضيافة أبذل ما فى وسعك من أى مكان إن لم يكن لديك فائض.

كان هارون[2] قد شيد عمارة عالية، وعند لقائه بحضرة موسى بن جعفر[3] عليه السلام قال له: أى صنف تراه ؟ أجاب: إن كنت قد شيدتها من مالك فهو تبذير، ولو كان من مال الغير فهو حرام. "الطريق هكذا فكن رجلاً واذهب".

---

(١) هو جعفر الصادق شقيق حضرة سيدنا على رضى الله عنه.
(٢) هارون الرشيد الخليفة العباسى (المتوفى عام ١٩٣ هجرية).
(٣) موسى بن جعفر الملقب بالكاظم، الإمام الثامن للشيعة (١٢٨ حتى ١٨٣ هـ.ق) حسبما ذكر المؤلف.

مثلما يكون ضرورياً فى المعاملات الحجر الصغير والضخم: المن، ونصف المن، والربع، ووزن ١٦ مثقال ٨٠ جرام، والمثقال (خمسة جرامات)، فى درجات الحياة أيضاً اختلافات طبيعية: الساعى، والكاهل، والمبذر، والمقتصد، والذكى، والشرير، وإن لم يكن لما تمت الأعمال.

- مثلما تكون الدنيا العين وأهداب وخال وحاجب، فإن كل شئ جميل فى مكانه. (شعر)[1]

وفى انتظام الأمور يلزم وجود العطار وأيضاً الكناس.

فى الصين استراح الناس إلى قانون كنفوشيوس وارتضوا حدوده، وفى الغرب خرجت ثروة مجموعة عن حد الاعتدال إلى قوة الماكينات الصناعية والاستفادة من السوق، وحلت الرقابة، وحسد الفقراء أصحاب النعم، وأضعف أصحاب القلم الديانة التى يقوم عليها أساس الرضا، وأحكم أصل البغض والحسد، وبقى الناس بلا عمل كنتيجة لكثرة الآلات الصناعية وقلة السوق، واستاؤا من الحكومة، وجرى صاحب الثروة أمام عين المحتاج ذات الشوك، واغتنم السكارى الفرصة وكانت أوليات اهتماماتهم إلجام الخلق، وحققوا رغبتهم، ولكنها رغبة أنانية لا تحقق نفعاً للآخرين.

إن أحد أسباب الرضا فى الصين تفضيل الحسب على النسب، ويعدون العظام كريمة آدابها لا العظام الرميمة (ولا يرجعون كرمها إلى الأصول القديمة).

---

(١) هو الشيخ محمود بن عبد الكريم الملقب بسعد الدين، ولد فى قصبة شبستر التى تبعد عن تبريز لمسافة سبعة فراسخ، كان واسع الاطلاع، من أشهر مؤلفاته كلشن راز وهى مجموعة قصائد تقع فى نحو عشرين ألف بيت من الشعر، وله رسائل فى التصوف، وسعادتنامه، ومنهاج العارفين ومرآة المحققين.
دهخدا: لغت نامه، جلد ٣٠ ص٢٢٠.

كن ابن من شئت واكتسب أدباً يغنيك محموده عن النسب. (شعر).[1]

وأبناء الملوك لا يرتفع شأنهم إذا لم يكن لهم عمل فى الجماعة فلن يقدرهم أحد، عندئذ يكون لهم اعتبار فى الأنظار حيث يحملون الأحمال عن ظهور البشر.

وقد اعتبر قانون كنفوشيوس حسن الأخلاق والأدب ضرورة من أجل تقلد المناصب الخاصة بالجماهير.

المطرب، والفاحشة، وأمير الغضب، وحارس السجن هم الأشخاص الذين يتقدمون على العظماء ولو أن عملهم ضرورى جداً، وتعد وظائفهم حقيرة للغاية (يجب أن يحمل الفانوس على ظهر الأرباب).

وقد انتشرت فى الصين ضفائر الشعر "لمنشو" ومنع الخلق وليس للمقصرين حق ترك الضفيرة، وكان بيع التحف يتضمن ضفيرة ممتلئة طويلة على الظهر، وكانت تضايق فى الحركة، قلت: لماذا لا تقصرها ؟ أجاب: الإمبراطور يمنع، فمنعنا ذلك جميعاً يوجد شيئان غريبان فى الصين، النظارة بدون حاجة واللحية العارية فكلاهما علامة الفضيلة.

وقد كانت فى أوربا الضفيرة عادة، وكان للمصورين والمغنيين ضفائر حتى عهد قريب، وليس ببعيد أن صارت النساء رجال والفتيات أولاد، وفى الصين كانوا يلفون الضفيرة أيضاً حول الرأس مثلما كان فى أوربا، وتنسج الفتيات ضفائرهن وتعلقهن، وهذا هو الطبيعى لأنه لا تعلق الضفيرة العارية، إن تقليم الأظافر وتنظيف أطرافها وقص ظفر القدم فن مخصوص، ذات يوم سمع صوت من الحارة، نظرنا من الباب فإذا برجل يضع صندوق على العربة، وفى

---

(١) شعر لحضرة سيدنا على رضى الله عنه، وقد نظم الشاعر نظامى الكنجوى على نسق هذا البيت:
آنجا كه بزرك بايدت بود   فرزندى كس نداردت سود.
دهخدا: لغت نامه، أمثال وحكم، جلد سوم ص ١٢٣٧.

الصندوق سماور مثل البخار الذى يحدث صفيراً ويعطى صوتاً عالياً، قيل إنه مقص الأظافر، فاحتاجه الأتابك، طلبناه، فجاء، وأصلح ما كان يجب من أظافر قدم الأتابك، كانت ملابسه رثة وغير نظيفة، ومعداته نظيفة بكاملها، عرف أن معه حمض الفينيك، أحد أظافر إصبع الأتابك والذى كان يحتك بجلده ويضايقه قام بفصله عن الجلد، وجعله مقلماً، واندهش الأتابك من ذلك بشدة، قال: لم أكن قد رأيت فى بلاد الغرب مثل تلك المهارة والاقتدار.

إن النساء لا تقص أظافر اليد اليسرى بصورة كلية وأحياناً الرجال، بحجة الموضة وهى عادة مكروهة بصورة غير عادية.

من غرائب العادات الصينية إغلاق قدم البنات فى الحالة التى تقلم فيها أظافرها، لاشك أن ذلك ليس مكروهاً فى النظر، وقد طوت فى الحافظة مكان الجورب، وليس فى استطاعة بعض النساء ترك تلك العادة للسير فى الطريق، وليس لديهم حذاء مصنوع من جلد الحيوان، والحذاء مصنوع من القماش وكفه عبارة عن قطعة خشب عريضة ومسطحه، والنعلين مصنوعين من الخشب أيضاً وهما متداولان للسير فى الوحل، والقدم العارية عادة منتشرة أيضاً فى ممالك ابن السماء، ولو أن القدم الصغيرة مستحبة بالنسبة لشكل القدم، لا الحافر العارى، ولا فى قطعة القطن المطوية.

- لو لم تذهب المرأة على قدميها، لسحبها السكارى على رقبتها. (شعر).

إن ما يفعلوه فى الصين مع القدم تفعله نساء الغرب مع الخصر، حيث يقمن بربطه بحلقات، على حد قول قطران التبريزى:

- سرق عشقك السمنة من كفلك، وتعلم صبرك النحافة من خصرك.[1] (شعر)

وللإنصاف فإن كلاهما عادة مثلما لم يعط شعر قطران تعريفاً والقدم الأبتر ليس جميلاً، ولا خصر النملة، وللآن فإن زى أهالى مملكة الوسط[٢] على موضة عصر "هيا"، ومتطلبات الإحساس بالحياء، ويتشابه زى النساء والرجال تحت الثياب، والقميص، والجبة، والثوب، والمخمل الأحمر، وعليهم جميعاً رباط الصدر، ولديهم زى شبيه بالقميص بلا أكمام من الصوف أيضاً بقدر أعلى، وإضافة إلى ما سبق ذكره فإن الملابس الصينية أشبه بملابسنا القديمة (الرجل لا المرأة).

وتغطى المرأة من حول الرقبة حتى ناصية شعرها المنثور، ولا تصلى نساؤنا بملابسهن بلا عباءة لستر العورة، مثل حالها فى البيت، ويأتين فى الحارة والسوق.

الأشخاص الذين قد كانوا فى الصين لعدة سنوات قد امتدحوا عفة وطهارة سيدة البيت الصينية، وقيل إن المرأة الصينية هى المرأة التى يمكن أن تكون أمنية للزوج، وترتدى حتى فى باريس نفس زيها وحذائها دون تقليد، يقول "أجن سيمن"[٣] قنصل فرنسا فى "سيته شينواز"[٤] : أنا الذى عملت بالقنصلية طيلة عشرة سنوات قد تجولت بالصين، لم أر ولم أسمع أن الصينى قد أتلف فتاته، وقد اشتهر دعاة الكاثوليكية بالأطفال الجمال، ومن أجل ذلك يعبر الملايين سنوياً بسبب "القديس إنفانس"[٥]، ولم يخجلوا ويعطون سيئى الخلقة إلى إناس نجباء وسيمين، ولو أنه يحدث أحياناً فى الصين إتلاف

---

(١) بيت من نظم الشاعر قطران التبريزى مع التصرف فى الشطر الثانى حيث أتى بكلمة ذرديده بدلاً من آموخت.
قطر تبريزى: ديوان حكيم قطران تبريزى، باهتمام محمد نخجوانى، تبريز ١٣٣٣هـ بن ص٣٧٧
(٢) المقصود بأهالى مملكة الوسط أهل الصين الأصليين.

(3) G. Eug Simon.
(4) Cite chinoise
(5) Sainte Enfanse.

للأطفال إلا أنه يعد قليلاً إذا ما قورن بالأعداد التى تحدث (يمكن حصرها) فى فرنسا. وقد صارت هناك مؤسسات أو جمعيات خيرية فى قانون كنفوشيوس من أجل الأطفال الذين يتركونهم على قارعة الطريق فى كل المناطق وتمارس دورها.

ولا تعاشر المرأة الرجل الأجنبى، ولا يسأل الزوج حتى عن أحوال زوجته إلا فى حال الأصدقاء الحميمين، ذلك أيضاً مع ذكر الوالدة أو الأخت ذات المقام والدعاء بطول العمر والسلامة، مثلاً: ما أسعد حال تلك المعمرة المحترمة لأن العمر الشريف الذى ينالوه، أى أن أحوال السيدة الوالدة إن شاء الله طيبة، مثلما هى عادة بيننا، حتى إن النساء يشمئزن من ذكر اسمهن ضمن كل الأحوال.

وفى معظم الأحيان الأخرى لا تظهر المرأة سنها أكثر من ٢٥ أو ٣٠ عاماً.[١] والمرأة الصينية جذابة، وهى تعمر أكثر مما يقولونه عن سنها.

وللأب والأم احترام غير عادى فى الصين وتتم رعايتهما، ويكلف الابن بعد أبيه بخدمة أمه، وهذا الحكم موجود فى الإسلام، ولكن بتلك الصورة التى يجب ألا يتم رعايتها إلا من جانب أخلاق الأبناء.

الابن الذى يصل سنه إلى اثنى عشر سنة يعطونه الخمر ويضعون على رأسه العمامة، أما الفتاة فيكون من حقها عمل ضفيرة مستديرة مغلقة وتستخدم أدوات الزينة فى شعرها، ومع ذلك فهن ليس لديهن حجاباً للوجه، وليس للفتيات علامة مميزة عن الأولاد، ويتدللن عند الطلب والفتاة توصف بالقناعة.

ويمكن أن يخطبوا فتاة لولد قبل ولادتها، ويتناولون لذلك الحلوى، ونحن أنفسنا أحياناً عند ولادة طفل ننتظر ولد بعينه، أو نتمناه، وكنا نضع

(١) المقصود أن المرأة لا تذكر صحة سنها مهماً كان أكثر من ٢٥ إلى ٣٠ عاماً مهما كانت الأسباب مهديقلى هدايت: سفر نامة مكة، ص١٢٩.

على بطن الأم علامات وأشياء، ولا يمكن الوصول إلى المناصب فى الصين بدون اكتساب الآداب والامتحانات المقررة، ومع الصعوبة الموجودة فى الخط الصينى فإن عدداً كبيراً من الحروف توجد فى اللغة الصينية، ويمكن القول إنه لا توجد صعوبة فى الكتابة لتلبية المطالب العادية، فالخط الصينى سهل للغاية بالنسبة لهم، وهم لا يستطيعون كتابة اسم العلم، عدا ذلك الذى يكون له معنى ويرسلون البط إلى منزل العروس، كبداية للوصال بدلا من الشال والخاتم، وقبول البط معناه قبول الوصال.

وقد شبه كنفوشيوس العروس والزوج بالأرض والسماء "لأن هناك نسبة للتراب مع العالم الطاهر"[١] ، إلا فى حال قلب المحبة للأرض والسماء.

الزوجة الأولى أكثر احتراماً، وفى حالة تعددهن فمن لها ولد، أحيانا يودعون ابن المرأة الأخرى لدى الزوجة الأولى التى تنال احتراماً، وتريد المرأة أن تنصح زوجها، أو أن تمهد له طريقاً (تضع قدماه على الطريق) يجب أن تنصح ابنها قائلة: "الباب ! أقول لك، الجدار ! إصغ لى"[٢] . القاعدة التى رسمها "لوتشه" فى آداب معاشرة الزوجة، ويقلب الحب والألفة فى كثير من الآداب، ويصنع "لنجه" حذائه فى كل مكان، يطلبه الكبير ويطلبه الصغير، واشترى الأتابك حذاءاً من السوق حيث كان بلا إغراق فى حدود ستين قدماً سليمة.

الطلاق تقليد غريب، وهو بيع المرأة إلى رجل آخر فى حالة رضاء الزوجة، فى شأن هذا الأمر يكون الفأل والتمتع أيضاً، فى حالة ما يكون للرجل بالنسبة للمرأة شبهة مغشوشة، وليس رضاه ضرورياً أيضاً.

---

(١) لأن نسبه التراب مع رب الأرباب، أدرك وجودنا جميعاً مع الموجودات، للشيخ محمود الشبسترى فى مؤلفه "كلشن راز".
محمود شبسترى: كلشن راز، تهران ١٣٣٣ هـ بن ص١٩٠.

(٢) هذه العبارة من الأمثال الشهيرة، ونظيره العربى (إياك اعنى واسمعى يا جاره).
على أكبر دهخدا: أمثال وحكم، جلد دوم ص٧٧٩.

المرأة التى يختفى زوجها لمدة ثلاث سنوات، تستطيع بموافقة القاضى أن تختار زوجاً آخر.

ولا يعطون عقداً آخر لنسوة الأسرة بعد رضا الزوج حتى بعض الفتيات اللائى يتوفى خطيبهن بين العقد والعرس لا يقبلن خطيباً آخر.

ويصل الإرث إلى الابن، وللابن البالغ ضعفين، وستكون شجرة العائلة أيضاً تحت تصرفه.

والأب المتوفى لدى أبناء ماندارين يجب أن تسحب يده من الخدمة بعد ثلاث سنوات، ليس معلوماً لنا أن الأموات إذا لم يكن لديهم بضاعة ماذا يصنعون ؟، والتكلف فى الحديث واللقاء عند الصينى خارج عن الحدود، الخادم والعبد والناقص والحقير وغيره، كذلك فى الخطاب: حضرة ذلك، ذلك السيد، القبلة أحياناً وغيره.

- يا لاحق القدح إلحق فى خطاب الوعاء، واكتب أيها السيد.

(شعر).

الأطفال فى اصطلاحنا أولاد حرام، وفى اصطلاح أهل أوربا وكأنهم أولاد حلال مصطفين ويهذون الصينيون بأن الشيطان يتدخل فى النطفة، وستكون هذه القاعدة فى أوربا سبباً فى قطع النسل، وللأسف فإن ازدياد توغل الحضارة الكاذبة عن قريب فى المشرق سيزيد من أعداد أولاد الحرام، فإن احتضان الرجل والمرأة لبعضهما البعض وحركاتهما المثيرة يوضح تأثير الحضارة فى العفة والعصمة، فى الصين قد منعوا الرجل بين الرجل والمرأة بعد تغلغل الحضارة فى الوقت الذى فيه عقائد أخرى، يقول سعدى:

- الابن الذى فاق عمره العشر سنوات، جالسه فهو من المحللين.

(شعر)

- لا يجوز أن يشعل النار فوق القطن، طالما أغمضت عينك احترق المنزل.[1]

إن طريق المدارس بمثابة جسر الصراط و مع طبيعة البشر تكون الصعوبة فى عبور الجسر وعدم السقوط فى جهنم (المقصود بوكاتسو الإيطالى). يكتب أحد الكتاب الأوربيين ويدعى "وارتج"[٢] قائلاً: إنه مع وجود عدم اختلاط المرأة والرجل فإن النسوة لديهن فن فى المعيشة داخل بيوتهن بحيث لم يكن لديهن تفوق فى العديد من الدول، وفى هذا الإطار يجب أن نعلم ماهية التربية وقد صارت آداب المعيشة المنظمة عادة عامة وأدت إلى نتائج طيبة، وليس فى السكك الحديدية والسفن البخارية والطائرات أثر، فإن اختلاط المرأة والرجل فى المجالس مقيد بتكلفات تكون فى الغالب سيئة ومملة، ولهذا السبب يقوم معظمهن بلعب القمار ويكون الرقص قمة التفنن بحيث يلقى بالجميع.

إن محادثة الرجل للمرأة أو المرأة للرجل تجلب المتاعب فى المجالس العامة بالصورة التى يعطون للمجلس سخونة بطبيعتهما، ويستحسنون ذلك (ويقضون وقتاً جميلاً)، فى المجالس الأوربية تراهم كثرة أيضاً بحيث يجتمع رجال من بعيد ونسوة من بعيد سوياً.

لقد عشت أنا ذلك العبد سنوات فى أوربا، ويبحث الناس هناك وسط الزحام عن ركن مع التربية والأسرة، وفى السنوات الخمس التى عشتها فى برلين وكنت محشوراً مع الأسرة تم إعداد مجلس رقص ذات مرة، وكان قد تم إعداد فتاتين كانتا قد وصلتا وتم تكليفهما من أجل القيام بالرقص، وقد جلسنا مع أسرة نجيبة أخرى من أجل قصد الوصال.

---

(١) سعدى شيرازى: كليات سعدى (بوستان)، باهتمام محمد على فروغى، ص١٩٥.

(2) Ernest. Hesse Wartegg.

إن مجالس الاختلاط الرسمية والسياسية تكون على حسب المقررات أو اجتماع طبقة معينة للنظر والخيال (التصور)، ولم يكن مسلماً فى الصين بالقاعدة التى تقول: "البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فحيث ما أصبت خيراً فأقم"، يعدون الحياة فى الغربة معصية، وعندما يتحتم بالضرورة العودة إلى الوطن يطرقون باب السفر بنية العودة.

وتميل طباع الصينى إلى التفنن، وهم يتذرعون الأسباب من أجل عمل الاحتفالات، وتنتشر المسارح حتى فى القرى: "الشيئ المناسب مع مكانة الشخص" اصطلاح أطلقه أصحاب حديقة ماء الورد على المغنيين وأهل اللعب، وفى وجه التسمية يقولون كان "تانج مينج هوانج"[1] يعشق على نغمته وكان يرعى الموسيقيين، وكانت توجد فى قصر الخاقان حديقة خاصة لهذه الجماعة وكان بها الكثير من ماء الورد، وفى عهده اشترك رجل وامرأة فى عروض مسرحية، وصار "يونج تشينج" مغرماً بإحدى اللاعبات فطلبها خلافاً لمقررات كنفوشيوس وصار له منها ولد وعندما توفى والده، اعتلى "كين لونج" العرش، وطلبت أمه أن يمنع ظهور زوجته فى الألعاب، ومنعت الرجل أيضاً فكلاهما واحد فى نظرها، إن تأثير المرأة فى الرجل والرجل فى المرأة كلاهما سبب فى الأسر، يقول سعدى:

- لما رأت العين وعشق القلب لم يعد باليد حيلة، فلا يصبر القلب على الحب ولا العين على الرؤية.[2] (شعر)

تقرر أن تقام من مسارح صغيرة فى بلاط كل الأسياد، ويجب أن تكون طيبة ونفس العادات لا تزال موجودة فى أيامنا هذه، وفى المسارح الأخرى يلعب الأولاد الغير بالغين دور من المرأة وتم مشاهدة ذلك.

---

(١) تانج مينج هوانج: من أباطرة الصين.
(٢) سعدى شيرازى: كليات سعدى (غزليات)، باهتمام محمد على فروغى، ص٢٩.

لقد قال كنفوشيوس: يمكن معرفة درجة رقى كل قوم من الاكتمال الموسيقى لهؤلاء القوم، الموسيقى ثمان أعشار العادة، وقد قدمت شرحاً لذلك فى كتاب "مجمع الأدوار"، ويشتمل الوتر على خمس نغمات بدلاً من سبع، إن صدى الصوت فى الأماكن البعيدة عن نفسه، يتردد فى آذاننا كالصياح، ويجوز أن يكون ذلك فى تناسب مع الموضوع، لأن الصوت مرتبط بلهجة ولسان القوم، ويجب الرؤية ومقارنة أيهم الأشد صلابة ؟ فإن كل شخص يعتد بصلابته ويمر ذلك فوق عادته.

وتمت مشاهدة الكمانجة وهى من أكثر الآلات الموسيقية تواجداً بحيث يكون المقلاع سبباً لنغمة الكمان، وترافق النغمات الأفراح والتعازى، وللعازفين طبيعة خاصة عندما يصيب الكساد أسواقهم، يعزفون بآلاتهم فى حضور صنمهم للرجاء والحاجة.

- كل شخص يقول لك صفة الحمد بلغته، فالقصبة لأغانى الناى والمطرب للأغنية. (شعر) شعر لشفائى (خيالى)

إن تطيير الطيارة الورقية من الفنون الشائعة والمطلوبة، وأغلبها يأخذ شكل التنين ولا تقتصر على الشبان والأطفال.

اللعب بالنار اختراع صينى فأى عجب إذا كان البارود من اختراعه أيضاً، إن تعاطى المخدرات الأكثر انتشاراً بين الأشراف، حتى أصبحت المسكرات والقمار أقل اهتماماً بين الناس.

لقد كان مرصد قصر الخاقان من الأماكن الجديرة بالمشاهدة والذى كان قد شيد على عهد قوبيلاى على أيدى المنجمين الإيرانيين، وبعد الحرب لم يبق كمكان أثرى فى ذلك الموقع، وكانوا قد نقلوا الكرات والعديد من

الأدوات من ساحل "أشبره" و"سن" إلى برلين وباريس، وشوهد سهم ألمانى فى "بتسدم" وقد كتبت أصل تلك الجرأة مع ابن دايترائى.[١]

الجماعات (التنظيمات) السرية:

إن التنظيمات السرية فى تغيير الأسلوب والهدف كان لها أصول فى جدال الحياة منذ عهد سليمان، وقد كانت هناك أسباب كثيرة طبيعية ومصطنعة طوال الوقت على رأسها الخلاف بين الغنى والفقير موضع عدم الرضاء والمراقبة والحسد، وغالباً ما يسمون المسمى قبل أن يستيقظ العامة من نوم الغفلة، والعامة ليس لديهم علم قبل إيقاظهم وسكب الماء على رؤوسهم، وعندما تستيقظ العامة تحترق فى نيران الحسرة وقد أغضوا الطرف عن اللصوص، وقد بقى الهدف الأصلى هكذا مجمل المشكلة الكلية لا تحل، وطأ كل مكان والتقى فى العمل، وذهب إلى الباب دون استفادة من جهل العامة ولا من قلوب أصحاب النفوذ، وحتى اليوم فإن كل وسيلة وكل اهتمام ليس له من نتيجة سوى تغيير الاسم، واحتضن لباس القانون قلادة الأسرة، وقبل: "محال للعقل أن يموت العقلاء ويحل مكانهم المجانين".[٢]

إن طبع الزمان وأخلاق البشر تولد الطبقات. لقد كان إخوان الصفا أحد الطوائف الخفية التى ظهرت فى المائة الثالثة فى إيران، وقد كتبوا إحدى وخمسين رسالة فى نشر المعارف، وقد كان هدفهم الثورة الأدبية وخلافا لأكثر الأحزاب باصطلاح اليوم فإن هدفهم مادى. ومن المسلم به الصين فى مقابل قانون كنفوشيوس، إن ظهور الأحزاب السرية لم يكن بهدف الثورة المادية بل قد وضعوا نصب أعينهم الشكوى ومخالفة سلطة منشو، ويدللون على أن بعض الأشخاص الآخرين يقصدون السماء والصدق، طالما يقوم أساس فكر الحكومة على الكذب فيجب إشاعة الصدق بصورة سريعة وقوية، واليوم فإن الفساد قد حل مكان الصدق.

(١) فى كتاب آخر للمؤلف يدعى "خاطرات وخطرات".

(٢) سعدى شيرازى: كلستان، باهتمام محمد على فروغى، ص١٩٧.

وقد سلك حزب "هونج" طريقاً سرياً من أجل الوصول لهدفين: "أحدهما قطع يد المخربين فى العمل، والآخر دفع شر الأعداء خلف الجدار (الأوربى) حيث أنهم لا يريدون للرعية أن تبقى ذكية، وهؤلاء هم طالبو الرعية دون خجل، ولما كان الأوربيون فى إثر أهداف هذه الطائفة وحاولوا بكل وسيلة أن يتلاشوهم، فقد أطلق الصينيون اسم "سام هاب" على فرقة "الهون" أى الثلاثة أنواع الفريدة وهى:السماء والأرض والإنسان، ويعتبرون أن وجهين من هذه الأنواع الثلاثة هما زعيمى الاضطراب، طالما بقى زر العمامة ووصلة الجلباب غير جدير بالمكان (قبر الأب اسم وعار)، وبحكم الطبيعة فإن "كل شيئ جاوز حده انعكس ضده"[1] ، وقد وضع المنفذين وعمال الفرقة أيديهم للتعدى، ونظروا إلى الماديات وابتعدوا عن الاعتبارات السابقة.

رأيت ألمانياً كان يشكو من مداراة الإنجليز مع الجماعة وكان يعتقد فى القمع والقهر، قلت: "مائة رحمة على كفن السارق الأول".[2]

وهناك فرقة أخرى ضمن هذه الجماعة لا تأكل اللحم، وحسب رواية "بالفر" فإنهم لا يرتدون الملابس الملونة، ويعتبرون أن استخدام المتاع الخارجى عار، ويفرون من الثورة، وكل من يدخل الفرقة يضع ما يمكله فى جيب الفرقة.[3]

ويعطونه من صندوق الفرقة قدر حاجته، وقد وضع أصحاب السعادة أموالهم فى صندوق الفرقة وأموال الصندوق غير معلومة.

---

(١) على أكبر دهخدا: أمثال وحكم، جلد أول، ص٢٥٤.

(٢) هذه العبارة مثل شائع كما نظم الشاعر أمير خسرو الدهلوى بيتاً يقول فيه:
صد ارحمت إيزدى بر آن مرد *** كز كيسة خود بود جوان مرد.
المرجع السابق، جلد دوم ص١٠٥٥.

(٣) قال قوم فى خدمة حضرة السجاد عليه السلام كانوا يتحدثون عن الأخوة، هل تقطع أى يد فى جيب الصديق ؟ قالوا: لا فأجابوا: ثم ليس لأخوتكم مكان ما، يجب أن يكون الأخ مع الأخ فى المشروع وحد اعتدال الشريك فى المال.

وفى بداية المائة سنة الماضية قاموا بثورة ضد "منشو"، وصدر الحكم باقتلاعهم وقمعهم، وبحث بعضهم عن البراءة بأكل اللحم، وصاروا طرفاً فى اشمئزاز الفرقة، وغيروا اسم الفرقة إلى "وووى كى" أى كن بلا عمل، ولميرزا ملكم خان[١] رسالة أيضاً إلى ماذا بها ؟ هدفه ذم بلا سبب وبلا قيد. هم قادرون على حبس النفس بسهولة شديدة، هكذا يظنون أن أرواحهم صعدت للسماء حيث تعود مع تحقيقات العرش، يقال الصين من الصين لا من هذا وذاك.

هناك جماعة أخرى تدعى "كولاءوى" أو الأخ الأرشد أغلبها عسكريون معارضين أو مناهضين لمنشو، يقال فى المقابل ضعف اليابانى عن قصد بحيث يتم القضاء على سلسلة منشو غافلين عن طائفة السياسيين:[٢]

- ما أكثر هبوب رياح ريح الصبا بلا تعاقب هنا، فهى منافس طالما أيها القلب لا تطويها.[٣] (شعر)

إن الفرق مثل كتاب الصحف يستبدلون الاسم فى الأماكن، ومثال ذلك يكون "بكسر" اسم جديد من أجل فرقة قديمة معارضة للأوربيين، خاصة الدعاة المذهبيين، ويجب القول مرة أخرى "عذر كاوس وأفراسياب".[٤]

الصحف فى الصين:

لقد تم اختراع الورق فى الصين، والخط الصينى عبارة عن علامات من أجل مفاهيم لها حكم التوقيع، فأى عجب لو يعطون تاريخ الطباعة فى الصين

---

(١) الأمير ميرزا ملكم خان ناظم الملك (ناظم الدولة، نظام الدولة) كان من أرمن جلفا بأصفهان (١٢٤٩ حتى ١٣٢٦هـ.ق) عمل مترجماً فى وزارة الخارجية ثم عين وزيراً لإيران المختار فى لندن، وفى أواخر أيامه عين سفيراً لإيران فى إيطاليا، وقد نشر صحيفة "قانون" فى لندن (٤١عدد)، وفى خلال فترة تعيينه فى أوربا أساء الاستخدام كثيراً، وفى إيران أنشأ بيوت النسيان (التنظيمات) أو مجمع التنظيمات وله رسائل فى هذا الباب حسبما ذكر المؤلف.

(٢) المقصود بطائفة السياسيين: المستعمرون الأوربيون.

(٣) حافظ شيرازى: ديوان حافظ، تصحيح محمد قزوينى، ص٣٩٨.

(٤) الشطرة الثانية لبيت مثل شهير ومؤلفه مجهول والشطرة الأولى هى: لفاتح العالم عالم كله خراب.

السبق لقرون متأخرة، لاشك أنه مضى ألف عام حتى وصلت الصحف فى الصين إلى الطباعة، فكانوا يطبعون أحكام البلاط حتى ضد أولياء الأمور بل الخاقان تحت رعاية إدارة التفتيش وكانوا يرسلونها إلى الولايات والمناطق.

لقد كانت حرية الأفكار الحقيقية فى الصين، "لاشك أنهم قد أعطوا شفاهه للصين أيضاً"، والصدق المحض خلاف طبيعة البشر وأحيانا خلاف المصلحة أيضا.

ينشرون الأخبار العالمية بالإكراه أحياناً فى الصحف حتى لا يهتم الناس بأحوال أخرى سوى أحوالهم، ويعتبرون أنفسهم فى الخلد الأعلى: "أمض حتى يموت والاستحسان فى عينه"[١]، ومن ناحية أخرى فإن الأطوار الخارجية غالبة على خلاف العادة والدين والحق أنه ليس مستحب.

فى إعلان الحرب صوروا اليابانى بالباغى والطاغى والمستحل للحرام، وكانوا معهم الحق كثيراً، فاليابانى تلميذ للصينى.

وتبلغ قيمة الاشتراك فى الصحف فى بكين ثلاثة تومانات سنوياً، وليس هناك كتاب أفضل من هذا من أجل تعلم الصينى للآداب والأخلاق.

ومصداقاً لقول الأوربيين فإن موضوعات الصحف الصينية أصح وهم أكثر حرية فى نشر الحقائق عن الصحف الأوربية، ومحرر الصحف فى أوربا ليس محرراً للوقائع والأحداث، فهو يزين الأحداث، وطالما لا يخرج واضحاً فهو محفوظ فى الستار، إن لتعاليم كنفوشيوس حكم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتواظب إدارة التفتيش حتى لا يحدث خلاف ذلك.

---

(١) عن بيت حافظ الشيرازى:
- لا تقولوا للمدعى أسرار العشق والشراب (السكر)، حتى يموت جاهلاً عابداً نفسه فى ألم.
حافظ شيرازى: ديوان حافظ، تصحيح محمد قزوينى، ص٣٤٩.

مراسم عرس البلاط:

بعد أن يكتمل نضج الفتاة وتبلغ مقاماً حميداً، تحمل السيدات من بنات الملك الذهب والزينة والملابس الفاخرة إلى منزل العروس، وستترك بخط اليد قسيمة الزواج واسم الخاتم فى مكانه مقلوباً، ويضم إليها عصا السلطنة، ويحملون السادة من باب الطاووس إلى منزل العروس، ويودعون اسم الخاتم والقسيمة لدى العروس والعصا التى يجب أن تكون فى خدمة الخاقان، وتصير إيماءة بقصد العرس، وتحدد ساعة الزفاف ضمن هذا، ويتقرب الخاقان من قبل ليكون جديراً برؤية الملكة، ثم يعطى الإذن بإحضار العروس، وتستقر فى محفة والقسيمة والخاتم فى محفة أخرى، ويرافقهما المدعوون راكبين ومترجلين من الخلف والأمام، ومن ضمن الهدايا التى تقدم وتعطى للعروس التفاح الذى يحملونه من قبل الخاقان، ويعطى العريس تفاحة أخرى للعروس عند دخوله عليها، السرج وقوس السهام فى نفس اللحظة فى اليد، ويصوب الخاقان على السرج، ويضرب السهم بالسرج (كما يقول الشاعر السرج الأنورى).[1]

مائدة الطعام مبسوطة ويتناول الخاقان مع العروس حساء اللحم وبعض المقويات (كانوا يأكلون الصنوبر قبل هذا الوقت)، ويكون الفراش معداً بعد تناول طعام العشاء، وتترك فى زوايا الحجرة الأربع أربع عصى مرصعة وفى الحالة التى تكفى العصا، يتركوا ابنة الأرض إلى ابن السماء ويتفرقان.

وقد كتبوا نفقة العروس مبلغ ستة ملايين تائل[2] والمقدم مليونان وهذه المراسم هى مرتبة الفتاة.

---

(١) هذه العبارة ناشئة عن طبع الكاتب المرح فى المزاح.
(٢) التائل: يساوى خمسة آلاف.

وفى أول يوم بعد ليلة العرس يصلى كل من العريس والعروس فى البداية فى معبد "هواهوانك"، ثم يذهبان إلى معبد الأجداد "شينج شينج" ثم يعودان مختاران.

خدعة البلاط:

مات "تونج سى" فى عام ١٢٩٢ هجرية بمرض الجدرى، ولم يفلح إحراق الآلاف من التائل كطلاسم وأدعية لدفع البلاء، ولقد كانت "آهو لوطه" إحدى الملكات حبلى، وقد رأى اثنتان من الملكات تزلزل شئونها فكن يقمن بمقام الملكة، ويسمون الملكة الشابة حتى تكون أنيسة للخاقان فى السماء، ويجمعون بعضا من أبناء ملوك الطائفة لاختيار ابن الملك للسلطنة، ومع أنه قانوناً لا يصح أن يصل إلى الملك، وينتشر فى الجريدة أن هذه كانت وصية الملك السابق، وينشأ نزاع كبير بين الأمراء، وتتوسل الملكة إلى "ليهونج تشانج" وجاء المعزى إليه إلى بكين، ويخمد الاضطرابات ويحدث تقرباً خاصاً ويترك النيابة فى يد ملكتى الشرق والغرب (لقد كان الحرم عبارة عن مجموعتين مجموعة القاعة الشرقية ومجموعة القاعة الغربية) تغرب ملكة الشرق، وتصبح الحكومة فى يد ملكة الغرب.

وقد جمع كل من "كوانج سو" (الخلف المفخم) ابن السماء ووالد ثمانمائة كرور (نسمة) من الأولاد الصينيين فى مهد الميلاد مع دستتين أو ثلاثة من الرجال المربين والنساء المربيات والمعلمين فى الأطراف والأقاليم، ولما بلغ من العمر سبع سنوات وأحياناً يحتاج إلى التربية، فتؤدب العصا ابن السنوات السبع، وقرر قائم مقام أن يقوموا بالتنبيه عليه ونصحه فى كل وقت يشطت فيه الملك (الخاقان). [1]

(١) هنرى الرابع الفرنسى، ادوارد السادس والسابع الإنجليزى كانا نائبين يسوسان الأمور ومن أجل ذلك كان يتم تأديب أبناء الملوك.

فى عام ١٣٠٦هجرية كان لـ "كوانج سو" حق تقلد السلطة، لكن بقى الاختيار فى يد "سى تائى هو" خال الخاقان، ونشر فيما يتعلق بعرس الخاقان إخطاراً فى الصحيفة مفادة أن الخاقان بكل الإعزاز قد تشرف بإنهاء المدة فى مقامة الموروث، ومقتضى الحال يصبح من دواعى سرور الملكة تمام المدة من أجل الاقتران بحرمها بحيث يصبح شريكاً ومتساوى فى السر فى اكتمال انضباط القصر المقدس معها، تم اختيار "يه هونالا" ابنة قائم مقام العالم[1] والتى كانت لطيفة الشكل وتتسم بالأخلاق العفيفة، ومن المقرر أن تعتبره كل الطبقات حاصلاً على الشرف العظيم إلى الملكة بسراى الخاقان.

ومن الواجب أن يتم تعليم آداب الزواج من قبل حضرة الخاقان قبل مرور عام من الزواج بإرشاد البعض من الشبان العلماء.

ولدى الخاقان ذو الجسم الضئيل والقامة العالية والعين الواسعة معلومات فى الآداب، ويتصرف فى الامتحانات شخص يدعى "هان لين" ولديه رغبه فى تعلم اللغة الإنجليزية، ووفقا للقانون لا يخرج من منزله الخصوصى سوى خمسة أيام، مرة من أجل التشرف بالسلام على الملكة، وأحياناً للمعابد، ويتم تشريف بعض أعضاء مجلس الشورى بالحكومة فى عمارته الخاصة بالحضور، ويجب أن تكون تلك العمارة بجوار فراش النوم حيث يكون مكان الاستقبال لدى الملك معداً وقت السحر.

ويصل الخاقان عند الملكة حيث يطلب تسع نساء من الدرجة الثانية، وسبع وعشرين من الدرجة الثالثة، وواحد وثمانين من الدرجة الرابعة، ويصير مع الملكة مائة وثمان عشرة امرأة.

وتحدد هذه الدرجات مكانها على الفور، ليس مذكوراً فى الكتاب ثمان وأربعين. ويجب أن تكون الأسياد مراقبة خاصة بحيث لا يحدث خلطاً فى الدرجات وعندما يريد درجة يؤتى بهذه الدرجات بصورة صحيحة، ولا يكون

(١) علمدار باشى: من نجباء منشو وهم الخدم الخصوصيون للخاقان أو الملك.

غافلاً بمكان الأرقام، ومن أجل اختيار الدرجات فى مكان الفتيات العالمات (كانوا يرون الوضع أنسب لأصحاب التروس)[1] ، ويختارون الدرجات الصحيحة.

إن السيدات اللائى يصل سنهن إلى خمسة وعشرين عاماً إن لم يكن لديهن أولاد تخرج أرقامهن من السجل، وتحل درجات أخرى مكانهن، لو أن لديهن أولاد ترتفع درجاتهن، وتنوب الملكة "هين فو" إحدى عشر سنة، كانت الفتاة ابنة بائعة فاكهة، وكانت درجاتها قد حلت بصورة صحيحة.

تشتبه حقيقة الأمر على، ولا أدرى هل أنا أكتب عن الصين أم عن نفسى، فى كل حال "يكون لمجنون قلبى حال طائر الفضاء"، واسم الخاتم فى قاعة باسم الخواتين[2] أو المكان، وكل خاتم يضعه الخاقان مقلوباً يراقبه أحد السادة، وفى المساء يعلق فانوساً فى درب منزله، ويعده بحيث يأتى السيد فى إثره ويحمله على كتفه، ويعد سلوك الطريق بأقدامه أمراً بالغ الصعوبة من أجل الخواتين الصينيان، وفى اليوم التالى يقوم السيد بإيصال الخاقان مع تلك الملكة بعلم إدارة التفتيش،

اكتمال الحضارة فى الصين:

لم تكن الحضارة قد وصلت إلى قصور الخاقان، ومنعت دولة الصين بيع الأفيون فى مملكة الوسط ولم تر أى فائدة من الأحكام الأكيدة وأمرت بتحديد أماكن المخازن، وأدى ذلك إلى الحرب، وكانت قد تمت مصادرة الأفيون من ضواحى مملكة الوسط حتى عام ١٩٠٠م.

---

(١) جملة اعتراضية للتعبير عن طبع الكاتب فى المزاح والمرح.

(٢) خواتين: جمع خاتون بمعنى ملكة، هانم، زوجة الخاقان.

ومناطق مثل كانتون، آموى، فوتشو[١] ، نينجبو، شنغهاى، تين سين، وجزيرة فرموزا ، ووای های وای، وأجزاء من آنام وتنجينج[٢] ، وميناء كياتشو قد دخلت جميعها فى نطاق المدينة فى إثر العشق إلى نشر الحضارة.

والعقدة الباقية فى قلب مروجى التربية قد اختفت محرومة من الاستيلاء على عمارات الخاقان ونهب الأشياء النفيسة، وكان ضرورياً أن يشعلوا النيران فى عمارات المصيف، وخربوا الأبنية التاريخية، ونهبوا لوازم القصور وأثاثات السلطنة والأعيان، ووقعت الأشياء النفيسة فى أيدى الجنود، وتباع هذه وتلك بأثمان زهيدة جداً، وفى عام ١٩٠٠م جاء اكتمال التربية كما هو حقه بالتحول من القوة إلى الفعل، قالوا للإمام فخر الرازى: لماذا لا تقول الحقائق ؟ أجاب: ماذا أقول فى مقابل الأسلحة النارية، فحال الغرب الأسلحة النارية[٣] موجود فى اليد.

وكان سبب كل هذه الفضائح مقتل شخصين من القساوسة بائعى أصنام حيث كانوا يضايقون الأهالى من أجل نشر ديانة بلا عقل (ديانة لا عقلية) إلى ديانة مليئة بالعقلانية، لأن البوذية تقوم فى أصلها على الكاثوليكية وقد ربطوها بالديانات فى كل مكان وإن كان ذلك خرافة، وليس من المعلوم كون حياة سائر البشر أفضل من قوانين كنفوشيوس.

كتب الكاتب الفرنسى الشهير "هاردن" فى جريدة معروفة باسم "تان"[٤] مقالة فى المكان الذى كان قد قتل فيه شخص فرنسى فى طنجة[٥] وأرادت فرنسا القصاص بطلب فدية مبلغ مائة ألف فرنك من أجل ورثة القتيل،

---

(١) فوتشو: ميناء يقع فى بحر الصين الشرقى شمال غرب مضيق تايوان ويطلق عليه مينهو.
سعيد بختيارى: أطلس كامل كيتاشناسى، ص٤٧.

(٢) تنجينج: مدينة تقع إلى الشمال الغربى من شنغهاى ويطلق عليها أيضا نانكن.
المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٣) المقصود ببرهان قاطع فرنكى: الأسلحة النارية والمدافع والبنادق.

(٤) "تان" كلمة فرنسية بمعنى أثناء، و"ماتن" كلمة أخرى بمعنى الصباح وهما اسمان لصحيفتين فرنسيتين.

(٥) طنجة: ميناء فى المغرب يطل على ساحل جبل طارق.

وكتبت صحيفة "ماتان"[١] تقول إن الأهالى حمقى وأهالى باريس الذين يقتلون ويقيمون فى "بورت مايو"[٢] ، فليس هناك أمر يدعو للقصاص والدية، لماذا لا يذهبون ويقتلون فى طنجة؟.

وأدرك اليابانى أهمية المكان وأن "مكافأة الحجر مقلاع الحجارة"[٣] ، فأعد نفسه واستعد للحرب، لو يقتل شخص أجنبى فى اليابان، ينطبق عليه نفس حكم "بورت مايو"، لو قبض على الجانى يطبق عليه القانون، يجب على الصينى أن يعلم أن لكل فرع من الزنار[٤] المتصل بالصليب يربط مائة مدفع من آكلى لحوم البشر، وقد جلسوا لتحين الفرصة، يكتبون صراحة فى الكتب والمجلات أنه لا يجب إعطاء الفرصة لسائر الشعوب، يجب أخذ أرواحهم وإغلاق باب التعالى فى وجوههم، هكذا يقول جدى رضا قليخان هدايت:

- **أظن أن السياسة مثل الدهر العاتى، أفعى ذات رأس كبير سمه غزير. (شعر)**
- **فى ظهورها يبدو النقش والتصوير، وتخفى بداخلها سم الأفعى.**

يعترف الأوربيون أنهم قد أخذوا التربية عن المشرق، وهذا ثناء لا خصومة، كان أحد الرفقاء يلوم على الدول لتركها اليابان تقوى، فهذه القرود قلدتنا فى كل الفنون وتفوقوا فى الأعمال.

فى حرب "بكسر" التى كانت عودة لضغط دعاة المسيحية أو الأهداف المحلية، ازدادت اعتداءات الدعاة وتعديات الدول من أجل حماية أصحاب

---

(١) ماتن: بمعنى الصباح فى الفرنسية.

(٢) بورت مايو: أحد بوابات باريس، ولم يحدث القتل فى الليلة المذكورة فى ذلك المكان، ولكن القتيل كان على شاطئ نهر سن فى مكان وتركوه يوماً أو اثنين بحيث إذا كان له وريث فليأتى للتعرف عليه ويحمله.

(٣) هذه الشطرة المذكورة من الأمثال المعمول بها وهى الشطرة الثانية لبيت من نظم الشاعر نظامى فى خسرو شيرين والمصراع الأول هو: "قال لنفسه الجواب هذا لا تلك الحرب".
– نظامى كنجوى: خسرو وشيرين، تصحيح وحيد دستكردى تهران ١٣٣٣هـ بن ص٣٨٣.

(٤) الزنار: الفرع الذى يعلقه القساوسة (مبشرى المسيحية) بالرقبة ويتدلى منه الصليب.

الخداع المتصدين للضجر الصينى الذى ازداد يوماً بعد يوم تجاه الغرب، وقام بكسر (تاشوآن) بعمل اضطرابات فى مجموعات مناهضة للمسيحية والأوربيين، واستعدت ثمان دول وأعدت جيشاً مشتركاً من الروس والألمان والإنجليز والنمسا وفرنسا واليابان وأمريكا وإيطاليا والتى وصلت إلى تاكو، وازداد الحشد على البغض الصينى وتم إبلاغ السفراء الأجانب أنه فى حالة حدوث الحرب فعليكم أن تخرجوا من بكين.

وفى الوقت الذى كان البارون "كيطلر" سفير ألمانيا قد ذهب إلى وزارة الخارجية يخبرهم بعد خروج السفراء من بكين، قتل داخل فناء مبنى وزارة الخارجية.

وفى صباح نفس اليوم قام شخصان من قبل "بكسر" بالتلويح بسيفيهما إظهاراً لوجودهما حيث كانا موجودان فى منطقة السفراء حينئذ، إلا أن الألمان قاموا بإطلاق الأعيرة النارية عليهما، فأى عجب أن يقتلوا قصاصاً للسفير، وإلى تاكو وصل ثلاثمائة شخص من الغجر حيث كانوا يعملون كمستخدمين لدى الإنجليز حتى يكونوا على رأس الخدمة، وكان الروس قد قتلوهم.

من ضمن فصول مؤتمر هولندا (لاهاى) الذى وقعته كل الدول:

فصل ٤٧ يقول: العدوان ممنوع بأى شكل من الأشكال.

فصل ٤٦ : شرف الأسرة، الأرواح ومال الأفراد، واحترام العقائد المذهبية واجب الرعاية، لا يجوز الاستيلاء على أموال أى شخص.

فصل ٢٨ : النهب والإغارة على المدن أو القرى ممنوع ولو بالأغلبية.

وقد حدث أغلب السلب والإغارة بعلم أصحاب المناصب بتصديق القائد و"يلسن"، كما قتلوا العديد من الصينيين الذين لم يكونوا طرفاً فى الموضوع، وألقوا بالعديد من نسائهم فى البحر (فى حفظ الناموس).

إن ما هو مسلم به أن الأمريكيين قد امتنعوا عن القتل محايدة وقلما كانوا يدخلون للنهب والسلب ومن بعدهم كان اليابانيون أكثر اهتماما، ولم يقم الباقون بأى فضائح بسيطة، وقد مارسوا النهب والقتل والخراب خروجاً عن الحد، وبدأوا فى قصف "تاكو" بالقنابل بدون إعلان للحرب.

يقول ويلسون: لو أن هذه الخطوة قد صارت من طرف فى بوغاز نهر "تيمس" ألم يكن هذا كافياً لدولة إنجلترا للإبلاغ قبلها بأربعة وعشرين ساعة للخروج من مدينة لندن ؟ وألم ترد من قبل الأهالى فى مضايقة للسفير ؟

يقول: لو أن حكومة الصين تقوم بأى إجراء فى "تاكو" أكون عاجزاً عن مقاومة "بكسر"، فأى جواب نحسبه ؟ ويتضح من مقالات القائد ويلسون أن الأمريكى أكثر مراعاة لأحاسيسه، وأثناء التوقف فى الصين لم نسمع بأى خراب ينسبونه للأمريكيين.

يقول "جورج لينتش" فى تاريخ الحرب الأهلية: إن الصينيين يرتبوا حياتهم فى الطريق بكل السبل، والتربية والآداب التى حدثت فى البلاد الأوربية فى المائة السادسة عشر فى عهد الملكة اليزابيث، فى ذلك اليوم ملك الصينى بساط التحضر.

وفيما يتعلق بالتاريخ المسيحى حيث كان الغرب حيراناً فى وادى الغربة، كانت بداية مراودتهم مع المسلمين، ولم يكن للدعاة المسلمين هدف سوى الترويج للعقيدة.

ولم يكن فى رؤوسهم تصور النفوذ السياسى والتوسع فى البلدان، وما استطاعوا فعله فعلوه بسلام، وإن ما صنعوه ليس خالياً من الأهمية، وقد قلدهم دعاة المسيحية فى البداية وكانوا صناعاً مع الشعب والشعب معهم.

وللآن فإن أتباع "اكساويه" الفرنسى موجودين فى اليابان ويمثلون قوة، ولم يكن للمسلمين والمسيحيين فى ذلك الوقت قوة تذكر ولم تكن رأس

العصا فى ظهر رؤوسهم، يقولون بالصينية: تمر بالقدم على ذيلنا والصينى ليس له حق، يقول: عينوا حداً من أجل ذيولكم، يقول "جورج لينتش": لو كنت صينياً لصرت "بكسر"، يمجد الأمريكيين فكل ما كان الجنود قد سلبوه من الغارات باعوه وأعطوا قيمته للفقراء الصينيين، ومضى يقول، ومضى يقول: لقد اخترت الكنز بدلاً من الصين فهو أساس رضاء الصينيين وسعادتهم، أى فائدة من قبول أسلوب مصطنع قد صنع من أجل الاعتداء والسيطرة بالقهر والإكراه.

طبعاً صرت منكراً لتغيير طريقة الإصلاح بحيث يحمل على طراز العيوب باسم تربية بلاد الغرب على سائر الأقوام، وقد وضعنا على أنفسنا كل القيود تحت عنوان الحرية المصطنعة الغير طبيعية.

ويعتبر "جورج لينتش" الملكة "تسوح سى"[1] قرينة للملكة "كاترين"[2] وأفضل من الملكة "فيكتوريا"[3] فى السياسة.

ويعتبرونها سفاكة للدماء، وقد نسوا الملكة "كاترين دومديسى"[4] ، ليس من اليسير إدارة مملكة تتألف من أربعمائة مليون نسمة، (لو أنهم كانوا قد تركوا الإدارة)، يقول فى رضاء الخلق من المعزى إليها (أى الملكة) أنهم قد حضروا من أجل الهدايا فى العيد الستين من عمرها والتى تجاوزت المليون ونصف.

---

(١) الملكة الوارثة سوشى (تسوتشى) آخر ملكات الصين.

(٢) كاترين ملكة روسيا المتوفاة عام (١٧٩٦م)، لقبت بالكبيرة وحكمت بعد بطرس الثالث، وكانت على خلاف كبير معه.
دهخدا: لغت نامه، جلد ٣٩ ص٦٤.

(٣) الملكة فيكتوريا ملكة إنجلترا المتوفاة (١٩٠١م)، وليست هناك معلومات متوافرة عنها.

(٤) كاترين دومديسى: زوجة هنرى الثانى وأم فرانسوا الثانى نائب السلطنة شارل التاسع المتوفاة (١٥٨٩م) كانت امرأة فاتنة وبصيرة بأمور السياسة، اعتبرت أن نفوذ السلطنة والعرش يكمن فى المساواة بين المذهبين الكاثوليكى والبروتستانتى وبقاء المودة والمحبة كأساس بينهما وإغفال التعصب الدينى.
المرجع السابق، نفس المجلد، ص٦٦.

الأوربى الحديث كان يتوقع أن يضحى طفل المدرسة الابتدائية الصينى بما يملكه من الأخلاق والتربية المعنوية فى مقابل إغلاق يده عن الاعتداءات الغير مشروعة، يجب أن تثبت التربية والمدنية نفسها بقوة المنطق لا بفوهة المدفع وعتاد الأسلحة أى خير رآه الصينى من الغرب يصير فدواً لحضارتهم.

- **الأفضل لو أن غايتك بلا نفاق، فيجب أن تكون بالاستدلال لا العصا اليدوية الغليظة.[1] (شعر).**

وكنت غارقاً فى مطالعة ما يقوله "لينتش" الأوربى، وعلا صفير السفينة، وعلم أننا قد وصلنا إلى نجازاكى[2]، وفى شنغهاى كنت قد تحريت الطريق، وقيل إن أول ميناء هو نجازاكى، ولكن من الأفضل أن تسيروا فى ميناء "كوبه" حيث تشاهدون البحر فى الوسط أيضاً، وتمر السفينة من بين اليابس والجزر المتعددة منظر جدير بالمشاهدة، ولنفس السبب كنا قد أرسلنا برقية السفير اليابانى حيث سنسافر على متن السفينة المسماة سيبريا، وسوف ننزل فى ميناء "كوبه" الواقع غرب خليج أوزاكا (أوساكا).

وتقطع السفينة المسافة من شنغهاى إلى نجازاكى فى أقل من ثمان وأربعين ساعة.

يوم السبت الموافق ١٥ رمضان المطابق ٧ ديسمبر ١٩٠٣م:

كنا قد تحركنا من شنغهاى، وبقينا حتى الساعة السادسة من بعد ظهر يوم الاثنين، ووصلنا إلى الحجر الصحى[3] بنجازاكى، كانت السفينة تسير بسرعة فائقة، ووصلت دفعة واحدة والمرافقون عبارة عن قنصل ألمانيا فى

---

(١) مهديقلى هدايت: سفر نامه مكة، ص١٤٧.

(٢) نجازاكى: ميناء فى اليابان، ألقت عليه الولايات المتحدة القنبلة الذرية فى الحرب العالمية الثانية مثلما فعلت بهيروشيما، يقع إلى الجنوب الغربى من فوكونوما وإلى الشرق من جزر جوتو.
سعيد بختيارى: أطلس كامل كيتا شناسى، ص٤٦.

(٣) قرنتين أو قرنطينه: مكان الحفاظ على المسافرين من أجل الاطمئنان على عدم تعرضهم للأمراض مثل وباء الطاعون وغيره (الحجر الصحى) وتعرف فى الإنجليزية باسم Carantine.

"كوبه" وسفير أسبانيا فى طوكيو، وكان البحر فى هذين اليومين هادئاً للغاية، وكانت تمر بعض الرحلات التى كانت ترافقنا، ولم يكن معلوماً لدى وصولنا إلى تشيفو وتاكو وشنغهاى أننا نأتى إلى الصين، ومن هو صاحب البيت.

وكانت تسحب مجموعة من الغجر الموجودة فى "سامين" أطراف السفينة، وكانوا يجيئون من أعلى السفينة لربطها، ويضعون الحبال بصورة سريعة، ويقوم الملاحون بضفائرهم بإرساء السفينة فى البحر وكأنهم حيوانات، وللإنصاف فإن كلاهما حيوانات، أحدهما مضطر والآخر مختار، وكان من الواجب التأمل حتى يأتى المفتشون الإنجليز ويقومون بإجراء التفتيش على الصحة ويعطوا إذناً بالسير.

وأطراف نجازاكى عبارة عن صحراء خالية، والبحر فى الوادى كأنه مخلب وأصابع ملقاة، وكان الميناء فى آخر الوادى، ومكان الحجر الصحى فى البوغاز، ولم تمض نصف ساعة حتى وصل قارب بموتور، لقد كان طبيب الصحة اليابانى، ومع كامل الاحترام والحدود المحفوظة قام بالتفتيش على دفاتر السفينة ووثائقها، واجتمعنا نحن المسافرين من رجال ونساء على متن السفينة لتناول طعام الغداء، وكان جناب الطبيب قد وقف أعلى السلم، وكان ينادى على اسم كل واحد ويشاهده فيرد، ذهبنا إلى السطح، وأعطى للسفينة إذناً بالتحرك فذهب، وكان مشهداً عجيباً بعد ملاحظة الأوضاع برمتها فى الصين، خصوصا بالمقارنة بارتفاع قد اليابانى وهامته بالنسبة لهياكل الأوربيين، الماء كف الوادى وما يخرج من الماء عبارة عن الخضرة والنماء، تحركت السفينة، وبعد قطع منحنيين متعرجين، بدا الميناء واضحاً، الشتاء وطقس الربيع.

- **الطقس جميل والأرض مثمرة، لا بارداً ولا حاراً ودائماً ربيع. (شعر)[1]**

(١) محسن رمضانى: شاهنامه ميراث فردوسى، تهران ١٣٦٦هـ بن، ص٢٠٧.

وبقينا حتى الساعة الثالثة بعد الظهر ثم نزلنا، وكانت لدينا فسحة من الوقت حتى الساعة الرابعة والنصف.

وكانت إحدى السفن الحربية الألمانية قد رست أيضاً فى الميناء، وقد حضر أحد أبناء الإمبراطور إلى اليابان.

شاهدنا صينى مهموماً، مطأطئ رأسه، وهنا ترتفع رقاب الأهالى بفخر فى الصين، لم يكن صاحب البيت معروفاً فى حين يظهر هنا المستعمرون فى كل جانب، هنا حيث صاحب البيت معروف ومحدد .مسرور وضاحك، ويطلق اليابانى على أرضه اسم "نيبن"، و "زبانج" باللغة الصينية، وقد ظهر اسم اليابان من هناك، ونيبن معناها طلوع الشمس.

وتشتمل اليابان على تسع جزر كبيرة، منها ثمانى جزر يعتبرونها متميزة، ويطلقون على الثمانى جزر اسم "ياسيما"(١) وتخرج "يسو"(٢) من هذه المجموعة من الناس ومكان إقامة إناس مكن فصيلة الحيوانات تعرف باسم "آئينو"، ويطلقون على تلك الجزر مجموعة اسم "ياماتو".

وفيما يتعلق باستقبال الغرباء يتم جمعهم فى اليابان، ويوجد فى نجازاكى فندق سمى باسم مكان ليسهل على المسافرين الوصول إليه، ثم أخذ غرفة وغسلنا وجوهنا ورؤوسنا، ورغب الأتابك فى أن تبقى النفقات فى اليابان فى يدى، فقبلت من أجل إرضاء خياله.

"اسووا" معبد له مكانة عالية، ومن هناك تشاهد على المدينة المدنية والميناء، تعرفنا على المحفة، وتم قطع مسافة ما، وكان يجب السير أسفل التل ومنه إلى أعلى، أحياناً يكون السير على الأطراف وأحياناً على الدرج، فى كل مرة يكون هناك إطار يشبه الأرض وهذا من مراسم الأماكن المحترمة، وقد سبب الصعود إلى ذلك التل مضايقة للأتابك، لكنه تحمل.

(١) كما يطلق عليها أيضاً اسم "ياشيما" حسبما ذكر المؤلف.
(٢) يسو: وتعرف باللغة اليابانية "تز" حسبما ذكر المؤلف.

ومن الأماكن الجديرة بالمشاهدة فى هذا المكان تمثال لحصان مصنوع من البرونز وكان ذا شموخ وعظمة، ولنفس المناسبة يطلقون على ذلك المعبد اسم معبد الحصان البرونزى، ويقام فى كل عام فى الفترة من السابع إلى التاسع من أكتوبر حفل فى هذا المكان، ويأتى الناس إلى هناك من أطراف جزيرة "كيوشو"، وتوجد حديقة غناء فى أطراف المعبد، والجبال الشاهقة التى تسترعى الانتباه أن هذا المكان يشبه مناطق من بحيرة الأماكن الأربعة (كاتر كانتن) بسويسرا، وتزداد نظافة اليابانى وظرفه على اللطف الطبيعى، وفى فصل تفتح براعم أزهار شجر الكريز غطت هذه الزهور الصحراء بالستارة الحريرية البيضاء.

والحصان البرونزى ليس له روح، وشوهد حصان له روح حيث يعبد فى هذا المكان، وكان واضحاً أن حق بقائه كان يصل بصورة منظمة، وقد سار الحصان المذكور "فوكوشيما" فى كل مكان لفحص حال سيبريا، وبعد إنجاز ذلك يتقاعد عن أداء الخدمة، ويقضى باقى عمره فى رفاهية فى ركن من المعبد.

ويعد نجازاكى أول ميناء قامت اليابان بافتتاحه على أوربا، وفى عام ١٥٧١ميلادية عقدت أول معاهدة بين اليابان والبرتغال ثم مع الصين عام ١٦٢٩م ومع هولندا عام ١٦٤٠م، وفى عام ١٨١٠م سيطر نابليون على هولندا، ووضع الإنجليز الذين كان ينتهزون فرصة تلك الأيام أيديهم على الممتلكات الهولندية، ولكن التقت الريح بالراية الهولندية فى نجازاكى.

حقاً أن مدينة يصل تعداد سكانها إلى نحو مائة وعشرين ألف نسمة، وحوض من أجل إصلاح السفن، ومصنع للحدادة يرتبط بالشركة. فى أراضى نجازاكى يوجد فحم حجرى، وقد كان نقل الفحم من مكان تخزينه إلى السفينة أحد المناظر الجديرة بالمشاهدة بحيث شغلنا بمشاهدته لعدة دقائق، إن ما يقرب من أربعة وأربعين شخص قد حملوا فى أيديهم الزنابيل يتلقفونها على

نغمة "مفعول مفاعيل مفاعيل فعول"[١] بماهرتهم ونظمهم فى العمل، وكان يلفت الانتباه أنه يعمل بهذا النظام ما يقرب من ثلاثمائة وسبعين شخصاً يتقاضون (ما يعادل ألف ومائتين وستين خروار) فى اليوم الواحد، وكأن نهر من الفحم يجرى بين السفينتين.

وتقع نجازاكى فى كيوشو الجزيرة الجنوبية لليابان، وللضفة ثمانية أفرع، وسبعة أفرع للملاحة، وأربعة فنادق، وجريدة، وبيتين للضيافة اليابانية، وعدة مطاعم لتناول الأطعمة، وقهوة أو كافتيريا.[٢]

ويوجد خط للسكك الحديدية يصل بين نجازاكى و"كوبه"، وعندما عرفوا بصفاء بحر الوسط بصورة غير عادية، فضلنا أن نسافر بالسفينة، وعندئذ كنا قد قلنا للسفير اليابانى: فى أى ميناء سوف ننزل ؟

وبعد جولة حول النتوء دخلت السفينة من بوغاز "شومونوساكى"[٣] إلى البحر الداخلى الذى يقع "كوبه" فى نهايته ، وكان صفاء الجو يوحى إلينا بالنوم ليلة هانئة، وفى أثناء النهار كان منظر الأطراف يبعث على البهجة، وبدا اليابس من الجانبين، وتشاهد الأماكن العامرة والغابات، وتعطى الوديان والصحارى الشاسعة من قريب أو بعيد منظر آخر فى كل لحظة بالتبادل، ويظهر أحدهما أفضل من الآخر، وتشاهد جزر صغيرة وكبيرة كثيرة، وأحياناً يشاهد إناس فى أزياء متعددة الألوان على الساحل يمشون بسرعة وبطء ويسيرون فى طريقهم، وشعاع الشمس عند حلول المغرب كأنه ستار، ويبدو منظره على الأطراف كأنه برادة من الذهب، "والمكان الذى يرسم فيه الرسام لوحاته وينقش تماثيله مزدان بالنقوش الجميلة"[٤] ، وكان يوجد ضباب أحياناً

(١) أى بنغمة اليد كان إعطاء الزنابيل على وزن "تن تن ت ت تن تن ت ت تن تن ت ت تان حسبما ذكر المؤلف.

(٢) المقصود ردا أو كافتيريا وهى فرنسية الأصل.

(٣) باليابانية يقال له: "شى من سكى"، ويقع إلى الجنوب من هيروشيما ويتحكم فى خليج سوئو فى المضيق الشرقى لكوريا.

(٤) شطرة مع التصرف فى كلمة صينى إلى كلمة يابانى، من كتاب الكلستان لسعدى الشيرازى.

فى الجو، وبدا المنظر وكأن القمر من خلفه، والحق أن ما يزيد من القيمة أن يتم السير يوميا فى هذه المنطقة التى لا يوجد نظير لها، ويصل طول بحر الوسط إلى ثلاثمائة وخمسين كيلو متراً، وعرضه يصل إلى ما يقرب من عشر إلى خمسة عشر كيلو متراً، وبالمقارنة فإن الساعة الثامنة بعد الظهر تقريباً تعادل مرور ثلاث ساعات من الليل.

وفى يوم الثلاثاء الموافق الثامن عشر من رمضان والثامن من ديسمبر، علا صفير السفينة إيذاناً بالوصول وقد رست فى مرساها، وكان قد مضى مكان النزول، فكان عليها الوقوف إلى صباح آخر، ومن الواجب أن تتأخر لمدة أيضاً بسبب زيارة الطبيب، وبعد الانتظار اتجه زورقان من الساحل صوب السفينة، ودخل روادهما إلى السفينة، وكان المفتشون الرسميون قد ارتدوا زيهم، ففهمنا بالحدس أنهم قد جاءوا من أجل الأتابك وكان ذلك فعلاً، فقد كانوا مأمورى الجمارك، قالوا نحن فى خدمتكم، لو تريدون أن تنزلوا من السفينة ليلاً نحن فى خدمتكم، ولا شك أننا كنا نطلب ذلك من الله، فنزل الأتابك ومرافقوه فى زورق، وأحضروا الحقائب والأغراض فى زورق آخر إلى الساحل، لكن سقطت منا عمامة فى الماء، وودعنا العمامة والسفينة معاً، وتعطلنا بسبب انتظار الحقائب.

وقام مدير الجمارك بدعوة الأتابك فى مكتبه، وكان عبارة عن حجرة مربعة بلا نهاية نظيفة وواسعة ومتواضعة ووضعت منضدة فى أحد الأركان من أجل الكتابة، ولم يكن قد وضع على المكتب سوى قلم ودواة فى صندوق خشبى لونه أحمر ومطلى، وفى ذلك الصندوق كأس مصنوع من المعدن وفيه ثلاث وردات حمراء مشتعلة من أجل تدفئة اليد، والأكثر من هذا أنه ليست هناك حاجة للنيران فى جو المكان، وهذه الأدوات مصنوعة فى اليابان، والوعاء المعدنى قطره ثلاث عقدات حتى نصف ذراع وبه محفظة مربعة من الخشب، وكلاهما مزدان، وكل ما هو مصنوع من المعدن عليه نقوش

ورسومات جميلة، وما هو خشبى غالباً ما يكون منقوشاً عليه بالحفر باللون الأسود.

الطقس فى "كوبه" ليس لطيفاً مثل "نجازاكى"، وبصفة غير عادية فإن التكيف مع الحر الشديد صعب، ولكن كان يجب إعداد البيت على قدر كل ضيف، وصلت الحقائب، وبحثنا عن فندق فقيل إن الأفضل هو فندق "اورينتال" أى الشرق، ذهبنا إلى هناك، وكان فندقاً نظيفاً، وجاء كاتب الحكومة فى نفس الليلة إلى الفندق، وأعطانا بطاقة باسمه، وذهب حتى يأتى فى صباح اليوم التالى ويرشدنا، وشكرنا خادم الجمارك، ولم يرد كتابة تقرير الليل، واغتسلنا، وتناولنا طعام العشاء، واتجهنا صوب الفراش، وفى مثل هذه الأمور يكون الانهماك فى النوم هو الأفضل، ولو أن الرأس ليس فى أحضان الأحبة، فعانقت أيادينا إبطنا، وغصنا فى نوم عميق، فالنوم نفسه عالم مجهول وقصة طريفة جداً.

وفى صباح آخر جاء رئيس إدارة الأعمال "بكوبه" ورئيس الشرطة لرؤية الأتابك، تذكرنا ميناء آرطور والتعب الكثير، وكانوا قد أعدوا عربة من النوع النادر وكانت لدينا فرصة حتى العصر، ودعانا وكيل الأعمال فى جولة إلى معبد "تانكو" الذى كان متنزهاً، فذهبنا، وقمنا بتأجير مترجم اسمه "تاجاتا" ورافقنا، وتعد المعابد اليابانية مزاراً للعظماء الذين قاموا بالخدمة فى المملكة وخدماتهم مقصد العامة، لكن هذا المعبد متعلق بصناع النسيج والحياكة من الصف الأول الابتدائى.

والمبانى هناك فى إثر نذر الملكة جينجو فى المكان الذى كانت تذهب منه إلى كوريا فى المائة الثانية عشر من الهجرة، ويأتى الناس فى كل عام فى مكان معين لزيارتها، ويقيمون حفلاً، ومن المعبد ذهبنا إلى شلال "نونبيكى"، وكان الطريق عبارة عن غابة ويرتفع بقدر ما، وكان وكيل الأعمال رجلاً كهلاً فاعتذر، فذهبنا بمفردنا، وكانت هناك قهوة أمام الشلال، تناولنا الشاى بها، اشترينا بعض الصور وأغلفة لها والتى كانوا قد

صنعوها من قطع من جذوع الأشجار والأخشاب ذات الألوان الطبيعية العديدة، وكان الخدم فى حالة من المرح تكسو وجوههم البشاشة.

ويوجد هنا شلالان ويجب رؤية المنظرين والكوبرى الخشبى يبعد عنهما لمسافة، أحدهما يقال له "مداكى" أى الأنثى، والآخر يطلق عليه اسم "اداكى" أى الذكر، أحدهما يصل ارتفاعه إلى أربع عشرة متراً والآخر سبعة وعشرين متراً، ويأتى "نونبيكى" فى معناه اللفظى باسم اللباس الأبيض كناية عن بياض زبد الشلال، وفى الطريق صادفنا عين ماء تعرف باسم "تانزان" والتى كانت تخرج منها فى "خاربين" إلى الخيال المياه المعدنية المغلية والتى كنا نتخيل أنها طبيعية، وشاهدنا نبع ماء ليس به غازات وقد جعلوا فيه قدر من بخار حمض كربون مثل مياه "تانزان" التى كانت تخرج فى روسيا.

وقيل إن المنظر من أعلى يبين المدينة بصورة جميلة، ولم يكن التحرك أكثر من هذا مريحاً للأتابك، وكان من الأفضل لنا رؤيتها من أسفل عن رؤيتها من أعلى، وعدنا، ووصلنا إلى الفندق فى المكان المخصص لتناول الغداء.

- **فهذه البطن بلا فضل تلوك وليس لها صبر تصنعه قط.[1] (شعر)**

وكوبه أهم الموانئ الخمسة التى فتحت فى البداية على الخارج عام ١٨٦٨م وتقع فى شمال خليج أساكا أسفل الجبل، وقد قدروا تعداد سكانها بحوالى ٢١٥ ألف نسمة فى عام ١٨٩٨م.

يقع الحى الأوربى فى الجانب الشرقى للمدينة، الماء صافى والجو قريب من جو البحر وموقع "كوبه" التجارى مطمح التجار، ويقيم قناصل كل الدول فى هذا الميناء، وبه أربع كنائس، ومائة وأربعون فرعاً للبنوك، وأربعة فنادق أوربية، وأربعة دور للضيافة اليابانية، ومسرحين يابانيين، وأندية رياضية عديدة، وأحد عشر فرعاً مجهزاً للسفر والتجارة.

(١) سعدى شيرازى: كلستان، تصحيح محمد على فروغى، ص١٣٥.

وفى الساعة الرابعة والنصف بعد ظهر يوم الأربعاء الموافق التاسع عشر من رمضان (الموافق التاسع من ديسمبر) تم التحرك ناحية "كيوتو"، ورافقنا المترجم "تاجاتا"، وفى خلال الطريق كان يستلفت النظر تبادل مناظر السهول والجبال، والصحارى والغابات العملاقة فيها والمزارع بشكل لا يمكن رفع الرأس عن شرفة العربة.

وطافت بخاطرى مناظر سويسرا خصوصاً جولاتى ومشاهداتى فى الطريق إلى بحيرة "بيوا" أيضاً.

وأشادوا فى وصف "أساكا"، ولم يرغب الأتابك فى رؤيتها حيث كانت الفرصة ضئيلة وهى جديرة جدا بالمشاهدة.

وفى الساعة السابعة بعد الظهر وصلنا إلى كيوتو، وكان شخص من قبل الحكومة منتظراً فى محطة القطار، وهو رجل أنيق فى ثياب مسكية قال أنا فى خدمتكم، واصطحبنا إلى فندق "يا آمى"، واحتفى بنا كثيراً، وأنصرف على أن يأتى غداً ليرشدنا إلى كل مكان، وتقرر أن تبقى عربة الحكومة تحت تصرفنا أيضاً، ويحضرها المرافق، وكان من أكثر الأعمال ضرورة والتى تأتى فى المقدمة تجديد الاغتسال ففعلنا ذلك، وقمنا بتبديل ثيابنا، والأطعمة هناك كلها أوربية، مثلما كان طراز الخدمة وأثاثات المنزل، ويقع الفندق على شاطئ البحر ويطل على المدينة، وجلسنا لفترة فى صالون الفندق، وذهبنا إلى غرفنا، وكان النوم أكثر طلباً فى ذلك المكان، **"وعندما يحل الغد نفكر فى الغد".**[1]

وفى صباح آخر جاء رجل قصير، وقال نظمنا برنامجاً لعدة أيام بالتوقف فى كيوتو، ويقصد قصر كيوتو (جشن) بتصريح خاص، ويعد القصر المذكور من الأبنية القديمة، يقتصر على فرد فى اليابان وهو مبنى من نوع

(١) الشطرة الثانية لبيت لنظامى، أما الشطرة الثانية فهى: "هكذا يكون من الأفضل أن نتنزه فى الليل". نظامى كنجوى: كليات نظامى، تصحيح وحيد دستكردى، ص١٤٠.

مخصوص من الأخشاب، وغرف الضيافة مزدانة، الباب والجدار والسقف مطليين باللون الأحمر عليها رسوم ونقوش بالحفر فى غاية البساطة والعظمة، يمكن أن تكون كل قطعة من تلك الزينة متحفا، وليست الموبيليا والأثاثات كثيرة به، ذا حديقة نظيفة على الطراز اليابانى فى طرفها، وليس من السهل الوصول إليه والتفقد وهو صفة معظم الناس، وكيوتو من المراكز الشهيرة، وفى وقت العصر ذهبنا لرؤية مصنع الصناعة الصينى، وتعرف الصناعة الصينية باسم "كينجزان"، وفى اليوم الثانى شاهدنا مصنعاً لتصنيع البلور (كلوازنة) بالطراز المخصوص حيث تكون النقوش والتصاوير مفتولة بالمعدن المخلوط أو الذهب الذى يعد من الصناعات الخاصة باليابان، ويعد مصنع "تاكاهارا" مشهوراً فى هذه الصنعة، ولمحل "فوجى" اليد الطولى فى المنسوجات الحريرية، وتبيع حجرة "هياشى" التحف، وتكون رغبة المسافر لرؤية تلك الأماكن والمحلات بمثابة فأل وتنزه وتفقد أيضاً، ولا شك أنه يتم شراء أشياء أثناء التجول، ولديهم اهتمام بعرض فتونهم كما أن الاهتمام العام يميل نحو التجارة، وفى مدخل حجرة "هياشى" كانت تقف امرأة وفى يدها سلة بها تفاح، أعطاها الأتابك نصف ين[1] ، ومضينا بسرعة، فجرت فى إثرنا على أن تعطينا تفاحاً عوضاً عن النقود، والمعروف هناك عدم القبول مال دون مقابل، لابد وأن نعود، وأخذنا بضعة تفاحات، ولم يشاهد فى اليابان أهل سؤال خلافاً للصين التى يتزاحمون فيها.

ومن الأماكن الجديرة بالمشاهدة فى الصين واليابان بخلاف القصور الحكومية المعابد وأماكن زيارة العظماء، إن ما ملكوه من فن قد أوصلوه فى هذه الأماكن.

ومضى اليوم الثالث فى مشاهدة معبد "نيشى هيانتشى" وحجرة "نوياوا" المصنوعة من البرونز، وفى مكان العبور شوهد جزء من المدينة وكان كل شئ يجذب الانتباه من حيث البساطة والنظافة.

---

(١) الين: قرش يابانى واحد، وهو العملة الرئيسية فى اليابان.

وفى اليوم الموافق الثالث عشر من ديسمبر كانوا قد قاموا بطلاء كل المنازل بالفروع الخضراء ودروب المنازل أيضاً، كأنه كان عيداً، وكان معلوماً أن اليوم سيدخل إلى الخدمة العسكرية جنود جدد فى ضاحية "كيوتو"، ومن الواضح إلى أى درجة كانوا يعيروا الخدمة العسكرية أهمية قصوى وإلى أى حد يهتم فكر الجماهير بالأمور.

ويعد معبد "هياهنجوانتشى" هو أكبر المعابد لتمجيد بوذا وهو من منشآت فرع "اطائى" من فرقة شين عام ١٦٠٢م والذى احترق أربع مرات وتم تعميره، وللأهالى اهتمام خاص بهذا المعبد، وقد أعطوا نفقات للتعمير فى كل موقع، وهو ينقسم إلى قسمين، "دائيشى د"،و"آميداد"، والقسم الأول هو الأكبر، وليس فى اليابان أهم منه، وتبلغ مساحته حوالى خمسة وسبعين ذراعاً فى خمسة وثلاثين ذراعاً.

ويقدم "كاتوكيوماسا" حوض "تشودنى" الذى كان قد أحضره برفقته بعد العودة من حرب كوريا كهدية إلى المعبد.

كانت "كيوتو" كرسى عرش اليابان فى البداية، ويعد قصر الميكادو من الأماكن الجديرة بالمشاهدة، وتتجاوز مساحة فناءه المائة ألف ذراع مربع، ويشتمل على أبنية عديدة مع ست بوابات، وكانت توجد منازل الأعيان والخدام بأطراف القصر حيث تم وضعها تحت تصرف الأهالى، كما يوجد فى زاوية من السوق معرض الأمتعة التى تتواجد فى فصل الربيع من كل عام ويقوم أصحاب الصنعة بعرض فنونهم.

ويوجد فى المدخل الرسمى للعمارة سجل يقوم الحضور بتسجيل أسمائهم فيه، وكان "داى ميوها" فى انتظار الحضور بمكان الاجتماع السابق، وكانت الرسوم والتصاوير مطلية باللون الذى يأخذونه من سمك "السبيا" وكلها من عمل الأساتذة، ويجب التطهر والاغتسال قبل الذهاب من هنا إلى القاعة، وهناك عين ماء تمر أسفل الدرج وكانت أغلب الزينات فى هذه القاعة

على الطراز الصينى، وهنا مكان عرش "الميكادو"، وقد افترشوا قدراً من التراب فى زاوية من هذه القاعة، ومكان إتمام الرسومات المذهبية يجب أن تكون فوق التراب، وتجدد فى كل مرة، وتظهر فى كل مكان وردة داود ذات الست عشرة ورقة فى النقوش والرسوم والتى هى علامة على السلطنة.[١]

وإلى الطرف الجنوبى توجد قاعة "شيشين دن" بعرض عشرين ذراعاً فى طول أربعين ذراعاً والتى هى مكان اعتلاء العرش، وفى اليوم الأول من العام يعقد فيها الصلح أيضا وكانت النقوش والرسوم فى هذه القاعة على الطراز الصينى وذكرى ألف عام، ويوجد على جانبى العرش كرسيان ومكان السيف وسائر لوازم الصلح، وتوجد ثمان عشرة درجة سلم من هذه القاعة حتى الفناء أى بعدد الطبقات، وقد وقف موظفو المرتبة الأدنى بوشاح فى السلام فى المرتبة الأخرى (على الأرض)، والدرجات الأخرى حسب مراتبها وعلى الجانب الأيسر شجرة الكريز التى زرعها إمبراطور "نيميو" هنا بيديه ومضت أكثر من ألف عام على بداية غرس تلك الشجرة فى مكانها منذ وقت الجفاف، وعلى الجانب الأيمن توجد شجرة التارنج الحيوانية الباقية منذ أقدم العصور أيضاً ولو أنه قد قام بتجديدها.

ويوصل "دالان" هذا البناء بالقصر الأصغر المسمى "كوكوشو"، ويشتمل على ثلاث قاعات مزدانة بالنقوش والرسوم الخاصة ويغلب عليها لون السحاب، واللون الأزرق هنا متلألئ بصورة غير عادية، ومن هنا يصلون إلى العمارة المعتادة وقد كانت محلاً للحياة اليومية، وحيث لا يبدو أنها جديرة بالمشاهدة فيمكن تصورها حتى نتخلى عن الإطالة وقصر الكلام لما هو مفيد.

واليوم فإن بعض عمارات القصر عبارة عن مدرسة للفتيات ومستشفى، ولم يفتح باب حديقة تنزه الإمبراطور.

---

(١) طمغا: علامة، الرسوم الجمركية وهى كلمة مغولية الأصل وتكتب أيضاً "تمغا" وتستخدم فى اللغة العربية بمعنى طابع رسمى" أو طابع تمغة يتم التعامل به مع الجهات الحكومية الرسمية.

ويعد تفقد أبسطة الباعة الجائلية فى فندق "دالان" من الأعمال اليومية، وسبباً لإفراغ جيوب السائحين، فلابد من شراء أشياء. وكان "كابورتالو" من حكام الهند الآن والذى يقوم برحلة لليابان من نزلاء الفندق، وكانت العمامة علامة للتعرف علينا، ودعانا لتناول الغداء الهندى، كان الحديث عن الأرز المطبوخ بالسمن واللحم المفروم، وغير الأرز الشامى المفروم والأطعمة وكانوا قد وضعوها على المائدة، وكان الامتياز فى النهاية للأرز، فى طهران لم يكن ذلك النوع من الأرز بنفس اللطف فى الطعم، وللأسف فإن كثرة الفلفل والبهارات الأخرى قد منعتنا من تناول الغداء الذى كان ممتازاً فى الواقع، وكان اللسان والفم قد بلغ إلى حد الحرقة التى لم تكن لدينا طاقة لتحملها، فى حين أنهم كانوا يضيفون الفلفل إلى أغذيتهم، وحاولنا تناوله بكل الجهد والجد لكن لم يتيسر ذلك.

وقد رافق حضرة الحاكم الهندى كل من الناظر، والطباخ، والكاتب، والطبيب، وكان الطبيب يعرف بعضاً من اللغة الفارسية، وقام بتأجير عدد من فتيات الجيشا وهن نساء مطربات، وكان يصطحبهن إلى الهند مع الجنسيات الأخرى التى كانت برفقته، ربما تكون أحوالنا من وجهة نظره حقيرة للغاية، وكانوا قد ذهبوا إلى الصين، ولم تتح لهم الفرص للتمتع بخمارات القصر، ومنعنا حسن أخلاقنا من مصاحبته إلى قصر الخاقان، وكان حضرة الحاكم الهندى مسروراً من رحلته لليابان حيث قال: سوف أسمى إحدى مزارعى باسم اليابان وكان ذلك العدد من فتيات الجيشا ضرورياً من أجل الصفاء، ولم يذكر شيئاً عن نهضة اليابان، ولم يكن معلوما أن همته مقصورة على هذا القدر، أو أنه كان يعد كتمان المشاعر من ضروريات الإيتيكيت، وقد كانت كيوتو عرشاً لليابان فيما يزيد عن الألف عام، وفى عام ١٢١٥ هجرية انتقلت العاصمة إلى طوكيو، ومنذ ذلك التاريخ أطلق على كيوتو العاصمة الغربية، وأطلق على طوكيو العاصمة الشرقية، وعرفت فى السابق باسم "إيد".

ومن الشخصيات التى جاءت إلى كيوتو فى هذا العام، وأقامت فى فندق يا آمى: الأميرال الروسى "ايفانس" الذى كان يقضى الشتاء فى شنغهاى، والصيف فى تشيفو.

ويقطع نهر "كام جاوا" المدينة وعليه جسور عديدة من ضمنها جسر بطول مائة وعشرين ذراعاً وعرض ثمانية أذرع، وشوارع المدينة على طريقة الشطرنج متقاطعة ومنظمة، وطقس المدينة معتدل، ، وتصل أعلى درجات الحرارة إلى ستة وثلاثين درجة من مائة قسم، ودرجات البرودة إلى إحدى عشرة درجة.

يوم الأربع والعشرين من رمضان الموافق الرابع عشر من ديسمبر:

تم التحرك عصراً صوب طوكيو، وفى أثناء الذهاب إلى محطة القطار كان يراقب أحوال الأتابك المستقبل الذى كان قد حضر من قبل الحكومة، أحضر عربة، وحسب الاتفاق ذهبنا إلى محطة القطار، وطلب الأتابك أن تعطى نقوداً إلى هذا المستقبل، فأعطيته مائة ين (ستون تومان) وهى عبارة عن شئ بسيط تذكارى، قال بدون إذن لا يمكننى قبولها، قلت خذوها ولديكم إذن بها، ولاشك أن الأتابك يسمح لكم بها باحترام، وإلا فأرسلوها إلى طوكيو، فقبلها وبعد عدة أيام وصلت منه رسالة شكر عما أعطى له وقد قبله.

وتمر السكك الحديدية من واد، وتبدو الجبال من الناحية الغربية، وكان يعد العبور من شاطئ بحيرة "بيوا" ذا مشهد وجبل "فوجى ياما" مشهداً آخر لبعض المناطق بسويسرا، وكان الطقس لطيفاً والأرض خضراء للغاية، فوجى ياما هو جبل دماوند اليابان الذى له بروز ثلجى وأشبه بجبل "آغرى داغ"[1] ، وتعد الصناعات اليابانية من النسيج المزخرف والمنقوش فى كل

(١) آغرى داغ: اسم تركى لجبل آرارات بالقرب من محلتنا فى آذربيجان، وداغ كلمة تركية تعنى جبل.

مكان من الأمور المطلوبة، وأتصور شكل (جبل فوجى ياما) كالبلور المصنوع من الدر الذى يصل وزنه صفحة ورق.

من أى شئ صنعت الصناعات اليدوية اليابانية فهى موضع حيرة، لدرجة أنهم يجعلون جزع الشجرة كالتحفة، وكان قد مضى المغرب، ووصلنا إلى "يوكوهاما"، وهو ميناء فى شرق اليابان، وفى الحقيقة هو بوابة طوكيو، ويقوم قطار السكك الحديدية بتوصيل المسافر من هذا الميناء إلى طوكيو فى مدة تصل إلى نصف الساعة.

فى المحطة كان رجل يسلك الطريق فى ملابس أوربية، كثير السؤال ولاشك أنه دخل العربة فى أعقاب الأتابك قائلاً: أنا المترجم الشخصى لوزير الخارجية وأنا مكلف من قبل البارون "كمورا" باستقبال الأتابك، واسمى كنيشى (بتشديد النون):

- **العظماء المسافرون يطقون بأرواحهم، لأنهم يحملون أسماءهم الحسنة إلى العالم. (شعر)**[1]

معاهدة مع الروس، وكان من شروطها حصر الجمارك إلى ١٠٥، ولم يكن من حقنا التدخل فى الجمارك، وفى النهاية وفقنا فى توقيع اتفاقية جديدة مع الروس، قال "كونت": لدينا نفس القيود، وكنا مبتلين أيضاً بالرأسمالية، وأصدرنا مرسوماً قضائياً على نسق المرسوم الأوربى، قمنا بتنظيم القوانين، وأكملنا قوتنا العسكرية، ونسخنا المعاهدات، ولم يجزها الأوربيون، فكانوا يلوحون بالحرب وكانت لديهم المقدرة على ذلك.

أمرت الحكومة الألمانية ستين شخصاً من القضاة المعمرين المحنكين بسن قانون مدنى فى ظرف عشرين عاماً، وكان المقرر أن يتم تنفيذه اعتباراً

(١) سعدى شيرازى: كليات سعدى (بوستان)، باهتمام محمد على فروغى، ص١٦.

من عام ١٩٠٠م فى كل الممالك الألمانية، وقد قام اليابانيون بترجمة القانون قبل تلك الفترة بعام فى سنة ١٨٩٩م وتم تنفيذه فى اليابان.

ويتطلب تنظيم القانون تجربة واسعة، وهناك حيث أن أسس القانون فى اليد وليست هناك صعوبة كبيرة، والمشكلة فى التنفيذ، والأكثر صعوبة هو التدريب القضائى لرجال القانون حتى يكون عملهم سليماً، فلا يقبلون الرشوة ولا يطأطئون القلانس.

كانت مشاهدة دار الفنون من فصول البرنامج كذلك، ذهبنا لمكان الاختبار، وكان التدريس فى عطلة، وكان التلاميذ فى المكتبة مشغولين فى المطالعة، قال "كنيشى" أثناء الذهاب لخدمة "الميكادو" بأى لباس سوف تذهبون عند لقائكم بالملك، قلنا بالعمامة واللباس المسكى وفى اللقاء ننزل لأسفل، قال اعدوا أنفسكم بنفس النظام، وكانت الساعة العاشرة صباحاً هى الوقت الذى كان قد تم تحديده، ووصلت عربة لشخص كنا قد أوصينا بحضورها غداً فى طوكيو، وذهبنا.

وبموجب الدعوة التى كان قد تم تحديدها عن طريق "شيندا" نائب وزير الخارجية يوم الخامس والعشرين من ديسمبر الساعة العاشرة والنصف صباحاً، كان باب الحديقة الإمبراطورية مفتوحاً، كانت عمارة الميكادو أكثر بساطة من تلك التى تم وصفها، وكان يجب الصعود أربع درجات لأعلى، وكان اثنان من الخدم فى الانتظار بثيابهما الحمراء، ودخلنا إلى الدهليز وكان طوله عشرين متراً تقريباً وعرضه ثلاثة أمتار، الجدران خشنة ومن الطين، وينثرون ذلك الطين بجسم الجدار، وجسم الدهليز مصنوع من الخشب وكان الباب والنافذة الخشبية معشقتان بالزجاج، وهو موجود بأطراف الحديقة بعرض ست عقدات من الزجاج، وكان فى استقبالنا رجل كهل، اصطحبنا إلى قاعة واسعة، والجدار مطلى بالطين والبساط عبارة عن قطع من الحصير التى كانت موضوعة على الأطراف تشبه قطع من سجادنا، وجسم القاعة الطويلة المواجه للحديقة مفتوح على نافذة خشبية وتوازيها نافذة صغيرة

بها زجاج، وفى الجدار المقابل كانوا قد علقوا للستارة مفتولة منسوجة طولها من سبعة على ثمانية أمتار وعرضها أربعة أمتار، قيل إنها هدية من إمبراطور الصين، وكانت قد وضعت مزهريتان من الخزف من صناعة الصين بطرفى الستارة، ومساحة هذه القاعة والغرفة خمسة أمتار فى ثلاثة أمتار وهما بطرف الدهليز، ويقع الدهليز على ما يبدو فى الناحية الجنوبية.

وبعد مرور عشرين دقيقة دخلنا، وكان الإمبراطور قد وقف فى الغرفة بجوار القاعة التى كانت مظلمة بقدر ما أمام كرسى مصنوع من خشب يسمى "الفوفل" ويبدو أنه صناعة هندية، وكان عارى الرأس وكالتمثال بلا حركة، وكان "كنت تودا" رئيس المراسم مترجماً، وحضرت فى البداية برفقة الأتابك بصفتى مترجماً، وبالصورة التى كنا قد ذكرناها طأطأنا رؤوسنا، فقال الملك قد أوصيت أن يرشدوكم فى كل مكان تزورونه، وأتوقع أن تمضون وقتاً طيباً فى اليابان، قال الأتابك: تم استقبالى فى كل مكان بكل ترحاب، وأقدم بكل فخر شكر ومباركة تهانى صاحب الجلالة.

وفى هذا المكان أحضر المترجم ميرزا أحمد خان ليدخل وحصلنا على إذن، وسلم الملك على الأتابك ومرافقيه وتم اللقاء عن طريق وساطة المترجم، لكن كان من المعلوم أن الإمبراطور كان يعرف الفرنسية، وفى مكان الشكر وتقديم التحيات كان يبدو على وجهه آثار البشاشة والسرور، وطوال الوقت الذى لم نخرج فيه من الغرفة، كان الإمبراطور قد وقف مستقيماً فى مكانه، ثم خرج بعد الزيارة من باب آخر، كان الملك رجلاً حسن الطبع وبشوش الوجه، أسود العين والحاجب والشعر، ولم يظهر الغموض على عينيه، وكان لون بشرته نضراً غامق اللون، وشخصيته حازمة وجاذبة، وقيل إن الملك لم يخرج من قصره طيلة ثمان سنوات فى أعقاب سيطرة الروس على برت آرطور.

لقاء ماركى ايتوهيربومى:

كان ماركى ايتو يمتلك قصراً على ساحل البحر، وقلما كان يأتى للمدينة، ذهبنا إلى قصره بالسكك الحديدية، كنا أنا وميرزا أحمد خان فى الخدمة بطهران، وكان مع ماركى شخصيتين من الوزراء السابقين للخارجية، وكان يعرفهما وهم من أصدقائه الحميمين، وقد قام بدعوتهما على مأدبة غداء تكريماً لهما.

تم تناول الغداء، كما تم تناول مشروب الساكة اليابانى الذى يصنعونه من الأرز، فيصنع فقاعات وله حرارة بحيث تميز نوعاً من الكيف، وقدموه لنا فى إناء، ويتم تناوله فى كؤوس خاصة، وكانت على مائدة ماركى ثلاثة كؤوس مطلية بالذهب، وقيل إنها هدية الإمبراطور.

ولماركى ايتو مكانة غير عادية لدى الإمبراطور، ولو يدلو بدلوه فى المجلس فى أمر ما، توافق عليه رئاسة الوزراء على الفور، ويتوقف توقيع الإمبراطور على موافقة "ماركى ايتو"، وتتكشف حكمة هذه المنزلة ضمن تاريخه الطويل، وعلى مائدة الغداء تم تناول مشروب الساكه فى ثلاثة كؤوس ذهبية.

وبعد تناول الغداء تم الحديث لمدة ساعة مع ماركى، وحضر المترجم اليابانى وأنا، وكان المترجم يقوم بالترجمة من اليابانية إلى الفرنسية، ثم أترجم أنا من الفرنسية إلى الفارسية، وقال الأتابك لقد علمنا أن ازدهار اليابان كان نتيجة لحسن تدبير وتعليمات جنابكم العالى أليس كذلك؟ أجاب: "كل هذه الأصوات كانت من الملك"[1]، ثم سأل الأتابك: من أين بدأتم؟ أجاب: عندما شرعنا فى العمل، رأينا أننا ليس لدينا رجال للعمل، وأرسلنا مجموعة من الشباب المدرب إلى أوربا وأمريكا، قاموا بالدراسة فى كل الشعب العلمية

(١) هذا الشطر الذى صار مثل شائع، من الشطر الأول لبيت جلال الدين الرومى مع التصرف. كان الملك مطلق هذه الأصوات، ولو أنها كانت من حلقوم عبد الله.

والصناعية، ثم قمنا بتصنيفهم، وتوزيعهم على كل مدرسة فى المملكة، وكان قد تم تبادل الأحاديث فى هذا المجال بينى وبين الأتابك، ورفعت تصريحات ماركى قلبى دفعة واحدة.

وعند العودة فى الطريق دخل إلى العربة رجل وامرأة وشاب، ولم يكن هناك مكان، وأعطى أحدنا مكانه على السيدة، وقال المترجم "كنيشى": هذا الرجل هو وزير العلوم فى حكومتنا، وتلك زوجته وذلك الشاب ابنه، وقف الوزير وابنه، وكانت هناك حزمة رقيقة ومرتفعة ورائحتها نتنة للغاية فى يد السيدة بحيث جعلت رائحة العربة قذرة، ولم تكن سوى أقل من بيض الدجاج المربى فى الصين.

وكان من مقررات البرنامج زيارة للميناء الحربى، وأخذنا وعد بالغداء، ذهبنا إلى رئيس.دار السلاح "نبشى مورا" (ولا شك أن ذلك كان عن طريق قطار السكك الحديدية)، وكان الحضور هم: الأميرال بارن، ويوشيكا اينوئه، وليوتنان القائد بوزارة الحربية، وطرا اوطى، وويث الأميرال، وبارنج، وياماموتو.

وعلى مائدة الغداء قال أحد الحضور إن وزير علومنا فى الرسالة المطولة التى أحضرها من جوف الهيكل البوذى، وكان المعلوم أنه فى غلبة الإسكندر كان قد جاء إلى اليابان واحد من أبناء ملوك إيران، وينتهى به فرع سلسلة سلاطين اليابان، هل يوجد فى تاريخ إيران خبر هذه الرحلة أم لا ؟ وترجمت ذلك للأتابك، وكان الجواب أننا نعلم ذلك فى تلك الفترة، أن أبناء الملوك الإيرانيين قد تفرقوا، إلى أين ذهبوا لا نعلم !، وفى هجرة قوم من المغول التى تعادل نفس الفترة، من الممكن أن يكون قد ذهب إلى اليابان شخص من

أبناء الملوك مرافقاً لهم والله أعلم. وسألت "تاجاتا" مترجمنا، فقال: لقد رأيت فى أحد الكتب، واجتهدت أن يقع هذا الكتاب فى يدى، ولم يحدث.[1]

وأثناء دخولنا اصطحبونا فى جولة لزيارة بالسفينة الحربية المسماة "شينيان" وهى من صنع اليابان، وتم تدشين مدفعين كبيرين مصنوعين من البرونز على متن السفينة، وغطى أحد أصحاب المناصب بيده على علامة المدفع وقال: أى اختلاف ترونه بين كلا هذين المدفعين ؟ قلت: لا اختلاف قط، ثم أظهر العلامة وقال: هذا من صنعنا وذلك من صنع "آرم استرونج"[2] الإنجليزى، وليس بينهما فرق فى الشكل، وعمليا فإن المدفع الذى من صنعنا له مقدرة على تحمل أربعين أو خمسين دانة.

وكانت زيارة مدرسة الفتيات ضمن برنامج الرحلة أيضاً، والمدرسة تشمل المرحلتين الابتدائية والمتوسطة معاً، وعند وصولنا للمدرسة تنفسنا الصعداء، وكان التلاميذ من سن الثمانى عشر سنة حتى السبع سنوات مشغولين بالتجول واللعب، وقيل إن فتاتين يتراوح عمرهما من سبع إلى ثمان سنوات هن من بنات الملوك، وبالمدرسة عمارة جميلة البناء فى كامل البساطة، وبها حديقة واسعة نسبياً، وأعطانا مدير المدرسة ثلاث صفحات مكتوبة بقلم أسود من عمل ثلاثة من طلاب المدرسة كتذكار، وتلك التى حصلت عليها بتوقيع "كاواكا" لتزيين مكتبتى، لا أذكره بالخير.

يوجد بالمدرسة ثلاثمائة طالب، ولو نرد أن نشاهد جميع المدارس فإن ذلك يستلزم توقفنا فى طوكيو ستة أشهر، وكان من الجائز اختيار هذه المدرسة فى البرنامج من أجل إظهار تربية الفتيات.

(١) يعتبرون سلطنة اليابان فى الأسرة الحالية حوالى ٢٥٤٠ سنة، ويمر ٢٢٧٥ عام على غلبة الإسكندر، ولا يمكن عمل مقارنة لو أن هذا التاريخ صحيح، لكن العمامة والشمس على الراية والعلامة لوردة داود والتى تشبه فى الحواشى عرش جمشيد فى كل مكان، ومرة أخرى الله أعلم. مهديقلى هدايت: سفر نامه مكة، ص١٦٥.

(٢) آرم استرونج: كلمة يقال لها بالإنجليزية زشنرصرت شصا ومعناها الذراع القوى.

وكانت المدرسة العسكرية هى المدرسة الأخرى التى تمت زيارتها، ويشاهد فيها بعض المنشآت اليابانية وهى بسيطة بصورة كبيرة، والباعث على الحيرة فيها أنه تم قلب ماهيتها بحسن النية والاهتمام بأسسها، كل أعمالهم تتميز بالمتانة والأبهة، وليس لديهم أى زينة أو تظاهر فى العمل.

والمدرسة العسكرية هى المكان الذى تجتمع فيه كل مظاهر الحياة، وفيها عمارات عديدة تحت الرئاسة العلمية، والعملية، والأخلاقية، وبها حديقة واسعة، وستمائة طالب يابانى، وثلاثمائة طالب صينى، ويقيم الصينيون وبعض اليابانيين فى المدرسة، ومن ضمن الأشياء التى شوهدت قاعة طولها عشرون متراً وعرضها عشر أمتار، وفى أطرافها أقفاص زجاجية لامعة، وكان قد وضع فى ظهرها المأكل والملبس وغيره مما يحتاجه الطلاب، ولا يصح التعدى على أسعار مشتروات الطلاب، وكان بعض أفراد من أصحاب المناصب يقيمون فى ركن ما، وكان قد أصيب أحدهم بإعاقة فى قدمه بعدما أصابته رصاصة فى حرب الصين، وبينما كنا فى جولتنا حدثت ضوضاء وجلبة، وقفز صاحب المنصب الأعرج هذا لأعلى حيث اصطدمت عصاه بالسقف، قيل وصلت إليه جريدة حتى يؤيد حدوث الحرب، وورد بخاطرى أصحاب المناصب الروس الذين ملوا من خبر حدوث الحرب !! الاختلاف من أين إلى أين ؟.

وقرأ فى الجريدة الآتى: "فى الثالث عشر من ديسمبر عام ١٨٩٢م استقبل الإمبراطور بكل المحبة الصادقة صدر إيران الأعظم، وأصدر أوامره إلى ابن الإمبراطور "سادا أوارو" أن يستضيف الوزير الأعظم وابنه ومرافقيه فى حديقة "شيبا"، خبر آخر: "سوف يقيم "بارن كمورا" مأدبة عشاء للوزير الإيرانى الأعظم ليلة الرابع والعشرين". وقد تضمن هذا الخبر صورة للأتابك فى الجريدة أيضاً.

والحضور هم: ابن الإمبراطور "ساداأوارو" وزير البلاط، ورئيس الاصطبل، ورئيس المراسم، وكنت تودا، و"ماتسوجاتا"، ونائب وزير الخارجية، وآجودان ابن الإمبراطور". تعد شيبا حديقة واسعة على أطراف

المدينة، وعند الدخول أشاروا إلى شجرة صنوبر ارتفاعها متر، وقيل إن عمرها ثلاثمائة عام، وكان يبدو عليها القدم من أحوالها.

وذهب صاحب البيت ابن الملك ابن عم الإمبراطور بعد تناول الغداء، وبقى وزير العلوم وعدة أشخاص آخرين، وكان هناك فناء فى أطراف العمارة عرضه عشرة أمتار وطوله ٢٣٠متراً معداً من أجل لعبة الطابة، وكانوا يدخلون من جانب السور، وكانت تقف فى المكان مجموعتين بملابس مختلفة وكانت عصا لعبة الجولف عبارة عن (عصا معكوفة) فى يد اللاعبين فى الميدان، وكان يجب ممارسة اللعبة ورفع الكرة بالعصا المعكوفة التى تمسك باليد وعلى رأسها انحناءه، وكانت تعتمد هذه اللعبة على الضرب والإعادة حتى يوفق طرف فى خطف الطابة، ويسقط الكرة من الثقب الذى كان موجوداً فى جدار بجوار غرفة الاستقبال، وكانت هناك طابة أخرى فى خط بالوسط، وتوفق كل مجموعة تقوم بخطف تلك الطابة، وتقوم بإسقاطها فى الثقب.

ولعبوا هذه اللعبة مرتين، وفى كل مرة كانت تتفوق مجموعة دون عناء، وبعد الانتهاء من لعبة الجولف، وفى وقت العصر، سمح لنا بالانصراف، وفى الصين واليابان لا يجب تصور ما نقوله عن الحصان العربى فهناك شبه كبير بينه وبين الحصان من نوع "تاتو".

السفر إلى نيكو

يوجد فى نيكو مزار لسبعة اشخاص من معالم اليابان التاريخية، وتشاهد هناك أنواع للصناعات اليابانية بصورة كاملة، ويبعد الحى الإنجليزى لمسافة واحد وتسعين ميلاً، ويقع فى أطراف شمال طوكيو، ويستغرق السفر إليه طيلة خمس ساعات فى الطريق بالسكك الحديدية.

ورغبوا فى مشاهدة "نيكو" من تعاملين أساسيين: الندرة الطبيعية، والآثار الصناعية، وغابة عمرها ألف سنة فى جبل "نيكزان"، إضافة إلى الشلالات العديدة ومزار "عظماء" "شينطو"، وكان "شينطو" مذهب القدماء

باليابان، ثم وصلت بعدها البوذية لليابان، وقد اهتم القوم منذ قديم الزمان بهذا المكان، ويعد الاهتمام الأكثر بمزار "شوجون يياسو" من كل المواضع بالتعظيم والتكريم حيث يكون على رأسهم سلسلة "توكوجاوا" فى المائة السابعة عشر المسيحية، ومقبرة جده "يميتو".

والجو معتدل فى طوكيو بسبب قربها من البحر وجريان المياه الاستوائية بلا نهاية، وفى نيكو الطقس بارداً للغاية، ولحسن الحظ أن المدفأة الحديدية كانت تشتعل فى فندق "نيكو"، وكان الفندق قد صمم على الطراز الأوروبى، وصلنا إلى نيكو أول ليلة، وتم قضاء الليلة بالفندق، وذهبنا لزيارة المقابر فى اليوم التالى، والعمارة بسيطة من حيث البناء، ومكونة من طابق واحد، لكن ما يملكه اليابانى فى جعبة الصناعة يبرزه هنا فى الأعمال المطلية باللون الأحمر، والتذهيب، والرسوم، والأعمال النباتية، وأثاث المحراب، ويشتمل البناء على قاعة أمام الباب الموصل إلى مجلس الملك ومكانين على أطراف الكرسى، وفى المجلس منضدة، وعليها أثاث المعبد من الشمعدان والمزهرية وغيره، والمزارات فى أعقابها، والفندق بجوارها، ويشرف على حديقة مزدانة.

وما يستحق الذكر فى هذا المكان هو جسر خشبى، وكله مطلى باللون الأحمر، وشوهد مشوهاً للغاية فى جملته للأسف الشديد بسبب معاملة الأهالى السيئة له، وفى اللغة اليابانية مثل يقول: إن الشىء الحسن الذى رأيته لا يبدو شيئاً آخر، "نيخوو مينائى اوتشى واكه كوتويونا" وكان كل مكان بتلك الناحية جديراً بالمشاهدة، لكنه يحتاج لوقت وليس لدينا فرصة، ولم نقنع بأقل جولة، ماذا كنا نفعل ؟

وفى أطراف نيكو لنا قصص تنتهى بصعودنا إلى أعلى حيث كان به الماء، ثم نزلنا إلى أسفل فكان زبد الماء، كانت قصتنا كاذبة، لهذا لا أريد

أن أوجع رأس القارئ العزيز وفى ألف ليلة وليلة[1] العديد من تلك القصص، وقد ذكرت أمثلة منها فى كتاب "أفكار الأمم" أحد مؤلفاتى، ونسمعها كل يوم فى الأخبار.

والمقابر والمعابد التى نتحدث عنها مختلفة عن الكنسية أو المساجد فى بلادنا، وفى اليابان، فالقبة والمنارة ليس لهما ارتفاع هناك، العمارة البسيطة التى تزدان بالزينات المحلية من الداخل فوق التصور وتدعى "بياسو" والتى يطلقون عليها اسم "قيصر اليابان" وكان لها الصيت، وأوصى بوضعها فى أرض "نيكو"، وقد اهتم السلاطين هذه المرة بتزيين مقبرته.

وكان يحرسنا أحد الحراس وفى عربة القطار قال الأتابك: يجب اعطاؤه شيئاً، اعطيته عشر ين فلم يأخذها، أصريت قائلاً إن الضيف المحترم يعطيها هدية لكم، أفلا تأخذونها ليس هذا بطيب، قال: أسأل رئيسى فى العمل، ثم ذهب وعاد، وقال: قال رئيسى ليس هناك عيب قط، ولم يأخذها.

دار السلام أرواح:

وكانت دار السلام أرواح أحد الأماكن الجديرة بالمشاهدة أيضاً، مررنا بصحنين، وكانا عبارة عن إيوان تعقبه قاعة، وكانت هناك ثلاث فتحات من القاعة إلى الإيوان، وليس بها أبواب، وكان الطرف المقابل مكاناً لجلوس الملك، وكرسيين على جانبيه مثل كل المعابد والمزارات، قال "كنيشى" إنه لا يجب الدخول للقاعة، والشخص الذى له حق الدخول إلى هذه القاعة هو من له وديعة فيها، وبعبارة أخرى شخص من أسرته يضحى بروحه فى سبيل الوطن، وقفنا فى الإيوان.

وكان ستة أشخاص من خدام المكان قد رافقونا وكانوا يرتدون عباءات خضراء اللون بكم ويطلقون عليها باليابانية "كيمونو"، وفى مجلس

(١) ألف ليلة وليلة: ألف أسطورة، عبارة عن كتاب قام طسوجى بترجمته إلى اللغة الفارسية فى عهد ناصر الدين شاه، وقد طبع عدة مرات حسبما ذكر المؤلف.

الملك كان قد صمم أثاث المحراب على الطراز البوذى، وفى الكرسيين الشرفيين علقت على مقربة من السقف عدة لوحات مطلية بالذهب ونقش على كل لوحة اسم بالخط الصينى، من أسماء الأشخاص الذين كانوا قد قدموا أرواحهم فداء للوطن، وعلقت على الجانبين ما يقرب من ألف لوحة فى مكان الجندى المجهول، لاشك أننا نحنى رؤوسنا إجلالاً وإكباراً لهم، وفى اليوم التالى أرسلوا إلينا من قبل أحد المسئولين ثلاثة صناديق من الحلوى على شكل شجر ورد، وكانت جديرة بالنظر إليها، وأحضرت علبتى إلى طهران، وما أكثر ما كان ظرفها ولطفها، ووصلت نصف سليمة.

زيارة للمحاكم:

كانت زيارة المحاكم جزء من البرنامج، ذهبنا إلى محكمتين جنائية ابتدائية[1] ، وأخرى استئناف، وكانت محاكمة شخصين من الحكام فى الاستئناف، ومحاكمة الأول بشأن الترويج لكتاب من الكتب المقررة، والأخرى الحث على شراء الشاى من الغرفة الشهيرة.

ووضع المحكمة تقليد للمحاكم الأوربية، عبارة عن قاعة طويلة، فى طرفها ساحة لجلوس القضاة، وفى مواجهتها مدرجات من أجل جلوس الجمهور والذين لهم علاقة بالقضية، ويقف المتهمون بين هذين المكانين، مكان (مثل مكان الأوركسترا فى المسرح) من أجل جلوس المتهم ووكلاء الدفاع، أحد المتهمين لديه ستة وكلاء للدفاع كان أصدقائه قد قاموا بتأجيرهم، وكانوا حاضرين بأنفسهم فى مكان الجمهور.

فى المحكمة الابتدائية الأخرى، كانت محاكمة سارق كانوا قد حبسوه داخل أربعة جدران بجوار مكان الدفاع، وكان فى حراسة أحد الحراس، قلنا: من أجل أى شئ هذا ؟ قيل: أحياناً من أجل الشر (يحفرون

---

(١) المحكمة الابتدائية وهى التى أطلقوا عليها اصطلاحاً المحكمة المدنية، أما محكمة الاستئناف فهى محكمة المحافظة، وكانت نظيفة وتعد ديوان الدولة العالى حسبما ذكر مؤلف سفر نامه مكة.

الشر) ويلقون جزاءهم، وللمحكمة أربعة أعضاء، ثلاثة قضاه ومدعى عام يجلسون على أطراف منضدتين ويجلس كاتب المحكمة على مائدة أخرى على الجانب، وكان القضاة يجلسون على أطراف القاعة بجوار الباب، وجلسنا فى مكان على كراسى.

ويتقاضى القاضى راتباً يصل من ستمائة إلى أربعة آلاف ين سنوياً أى ما يعادل (من ثلاثمائة وستين إلى ألفين وأربعمائة تومان)، ويتقاضى رئيس الجلسة مبلغ خمسة آلاف وخمسمائة ين سنوياً، ويتقاضى رئيس المحكمة خمسة آلاف ين سنوياً.

الطلاب الهنود:

كان حضور الأتابك إلى طوكيو قد احتل دون شك عنواناً فى الصحف، وجاء إلى الفندق اثنا عشر طالباً هندياً، ومعهم نسخة من جريدة "الحبل المتين"[١] ، كانوا يتحدثون الفارسية بلباقة وطلاقة، قالوا: قرأنا فى الجريدة إن احترام السلطنة[٢] قد توفيت، وهى نفس الفترة التى كنت فيها قلقاً فى الصين من قبل "صنيع الدولة"، وفهم من حديثهم أنهم يطلبون المدد والمساعدة من إيران ويتذكرون السلطان محمود ونادر شاه سمعنا ولم نتحدث، وكان تشويش إنجلترا فى هجوم إيران على هرات صحيحاً.

التقينا "بأكوما" الصدر الأعظم الأسبق لليابان، بعمارة كانت أشبه إلى وضع عمارات أوربا، وكانت غرفة الاستقبال مرتبة ومزدانة ببعض التحف، المتاع كله يابانى الصنع، والصور المرتفعة الموضوعة بين الغرفتين كانت مغبرة، قيلت أحاديث فى الصداقة[٣] ، ثم ذهبنا من هناك إلى منزل "اكورا"

---

(١) الحبل المتين: جريدة واسعة الانتشار وكانت تطبع فى كلكته تحت إشراف سيد جلال الدين حسينى الملقب بمؤيد الإسلام إلي اللغة الفارسية، واستمرت ما يقرب من ٤٠سنة (من ١٣١هـ.ق)، وكانت تنشر فى طهران أيضا جريدة تحمل نفس الاسم تحت إشراف سيد حسن كاشانى شقيق مؤيد الإسلام. (العدد الأول منها صدر فى ١٥ ربيع الأول عام ١٣٢٥هـ.ق)، وقد انتشرت فى رشت أيضا تحت إشراف سيد حسن كاشانى فى عام ١٣٢٧هـ.ق حسبما ذكر مؤلف سفر نامه مكة.

(٢) احترام السلطنة ابنة مظفر الدين شاه زوجة صنيع الدولة.

(٣) إخوانيات: رسائل الأصدقاء، والمقصود هنا أحاديث الصداقة.

الذى كان يشغل منصب قائد حزب اليابان القوى، ويدير عدة مدارس، ويدرس ستة آلاف طالب من المرحلة الابتدائية حتى نهاية التعليم فى مدارسه، وكانت الخصوصية التى قيلت أن الطلاب لا يدرون شيئا عن أهداف حزبه طالما كانوا فى المدرسة، وليس لهم حق الدخول فى الحزب، وهم مخيرون فى ذلك بعد الانتهاء من تعليمهم، كان "اكورا" رجلاً بين الخمسين والستين عاماً، يرتدى حسينية مزدانة، وشال على الوسط وعباءة "الكيمونو" على الكتف.

واستضاف كلاهما الأتابك على الطريقة اليابانية، وفى الليل دعى وزير الخارجية "كنت كمورا" فى الفندق اليابانى، وكان هناك وزير العلوم وبعض الأعيان، وكنا قد شاهدنا وزير الخارجية بالزى الأوربى فى اللقاء الرسمى، والكل هنا يرتدى الزى اليابانى العباءة المزدانة والشال، وكان يجب الجلوس على الأرض، لكل فرد أريكة، ويضعون أمامها منضدة قصيرة، وجلس وزير الخارجية بجانب الأتابك ووزير العلوم بجانبى، وانعقد مجلس الإخوان فى الثلاثين من ديسمبر.

وجاء بعد ظهر أحد الأيام وزير الخارجية إلى الفندق، وكانت غالبية الحديث عن شراء البغال، وهل يوجد فى إيران عدد من البغال التى تبدو أقل عدداً فى اليابان؟ وانحصر كل التفكير فى حرب الروس وسقوط "برت آرطور".

- **ليس فى المدينة مصيبة سوى كسر ظهر الخصم، وليست هناك فتنة فى الآفاق سوى تقطب حاجب الروس.[1] (شعر)**

(١) أصل الشعر مع التصرف الذى صنعه المؤلف فى آخر الشطر الأول لفظ (ضفائر الحبيب) وآخر الشطر الثانى (الصديق)، لسعدى الشيرازى.
- سعد شيرازى: كليات سعدى (غزليات)، تصحيح محمد على فروغى، ص٥٨.

وكانوا قد كتبوا فى جريدة "هشى شينبون" الصادرة بتاريخ ١٧ ديسمبر عن مرافقة الأتابك لمخبر، السؤال: ماذا كان رأيكم فى اليابان ؟ وما هو هدفكم من الرحلة فأجاب الأتابك: لقد تشرفت بمصاحبة جناب "سن آلتسن" أنا الصدر الأعظم الأسبق لإيران، الذى توقف مع مهديقلى خان وزير العلوم الأسبق والرفقاء فى فندق امبريال، وكان وزير العلوم يقوم بالترجمة "لقد سافرنا من وطننا منذ شهرين، وجئنا عن طريق "سيبريا" و"برت آرطور" إلى "تشيفو"، وذهبنا إلى "تين سين" و "بكين"، وجئنا أوائل ديسمبر من "شنغهاى" إلى "نجازاكى".

وقد تركت عظمة اليابان من الناحية الطبيعية والإدارية أثراً عظيماً فى نفوسنا، واخترنا المرور عن طريق البحر الداخلى الذى كان جديراً بالمشاهدة، وتمتعنا بالجولات فى وسط وأحضان الطبيعة، سرنا فى "كبه"، واستقبلنا بحفاوة بالغة من جانب الحكومة، وذهبنا إلى شلال "نونبيكى"، وفى "طوكيو" شاهدنا المحبة من جانب الحكومة، وقمنا بجولة فى قصر "نيشو" التاريخى بتصريح خاص، لبعض المصانع، وكانت الصناعات اليابانية بلا نظير، وتوقفنا فى "طوكيو" أربعة أيام، وأرشدونا إلى الأماكن الجديرة بالمشاهدة وكان ذلك حسب البرنامج، وتشرفنا بلقاء الإمبراطور، واستقبلنا بحفاوة من جانب الصدر الأعظم ووزير الخارجية، ووصلنا لزيارة ماركى ايتو، وسعدنا برؤية المدارس والأماكن المحترمة ونحمل معنا ذكرى غالية، وهدفنا زيارة مكة وهى من أماكننا المقدسة، وقد أصبحت اليابان فخراً للدول الآسيوية بالقدم الثابتة التى قد وضعتها فى طريق الرفعة والتعالى.

حديقة اوينو:

حديقة اوينو محاطة بسور، مليئة بالأشجار والغابات الطبيعية التى جعلوها فى أطراف المدينة، وأقيمت فى هذا المكان معاهدة صلح بين الإمبراطور اليابانى ومعارضيه (حرب التجديد والتوقف) وصارت ملائمة له،

وتم الافتتاح عن طريق الإمبراطور، وعلى ذكرى ذلك الافتتاح شوهد منظر شامل فى داخل الغابة كانوا قد صمموه.

للبانوراما فناء مستدير تم إعداده فى ذلك الموقع من أجل الجماهير حتى يتجولوا ببطء، وكانت الأشكال منقوشة، وعلى أطراف هذه الغابة هضبة عليها تمثال عظيم لبوذا مصنوع من البرونز وهو قابع على ذواته الأربع، عرض التمثال ستة أذرع وطوله مناسب، وأسفل هذه التبة مضيفة واسعة، بها قاعة كبيرة، وقد قام "كنيشى" الكاتب الخاص لوزير الخارجية بدعوتنا لتناول الغداء اليابانى من قبل الوزير فى يوم الأول من يناير حيث كانت الإدارات مغلقة، وفى الصباح تركنا كارت فى منزل رئيس الوزراء ووزير الخارجية ووزير الحربية، وأحضر "كنيشى" عربة، وذهبنا إلى حديقة اوينو، وتناولنا طعام الغداء فى المضيفة المقامة بجوار هضبة بوذا، ويقف الخدم لخدمتنا.

وكان قد تجمع فى مدخل الفندق اثنا عشر شخصاً وقد حضروا لأداء المراسم اليابانية فى أدب وجلسوا على ركبتيهم وسجدوا، وكان فى وسط هذه الجماعة فتاة يتراوح عمرها بين ١٧ و١٨ سنة فى لباس فاخر وشال فى الوسط يجوز أن يصل ثمنه إلى ثلاثمائة أو أربعمائة ين، وكان الأتابك قد اشترى من هذه الثياب، ونعرف ثمنها، ولم أر فتاة بتلك الوجاهة والجمال، وكان المدخل مظلماً لدرجة ما، ولو أن الفتاة كانت تعرف الفارسية لكانت لائقة، ونقرأ شعر سعدى الذى يقول فيه:

- **قد وضع المرآة فى مواجهة الشمس، وعلى باب تلك الخيمة بدا شعاع الجبين. (شعر)**
- **وزينوا الحسناوات بأنواع الزينة، فبدا جسدك الفضى الجميل قد تزين بالزينة.[1]**

---

(١) سعد شيرازى: كليات سعدى (غزليات)، تصحيح محمد على فروغى، ص٤٩.

ودخلنا إلى إحدى غرف الاستقبال، وكان الجدار مطلى بالطين، والصالون مفروش بالحصير فى منتهى البساطة، وتصل مياه الخليج إلى أطراف العمارة، وتمنح المنظر صفاء، نحن خمسة أفراد :الأتابك، وميرزا أحمد خان، وأنا، و"كنيشى" و"تاجاتا" المترجم، وحسب العادات المألوفة، فقد وضعوا خمس أرائك على الأرض، ووضعوا فى واجهة كل مكان منضدة صغيرة، جلسنا على بعض منها، وكان يقوم بالخدمة هناك خمسة من الخدام، وظننا أن تلك الفتاة الجميلة التى رأيناها والتى كانت شبيهة بالوردة الرعناء الجديدة قد تكون ابنة صاحب المنزل، وسعدت قلوبنا بخدمة هذا الوجه الوردى الفتان.

ومهما تكن هيئة النساء الشابات اليابانيات فليس بها روح الدعابة، ويتولى الخدمة على كل من مائدة شخص واحد، وقد أحضروا وعاء ووضعوا صحناً قليل العمق شكله مسطح على كل مائدة، كما وضعوا على حافة كل منضدة قدحاً به مشروب من "الساكه"[1] وكوباً من الماء، وجلس خادم على ركبتيه، دققنا فى الأطعمة أمام كل منضدة فكان نصف الإناء معد للطعام، والنصف الآخر مزين، وكان الطعام عبارة عن مقدار من لحم الدجاج ومقدار آخر من الأرز المطهى فى قليل من المسلى وقطعة من لب عود قصب السكر الهندى.

لكن النصف الآخر الذى لم يكن طعام فكان عبارة عن فروع صغيرة وخضروات لطيفة نسقت بطريقة أنيقة وكانت تبدو كحديقة، ومتى يكون السماع كالرؤية نفسها ؟ لو كان لدينا علم من قبل لكنا قد التقطنا صورة بكاميرا المصور المرافق لنا، وفى الصين واليابان لا يأكلون دهوناً حيوانية

---

(١) الساكة: عبارة عن مشروب يابانى مصنوع من الأرز، وكان يصنع فى بلاد ما وراء النهر من الذرة البيضاء مضافاً إليه مسحوق الأرز والشعير، ويطلقون عليه اسم "سر" أو "بوظة" والذى انتقل بدوره إلى البلدان العربية الآن، يقول مولوى فى بيت له:

– من نور عقل الكل جاء عقلى هكذا أحمق وحيران، والذى صار منه الأفيون والبنج والبوظة وعصير الفاكهة معزولاً.

– جلال الدين محمد بلخى: مثنوى معنوى، تحقيق عزيز الله كاسب ص٨١٠.

وكل دهونهم نباتية، وقدم الخدام كأس الساكة إلى الضيوف، وحسبما هو معمول به كان يجب احتساء المشروب لدوام الصحة والعافية، ويقوم الخدام بتقديم الساكة بملأها فى كأس الماء، وتم ذلك وفقاً لرغبتنا:

- **طالما ليس خمراً فاملأ الكأس عن آخره، فشربنا ومن يعلم النهاية.**[1] (شعر)

بعد تناول الغداء، وجمع البساط، قال "كنيشى": هؤلاء الخدام فضلاء، قلت: نعم والله، فشكرنى، وافترشوا قطعة قماش بجوار القاعة بطول خمسة أمتار، وأحضروا آلات الطرب وآلة أخرى تعرف باسم "سامسين" وهى نوع من الكمانجة جسمها عبارة عن قالب مربع من الخشب، وقد صنع طرفيها من الجلد ولها ثلاث نغمات، ويتم العزف بأداة مثل المنجل أيضاً وآلة أخرى تعرف باسم "كوتو" وتشبه من بعيد نصف جذع شجرة، وكانوا قد طلوها بالفضة، وعزفوا، وبدأ الدف على الطبول المعروفة باسم "ياطوغان"[2]، وظلوا يعزفون ويرددون الأدعية، وتلقت مسامعنا اللحن والنغم اليابانى بصورة طيبة.

قام المترجم "تاجاتا" بترجمة ما أنشدته الفرقة الموسيقية، وقد كتبت أصل العبارة اليابانية فى بحث أدبى وكانت ترجمتها: تخطب المحبوبة حسب هواها، غداً ستقوم الحرب بين اليابان وروسيا، أنت تذهب للميدان وأنا آتى فى أعقابك من أجل تضميد الجراح، وانتابت الأتابك الحسرة من الظلم الذى حاق باليابانيين نتيجة حربهم مع الروس، لقد انهزموا وضربت لطمة شديدة بأعمالهم، قلت لم أكن أتصور هزيمتهم، تقارنون بين استقبالنا فى "برت آرطور" بصحبة اليابانى فى "تشيفو"، وسعى أصحاب المناصب الروس من أجل إيقاف الحرب باستقبالكم فى اليابان.

لقد بحث أصحاب المناصب فى المدرسة العسكرية، وكان تصنيف اليوم الأول من العام أن هؤلاء القوم لن ينهزموا ولن يوقفوا المياه عن السيل

---

(١) مهديقلى هدايت: سفر نامة مكة، ص١٧٦.

(٢) ياطوغان: هكذا ذكرت فى كتاب "كنز الألحان" لمؤلفه مراغه، والطوغان أيضاً عبارة عن اسم تركى لطائر يشبه الصقر إلى حد بعيد (حسبما ذكر المؤلف).

لأسفل، وقام كل من السفير الروسى والإنجليزى بدعوة الأتابك لتناول الغداء، واعتذر السفير الروسى عن طريق "اشتوسل" قائم مقام "منشوريا" فى "برت آرطور" حيث كنت بعيداً فى مكان العبور من الميناء، ولم يكن بالمقدور استقباله لأنه كان محظوراً التوصية على الحاضرين، وكان السفير الإنجليزى فى الموقع وقت إغارة الجيوش السبعة على بكين، وقد خصصت له غرفة مملوءة بالتحف الصينية ومنها جرار صغير وأشياء أخرى باللون الأحمر وقد صنعت منذ ما يقرب من ثلاثمائة عام فى الصين.

قال: لقد اشتريت هذه الأشياء من أيادى المغيرين، ويصل ثمنها إلى نحو مائة ألف شلن وأكثر من مليون، لكنها تعادل الآن نحو مليونين، وبعد حديث السفير حدثت مظاهرات يوم توقيع معاهدة الصلح للحرب التى نشبت بين كل من انجلترا واليابان فى لندن، ولم يبد أثر لذلك مطلقاً فى اليابان مما يظهر قوة اليابانى.

كان كل من الوزير الروسى المدعو "البارون أرنون" والوزير الإنجليزى "ماكدونالد" متواجدان هناك، وكان الوزير الأمريكى المدعو "بوك" على معرفة سابقة بالأتابك فى طهران حيث دعانا إلى منزل أحد معارفه من أجل صيد البط، فذهبنا إلى هناك، ولم يكن قد جاء للآن الوزير المختار، دخلنا إلى مقدمة السور والذى كان يبدو طويلاً حيث بدا جدار من بعيد وحوض فى الوسط، ولا أدرى إن كان الماء الذى يمر خلال الحوض مخزوناً أم جارياً.

دخلنا من هناك إلى حديقة ليست لها بداية، وكانت توجد مصطبة من الطين على مقربة من باب الدخول، ولم نر شخصاً قط، ولم يستقبلونا، وكان قد وقف أمام الإيوان رجل على مسافة تصل لمائة قدم من هذه المصطبة، وقد وضعوا فى الإيوان منضدة وعدة كراسى، وبدا بالقرب من المنضدة شئ كان عبارة عن رجل وسيم عالى الهمة، يرتدى ثياباً مستقيمة من نوع الكتان

لونه سماوى[1] وشال فى وسطه، ولا شك أن تلك الثياب كان يبدو بها النسيج عن قرب.

قال الأتابك: لو لم أكن مخطئاً فإن ذلك الرجل هو صاحب البيت، ولكن على ما يبدو أنه كان فراشاً، وعلى أية حال لم يظهر شيئاً من جانبه، ولم نتعرف عليه، جلسنا مدة حتى جاء الوزير المختار، وصار معلوماً أن الحق كان مع الأتابك، فذهبنا على مقربة منه وتناولنا بضع فناجين من الشاى، وحان الوقت للذهاب إلى المكان المخصص لصيد البط، وكانت مياه البحر تصل فى كل مكان على أطراف طوكيو، وكانت تشبه المخالب الملقاة على الأرض إلى حد بعيد.

على الجانبين المكان مكتظاً بزراعات قصب السكر على مسافة تصل من أربعين إلى خمسين ذراعاً، تم قطع طريق عريض، ووصلنا إلى مكان يكثر به قصب السكر، وكانوا قد دخلوا إلى خمسة مواقع طولها عشرة أمتار وعرضها عشرة أمتار أيضاً بصورة مربعة فى وسط مزرعة القصب، ويوجد وسط كل مكان مجرى مائى متصل بالبحر بمحاذاة المجارى المائية، وتوجد فتحة بين زراعات القصب فى الحائط حيث يشاهد المجرى المائى.

كان الصيادون يراقبون الوضع عن كثب، ويمسكون فى أياديهم أخشاب كانوا قد ربطوا على رؤوسها قطعة قماش، يلقى الصيادون الحبوب إلى البط المائى فى تلك المناطق الشاسعة، ويذهبون فى نزهة إلى البحر، وعند العودة تنقض عدة أنواع من البط المتوحش "لا تعترف بالجنسية" لتهاجم منطقة البلاء تلك ثم تسقط فى شرك "عديمة الجنسية" كما دخلوا إلى عدة مناطق مشابهة لهذا الموقع.

---

(١) الزى اليابانى أغلبه مصنوع من الحرير، كما أن الثياب الكتانى الملون يشبه العباءة التى يرتديها إناس إيران البسطاء حسبما ذكر المؤلف.

ويسرع الصيادون الذين كانوا قد اختبئوا خلف جدار القصب إلى تلك المنطقة، فقامت أسراب البط المائى المتوحش بالهرب محلقة فى الجو على الفور، وسقطت بدورها فى الشرك والفخاخ المنصوبة، وخلال ساعة من الزمن تم صيد نحو أربع عشرة بطة مائية فى منطقتين أو ثلاث، حيث طوى الصيادون رؤوسها ورقابها تحت أجنحتها، وبسطوها على أطراف الشارع، ومضى الوقت بسرعة، ودعناهم وشكرناهم، واستأذنا منهم، قال الوزير المختار: هذا الرجل يحتكم على ثمانين مليون ين أى حوالى ثمانية وأربعون مليون تومان، ولا تذهب واحدة من تلك الطيور إلى بيته حيث تباع جميعها فى السوق.

تعد حديقة نباتات طوكيو شاسعة للغاية وتكسوها أشجار من كل نوع بعضها قديم ومن ضمنها شجرة قيل إنها تقتصر على فرد واحد، ومن تلك الأنواع أيضاً ما يوجد منها فى الصين[1] ، ومن مميزات تلك الشجرة أن ساقها صافى اللون، ولو تلمس اليد جذع الشجرة فإنها تتحرك، وتعرف هذه الشجرة باسم "ميموزا"، وضعنا أيدينا على ساق الشجرة ولم نشاهد حركتها، وشوهد رجل أوروبى متخصص فى اليابان، وكان كهلاً يبلغ من العمر نحو ستين عاماً، وقد حافظوا عليه طيلة سنوات للاهتمام فقط بتلك الحديقة وليس على سبيل الحاجة.

اليابانيون ليسوا فى حاجة لأى فنى أجنبى، إن الشباب الذين أرسلوهم للخارج قد تعلموا الفضائل تحت أعين معبوديهم وقد أثمروا، ولم تنتقل أى من أطوار التقاليد الأوروبية إلى اليابان ولم تنخرط فى آداب المعيشة، وهم لا يعرفون سوى تقليدهم فى الموضة، ولم تجد معايب الحضارة الأوروبية طريقها إلى اليابان للآن، لهم فنونهم وآداب معيشتهم باستثناء المعابر والممرات، "ارتكاب المعاصى خفية أفضل من العبادة الظاهرة"[2] .

---

(١) توجد هذه الشجرة فى معبد يقع فى غرب الصين على أحد السفوح الجبلية هناك حسبما ذكر المؤلف.

(٢) الشطر الأول لبيت الشاعر سعدى، والشطر الثانى ترجمته: "إن تعبد الله لن تعبد الجو". سعد شيرازى: كليات سعدى (غزليات)، تصحيح محمد على فروغى، ص١٣٠.

كانت معظم برامج الزيارات تتم قبل وقت الظهيرة، أما بعد الظهر فكنا نذهب مع مترجمنا الخاص فى جولة إلى أى مكان نريده ونشترى لوازمنا.

يشى وارا:

يعد ازدحام البشر فى منطقة محدودة من مظاهر المدينة الكبيرة وآفة العفة والعصمة أن هجم على المدينة إناس من الضواحى فقراء أخساء، واتجهت جماعة من نوع خاص إلى طوكيو وتفرقوا، وأطلقوا على المكان الذى تجمعوا فيه "يشى وارا" وجعلوه موطناً لهم ومعناه الأحمر والأسود، ووجه هذه التسمية أن "الأسماء تنزل من السماء"، فيكون الوجه فى بداية الأمر لونه أحمر، ثم يسود فى نهاية المطاف.

وحسب قول "تشمبرلن" فقد منح هذا الترتيب ذلك الحسن حيث أن الليل يمر فى معابر طوكيو دون أن تضيق المعابر مثل معابر مدننا، ولا تضيق النساء قارعة الطريق على الرجال، ولا يمرون من الطريق، ومدينتنا الجديدة "يشى وارا" غير محدودة، ولا يبدو الاهتمام فى ذلك النوع بالحفاظ على النظافة والنظام والصحة أيضاً ويقال فى المثل اليابانى إن العقل صادق الرغبة خارق للعادة مثل بيضة الدجاجة المربعة.

"يشى وارا" منطقة محدودة وتبلغ مساحتها نحو ثلاثين ألف متراً مربعاً، يمر من وسطها شارع عريض ينقسم إلى شطرين ناحية عبارة عن منازل متفرقة وفندق على الطراز الأوروبى، والشطر الآخر عبارة عن منطقة تنقسم إلى ثلثين وتتشعب إلى عدة حارات من الشارع عبارة عن أحياء متقاطعة الضواحى كالشطرنج، وعلى الجنبات حارة ومحلات أسفل العمائر، ويقع الإيوان فى مواجهة المعبر وهناك باب على جانبه، وكتب أعلى الباب أسعار الدخول، وباختلاف المتاع يوجد منه الطبيعى وكذلك الصناعى.

يوجد باب مغلق أمام الإيوانات، وفى الجانب المواجه جلست فرقتين من فتيات "الجيشا" اليابانية وكأنهن سبعة أقلام مزدانة، وقيل يوجد فى المنطقة نحو خمس آلاف امرأة، فى بداية الدخول للتجول بتلك الإيوانات كان يبدو المنظر مبهجاً وفى النهاية بدا مؤسفاً، وتم تبديل الكيفية الأولى إلى الضيق والضجر، وكانت تبعث على الشعور بالنكبة، وحلت الحسرة وسوء الحظ بالآباء فألبسوا بناتهم ملابس رثة بالية، وصار حديث المترجم معنا شيقاً حيث قدم شرحاً "لتشمبرلن" عن المنطقة.

يجوز أن يكون قد أغلق طرفاً من مشاهدة ذلك البساط، وتم العبور إلى منزل من منازل القمر على امتداد النظر، ومضت ليلة فى النزهة فى أنحاء "يشى وارا"، وكانت نصف سائغة، وكان يوجد فى درب المنطقة مكتباً للأمن ومراقبة النظام حيث اطلعنا على السجل وتناولنا طعام العشاء فى الفندق هناك، وتنزهنا لمدة ساعة فى ممرات خاطفة للقلوب، وأقنعنا القلب بالنزهة.

إن العلاقة المبرمة بين الذكر والأنثى ضرورية للغاية من أجل الحفاظ على النسل لكن طبع البشر وضيع للأسف، الرقابة من جهة والأمراض من جهة أخرى تدعو إلى حدود ويميل الخلق دائماً إلى تجاوزها، إن النظم التى يجب تطبيقها لم تتحقق للآن، ولا تبقى القيود محافظ عليها بصورة كلية، وتنتج الأضرار نتيجة التجاوزات، والأمر لطيف للغاية ويقود فى النهاية إلى الكثافة "إلا ما رحم ربى".

إن وظيفة الحكومات جعل أمر النكاح مهمة سهلة قدر المستطاع مثلما هو مقرر فى الإسلام، ويزداد التكليف على النقيض يوماً بعد يوم، وينتهى الأمر إلى الافتضاح ويغفلون ضرر الفحشاء، ويتزلزل كيان الأسرة التى هى أساس المعيشة وخاصة فى الطبقات المستنيرة حيث كان للحيتهم جذور فى العار، وهنا تكون هناك ضرورة لتعدد الزوجات.

يمكن القول إن التوقف فى اليابان طيلة اثنين وعشرين يوماً فى انتظار وصول الباخرة "كره آ" أخت الباخرة "سيبريا" كان يعد من أفضل الأوقات فى رحلتنا حيث كان يمر الوقت برمته سواء كان لطيفاً أم عكس ذلك، مضى منه عشرون يوماً سجناً فى القطار مثلما مضت عشرون يوماً أيضاً فى التجول فى اليابان.

- مع ذلك الذى يمر لا تضع القلب، فما أكثر ما سيمضى دجلة بعد الخليفة فى بغداد. [1] (شعر)

قدوم تفت:

وصل السيد تفت الأمريكى حاكم الفلبين إلى طوكيو حيث يغادرها بصفته وزيراً للحربية إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى زيارة، وصل إلى طوكيو فى الرابع من يناير، واستقبل بحفاوة بالغة، وكان الواضح أنهم كانوا ينتظرونه من أجل حسم موضوع الحرب بصورة قاطعة، وأثناء توقفه لمدة يومين كان يبدو الحديث عن موضوع الحرب أكثر سخونة.

فى الخامس من يناير وصل وزير الخارجية وقام بزيارتين إحداهما "للإمبراطور" والأخرى "لماركى ايتو"، وفى مساء يوم السادس من يناير دعا وزير الخارجية السيد تفت على مأدبة عشاء تكريماً له، كما دعا الأتابك أيضاً، وبعد تناول العشاء بعدة دقائق جاءت ابنة الميكادو مع زوجها إلى منزل وزير الخارجية وجاءت زوجة الوزير أيضاً فى هذا المكان إلى المجلس، ولم تشاهد سوى تلك الشخصيات المحترمة.

فى المجالس الرسمية التى تعقد فى اليابان ليس هناك مفر من الاختلاط بين الرجال والنساء، وتقوم بينهم صداقات حميمة للغاية، وقامت فتيات الجيشا بالرقص المخصوص الذى كان معداً من أجل إطرابهم وإسعادهم،

---

(١) سعد شيرازى: كلستان، تصحيح محمد على فروغى، ص٢٤١.

وانعقد المجلس حتى الساعة التاسعة، وقال الوزير الأمريكى المختار إن الوضع يحتم ألا ينصرف الوزراء الليلة إلا إذا اتخذوا قرارهم بالتصميم على الحرب أو الصلح بصورة قطعية.

ذهبنا نحن وكل الضيوف، وفى اليوم التالى أذيع خبر إعلان الحرب، وفى صباح الخامس من يناير ذهبنا إلى "يوكوهاما" وهو ميناء حديث التجهيز نسبياً، المنازل هناك متفرقة والميناء ممتلئ ومفروش ببساط التجارة، والمحلات مرتفعة، وعلى قارعة الطريق وأثناء سيرنا للذهاب إلى الفندق، قام الأتابك باستبدال نحو أربعين ألف ين يابانى، وأبديت له أن هذا المبلغ ليس بالقدر الكاف، وقبل صاحب المحل أن يرسل البضائع إلى اسطنبول ويدفع الثمن هناك.

الأكثر من هذا أن الثوب لم يكن مناسباً لى لشرائه، ومن ضمن التحف التى تم شراؤها هيكل لمعبود يدعى "باجود" البوذى، وهو مصنوع من الأرز، وللإنصاف بدا جميلاً وجاذب للقلب للغاية، لا يعلم أن تلك الأشياء ستسبب حرجاً لنا فى طهران، وكانت تلك التحفة من نصيب نجل "حاجى معين البوشهرى" !

فى اليوم السادس من يناير استعدت الباخرة للتوجه صوب الولايات المتحدة قبل الظهيرة حيث يسافر على متنها السيد تفت أيضاً، وبدا أنه ذهب لملاقاة "ماركى ايتو" ثم جاء متأخراً، وتحركت الباخرة فى حوالى الساعة السابعة مساء، وقد خرجت السفينة من البوغاز فى الوقت المقرر لها، وكان الأتابك قد اشترى خاتماً بمبلغ ثلاثمائة روبل فى "ايركوتسك" وأهداه إلى "كنيشى" كاتب وزير الخارجية الذى قال بدوره ليس مسموحاً لى قبوله، والوضع العام أنه يهدى للعروس فماذا أفعل به ؟

وكان القرار أنه لابد وأن يستأذن لأخذه، وفى صباح اليوم الموافق السابع من يناير وصل مرة أخرى إلى الباخرة مبتهجاً، وقال: لقد سمح لى

الوزير، فشكرته قائلاً له: استمتعنا بوقتنا، وكان رجلا نجيبا مخلصا، وكذلك حبيباً رفيقاً.

كان مقصدنا إلى سان فرانسيسكو وأقرب طريق هو "وانكوور" المؤدى لكندا على أن يكون السير لمدة عشرة أيام لأن خط سير الباخرة منعقد على دائرة عظيمة من دوائر الكرة الأرضية، وتقرر اختيار خط السير إلى سان فرانسيسكو من أجل مشاهدة أمريكا، ويجوز اختصار الأيام إلى ثمانية فقط لاختلاف التوقيت، وليس من المصلحة اختيار ذلك الخط، إلا أن الأتابك كانت له وجهة نظر خاصة لا أعلمها.

لم تشاهد جزر هاواى من ناحية "وانكوور" وكانت هناك فرصة مواتية للبقاء فى أمريكا طيلة أربعة أيام إضافية، وكان اعتمادى فى هذه الرحلة ألا أعطى مالاً دون داعى لذلك، وأن أقول كلاماً فى المكان المناسب، ذات يوم قال الأتابك فى طوكيو: لم يقم شخص من إيران بمثل تلك الرحلة، قلت: لماذا ؟ فرد: متى؟ قلت: لقد جاء "صحافباشى"[1] إلى اليابان سواء عن طريق سيبريا أو عن طريق الهند، وشعرت أنها لم تكن ملائمة له، والحق أن كل الرحلات ليست على وتيرة واحدة.

ذات مرة قلت فى حديث، يقول "أبو الفتح البستى": "الدولة اتفاقات حسنة"، وفى مرة أخرى تحدثت مع ربان السفينة، سأل الأتابك قائلاً: لم أقاطعك أثناء حديثك مع الربان، وكانت تلك القضايا قد ولدت قدراً من الضيق فى خاطره، وكان يقرأ أحياناً كثيرة هذا البيت "لعاشق الاصفهانى" والذى يقول فيه:

- **للأسف أن الأحبة يعرفون الوفاء، فى اليوم الذى لا يمكن فيه إدراك الجفاء.**[2]

---

(١) إبراهيم صحافباشى الذى قام برحلة أيضاً وقد طبعت فى كتاب.

(٢) رضا قليخان هدايت: مجمع الفحصاء، جلد دوم، ص٣٤٦.

وفى النهاية كان يذكر فى معظم الأحيان بيتا من نظم خواجه حافظ الشيرازى:

– **الغرض من الغمزة الحسن وإلا فلا حاجة لها، مثلما لكمال الأول المحمودة النسيم العليل.**[1]

من اللغات الأجنبية التى أتحدثها بطلاقة اللغة الألمانية، وكانت تستخدم فى هذه الرحلة قليلاً، ولم تكن لى نفس المقدرة فى اللغة الفرنسية، ولكنها كانت تؤدى الحاجة، كنت أعرف من الإنجليزية بضع كلمات، والمؤسف أنه فى مرة أو اثنتين كان قد سافر الأتابك بدونى، وكان قد قال "لعباس": الآن نحن لا نعرف اللغات الأجنبية، وطريقنا لن يكون واضحاً أمامنا، ولا شك أننى لم أكن حاضراً ولم أزاول عملى.

وفى الصين أعطانى النفقات فى يدى، كانت حوالة بمبلغ خمسة وسبعين ألف روبل أنفقنا نصفها من بكين إلى سان فرانسيسكو، من موسكو إلى بكين وصارت معظم المشتروات فى اليابان فى سان فرانسيسكو أيضاً. كان "مفخم الدولة" قد جاء لاستقبالنا، وقام بالإنفاق، ولم يكن معى عملاً آخر، وكان "مفخم الدولة" رجلاً متواضعاً، ولم يكن مدخناً حتى حينما كان فى حالة انفعال شديدة عندما كانت السفينة "زليخا" تشق الطريق فى "آنورس".

فى كتاب رحلات ماركوبولو كانت اليابان اسمها "تشيبنجو" والتى صارت فى الإنجليزية "تشيبن" وفى الفرنسية "جابن" وفى الألمانية "يابان" وكان الاختلاف فى نطق حرف (J) فى الأصل "نيهن"[2]، أى مطلع الشمس.

ويبلغ اتساع أرض الجزر مجموعة ٤٧٤ ألف وكسر الكيلو متر المربع، والتى كانت تدار من ثلاثة مراكز هى كيوتو، وطوكيو، واساكا، وقد

---

(١) حافظ شيرازى: ديوان حافظ، تصحيح محمد قزوينى، ص٢١٣.
(٢) نيهن أو نيبن.

كان تعداد السكان فى اليابان فى عام ١٨٨٧م يزيد على ٣٨ مليون نسمة، وأغلب جبالها من الصخور البركانية التى من جملتها ٢٠ أرض بركانية من حولها، وجبل "فوجى ياما" يبلغ ارتفاعه ٣٨٥٠ متر وهو دائم الجليد، ويجعل خط الاستواء النواحى الجنوبية حارة، ويجعل القطب الشمالى النواحى الشمالية باردة.

وليس هناك أثر للذهب والفضة التى تحدث عنها "الأدريسى" الرحالة الشهير فى كتابه نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، وتصدر الفضة والانتيمونيا للخارج، وأرض الصين تمتلك الكثير منها، أرض مثل الصين ترتبط بابن السماء ومقسمة بين الرعايا أو فى شكل الإقطاع المرتبط بالملوك (شوجون ساموراى وه)، والمحصول الأساسى هو الأرز، وكان نصيب ملوك الطوائف يبلغ إلى ما يعرف باسم "دايميوها" ثم يؤول مباشرة إلى الحكومة، ويعد شاى "شيل" والحرير أيضاً من مصادر الثروة وكذلك غاب "البامبو".

ينقسم السكان إلى خمس مجموعات، تختار الملكة من المجموعة الأولى، وكان أهل الحدود قد شكلوا طائفتين، "آئينو" الذين لديهم الحرير، "جوريل" أو "الغوريل" الذين هم من جنس الغوريللا (القردة)، المغول فرع فى الشمال، وآخر فى الجنوب، وقد حلوا محلهم، ويتجمع "آئينو" فى جزيرة "ئزو" أو "ايسو"، والغوريل فى المناطق الجنوبية، اليابانى من نسل المغول، من طباعهم النظافة، والمنعة، والتواضع، والصداقة، وعلاقة الأب بابنه، واحترام الأكبر، والشعور بالعدل، والاستفادة من جمال الطبيعة، وحب الوطن، واحتقار الموت.

والطعام أغلبه من الأرز، والفاكهة، والأسماك، وأنواع الأصداف، وليس لديهم الخبز، والحليب، والجبن، ويأكلون اللحوم حمراء بدرجة قليلة، وينتشر بينهم شراب الساكة أو "البوزة".

وتصنع الملابس عموماً من الألياف الخاصة بطبيعة الأرض، وتصطبغ باللون الوطنى الأزرق، وكان القميص والسروال الأزرق يستخدم فى ملابسنا

العامة، ويشيع بين الطبقات المتوسطة والعليا أكثر الأزياء من الحرير، والثياب المزدانة، والشال وعليه العباءة، بحيث يعلق كم الثوب من كيس ذو جيبين، ويسد مكان الجيب، وثيابنا ولباسنا الصوفى كان من الكم الطويل أيضاً، واللباس الصوفى موجود للآن، ضيق للغاية وليس فيه مكان للجيب ويضايق، والحذاء عموماً عبارة عن نعلين، وبدلاً من القبعة لدى الرجال رباط، النسوة ليس لديهن قبعة، العمارات من الخشب والقصب والحصير حيث يقل خطره فى مواجهة الزلازل، ولديهم القبعات التى تصنع من الأقمشة المنقوشة وهى تشبه عمائمنا، نوع مثل السلة والتى لها حلقة مستديرة على الرأس تستقر عليها، للحفاظ عليها من الشمس، ولكنها ماذا تفعل مع الريح ؟ أغلب الظن أنها تحملها معها.

نبذة تاريخية:

يعود ظهور سلسلة السلطنة الحالية إلى ما يقرب من ١٢٠٠ سنة شمسية قبل الهجرة، ويرجعها المؤرخون الأوروبيون فى أبحاثهم إلى ١٢٦٠ سنة، ويعدون "جين مونتو" على رأس هذه السلسلة، والتى كانت قد حكمت فى جزء من اليابان، وبقيت شجرة الأنساب فى اليابان مثل الصين محفوظة عن طريق تعظيم الأجداد، وقد اهتم العرب والعجم بشجرة نسبهم هم الآخرون، وقد كان المذهب والتاريخ مطموساً فى أغلب الأمم المتحضرة، وفى القصص اليابانية نشب خلاف بين أرباب السماء، جاء سفراء إلى الأرض، وأطلعوا إمبراطور "جينجو" على وجود الكرة، وأشيع صدقهم، ونزل عليه البلاء، وأمرت الملكة وزيرها بالعودة إلى السماء، وسلك طريقه إلى الكرة الأرضية بمساعدة القمر، ومن هنا تبدأ قصة المراودة مع الصين.

وتجد البوذية طريقها للنفوذ إلى اليابان مقارنة بالهجرة، ويتم تداول الخط الصينى، وبين أيدينا أخبار مكتوبة منذ ذلك التاريخ، ويعد كتاب "كجيكى" أول كتاب مكتوب، وقد وقفوا على التقويم فى المائة الثانية للهجرة، وأصبحت كيوتو كرسى المملكة.

وتم منع النافذين بين السماء والأرض، وانضموا لمقدسى بوذا، وصار الإمبراطور معبوداً محصوراً فى حلقة أرباب النفوذ والمتملقين الذين كانوا يصدرون المنشور السماوى من منظورهم، ووقعت أخيراً كل الاختيارات تدريجياً فى أيدى "شوجون" رئيس البلاط، مثل أمير الأمراء فى زمان بنى العباس، وبحكم "ليس كهر أقل من الأزرق"[1] ، احتل ملوك الطوائف المكان الأعلى، وحتى المائة السابعة من الهجرة غالباً ما أعطوا ابنتهم إلى الميكادو، وحملوا حق البنوة.

كان الميكادو نفس مظهر الشمس، حيث كانت أشعته تضئ من طريق شوجونها إلى الأرض، صار "هج شى" متصرفاً فى الأمور بصد المغول فى عهد "قبلاى قاآن" (٥٥٩ هجرية) والذى ذكرها ماركوبولو. كانت الشمس فى الفلك مشغولة باللعب مع الأقمار، و"شوجون" متفرد بإصدار الأوامر للصناعات الخفيفة التى كانت قد ساهمت فى رقى النموذج الصينى، وكانت النتيجة الانحطاط بلا عار، وقام أهل الذوق بالنزول من الدرجات العليا إلى الدركات السفلية.

فى عام ١٥٤٢م (٩٢٠هجرية)، "زاد البرتغاليون فى الطنبور نغمة أخرى"[2]، جعل الدعاة البساط ملوناً إلى ابن السماء الثانى، حتى يحضروا بوذا بقوة وذلك من الأعمال القبيحة، وأثيرت الفتن وأريقت الدماء حتى يفتح معبود جديد ثقب فى السد السديد.

فى المائة العاشرة للهجرة أصبح فى اليابان ثلاثة أشخاص فى الاحتياط، "اتانبوناجا"[3] دق فى المركز عبارة "أنا ولا غير"، ووضع "هيديشى" يده على كوريا، وخط بقلمه الموت على خارطته، أما الثالث وهو "يياسو" الذى حطم

---

(١) هذه الجملة مثل، كان لكهر حصان أحمر اللون ممزوجاً بالأسود، وأزرق حصان رمادى. على أكبر دهخدا: أمثال وحكم، جلد سوم ص١٢٥٤.

(٢) إشارة إلى المثل العربى القائل: "وزاد فى الطنبور نغمة أخرى". دهخدا: أمثال وحكم، جلد دوم ص٨٨٨.

(٣) وأيضاً ادان بوناجا.

رؤوس الملوك المنشقين (دايميو)، وسلط باب الإقطاع عليهم، وأعطى البلاط رونقاً، ووضع أقدامه على مسند "شوجون"، ولم يستول على "ساتسوما" و "شوشو"، واستولى عليهما "دايميوها" بحيث كانت له إحداهما فى نصف عام، وكانت الأخرى فى نصف عام لنسائه فى "يدو" الاسم السابق لطوكيو، وينقل "كومدربرى" عن الرحالة الأحوال المضطربة (١٢٣٣هـ)، وقد قام أتباع دايميو (أدعياء ملوك الطوائف) بمعارضة أتباع "شوجون" (رؤساء البلاط)[١] .

وقام "شوجون" حاكم "يدو" أو "كسو" باستدعاء برى وممثلى إنجلترا وفرنسا وروسيا الذين طلبوا أن يظل باب التجارة مفتوحاً، وكان قد أعطى الخطاب إلى المساعد، وقد افتتحت "يوكوهاما" وبعض الموانئ الأخرى على التجارة الخارجية واستقرار المكاتب حديثاً، وتم إرسال السفراء إلى أوربا وأمريكا.

واتفق بلاط "يدو" على أنه ليس من الصلاح منع الدول الغربية، فى حين كان اتفاق بلاط طوكيو أنه كان يجب إغلاق الطريق على البربر من الأوربيين، وألا يسلكوا طريق الشمس، وعلت الصيحات "الموت للأجنبى"، رد "شوشو"[٢] الذى كان من أبناء الملوك بالمدافع على سفن الدول، وكان "شوجون ايدو" هو الذى سمح بذلك فوقع فى ضيق بين الضغط الداخلى والاستدعاء الخارجى، وصارت "شيمونوسيكى" ميداناً للتنافس، وفى النهاية تم تركهم وإعطاء ثلاثة ملايين دولار واستمرت الجريمة (١٢٤٤هـ) وكان ذلك بمثابة كسر وسط من أجل اليابان.

---

(١) كان أول شخص قد سافر من هولندا إلى اليابان، ونشر بساط الكاثوليكية هو إكساوية فى عام ٩٢٢ هجرية، ثم قام بعدها الأمريكى برى فى عام ١٢٣٤ بالترويج لنموذج السكك الحديدية والتليغراف، ونال منزلة رفيعة، ووجد الأوربيون والأمريكيون حق المراودة فى خمسة فراسخ مربعة، مع حق المقاضاة، وكان "كمفروتسفالى" هو أول شخص قد ساح فى اليابان وجمع أخباراً ومعلومات مفيدة فى عام ١٢٦٨ هجرية، وقد جاء المعزى إليه إلى أصفهان وسجل رحلته التى طبعت فى انجلترا، وكان ماركوبولو فقط هو الذى أعلن عن وجود جزر حسبما زعم المؤلف.

(٢) يبدو أن اسمه كذلك تشوشو.

ماركى ايتو:

كان كل من "ايتو" و "اينوئه جه" من أهالى اليابان فى إنجلترا، قد سمعوا بخبر بدايات الحرب، وأوصلوه بأنفسهم إلى اليابان، ودخلوا مجلس الشورى من أجل منع الحرب بحيث لا تحقق منظمتنا رغبات الدول الغربية، لا يمكن الإجابة على أسلحتهم بالعصا والقوس، وخرج ايتو ورفيقه من المجلس منكوبين ومخذولين، ووصفا بأنهما خائنين للوطن وأصيبا بجرح، وأوصلهما الرفقاء إلى المنزل وقاموا بعلاجهما.

ويأخذ مكانهم "الميكادو"[1] بعد انتهاء الحرب وتحمل الخسارة، ويعطى قراراً لمستشاريه، ويضعون تصور للتشكيل الجديد، ويساعده ثلاثة أشخاص آخرين، ويتم اختيار سبع إدارات، الدين، الداخلية، والخارجية، والمالية، والحربية، والعدل، والبلاط، وتلقب بلقب ماركى بدلاً من الألقاب السابقة: كونت، وبارون، وماركى ايتو، وقد عاصر الأتابك "ايتو" فى رحلته حيث التقى به.

لقد كان "ايتو" من جماعة "الساموراى" (المحارب)، من الطبقة الثالثة لجماعة أصحاب المناصب المحاربين الذين قاموا بتجديد الاعتبارات السابقة مع المعارضين، وقد كان "سانيجو"[2] من القواد المناوئين "للميكادو" ويبدو أنه كان رجل بألف رجل. "إن الفتى من يقول ها أنا ذا ليس الفتى من يقول كان أبى"[3] ، ولم يكن راضياً فى آخر المطاف، ويتجمع حوله ثلاثون ألفاً من المحاربين، وبعد مرور سبعة أشهر انتحر "هاراكيرى"، كانت الخدمة فى

---

(١) الميكادو: المقصود به ابن السماء، لقب احترام من أجل (تنوس) الملك الذى يذكر فى المقالات والأشعار.
جوزيف رعد (دكتور): العالم بين يديك، ص٣٩٩.

(٢) وأيضاً اسمه: سانى ج.

(٣) بيت شعر من نظم سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو ضمن ثلاثة أبيات أخرى، وقد نظم على منواله الشاعر نظامى الكنجوى بيتاً آخر.
دهخدا: أمثال وحكم، جلد أول ص٤٦ و٢٨٨.

البداية والخيانة فى النهاية، وللأسف تعم الحسرة "إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى"[1] وكانت هذه أول خطوة لكسر شوكة أتباع "شوجون".

فى الرابع من يونيو عام ١٨٦٨م (١٢٤٦هـ) وفى الحرب الرابعة التى تجددت مع المعارضين تم فتح "يدو" بأطراف غابة "اوينو" بواسطة الإمبراطور، وانتقل كرسى المملكة من "كيوتو" إلى "يدو" وتحول اسمها إلى طوكيو".

عبر "موتسوهيتو" من بنوة الشمس، وصارت الشمس المضيئة العالية تمثل اليابان ورقيها، وكان مولده فى عام ١٢٢٨ هجرى شمسى، وفى عام ١٢٤٦ وصل إلى العرش، وأسس مجلسين، وفى عام ١٢٧٨ تأسس مجلس الشورى الوطنى بناء على قرار الخدمة العسكرية، كما تم تشكيل مجلس الأعيان الشبيه بالمجلس الأول الإنجليزى ويتكون من الرجال، والأسر وأبناء الملوك ويرتبط بانتظام المملكة، ويقال إن هذا المجلس هو أساس قوة حكومة اليابان.

كان للتربية فى كل وقت موضوعاً خاصاً، كانت فى السابق أخلاق، واليوم مادة، كانت الأخلاق غير محدودة، والمادة محدودة وكان يؤخذ رأس المال من الباطن فى اكتساب الأخلاق، وكسب المادة من الخارج وأساس الاختلاف فى المدارج، هو جلب المنفعة بكل وسيلة من وجهة النظر الأوربية والاستهزاء فى كل مكان، ولو يدعى الناس فماذا تريدون فى بيوتنا ؟ أنه عدم التربية، بينما كان أهالى آسيا مربين لسائر الأمم والشعوب.

إن اليابانى الذى عجز عن مواجهة عدة سفن، يسحب اليوم قوس الحرب مع الروس، يقال إن اليابانى يعبد الأوهام، فمن هو الغائب ؟

- قلت حطمت صنم العبادة، وتحررت، فهذا الصنم هو الذى تبقى من العبادة. (شعر).

---

(١) القرآن الكريم، سورة ٩٦ العلق آية رقم (٦، ٧).

إن عظمة اليابانى وتمجيده جاءت من نظرته الثاقبة بحيث يعد مطلوباً ومرغوباً فلم يهتموا بالنقوش العابثة، ولم يستسيغوا ظاهر الخداع.

لقد أوصل اليابانى نفسه إلى المكانة المرموقة شكلاً وموضوعاً، وحافظ على آدابه، بالصورة التى يشار إليها بالبنان، ومن أجل ذلك أنقل فصلاً من كتاب "بيرلطى"[١] بنص قول رأى أصحاب الدراية لإظهار جهل وغرض الكتاب بعبدة الأصنام.

ويرى جناب السيد "بيرلطى" اليابان حقيرة وفاسدة، سواء من ناحية الدم أو من ناحية العرق يقول: "أنا لا أستبعد من نظرى القدم الديلورى (عصر ما قبل الطوفان) وحياة السامورائيين بحيث تمضى مئات السنين ناحية عدم الاستواء والاستهزاء القابل للحسرة فى الاصطدام مع طراوة الغرب. إن إناس تعساء الحظ فى أعقاب طراوة الغرب يفهمون مقصود قول بيرلطى"، وأطلب المعذرة عن قول ناصر خسرو:

– عندما اشترك مع الجماعة التى تضحك وتضحك، مثلما لا أضحك ولا أضحك. (شعر)[٢]

يقول "تشمبرلن" إن الكيفية مستغرقة، وليس هناك اعتبار على حد قولهم للخارج عن تلك الكيفية، هذا تصور ورأى الحكومة.

"بيرلطى" راغب فى السخرية، واليابانى ملتزم بالجدية. "يستحسن ذلك مجموعة هذا"[٣] اليابانى مع الأوربى أوربى وبينهما دأب الأجداد، ولا يستحسن

(١) بيرلطى: ليست هناك معلومات متوافرة عنه.
(٢) حكيم ناصر خسرو علوى: ديوان أشعار ناصر خسرو، به كوشش. مهدى سهيلى ص٢٨٢.
(٣) الشطر الثانى لبيت من نظم الشاعر سنجر الكاشى والشطر الأول هو:
"ليس متاع الكفر والدين بلا مشترى"، وقد صارا الشطران مثلاً شائعاً، وقد نظم على منوال البيت الشاعر الأمير خسرو الدهلوى.
دهخدا: أمثال وحكم، جلد سوم ص١٣٩٨.

اليابانى هرج ومرج الحياة الأوربية. ولا تضع اليابانى نفسها فى مصيدة الموضة، ولا تعطى رأسمالها فى رياح الهوس إلى متاع حقير.[1]

المذهب:

أساس مذهب اليابانى عبادة الشمس وهذه دلالة طبيعية لأن نشوء ونماء النبات والحيوان على أثر الضياء والحرارة، والأثر الواضح للشمس من صفاته تعالى، الديانة هى الطاعة الخالصة للملك الذى هو مظهر الشمس، ومزار خدام المملكة الذين قد منحوا الحياة التمييز مع الاسم المحترم، مع السيطرة البوذية وتجاوزات الكاثوليك فإن شئون الأجداد كذلك وجهة نظر عامة، ولكن أخيراً فإن العزة لأتباع "شينطو" والاحتقار للكاثوليك، "الشينطو" كلمة صينية معناها الطريق صوب الحق، مذهب آدابه قليلة، الطفل الذى يولد يحملونه إلى معبد "شينطو" يعد ابن شينطو، ويقيمون للمتوفى مراسم فى المعابد البوذية، ويطلقون اسم المعبد على مزار العظماء كقرينة للمعابد البوذية، إن أثاث المحراب وشكل بوذا تقليد فى معابد "الشينطو"، وبحكم العادة فإنهم قد اعتبروا أن تلك الأشياء ضرورة للمعبد والمزار.

وفى أعقاب عبادة الأجداد فإن الأسر المحترمة لها شجرة حتى ٦٠٠ عام قبل الميلاد، وتتفق سلسلة "فوجى وارا" فى القدم مع أسرة المملكة، وفى أعقابها تأتى سلسلة "سوجاوارا" و "تائيرا"، و "مينا موتو" الذين جعلوا الشخصيات فداء للمصلحة فى مكان الإصلاح، وقاموا بالإنفاق من فائض أموالهم، وصاروا قوة للملك، وطهروا أيديهم من الامتيازات السالفة، وأزالوا الخلافات بماء الاتحاد.

ومن شعائر أتباع شينطو الاحتفالات التى يقيموها، من ضمنها ثلاثة احتفالات لـ "ماتسورى" التى تقام من قبل الملك، أحدها قليل بعد تولى العرش حيث يرسلون شخص بالمأكل والملبس من أجل السماء والأرض، وفى المرة

(١) الهمج: كناية عن التافه والحقير وعديم القيمة.

الثانية فى الموسم الجديد للغلة، والمرة الثالثة تقديم "هيئ" وتلك الأشياء من الخشب والورق فى يد الأمراء الذى يصير تقديم رب اليوم.

الشمس والقمر والنجم:

الشمس ملكة السماء، والقمر شقيقها والله القهار، لديهم قصة حيث قدم القمر إلى الأرض فى شكل فتاة، وأحضر الذنب مرافقاً له، مثل كل الفتيات، وجرت عادة العامة أن تطحن الأرز فى الهون من أجل صناعة أرز الخبز المطحون، ويجوز أن يكون قد ظهر هذا القياس من الالتباس فى اللفظ حث أن "موش" هو نفسه الخبز المصنوع من الأرز وأيضاً البدر.

ويعد الجلوس على شاطئ البحر من العادات اليابانية، التنزه لظهور القمر، واحتساء الساكه، ونظم الشعر من أجل تلك المناظر، ونزهة البدر فى البحر نزهة عجيبة وقد شاهدتها أعلى بحر الخزر، بدون ذلك أنظم الشعر أو أشرب الساكة.

ذات ليلة جئت بالسفينة من باكو إلى أنزلى لخدمة "شعاع السلطنة"، وسار مدة على السطح للاستمتاع بالقمر وضيائه فى البحر، وكان القمر قريباً فى الأفق، وبدا فى عرض البحر كنهر من الفضة المتحركة، ولأكثر الشعوب فى أقطار الكرة الأرضية فى قصص فى الشمس والقمر.

وبدت الجزر اليابانية من مواصلة إيزاناكى (القمر) وإيزانامى (الشمس)، وقد كان للأرباب والربات أرباب آخرين قبلهم، وفى النهاية أصبحوا إيزاناكى وأيزانامى، ورب النار الذى ظهر ومات إيزاناكى، وعندما ذهب إيزانامى للموانئ اليونانية إلى مكان الأموات (هاردس) فى قلب الأرض بحيث يغير المعشوق نفسه، أخذ إيزاناكى على أن يعود، كان يجب أن يأخذ إذناً من الأرباب، واستمر فى الطول بقدر ما، وكسر ضلعاً من كتف ذؤابته وأشعل النيران، ودخل ضاحية الأرباب، (ثمانية أرباب للرعد)، وصار هناك ثمانية فى عدد العقد المقدس، وعندما صاروا ستة فى العقد المقدس "أثينو"

صار شعب أرض اليابان، ونعرف بأنفسنا كل الأشياء ستة ستة نصف دستة، عاد إيزناكى[١] وقام بالاستحمام فى البحر، واصبح الاستحمام هناك جزء من آداب المذهب[٢]، تصر كل قطعة ملابس يرتديها مقدسة، وكل جزئ من أعضائه مقدس، وصارت الشمس واحدة منها، "آماتراسو" التى كانت عينه اليسرى، والقمر عينه اليمنى، وفى النهاية من بصيرته "سوزانواو" (الرجل الغيور)، وينقسم العالم من تلك الثلاثة، ويكون سلاطين اليابان غيورين من جد الرجل، حيث دخلت السيدة من بصيرة قرص الشمس، وحدث نزاع بين الرجل الغيور وقرص الشمس، واختفى قرص الشمس المتعب فى الغار، مثلما ذكرت فى رواية أخرى فى كتابى "أفكار الأمم"، وتجمع الأرباب وأخرجوه من الغار، وأصبح مالك اليابس، ونفى الرجل الغيور إلى البحر، وفى أعقاب القصة شرح سلسلة السلطنة، وقدوم السفراء فى الموضع اللازم (ظهور الاختلافات) إلى الأرض، ومع هذه المقدمة يكون أساس مذهب الشينطو الارتباط بالعالم العلوى والتوصل إلى أرواح العظماء.

"فوجى ياما" الذى هو عروس جبال اليابان، يعد الثوب الأبيض على البساط الأخضر تحت القبة الرمادية فلك ومحل اهتمام، يقال إن "فوجى" صار معروفاً عند أرباب الأرض، ونزل إلى بحيرة "بيوا". وتحيط روح الله مثل البخار أو الضياء على العالم، فهو منشأ طيب، لكنه قد مزج سيئه بالحسن، "أقوالنا شتى وحسنك واحد".

البوذية:

يعتبر بعض الكتاب العادات البوذية من حيث مراسم المحراب، والشمعدان، ووعاء حرق البخور، تمثال بوذا مأخوذة عن الشعائر

(١) وأيضاً يعرف باسم إيزاناجى.
(٢) يعد اليابانى الاستحمام كل يوم ضرورياً ويصل إلى ثلاث مرات يومياً حسبما ذكر المؤلف.

الكاثوليكية، وليس هذا بمستبعد[1] . لقد كان أثاث المحراب وتزيين الكنيسة بصور مريم وعيسى علاوة على زمرة من المقدسين من أجل جلب اهتمام اليونانيين حيث كانوا يصنعون التماثيل من أجل أربابهم، وفى الأصول لم يكن بوذا أو عيسى سوى النصيحة إلى الشىء الحسن الذى لا يدعو إلى عبادة الأصنام، والحق أن الصنم هو صورة أفكارنا مثلما ذكرت فى الطبعة الثانية من كتاب أفكار الأمم أحد مؤلفاتى فى الصفحة التاسعة والخمسين منه.

فى عام ٥٥٢ مسيحية، أحضروا الهيكل البوذى المصنوع من الذهب من كوريا كهدية من أجل "الميكادو"، وطلب الترويج للمذهب الجديد، واعترض الأمراء وعظماء البلاط، واضطر لإبعاد ذلك الهيكل عن القصر، ونقل أحد الخواص ذلك الهيكل إلى منزله، ورويداً رويداً، ماذا كان ؟ ماذا كان ؟ نذهب ونرى أن ذلك البيت صار مكاناً للزيارة، وفى تلك الأثناء انتشرت الأمراض والأوبئة، قيل لقد تفشت من القدم الجديدة، فهدموا ذلك المنزل، وظهرت سانحة أخرى، فصنعوا المعبد فى الثانى "إن سلامهم وحربهم من الخيال"[2] ، ويبحث البشر عن سبب لكل أمر، وتبدو أسباب لكل المقتضيات، ويصير "بيت سقاية نوروز خان"، "وتوب مرواريد" أو "جنار عباسعلى"[3] أو "منكن بينس" فى بروكسل[4] محل اهتمام.

---

(١) مثلما كانت تعاليم البوذية هى الأقدم، فقد كان من الممكن أن يكون الكاثوليك قد أخذوا هذه التعاليم عنها حسبما ذكر المؤلف.

(٢) الشطر الأول لبيت لمولوى والشطر الثانى هو: "اسمهم وعارهم من خيال"
جلال الدين محمد بلخى: مثنوى معنوى، تحقيق عزيز الله كاسب، ص٢٤١.

(٣) يقع بيت سقاية نوروزخان فى شارع بزرجمهر شرقى طهران، وكان "توب مرواريد" أو مدفع اللؤلؤ سابقاً فى مدخل ميدان أرك وهو فى نادى الضباط، يعد "جنار عباسعلى ومعناه نوع من الشجر الطويل، أحد صنفين من الأشجار الطويلة العتيقة، ويقع فى داخل عمارة السلطنة بارك على مقربة من عمارات المبيت، وقد كانت تلك الأماكن موضع اهتمام العامة حسبما ذكر المؤلف.

(٤) بروسل = بروكسل، عاصمة بلجيكا.

وقامت جماعة من كوريا بالهجوم على اليابان، وازدهرت (واحتلت مكانة) بالمعلومات الجديدة خاصة فيما يتعلق بالطب البوذى. لم يولوا اهتمام بالمعانى من أجل العامة، المذهب موضوع للتوسل، ومهما كانت الأصنام أكثر إلا أنه يمكن الحماية من هؤلاء الأشرار، وإن لم تكن هناك الحاجة إليهم فيمكن تحطيمها.

كان أتباع "بوذا" و "شينطو" يعارضون بعضهما البعض طيلة مائتى عاماً، وفى النهاية مزج البوذيون المعابد فى بعضها البعض، وأصبحت المعابد البوذية إلى جوار المعابد الشينطوية، قيل لقد كانت رغبة معبود "شينطو" و"بوذا" واحدة، وقد جاءت البوذية الواضحة من أجل هداية اليابانيين، وليس عيباً فى انتقال التربية الصينية مع البوذية إلى اليابان.

ولمزيد من التشويق صنعوا تماثيل لفيلين وقطة نائمة، ووضعوها فى مزار "بياسو" فى "نيكو"، القطة تزيل البلاء بدلاً من الخنزير فى أوربا، وقد كانت القطة فى مصر أيضاً من موضوعات العرض فى المعابد.

والبوذية مذهب أخلاقى صرف، تقول لقد صار الإنسان أسير هذه الحياة بسابقة سوء الأخلاق (لا ندرى متى وأين؟) وسوء العمل، (حضر آدم فى هذا الدير الخرب وعمرت)[1] ، يجب أن يتطهر من الذنوب بترك المعاصى والذنوب، وأن يعود إلى أصله بحالة واضحة طيبة "إنا إليه راجعون"[2] .

الوجود المادى أساس العذاب، يجب إزالة العالم المادى والوصول إلى الحقيقة.

وعلى حد قول السنائى الغزنوى:

---

(١) الشطر الثانى لبيت لحافظ والشطر الأول هو: كنت ملكاً وكان الفردوس الأعلى مكانى.
حافظة شيرازى: ديوان حافظ، تصحيح محمد قزوينى، ص٢٥٧.

(٢) القرآن الكريم جزء من آية ١٥٦ سورة (٢) البقرة.

- مت أيها الصديق قبل الموت لو أنك تريد العمر الأبدى، فقد أصبح إدريس فى الجنة بسبب ذلك الموت قبلنا.[1] (شعر)

ليس معلوماً لماذا جعلونا أسرى هذه الحياة ؟ وما سبب تلك الحرقة، الإسلام يدعو للترغيب فى الدنيا والآخرة كلاهما على السواء، يقول على: "كن لدنياك كأنه لا تموت أبداً وكن لآخرتك كأنك تموت غداً"، اقبل على الدنيا، إذا كنت تقول أنك لا تريد الموت مطلقاً، فكر فى الآخرة مثلما تظن أنك ستموت غداً.

مثلما لا يصير فى الكتاب التغاضى عن الرذائل، يجب التعويض فى الكتاب، وانتقلت الروح من بدن إلى بدن، وصارت طاهرة بتحمل الضيق كما تصير الروح فى أبدان الحيوانات، ليس معلوماً فعلاً نحن فى أى بدن حيوان ؟ النظر إلى الأخلاق فى بدن الحمار، والبقرة، والنمر، والذئب، والثعلب، ويقال بناء على ذلك أنهم بلغوا حد الكمال فى الأخلاق الحميدة، ووصلوا إلى الحسنى، "وقليل من عبادى الشكور"[2] .

و"نيروانا" بمعنى الصمت، يجب تحطيم هذا المصباح المعتم العارى حتى نصل إلى الضياء الحقيقى "اللهم ارزقنا". البوذية بمعنى اليقظة والانتباه، لقد قالها الجميع، ولم يستيقظ شخص الكل يريد الوصول إلى المادة والكل ماديون، فى البوذية ليست هناك ذكرى للأرباب، مثل البراهمية، ما يتصور فى المعابد هيكل الأرباب، ويوجد بأحد معابد بكين خمسمائة صنم، فقد رأينا كل دلال فى مشكلة أو مشقة ومرض.

المذهب الصينى ممتزج بأصول "بوذا"، و"برهمن"، و"كنفوشيوس"، و"لاأتسه"، وعبادة الأجداد التى انتقلت إلى اليابان قد امتزجت "بالشنتطو" ويطلق على الراهب البوذى اسم "بنز". ومع كل العيوب لو يكون هناك إيمان

(١) للسنائى غزنوى: ديوان سنائى، باهتمام مدرس رضوى ص ٤٩.
(٢) القرآن الكريم جزء من الآية ١٣ سورة ٣٤ سبأ.

وصدق النية، فإن كل المذاهب تدعو إلى طريق واحد، شريطة أن يسلكوا الطريق، وقد خرب رياء أتباع هوى العبادة بلا تقوى بيت المذاهب، ولا شك أن هناك اختلافات أيضاً فى الفروع.

إن طريق الهداية إلى الحياة الصحيحة تشويق إلى الحسن، يقال كنا أشرار فصرنا أسرى هذه الحياة حتى امتلأنا بالمرارة، يجب السير فى الطريق السليم، إن الطريق السليم هو كف النفس وعدم السير فى أهوائها، لأن كل السيئات مطلوبة، وحد الوسط هو أقل ما يقنع، "قالوا كل هذا ولم تحل المشاكل"[(١)] .

المسيحية فى اليابان:

جاء إلى اليابان "فرانسيس اكساوية" فى أواسط القرن السادس عشر (العاشر الهجرى) الذى كان يروج لنشر المسيحية فى الهند والجزر المحيطة بها، واستقبله "جاج شيما" من أبناء الملوك، وبقى فى اليابان لمدة عامين ونصف، وكان يقوم ببعض المعالجات، وشكل جماعة فى عدة موضوعات وأضاف نغمة على النغمات، فاعتنقت تعاليمه جماعة "لكل جديد لذة".

يأتى ليتعرف على العلاقات المسيحية مع السماء من مسامع الصينيين واليابانيين، فى عام ١٥٨٢م (٩٦٠ هجرية) كان قد سلك الطريق فى اليابان أكثر من مائة داعية كلهم من فرقة تسمى "ثيزوئى"، وأرسلوا الرسل إلى روما، واستقبلهم البابا، ولا شك أن عظمة الفاتيكان وكل تلك النقوش والتصاوير كانت جلية فى أعينهم أمامهم.

لبس البرتغال والأسبان الأحذية وتم أخذ القبعة اليابانية، وفى عام ٩٦٥ هجرية صدر الأمر للدعاة بأن يغادروا أرض اليابان، وفى عهد "فيليب الثانى" حيث كان للأسبان شوكة فقاموا بتخريب الكنائس، ولم يطع بعض أتباع

---

(١) الشطر الثانى لبيت سعدى الشيرازى، والشطر الأول هو: "مع من لم أقص حكاية غم عشقك؟ ".
- سعدى شيرازى: كليات سعدى (غزليات)، باهتمام محمد على فروغى ص ١٩١.

"داى ميوها" الأوامر بتصميم، وبقى القانون الكاثوليكى، وأرسلوا بعض الرسائل إلى البابا وملك أسبانيا.

ومنذ عام ١٢٥١ هجرية كانت قد أرسلت كلاً من إنجلترا وأمريكا الدعاة إلى اليابان، وقسموهم إلى مجموعات، وكانت قد سلكت المجموعة البروتستانتية الطريق إلى اليابان تحت الإدارة الأمريكية، وكانت قد قامت بتأسيس مدرسة ومستشفى لحفظ البدن من أجل أخذ الروح.

وبعد الصدام والضرب فى التشكيلات الأخيرة حررت الدولة المذهب، وحل النزاع الكاثوليكى والبروتستانتى فى أعقاب البوذية والشينطوية، وطبقاً للفصل ١٨ من الدستور اليابانى فى الحدود التى لا تكون الوظائف القومية محل تأييد ومعارضة حرة فى اختيار المذهب، كل عقيدة يجب عليها إطاعة أمر الملك وعيسى.

منذ عام ١٢٦٦ هجرية تم إحلال الفكر اليابانى، فأخذوا ما يتناسب لهم من المعاهدات الأوربية، واحتاطوا فى الشئون الهامة، واعتنوا بعاداتهم وآدابهم.

كان أول تقليد فعله الناس بلا أساس الزى، والملبس يغير العقائد فى الشعب دون فكر، "ومن تشبه بقوم فهو منهم"، إن ما رأيناه أن اليابانى لم يخرج فى الحياة الخاصة خطوة من الدأب ورؤية نفسه أخيراً قد صارت الرغبة خامدة فى دعوة أهالى البيت، خاصة بالنسبة للكاثوليك وتعليمات الثلج المخزون، قيل إن الأوربيين أنفسهم ضد المذاهب، ماذا يريدون من أرواحنا ؟ فى يد انجيل وفى يد أخرى المدفع والبندقية، لجام السفينة بأيدى الدعاة، وقد سبب هذا النوع من الأفكار الدوار لليابانى.

الأمل أن فكر اليابانى تجاه الغرب قد تحول إلى اليأس، أن اليابان من اليابانى ورد اللغة واعتذروا للمتخصصين الأجانب، واعتنقوا آدابهم، لم يروا أى من العادات سوى الخير.

- **لا يحك فى الهم أحد ظهرى سوى إصبعى.[1] (شعر)**

إن دعاة المدنية بيتهم أكثر خراباً من دعاة المذهب فإن "لكل جديد لذة"، بلاء الموضة أكثر خطراً من بلاء العقيدة، لأن العقيدة لا تتأثر سريعاً ليس لها لون ولا وجه أيضاً، والموضة جانب الرغبة فى الهوى والهوس.

الجاسوسية وسبب البحث عن فطرة البشر، وطالب سبب كل علة كى يعلمها، وقد كان الاصطدام بالعادات الطبيعية والتقدم فى العلم والصناعة نتيجة لنفس الحضلة، ولم يكونوا قد حملوا نفس الخصلة حتى إلى الأسباب الطبيعية وقد صار السبب التصورات الواهية، وكان قد ظهر الأرباب فى صورة الرعد، والبرق، والثلج، والأمطار.

واختفى الشر، والحسن، والأمراض ومسبباتها، أى عجب إذا صارت عبادة الشمس أثراً لواهب الحياة، وكان تفوق الشمس على سائر الكواكب سبباً فى عبادة الشمس، إن سير الكواكب بلا إرادة وأثر، وظهر الصنم والمعبد فى كل قوم وكل مكان وجه لتصور البشر، وقد استفاد العديد من العقلاء بهذا النوع حيث يهتدى الخلق إلى طريق السلامة من وجهة نظرهم، حتى يلتحق الناس بطريق السلامة بين الخوف والأمل، أقول قولاً خالياً من التعصب فالإسلام هو الدين الوحيد الذى حطم الأصنام وخرب المعابد وهدى الناس إلى طريق الفكر والعقل والتفقه والصراط المستقيم ومنع الأوهام السقيمة.

إن مدعى تربية اليوم هم اتباع مذهب "بالقول لا بالقلب"، عبرى فى المعنى وهيلينى (يونانى) فى الصورة، وعند الواقع أى منهم ؟ المذهب موضوع جدال بين العلماء ورجال الدين، فى حين كان عامة الشعب حيارى بينهما وأصبحوا أسرى للعادات. وتريد الحكومة الفصل بينهما وحسم الخلاف، وقد قدمت شرحاً وتفصيلاً فى هذا المجال فى كتاب "أفكار الأمم".

---

(١) سعدى شيرازى: كليات سعدى (بوستان)، باهتمام محمد على فروغى ص ٤١.

هاراكيرى:[١]

إن التحقير من شأن الحياة يعد أحد أصول العقيدة الشنتوية، ويعد الانتحار فى اليابان أيضاً من العادات المتأخرة، ويطلقون عليه اسم "هاراكيرى". وتكون معظم وظائف الناس كمحاربين، وتنقسم وظيفتهم إلى قسمين اختيارية أو إجبارية.

الساموراى اسم لـ "نياساريان"[٢] ، وأطلق عليها فى إيران اسم الجيش، وإذا كانت هذه الطبقة مستحقة للسياسة لقادت الموظف إلى الانتحار بحيث لا يموت على يد شخص غيره، وقد اعتبر هذا نوع من الشرف العظيم. إن العراك شائع بين الطلاب فى ألمانيا من أجل إظهار الغيرة، وهناك يطلق عليها اسم "منزور"، كما أن وجود آثار جروح فى رؤوس الطلاب ووجوههم يعد علامة على الغيرة. حددوا المكان والزمان وعينوا حكاماً للتنفيذ، يتم إيقافهم فى التجديد، لكن الاختيار شائع فى مواضع اليأس الكلى والحرص من العار ويعرف هذا فى كل مكان بالحيلة، ويمزق اليابانى بطنه بدلاً من قميصه.

يروى أنه عندما وصل نبأ موت "آسادا" فى ميدان القتال، أعطوا زوجته التى كان بصحبتها شاب صورة زوجها بإذن أبيه ووضعها أمام وجهه، وانتحر مرتدياً ثياباً فاخرة "مثل شيرين فى وفاء حب خسرو"، يعد الكلام فى إذن الأب مانعاً للعار.

نكــتة:

فى كل مرة كان يذهب فيها "إبراهيم صحافباشى" وهو أحد الرحالة إلى اليابان، كان يجلب نماذجاً من الأعمال اليابانية إلى طهران، حيث توجد

---

(١) محمد معين: فرهنك فارسى، جلد جهارم، ص٥٠٨١.

(٢) نياساريان (نيسازيان): جمع نيسارى، وهى تسمية أخرى لكلمة ارتشتار الفارسية بمعنى الجيش، وهذه الطبقة إحدى الطبقات الأربع على عهد جمشيد جم، وقد ذكرت فى أشعار الفردوسى على ما يبدو على وزن "رتشتاريان" ثم تطورت إلى نيساريان.
محمد التونجى (دكتر): المعجم الذهبى، ص٦٥٣.
وأيضاً: محمد معين (دكتر): فرهنك فارسى، جلد جهارم ص ٤٨٨٦.

أشياء من الصناعات اليابانية فى معظم البيوت، مثلما يوجد تلاميذ صينيون فى كل الأعمال، فى القرون الأخيرة تخلف الصينى وتقدم اليابانى فى المقابل، إن اللون الأحمر الذى تمت صناعته فى الصين، هو نفسه لون الدم الذى استعملوه هناك منذ ثلاثمائة عام مضت، وقد محى اليوم استعماله وفى الصين حين يتم الحصول على أشياء نفيسة، فهى تعد جزء من التحف، ومنتشرة فى أسواق اليابان.

إن اليابانى بوسعه صناعة أى شئ ولو يكون ورقة شجر، ولديه مقدرة عظيمة على المتابعة مثلما ذكرت فى المباحث السابقة.

شوهد فى متحف طوكيو صندوقاً بلون أحمر وقد كان من الأمتعة الرائجة، قلنا ما هى خصوصية ذلك ؟ قيل: لقد صنعوا ذلك الصندوق لكى يتم عرضه فى الولايات المتحدة الأمريكية، وغرقت السفينة التى حملته فى الميناء، وقد بقى طيلة عامين قابع فى مياه البحر ولم يظهر به عيب، وقد تم تحديد مكانه واعتبر كمتحف فنى.

ذهبنا فى جولة إلى مصنع صناعة الصناديق، وعرضوا لنا علباً مصنوعة من الخشب كانت محفوظة داخل أقفاص، وقيل للبعض: لقد مضى على صناعتها سبعة وعشرون عاماً، وهم يقومون بترميمها فى كل عام حتى تقل قوة الخشب بصورة كلية، ولا يكون قابلاً للاعوجاج، عندئذ يقومون بدهان أسطحها باللون الأحمر، ويزينونها بالألوان والنقوش والتصاوير.

تم شراء نموذج من كل نوع من الأعمال اليابانية والصينية على السواء كالمعادن والبللور وأشكال من صنوف الأسماك الكبيرة المحنطة والأصداف والعاج ومجموعة من الأشياء البسيطة برفقتى.

الفنـــون:

يقوم عدد قليل من الأهالى بالتنزه فى الحدائق وسفوح الجبال الخضراء والصحارى وفى ذلك أنس للياباني حيث أنه له ارتباط خاص بالورود

والأعشاب، وهم يرغبون فى مجالس الأنس، وقد كتبت شرحاً للعبة الطابة التى شاهدناها فى حديقة "شيبا".

وهى عبارة عن إيوان وزوج من البشر، يضعون أيديهم خلف رؤوسهم، ويقال عندئذ "يوئى يوئى يو"، وليس هناك خروج فى الأحوال الثلاثة، أو يغلق قبضة يده (الحجر) أو الكف مفتوح (ورقة) أو الأصبعين مجموعين من الطرفين وبينهما مفتوح (المقراض)، يحمل الحجر (قبضة مغلقة) من المقراض (الإصبع مفتوح)، ويكون الحجر حاداً كالمقراض، ثم يكون الفائق والورق من الحجر، بحيث يمكن طى الحجر فى الورق، والمقراض من الورق لأنه يمكن التقاط الورق بالمقراض. ويغلقون الرهان ويتم اللعب بالكيفية المذكورة، ومن النادر أنهم يجلبون شكلاً من كلا الطرفين.

أهل الطرب:

ذهبنا ذات ليلة للتنزه فى أحد مجالس الأنس، وإحدى الجلسات اليابانية الليلية، كان فى وسط المكان بساط الساكة الكبير، واستعدت فرقة "الجيشا" للعزف ولعب "يوئى يوئى يو"، وكانت تتبع القمار الحرام، قلت: كل شخص يلعب فى كل مرة يقلل شيئاً من ثيابه، كان لى البالطو والبنطلون والساعة وقميصى الوردى، أما هو فيرتدى القميص والسروال وعليه الكيمونو والشال، ووصل فى نهاية العمل إلى حفر ثياب الساتر، "لدى الستر إلا لبسة المفضل"[1] وعلى حد قول امرؤ القيس ضاحكاً وأقيم الصلح، ولما لم يكن قد تم تناول مشروب الساكه فقد حل الحياء مكانه.

---

(١) فى الأصل المتفصلة ومن المحتمل أن يكون هناك خطأ فى الطباعة: وجملة الشطرة الثانية لبيت أمرؤ القيس الشاعر العربى الذى عاش فى الجاهلية والبيت هو: فجئت وقد نضت لنوم ثيابها ... لدى الستر إلا لبسة المتفضل.
أبو عبد الله الحسين الزوزنى: شرح المعلقات السبع، القاهرة ١٩٦٨م ص ١٩.

لعبة الطاولة:

مهما كانت هذه اللعبة سهلة، إلا أن الطاولة صعبة وتمثل رغبة اليابانيين فهم يستطيعون قضاء أيام فى ممارستها، وتلك القطعة الخشبية المربعة يقطعها تسعة عشر خطاً جميعهم عن اليمين وعن اليسار وعدد ٣٦١ نقطة تستقر عليها عدد ١٩١ قطعة قشاط مستديرة بيضاء و١٩١ قطعة قشاط سوداء، والقطع السوداء كناية عن الليل والقطع البيضاء كناية عن النهار، ٩ نقاط ممتازة بحساب الأفلاك المطلقة والنقاط كناية عن ٣٦٠ درجة للفلك، ونقطة الوسط هى مركز العالم (المبدأ)، تحمل مع الشخص الذى يستطيع أن يترك عدد خمسة قواشيط فى خط واحد، فى لعبتنا ثلاثة قواشيط، وقد قلدها الإنجليز ويطلقون عليها اسم "جويانك" ودرجات لعبها أسهل.

وطبقاً للشرح فإن لعبة النرد عبارة عن صورة مفصلة من الخياطة، وعلى ذلك فهى تصل فى اليابان إلى درجات أكثر صعوبة. ولم يستطيع شخص من الأوربيين أن يحصل مهارة فى تلك اللعبة، إلا شخص ألمانى اسمه "كرش هلد" الذى حصل على الدبلوم فى تلك اللعبة.

الشطرنج:

الشطرنج اليابانى يمثل ٨١ خانة عبارة عن تسعة فى تسعة بإضافة عدد أربعة قواشيط، قشاطين طرفى الشاه (الملك)، وقشاطين أمام الحصان، وجندى علاوة على استقرار الثالث فى المؤخرة، وليس هناك ما يعوض عن الوزير، والقواشيط بلون واحد، وقد كتبت أسماؤها عليها، وحركة القواشيط نفس الحركات المعتادة، إلا القواشيط الإضافية التى تتحرك خانة مستقيمة أو موربة (زاوية ٤٥ °) وأسماؤها كالتالى باليابانية " أ " الملك، و "ك ئى ما" الحصان، و"هيشا" الطابية أو البرج، و"كاكو" الفيل، و"يارى" البرج والذى يسير فقط فى خطة، "جين وكين" الفضة والذهب قشاطين بطرفى الملك، ويسيران كلاهما خانة موربة، الذهبى لا يعود للخلف، ويتقدم الجندى خطوة مستقيمة للأمام، وعندما يصل اللاعب للخط الثالث يصير الذهب أى

الوزير ويحركونه للأمام والخلف، ويعتبرون القول مات مع العسكرى شراً، ويقال إن الشطرنج ليست لعبة ديمقراطية حيث يتفوق العام فيها على الخاص. ولعبة الورق المسماة (كوتشينة) للنساء وهن يصررن على لعبها.

الـــزواج:

يعتمد بنيان الحياة الصينية واليابانية على تشكيل الأسرة، والفتاة التى صارت بالغة يقومون بتزويجها، ويكون الاختيار مشاركة مع أولياء أمور الفتاة، ولم يتقيدوا بالقانون سواء الدينى أو المدنى، ولكنهم يجب أن يطلعوا على السجلات الرسمية فقط بعد حدوث الاتفاق، ويتحقق أشخاص من أهالى الفتاة أو الابن بصدد تناسب الظروف، وفى العادة تكون هناك وساطة من واقع الأبوة بالنسبة للطرفين، وتوجد وساطة فى كل مكان، ويكون أول لقاء فى منزلها أو أن تحدث صداقة وأحياناً يلتقون فى المسرح أو فى مكان عام ويرى كلاً من تلك الفتاة والولد بعضهما وتصبح لديهما رغبة فى اللقاء والزواج.

وينشغل أولياء أمور الجانبين بالمباحثات والاتفاقيات، ولم يكن من حق الفتاة الظهور، والصواب هو رؤية أولياء أمور العروس والعريس ويصير تبادل الثياب ولهذا التبادل حكم تناول أنواع الحلوى، وعند حدوث خلافات لا ترد الهدايا، ويتم تحديد ساعة الزواج من أجل العرس، وتذهب العروس بزيها الأبيض ليلاً من منزل أبيها إلى منزل العريس، وكأنها قد ماتت لأن اللباس الأبيض لباس عزاء، ويرافق الأب ذو المقام الرفيع وزوجته العروس، ويكون للفتاة مكان تذهب إليه فى بيت الأب، وفى اليوم التالى يشعلون فيه النار وهى عادة كون المكان خالياً من المتوفى، ويبدو وكأن العروس قد انتقلت إلى العالم الآخر، ويجب أن يتسلمها الزوج، ويتكون معظم جهاز المرأة من الثياب ولوازم الزينة، وليست لديهم عادة المهر والصداق، ويتم عمل مراسم تعرف بـ "سانسان كود" فى بداية معرفة العريس بالعروس ويكون ذلك باحتساء

الشراب ثلاث مرات، فى كل مرة ثلاثة كؤوس من الساكة تم تخرج العروس الملابس كهدايا للعريس ويرتدى منها ويتم تجديد الشراب الهنيئ.

ويستبدل العريس الثياب، ويحمل الأب ذو المقام الرفيع وزوجته العروس إلى الغرفة المقررة إلى العريس، وفيها ترتدى العروس مرة أخرى الثياب ذات الألوان التسعة، والتى كانت مع العروس من قبل حيث تعتبر ضيفة، ومن العادات أن يعطوا الكأس إلى العريس والعروس فى أيديهم، وبعد عدة أيام تتم عادة الاحتفال بالعرس، وتعد موافقة أولياء أمور الجانبين كافية بين جموع الحاضرين، ويحملون العروس إلى العريس بدون أى مراسم عملاً بالحكم "خذ الغايات واترك المبادئ"، ويكون زواج "الجيشا" على هذا النحو.

وليس هناك مانعاً من الوصال فى الأسرة فى اليابان، أما فى الصين فلا يجوز حتى سابع نسل، ويندر الطلاق فى اليابان ومهما تكن العادات يكون هناك اعتبار عندئذ للزواج أنه من وجه المصلحة أن تكون هناك مراعاة للتناسب، لا تكون الفرحة بالوجه أو الطوق والأذن.

هنا وفى كل مكان يولون أهمية إلى الابن، لأن الابن هو حافظ وحارس آثار الأجداد، وأحياناً لا يكون لديهم ابن، فتعطى الفتاة لابن ويقبلوه كنوع من البنوة، فى هذا النوع تتميز مواصلة الزوجة على الزوج ويستطيع العريس أن يبدو محافظاً على ودائع الأجداد ويقوم بعمل المراسم.

ويقال إنه لا مفر للابن والفتاة من الصداقة، ويوصى الزوج على المرأة وتذهب الفتاة باختيار الزوج وفى الغالب تصير مبتلاة بالأخلاق السيئة، وتقع مرة أخرى فى جذور وفروع الأب والأم، العيب فى العرسان لا فى الفتيات، والحريات التى تكون للرجل لا يعتبرونها جائزة من أجل المرأة. "لا تكون جميلة تلك التى هى خادعة"[١] .

(١) لم يشر الكاتب إلى ناظم هذه الشطرة.

يتعجب الأوربيون أن الفتاة فى المشرق تكون فى تحت تصرف الأب والأم والمواصلة فى المناسبات وأن معظم العادات تأتى فى نظرهم غريبة، يتقدم الزوج على المرأة فى الدخول، كثيراً ما قالوا إن اليابانيين فى مجالسهم الخارجية يجعلون المرأة فى الصف الأمامى حيث لا يكون ذلك للنسوة اللائى تمت تربيتهن فى بيوتهن.

وقد زادت الحرية بلا أساس وصارت فى أوربا أساس خداع الجماعة من أجل الاستمرار فى زيادة حالات الطلاق، قرأت فى إحدى الصحف أنه فى واشنطن وحدها تم تطليق ٢٣ ألف حالة من أصل ٤٣ ألف عقد فى عام حتى آخر نفس العام، وأظن أن الاهتمام بالمظهر والجمال وأن هذا الموضوع هو السبب الرئيسى لأسر البشر وأذكر ذلك مكرراً.

فى اليابان لا تبقى فى الأسرة فتاة بلا زوج، وفى أوربا صرن ثمانين بالمائة، ومن أسف أنه نتيجة للتقليد دون تأمل فقد نفذت هذه المصيبة إلى حياة مدينتنا أيضاً، وصارت العادة فى اليابان أن الفتيات عندما يتزوجن يدهنن باللون الأسود أسنانهن بمادة كحبة البندق الناتج من شجر البلوط وتركيبات الحديد وتبين هذه العلامة أن للفتاة زوجاً، وفى أوربا يتبادلان الخاتم الذى هو فى أصبعيهما.

وفى النهاية فإن الخاتم الذى موجوداً طوال الوقت يمكن إزالته وتنحيته جانباً فى حين لا تصير الأسنان السوداء كذلك، فى اليابان توجد جماعة مطربات باسم "الجيشا" هن أحرار وهن متفائلات وصحبتهن حارة فى مجالس الطرب بالمسرح، وفى الوقت الذى يتم انتشار العادات الأوربية وترتب المجالس الليلية "سوبه" فقد كسر سوق "الجيشا" خاصة وأن فى اليابان كلاً من الرجل والمرأة مفككان، الاختلاط أو الرجولة أو الأنوثة، لا يجوز الاختلاط ويكون الهدف الأصلى فى المجالس الليلية الغربية حدوث اختلاط الرجل بالمرأة ويميل الطرفان إلى الأحاديث.

جزيرة ايزو (ايسو):

تقع ايزو إلى الشمال من جزر اليابان الكبيرة، ومع أنها تقع بين خطى عرض ٤١ و ٤٥ ° إلا أنه خلال ستة أشهر من العام يغلب عليها الثلوج، وأهلها هم أهل الحدود اليابانية وقد اختبأوا فى هذه الجزيرة البعيدة والباردة بسبب هجوم الطوائف الآسيوية عليهم، ويعيشون فى شدة على لحوم الدب والغزال القطبى الذى له قرون، وقد كانوا موضع اعتداء السكان الجدد لدرجة أنه كان ممنوعاً عليهم أن يعلموهم الخط والصناعة، وقاموا بثورات متكررة من أجل التخلص منهم وهزموهم، وفى النهاية بترغيب وتأييد من الولايات المتحدة اهتمت بتحسين أحوالهم المعيشية، وقد امتدت سواعدهم إلى الزراعة، وهم من أنواع البشر مغبونون فى الخلقة فى الشكل المعنى ليست لديهم رؤية ولا شعور حقيقى صادق خلافاً للجنس المغولى الذى له شعر قليل "آئينو" ويرتدون الصوف على كامل أجسادهم. وكان شكل هؤلاء القوم موضع اهتمام ومقصد داروين.[١]

عادة العزاء (طقوس العزاء):

من مراسم العزاء إضافة إلى تغيير الزى والآداب الأخرى اجتناب الأكل الحيوانى. وزاد حرق الأموات من نفوذ البوذية، ومنع أحياناً ثم أجيز، وكانت الملكة "جيتو" الأولى قد أوصت بحرق جسدها، اعتقاداً بصعود الأرواح إلى السماء أنه بالحرق يمكن الوصول بصورة أسرع إلى المقصد والمقصود عن طريق دخول الدخان إلى الجسد.

وفى عزاء الأب والأم يرتدون ملابس العزاء طيلة ثلاثة عشر شهراً ولا يأكلون لحوم الحيوانات مدة خمسين يوم، كما يرتدون فى عزاء الزوج وفى عزاء الأخت والأخ والمرأة الملابس الخاصة بالعزاء لمدة تسعين شهراً وعشرين

(١) إشارة إلى نظرية داروين التكاملية حيث ارتبط كلاً من الإنسان والقرد عن طريق جد مشترك بالآخر، وقد ادعوا أن ذلك الجد المشترك الفرضى هو الحلقة المفقودة حسبما ذكر المؤلف.

يوماً، كما تتوقف الألحان والأنغام فى أنحاء المملكة لمدة ثلاثة أيام فى عزاء عضو من أسرة السلطنة.

ويأخذون الأسبوع الـ١٤، ٢١، ٢٥، ٤٥، ١٠٠ من العام، ويقيمون المراسم فى السنوات الثالثة والسابعة والثالثة عشر، ولا ينسون السابقين بسرعة.

- **طلوا شاهد القبر باللونين الأحمر والأزرق، كأنك تقول أن سهراب لم يكن مطلقاً.[1] (شعر)**

وتجرى مراسم العزاء من قبل علماء البوذية، والتابوت هو الصندوق الذى يضعون فيه الميت من رأسه إلى قدمه بحيث يكون فى موضع الرحمة، وأخيراً يقوم أتباع "شينطو" بتوصيل ميتهم بأنفسهم إلى المنزل. لديهم تابوت عادى، ويستخدمون العلم والورد كثيراً فى إعداد الميت وتنفق مبالغ باهظة فى إعداد مراسم الميت.

فى وفاة الملكة عام ١٢٧٥هـ تم إنفاق سبعمائة ألف ين، وتمتد المراسم لمسافة تبلغ ميلين، وقد جعل الأمراء أقدامهم مكشوفة فى الثلوج طيلة ٢٢ ساعة ويضربون دون أن ينطقوا بشىء، وكانوا قد أوقفوا الطرب لمدة شهر فى أنحاء المملكة، وعطلت المدارس أسبوعاً وعكف الآلاف، كما توقفت الضيافة فى البلاط مدة عام.

بعض الآداب القديمة والحديثة:

كانت هناك عادة قديماً حيث كانوا يعتبرون أن مكان الولادة نجس، وكانوا يقومون بهدمه من أجل طهارته، ومن أجل الحفاظ على جزء من المنزل كانوا يقومون بتشييد بناء بأيديهم خاص بالولادة، وفى المائة الثالثة عشر (القرن السابع الهجرى) تذهب الزوجة إلى منزل أبيها، وكانت تذهب ملكة ألمانيا زوجة "جيم الثانى" من أجل الوضع إلى القصر الأبيض فى "بتسدم".

(١) محسن رمضانى: شاهنامه ميراث فردوسى، ص٢٠٩.

ويقومون بغسل الزوجة التى وضعت حديثاً، ويدخلون مهتزين على أنغام من القوس ويبحثون من بعيد عن الذوات المؤذية المسماة "آل" حتى لا يصلهم الأذى. وترتدى الأم والخادمات لباساً أبيض أقرب إلى النظافة، وباستطاعتها أن تبدأ المراسم، وتهب بعض الخصوصيات.

وقد اتخذوا من السنة الأولى لخامس ابن عيداً، ومن بعدها بالسنوات الستين، والسبعين، والسبع وسبعون، والثمانين، والثمانى وثمانين، والتسعين، والمائة وعندها أكون أن العبد قد بلغت ٨٦ سنة وأنا مغبون بستة أعياد.[1]

والتقبيل ليس عادة يابانية، حتى الرجل لا يقبل زوجته فى حضور الغير ولا يقبل حتى أقربائه. إن النساء المحترمات لا يظهرن وجوههن فقط، ولكن أصواتهن أيضاً محرمة.

- **أنا "منيجه" ابنة افراسياب، ولم تر الشمس جسدى العارى.[2] (شعر)**

وفى الزواج كانت الأخلاق والنجابة والصحة موضع اهتمام، وقد أجازوا الكمال والجمال، وقد كانت نور على نور، وقد جعلوا الاقتدار موضع اهتمامهم فى المرتبة الثانية، ولا يدخلن فتيات الأسرة مع الأولاد فى حديث مطلقاً، النجباء فقط لا يخرجون من المنزل. ولا تتزوج العديد من النساء اليابانيات بعد الزوج الأول، ويعتبرون ذلك عاراً عليهن.

وقد جعلن الضفيرة فى جزئين، وهن يلقونها خلف الرأس، وأخيراً فإنه عندما تجمع الفراشة جناحيها فإنها تكون أشبه بالوردة الجميلة ومن أجل ذلك فى النوم لا يحدث صدام، ويغرسون فى ضفائرهم سيخين معدنيين مثل الإبرة مرتفعين فى اليسار واليمين حيث تحفظ الفراشة الذؤابة فى حالة الطيران. إن إغلاق الضفيرة أعلى الرأس فى أواسط العمر هو كتمان للضفيرة العارية.

---

(١) يبدو أن الكاتب سعيد بخمسة أعياد وهو فى السادسة والثمانين من عمره أى السنوات الخامسة، و٦٠، ٧٠، ٧٧، ٨٠ إلا إذا كانت عبارة السنة الأولى والخامسة محسوبة حسبما ذكر المؤلف.

(٢) هذا البيت من نظم الشاعر أبو القاسم الفردوسى الطوسى مع التصرف.
محسن رمضان: شاهنامه ميراث فردوسى، ص٢٠٠.

وللنسوة شال عريض يرتدينه فوق الجلباب يقال له "ادبى" لونه صافى من الأمام ومطوية من الخلف مثل الشوكة، وتدخل النسوة طرف الثوب المثنى حتى جبهة القدم. ولهن طوق من القطن، ولباسهن ليس له أزرار، وذلك الطرف المثنى من الثوب قد اسموه كذلك لسمكة (زفرة)، ومن ثم لا يكون فى نهاية الثوب ويبدو أن كلاً من الرجل والمرأة يرتديان قميصاً قصيراً، ولا يرتديان سراويلاً داخلية.

وفى طوكيو شوهد لحاف بكم أيضاً بحيث يجب ارتداءه والنوم به، ورأيت رجالاً يراقبون التلابيب بحيث لا تذهب للحافة. "شيتاجى" معناه السروال، و"جيبان" معناه الجلباب، و "كيمونو" أعلى الزى (عبادة كردية). وعند البوذية فإن لحم البقر والغنم مكروه، ويرغبون فى أكل لحوم الأرانب والخنزير وكذلك لحم الدببة.

ويأكلون فى طعام الغداء مع سيخين من السفود يقال له "هاشى" ويأخذون السيخين من بين أصابع اليد الواحدة، ويستخدمونها بمهارة، وهم على هذا المنوال يطهون الأرز مضافاً إليه بعض العدس أو اللوبيا.

وبعد الإصلاح وحرارة التجديد فيما يتعلق باقتباس الآداب الأجنبية والمغالاة فيها، ويتصور أنه لم تعد تبقى أى آثار من عادات وتقاليد الحدود، وهدأ اليابانيون سريعاً من نيران التجديد، ورأوا أن الأخلاق تشرف على الخراب، فقاموا من الشكل إلى المضمون، وصنعوها على طرازهم، طالما لم ينتج ذلك ميزة ثابتة فيجب ترجيح المعقول، ولم يتخيروا الرسمى، ولم يفقدوا بساطة الحياة من أيديهم، وعلى حد قول سعدي فإن اليابانيين قد صنعوا، ولم نصغ نحن.

- إن تزيين ثوبك القديم، أفضل من طلب ثوب العار.(1) (شعر)

(1) سعدى شيرازى: كليات سعدى (مواعظ)، باهتمام محمد على فروغى، ص٣٣١.

ومع أنه يشاهد فى معيشة اليابانيين إسراف وخرافات يمكن القول فى بساط محتسى الشاى، فهنا يجب تجميل الأشياء، وتنفق آلاف الينات من أجل مستلزمات هذا النشاط، وكل الأدوات من أجناس الحدود، ولم يشاهد جنس أجنبى فى الأثاث اليابانى، إن استعمال الأفيون ممنوع بشدة فى اليابان، ويسمونه المرض الصينى، وقد وجد التبناكو فى اليابان منذ مائتى عام، ولديهم غليون ولا يدخنون السيجار ومعظمه دخان "وكأن لم يكن".

وقد ألف "هيتومى" كتاباً فى التصنيف والعادات اليابانية، ويختم الكتاب بهذه العبارة: طالما أن ورد الغيرة يتفتح فى قلب اليابانى فإن دولة الشمس تحفظ شئونه، ولن يهزم فى الحرب (ليس لديه علم بشق القنبلة، ليلة يوم الاثنين الموافق ٥ شهر يور عام ١٣٢٤هـ.ش)[1]، فى حرب برت أرطور قتل نجلا القائد "توجو" الاثنان، طلبت الملكة أمها وقامت بتسليتها وقالت: لقد كان الابنان من أجل مثل هذا اليوم، فكرى من هذا أن والديهما ما كان ليؤدى وظيفة وضع فيها بكل حواسه على هذه الصورة وإلا كان مقصراً فى الخدمة.

الآداب:

يعد اليابانيون من المهتمين بمتون مملكة الوسط[2] فى المائة الثالثة من الهجرة حيث وصلت أقوال كنفوشيوس إلى اليابان وهى تشتمل على كلمات الحكمة:

- إن ألف قرص من الذهب لا يساوى ناتج يوماً واحداً.
- السماء عين تنظر إلى الأرض.
- لا تكن شريراً ولو فى الخفاء.
- ليس لسوء الحظ وحسن الحظ منزل، فهما يأتيان لدعوة شخص.

(١) إشارة إلى القنبلة الذرية التى ألقاها الأمريكيون على مدينة هيروشيما ومن بعدها نجازاكى.
محمد معين (دكتر): فرهنك فارسى، جلد ششم، ص٢٣١٩.

(٢) مملكة الوسط: إشارة إلى الصين.

- النجاة من الشر الذى يصل من السماء، والشر الذى نجلبه بأنفسنا لأنفسنا ليس نجاة.

بعض الأمثال اليابانية:

- غطاء الرأس غطاء قدر فخارى مكسور.
- حمار رخيص هو فقدان للثروة.
- ذلك الذى يقبل وجهك اليوم عدوك فى الغد.
- لم يتشبث الثعلب بالمبتلى بالصرع لأنه يفهم لغة الثعلب.
- الطالع والأحلام وفك الطلاسم والفراسة والفأل وكل ما هو من هذا القبيل قد نفذ عن طريق الصين، وقد كانت هذه العادات خاصة بالمغول ويطلق عليها أتباع طائفة شامان أهل الفن.

العدد الصحيح سواء كان مفرداً أم مركباً بمثابة نحس، لا أعلم أين لأنه ليس لديه كلثوم.

وقد كتب "رائى سانيو" أول تاريخ باللغة اليابانية، وكان رأيه التقريب بين الشعب والحكومة.

لديهم الشعر والنثر فى الجد والهزل، وقد كتبوا حكايات تاريخية وأخلاقية منذ قديم الأزل على طراز المسرحيات، وتقدم عروض فى المسارح.

ولا يجلس اليابانيون فى المسارح على الأرض أيضاً، وتنقسم صالة المسرح إلى أحواض مربعة مفروشة بقطع من السجاد بحيث تعد كل واحدة بها أماكن خاصة ممتازة، واليابانيون ليس لديهم حروف ب، ب، ک، لكنهم أخذوها عن الصينية، وليس لديهم حرف "اللام"، ولا يوجد فى كلامهم التقاء ساكنين، وليس لديهم ضمير متصل مثلما فى الفارسية "م" للمفرد المتكلم، "ت" للمفرد للمخاطب، "ش" للمفرد للغائب، ويعبر عن التذكير والتأنيث بعلامات المذكر مثل "نر" والمؤنث مثل "مادة"، ولا يصرف المصدر فيقال على سبيل المثال من كفتن، توكفتن، اوكفتن إلى آخره أى أن المصدر واحد مع

الضمائر المنفصلة وتلحق "وا" من أجل الفاعل، "نو" للإضافة، "و" من أجل المفعول به مثل "را" فى الفارسية، "نى" من أجل المفعول فيه أو "له"، فى السؤال يضيفون "كا"، ولهذا فإن استخدام "وا، نو، و، نى، كا" فى كلامهم تعد كثيرة، ولو أن الحظ الذى كان لديهم قد اندثر، فقد قبلوا الخط الصينى الذى يعد مفهوم الدلالة[1]، وأخيراً قد اخترعوا حروفاً صوتية الدلالة[2]، ويرسمون كتابات مختلطة، ونذكر نموذجاً من طراز بيانهم:

كونو / هرئينا هانا / [3] وآناتا / نى / آجماشو / كا؟

هذه / الوردة الجميلة / علامة المفعول / إليكم / أعطى / هل؟

الجواب: ما هو تومى / آنيجاتائى / [4] (متشكر جداً).

وإتاكوسئى / [5] وا / كنا / اوتسوكوشيكى / [6] هانا / وهاجى مته / ميما شيتا /.

أنا / نفس / مثل / جذاب / وردة / مفعول صريح / أول مرة / رؤية / هنا.

(هل من الممكن أن أعطيكم هذه الوردة الجميلة ؟ متشكر جداً — أننى أول مرة أرى هنا مثل هذه الوردة الجذابة).

من عادتهم أن يقولوا فى أول يوم فى شهر يناير على مائدة الغداء فى اوينو بارك:

ايمانى / ميو / روشا / تو / نيبن / تو / سن سن جا / آرابا / وا / تاشى

---

(١) أى أن كل شكل يشتمل على مفهوم ومعنى.
(٢) أى أن كل صوت يدل على مفهوم.
(٣) وأيضاً: كى رئى نا ....
(٤) وأيضاً: ما كات نى آرى كاتائى.
(٥) وأيضاً: واتا كوشى.
(٦) وكذلك: أوت سوكوشى ئى.

سريعا / ترون / روسيا / واليابان / وحرب / تدخل / أنا نفسى / أتكلم

واجيشا / و / يا مرو / شته[1] .

وأو / مفعول صريح / تحرير (خلاص) /.

والترجمة العربية:

وسريعاً ترون دخول روسيا واليابان الحرب من أجل تحرير الجيشا.

نوشى/ وا/ جونجين/ نو/ واشا/ كانجو/ فو/ كومودومو/ سانشى دكورو/ سودو/ سا/ نوسا/

أنت منافسة مفعول صريح أنا خادم مع نفس الميدان فى سلب حرج نهاية هذا.

والترجمة العربية:

ويسفر دخولى أنا العبد الحرب معك فى الميدان عن الجراح.

أوتا يعنى الكلام المنظوم، والأمثال التى يستخدمونها ليس لها وزن ولا قافية.

ويتصورون النظم بالإتيان بالتكرار كما فى المقطعات.

نفس الكيفية فى "جاتاهاى اوستا"[2] لدى الإيرانيين القدماء.

وينتسبون إلى "جينمو" على رأس شجرة أسرة السلطنة، يقول فى مكان مقتل أخيه فى الحرب:

---

(١) وكذلك: يام ماش.

(٢) الاوستا: هى كتاب الإيرانين المقدس، ويقال إنها مكتوبة باللغة البهلوية أو السنسكريتية، كان معمولاً بها فى إيران القديمة وفيها تعاليم الزرادشتيين وتنقسم إلى خمسة أقسام هى "يسنا، بشتها، ويسبرد، ونديداد، وخرده اوستاى" والافستا كلمة مجهولة الأصل ولعلها مشتقة من الأصل الآرى "فيد" بمعنى يعرف، فتكون "الافستا" بمعنى المعرفة.
عبد النعيم حسنين (دكتور) وآخرون: حضارة مصر والشرق القديم، القاهرة ١٩٦٩، ص٤٤٦.

جنودى ! هكذا تسحبون جذر البصلة، وتكسرون الفرع، اضربوا العدو، جنودى، إن الزنجبيل الذى أراه أتذوق طعمه فى فمى.

دائما طعمه فى خاطرى، اضربوا العدو.

كتبت ملكة فى موقع خطر إلى أبنائها قائلة:

انتشر السحاب الأسود وكانت أوراق الشجرة فى حركة بجبل "اوينى"، وما أسرع ما تهب الرياح، وفى اليوم قررت السحب أن تنتشر على جبل "اوينى"، ولكن الرياح ستهب ليلاً، وقد سقطت الأوراق فى حركة، وخلاصة ذلك أن العدو فى كمينكم ليلاً.

فى الشكوى من العالم:

العالم كبيره وصغيره فى نظرى الشمس والقمر لكنهما فى ضيائهما لا يمنحانى الضياء، ولم أحصل فائدة فى هذا العالم سوى الملل، لو أنى كنت طائراً لطرت من هذا العالم إلى الباب.

يقول الآخر:

كنت أنا نفسى أكثر هماً فى بيتى القديم حتى فى الغربة فى الأرض التى غرسناها أنا مع حبيبى العزيز، وقد صارت أغصانها عالية، فى كل لحظة كانت تقع فيها عينى على شجرة الكرز الأحمر وهى زرعى العزيز، يزداد الضغط على قلبى، وتنهمر الدموع من عينى.

وأغلب الظن أن هدف "أوتا" أفكار شعرية لا الكلام الموزون، وقد نظموا شعراً بلا قافية، لكن له وزن كهوميروس.

جاء لى مليماً إنصاف "هس وارتج" الذى يقول فى كتابه "الصين واليابان": لقد كان الصينيون واليابانيون فى عصر صاحب التأليف فى حين كنا نجرى عراة الرأس والقدم فى الغابات.

بعض الأسعار فى عام ١٨٧٩م مقارنة بعام ١٨٥٣ الميلادى:

كان القرش الصغير فى اليابان يصل إلى درجة القاز[١] ، من الواضح أن قيمته إلى أى درجة كانت، واليوم فإن الحياة فى اليابان تعد أغلى من الولايات المتحدة.[٢]

عام ١٨٧٩م	عام ١٨٥٣م
الدجاج ٢٢ين (الين يعادل ستة ريالات)	من قبل ٧ ين (٤٢ ريال)
البيض ٣- ٤ ين	من قبل ١ ين ونصف (٩ ريال)
السكر ١٢ ين ونصف	من قبل ٨ ين (٤٨ ريال)
البطاطس الكيلو ٨ ين	من قبل ٣ ين ونصف (٢١ ريال)

وقد كان أجر الخادم زهيداً ما يوازى ٢ ين فى الشهر (١٢ ريال).

المشى فى النار:

كان المشى فى النار مقرراً مرتين فى العام فى معبد انطاكه، يفترشون أريكة مملوءة بالعلف (الشعير والقمح) بطول أربعة أذرع، وعرض ذراعين، قطرها من اثنين إلى ثلاث عقدات، ويضعون عليها قطع حجرية عريضة نصب على جانبيها كأساس عدة قطع من خشب البامبو مسحوب من هذه إلى تلك فروع منسوجة من القطن أو الصوف وتتدلى منها الألواح المقدسة، ويقرأ المرشد الأدعية وقبل ذلك تمر قدم عارية من النيران المشتعلة التى صبت على ذلك البساط، وقد صب من رأسى البساط ملحاً على الأرض بحيث يدوسون بأقدامهم عليها، إن ماء الملح الغليظ معد على حده من أجل غسل القدم أيضاً.

فى السابع عشر من سبتمبر عام ١٩٠٠م قد ذهب إلى المسرح عدة أشخاص من المعلمين والمتخصصين الأجانب، وقد كتب "تشمبرلن" الشرح الذى قاله له البروفسور "بيرى هيلهوس"[٣] بعد المشاهدة، يقول: ذهبت للقيام

---

(١) قاز: قرش إيرانى فى العصر القاجارى وقد كانت كل عشرة قازات تساوى شاهى واحد.
(٢) المقصود وقت طباعة الكتاب.
(3) Prof. Perry Hillhous.

بالمراسم حيث أخرجت قدمى من الحذاء، ولمستها بالملح، ومررت من على النار، ولم أر مضايقة وأحسست بحرارة خفيفة.

فى الفيزياء عنوان يقول يمكن وضع الإصبع فى الحديد المذاب دون حدوث ضرر، وتحول رطوبة اليد دون وصول البخار ولكن للحظة فقط.

وقد سمعت من الموثقين بحيث يمكن الاستغناء عن الملح، إن ذكر المرشد بصناعة الألحان دائر، لا حاجة إلى الملح وبساطهم مع الملح.

وسمعت من السيد "عبد الحسين اورنج" الذى كان قد ذهب بنفسه إلى هناك وشاهد أن النار لا تحرق ملابس الضيوف والفرش خارج الحوزة أيضاً، فاجتهدت حتى أذهب بنفسى وأرى، ولم يحدث. إن الذهاب أيضاً فى مراكش والجزيرة محفوف بالنيران.

آراء النقاد:

تختلف الشعوب فى الشكل والأخلاق، ولا يجب وزن العادات والآداب بالنظر للحسن والقبح "معشوقى ذلك الذى هو فى رأيك قبيح"[(١)] .

واليابانى لونه مقبول، عيناه صغيرة بقدر، شعره أسود، لحيته بها شعر قليل، صدره كالصندوق، الجزء العلوى من جسده مرتفع، يده قصيرة، وعينه عريضة، وجسمه صغير.

القلم اليابانى أوضح فى رسم الصورة عن الحديث (لا أرى، لا أسمع، لا أتكلم)، فكره واضح، وجهة نظره صحيحة، يده ماهرة فى الصناعة، طاقته طائلة فى العمل، لديه الشجاعة والمنعة والغيرة، معه الحق، يقول: بلاد الغرب

---

(١) الشطرة الثانية لبيت سعدى الشيرازى، والشطرة الأولى هى:
"أيها الصديق أن نفسى لا تستطيب خبزك".
سعدى شيرازى: كليات سعدى (بوستان)، ص٤١.

طويلة وضخمة ممتلئة الألوان، وحسب قوله فإن البطاطس قشرتها محفورة والغراب عيون بلا نور مثلما للصحيح والمعوج اعتبار.

لو كان للياباني عين غير يابانية لكان قد صار معوجاً ومعه الحق.

نحن فى يوم وصولنا إلى الصين واليابان، بدا لنا الناس بعيون غريبة، وبعد مرور عدة أيام من التعود بدت لنا وجوه وأشكال العديد منهم أكثر ملائمة، عندى كتاب فى تاريخ اليابان يبدأ بهذه العبارة:

اليابانيون قطعة ماس من البشر، الماس حروف غبار، وهذه العبارة توصل إلى صغر الجثة وعلو الطبع أيضاً، يقول اكساويه:

هؤلاء القوم هم لذة روحى. يقول "انجل برت كامفر": هم صادقون فى عقيدتهم عن المسيحيين، وفى العمل أكثر مراقبة، لديهم اهتمام فى النهاية بالتفكير عن ذنوبهم، وباصطلاحنا يعنى التقوى، يقول السير "روزر فورد"[1] :

إنهم أمة تبلغ ٣٠ مليون عامل ورحيم وأكثر استعداداً من كل شعب فى العالم، ويعاود القول: ليس عجيباً على اليابانى أن يصل إلى ذلك القدر فى أى شئ، فالعجيب استعداده للاختراع، وهم يصنعون أشياء باقل كلفة وفى صبر، إن ما يرونه فى الخارج يصنعونه على نسقهم ويصنعون المستحيل فى آدابهم، وقد أوردنا قول "بيرلطى"، ، ولم يحمل سوى استحسانه الفرنسى الشخصى. وقد أعطوا الصينى دوراً أكثر اتقاناً فى القول والفعل، وللصينى قناعة تنحصر فى الاعتماد على النفس وتجنب الاختلاط فى غير طبيعته بفكره، واستيقظ اليابانى أسرع من النوم، وأعد نفسه من أجل المعارضة، واعتنوا بكل من حوض المدرسة والمستشفى لمواجهة شر الذات لأن "خبث النفس لا يصير معلوماً لسنوات"[2] .

(1) Sir Rutherford.

(٢) الشطرة الثانية من البيت الثانى لقطعة لسعدى، والشطرات الثلاث التى قبلها هى: بنظرة واحدة يمكن رؤية شمائل الرجل، حتى وصل لمكانه مركز العلوم. أما الشطرة الأولى فهى: "ولكن لا تأمن باطنه ولا تغتر"، مع التصرف. سعدى شيرازى: كليات سعدى (بوستان)، ص٢٣٦.

صنع الغرور عدة الصينى، وفى النهاية صار معلوماً من أنفاس أربعمائة مليون لم يحمل العدو ماء، ويجف الماء فى فم الجميع من النفخ فى مدفع هرون.

كان المحاسب صينياً فى كل مكان باليابان.

الجمعيات:

"حقاً يجب أخذ الدنيا بأحداثها"[1] ، من الجمعيات جمعية حماية الجرحى (الهلال الأحمر برئاسة الملكة وبها ٧٣٨ ألف عضواً، وجمعية أخرى باسم (الترغيب فى الفلاحة) والتى بها تسعة آلاف عضواً، والجمعية الصحية وبها سبعة آلاف عضواً، وجماعة انتشار الأدب والعلم وبها أربعة آلاف عضواً.

وأقل الفروع التى فى اليابان جماعة ليس لها خدام، وجمعية اليوم تلبى احتياجات كل الدول والأمم، وجمعية علاج الخلل الذى حدث فى الحياة العامة، وقد وقع أو وقعوا بين الغنى والفقير إنفتاح قوى.

وقد أوجدت العادات الأوربية صدعاً فى اليابان، أخيراً عرفوا المنافس، وللأسف الشديد يريدون العودة للعب، وليس خالياً من المشاكل لأن الخلل والهوى والأكثر شهوانية يغلب على المزاج الإنسانى، وبقدر ما يصيبهم من ضرر تجذبهم العيون الساحرة والجاذبة للمسرة والبهجة، ولا تستطيع الأمة أن تكون سياسية يجب أن تكون السياسة أمة.

إن الاجتماعات السياسية التى كانت سارية فى اليابان فى السابق، قد تغيرت بصورة كلية مع التجديد، وبذلت الاجتماعات الغربية مساعيها وجهودها تحت ستار من الديمقراطية والحرية فى اليابان، وكانت إظهاراً

---

(١) الشطرة الثانية لبيت حافظ الشيرازى، والشطرة الأولى هى: "ملك حسنك الدنيا باتفاق الملاحة" حافظ شيرازى: ديوان حافظ، تصحيح محمد قزوينى ودكتر قاسم غنى، ص٨٠.

لعقيدة دون امتلاك العقيدة، وكان التفاف خادع حول معنى قبيح فى صورة من العظمة والجمال.

لقد كانت الساموراى (المحاربين) جماعة ممتازة، وكان يطلق على رؤسائها اسم "داى ميو"، وقد امتلكوا الإقطاع والاعتبارات.

لقد كان "ماركى ايتو" وزير الخارجية "واينوئه" ورفقائهم "ياماجاتا"، "ويامادا"، "وآاكى" خمسة أشخاص من طبقة المحاربين البارزين حيث صاروا من مستشارى الملك، وقد أعطوا اليابان اسماً مرموقاً فى السوق، لقد ادخلوا السياسة إلى المملكة، وانكسرت شوكة "شوجونها"[1] ، وازدانت الإدارات. (انظر حديث ماركى ايتو) وحديث الكونت كاتسورا.

وفى ثورة الإصلاحات تميزت ثلاث طبقات هى: طبقة النجباء (كوآزكو)، وطبقة الأشراف (شيركو)، والجماهير (هائيميز)، وجماعة (باريا) وهو لفظ هندى (عبارة عن قوم أشبه بفيوج) والذين انتشروا بدء من الهند إلى الضواحى، وقد كانوا محرومين من الامتيازات الشعبية.

فى عام ١٢٤٩هـ بن صاروا من أصحاب الحقوق، وحتى ذلك الوقت لم يصل تعدادهم إلى ٢٨٧ ألف شخص، وقد بقوا هكذا لمدة وكانوا محرومين من هذا الامتياز فى الحدود القديمة لأمريكا.

دليل:

فى عام ١٢٥٣ هجرى شمسى كان لليابان وضع مميز وتقرر أن يكون لها ست علامات: علامة داود، وعلامة بولونيا، وعلامة طلوع الشمس، وعلامة المخزن المقدس، وعلامة التاج، وعلامة العقاب الذهبى الذى كان خاصاً بالسيدات.

---

(١) شوجونها: ليست هناك معلومات متوافرة عنه فى المعاجم وكتب الشخصيات الخاصة باليابان.

إن ألوان راية الستارة البيضاء والقرص الأحمر كناية عن الشمس والقرص الأحمر مع أشعة على ستارة بيضاء تعنى هذه الحرب وتلك التجارة.

البوشيدو:

لقد برزت طائفتان من بين هذا القوم طوال الوقت وكانتا ظاهرتان ممتازتان: إحداهما المحاربين ومعلقى السيوف، وقد كان الأمن والسهولة فى بريق مساعيهم، والأخرى هم أهل العلم الذين كانوا يجتهدون فى تعالى القوم بالعلم، وكانت البوشيدو جماعة المحاربين ولفظ (نيساريان) مركب من كلمة المحارب المطيع والطريق المستقيم ويعنى بالفارسية بهلوان وبالفرنسية شواليه.

إن كلمة "اينازو نيطوبة" رسالة منقوشة فى أهداف وعادات طبقة المحاربين، وينقل هنا شئ منها: للبوشيدو عقائد وآداب تختص بهم، وقد كانت الساموراى من هذه الفرقة، وبعد انتشار البوذية وأصل فناء هذه الحياة التى كلها آفات وعجز ووجوب السعى من أجل ترك الرذائل وكف النفس والوصول إلى الحياة الأبدية المنزهة فإن أصول كلمة "زن" التى تعنى فى الهندية "زيانا" صارت مذهب المحاربين بحيث لم يتركوا وقع الحياة وكانوا يعتبرون الموت حقيراً ويعتبرونه وسيلة للوصول إلى مقام الشرف.

صارت أصول البوذية مؤيدة لعقائد "شينطو" حيث كانت الطاعة الصرفة من مظاهر الشمس وتعظيم الأجداد، ومحبة خاصة بين الأب والابن فى الحياة والممات.

إن سابقة الذنب التى هى فى البوذية أس الأساس وكان السعى فى فرض ذلك فى "الشينطوئية" على عكس العقيدة إلى طهارة الطينة، وطريق حفظ السعادة.

إن الاجتهاد فى الطاعة الصرفة من أوامر الملك نظراً لانتسابه للشمس.

إن خمسة فصول من أصول كنفوشيوس هى أساس طريقة البوشيدو ووظيفة ساموراى هى:

إطاعة المحكوم للحاكم، محبة الأب والابن، صغر المرأة نسبة إلى الرجل (الزوج)، احترام الصغير للكبير، صداقة الأصدقاء لبعضهم البعض، من جملة أثاث محراب شينطو المذهب الذى يرون أنفسهم فيه، كناية عن معرفتك لنفسك، المملكة فى نظر أهل هذا المرام ليست هى الماء والتراب منزل الأجداد ، ويعتبرون أن حفظ منزل الأجداد هو حفظ ذلك.

إن السلطنة هى وساطة الفيض السماوى، وإطاعة الملك هى العبادة.

إن "منسه" شئ من أصول الديمقراطية التى هى أول العصيان الذى يضاف إلى المرام حتى تجددت حدة النزاع وظهرت عبادة الكهنة فى اليابان معارضة للنظام لكنها كانت سطحية ولم تصر موضع اهتمام، إن القوم الذين يعتبرون العدل أساس الساموراثية لم تكن الديمقراطية عندهم حرفاً جديداً ، يضربون المثل فى العدل بالعظام فبدونها لا تستقر الرأس أعلى الرقبة.

إن كلمة "كيرى" صارت اصطلاحاً بمعنى الاصطدام بالحقائق من أجل تحريك قوى العشق والمحبة وكل القوى التى ترشد الإنسان إلى أداء الوظيفة ويعتبرون أداء الوظيفة من الواجبات. ويضربون المثل للفظ "كيرى" بعصا الأستاذ بحيث يتمسك كل من الكاهل والغافل بأداء وظيفته. ليس لديهم خوف من الخطر ويسهلون الموت على الجسد ، ويجعلون فداء الجسد من أجل الخير سبيل حرية الروح، والموت بلا تضحية بمثابة إعطاء الروح للكلب.

يقال إن الشجاعة بمثابة حفظ الحياة حتى تكون جديرة بها ويصير اختيار الموت لائقاً ، إن الأمهات اليابانيات يوبخن الأبناء الذين ينوحون من الألم كأنهن يقلن لهم ماذا تفعلون عند صد الخطر (هاراكيرى)؟، ويعودونهم على تحمل الصعاب طالما قتل شخص بالقصاص أو السياسة. ويعمل الشباب مكرهين ليلاً ويتركون علامة على جنازة الميت. وبكل اللغات فإن الموت

بشرف أفضل من المعيشة فى العار. إن عامة الساموراى لا يهتمون بالمال، ويعتبرون الرجولة رأسمال، وهم مراقبون أن السرور والحزن لا يبدو على وجوههم.

من عاداتهم أن الأب لا يدلل ابنه إلا فى موضع إظهار اللياقة، ولا يقبل الرجل زوجته فى حضور شخص ثالث، وكانت أم عبد الله بن الزبير[1] تحرضه فى الدفاع عن الحجاج قائلة له أفنى الجسد فى الموت ولا تصر أسيراً. يقال إن الأمريكى يقبل زوجته أمامك، ويضربها فى الخلوة. فى نظرهم أن الموت طريق النجاة والخلاص من حياة المذلة (هاراكيرى)، وقد انتحر كل من "كاتو"، و"بروتوس"، و"بطرونيوس" من أباطرة الروم.

يقال إن "نبوناجا" قال أنا أقتل البلبل إذا لم يغرد فى مكان، ونحن أنفسنا نقتل الديك إذا لم يصح فى مكان.

حكاية: ذهبت فتاة صغيرة لشراء خبز، اشترت رغيفاً وأخذ الخباز حساب الخبز، وكان رغيفاً صغيراً، وظن أن الطفلة قد حملته، فقال لأبيها، فبحث الأب عن ابنته، فأنكرت، فلم يقنع الأب فذهبت الفتاة وألقت بنفسها فى النهر، وعندما جمع الخباز بساطه، وجد قرص الخبز فى جانب ما، وهذا ناتج عن التربية التى يغرسونها فى الأطفال، بنهيهم عن الكذب والسرقة والانتحار من أجل إزالة العار، عندما يكثر الكلام ألتمس العذر وأختم كلامى باختلاف وجهات النظر.

فى حرب المصارعة[2] دخلت اليابان فى انتظار السيطرة على "برت آرطور" وهى تضمر الشر، واستولى الروس على "برت آرطور"، ولتلمس اليابان العذر فى سحب أسلحتها ولم يضعوا حداً لهواهم وهوسهم.

---

(١) أم عبد الله بن الزبير أسماء بنت أبى بكر الصديق، وقد وقع عبد الله أسيراً أثناء محاصرة الحجاج بن يوسفى الثقفى له فى الكعبة وقد قتل. (تاريخ أبو الفضل البيهقى).

(٢) الملاكمون الصينيون، وتعنى كلمة "بوكسر" صرضرا فى اللغة الإنجليزية المصارع.

وضاق المهاجرين ذرعاً بالولايات المتحدة فهم معتدون وتركوا أقدامهم تخرج عن الحد زيادة فى الطلب وسيطروا على طريق المراقبة فى المحيط الكبير، ولم يكتفوا بأربع آلاف جزيرة كبيرة وصغيرة، وسيطروا بالقوة على جزيرة "فرموزا" فى عام ١٢٧٣م ولم يستجيبوا للصلح.

وأتعجب من أولئك الذين يرون الإبرة فى أقدام الغير وينسون حياكة الجوال فى أقدامهم.

كان إمبراطور ألمانيا "جيم الثانى" يفكر فى البلاء الأصفر، غافلاً عن أن لذلك البلاء الأبيض جذور أذن نائمة، وقد كتبوا فى أخلاق الإمبراطور "دائيجو" أنه كان يعيش فقيراً ولا يطلب المزيد، ذات يوم رأى الدخان يتصاعد من كوة بيت أحد الرعية، فقال لزوجته: لدى ألم آخر ولكن صرنا مقتدرين، قالت الملكة: منزلك خرب، وثوبك رث بالى، فمن أين تأتيك المقدرة ؟، أجاب: إن اقتدار رئيس القوم من اقتدار الرعية، ألم ترين أن الدخان يتصاعد من أعلى بيوت الرعية، أليس ذلك من علامات الاقتدار ؟.

السفر إلى أمريكا:

ليست الدنيا مكاناً للتوقف، يجب المشاهدة والمضى فى الحياة لطى الأماكن والبقاع، أين طهران ؟ وأين يوكوهاما ؟ وسان فرانسيسكو المقصد، وكان يجب اجتياز المحيط الكبير، سيكون علينا أن نقضى اثنان وعشرون يوماً فى المياه، يقال إن المحيط الكبير قليل الهيجان، ولهذا السبب أطلقوا عليه المحيط الهادى، والسفينة المسماة "كرآبلى" كبيرة ونظيفة وقرينة السفينة التى يطلق عليها اسم "سيبريا"[1] .

وتوجد أماكن بالطابق الأول فيها، وتحتوى غرفة الطعام على نحو مائتين وأربعة كرسى، ويقومون بصناعة الثلج على السفينة، وخلال خمس عشرة دقيقة تدخل المياه وتوضع فى قوالب لتصبح ثلوجا طولها متراً وقطرها

(١) اسم الباخرة التى استقلها الكاتب ومرافقوه من برت آرطور إلى تشيفو.

اثنان سنتيمتراً، وعلى السطح يوجد موضعان مخصصان على هيئة شقة، أخذ السيد تفت واحدة، وأخذ الأتابك الأخرى، وفى سفينة سيبريا كانت الكابينة رقم أربعة وعشرون مخصصة لإقامة ميرزا أحمد خان وأنا، وبالدراية التى كانت لى فى سيبريا ذهبت إلى كبينتى، ولا يوجد اختلاف فى المسمار فى كلتا السفينتين، وبتصور ما لم يكن مفترضاً فإن السفينة قد عوضت المسافة.

ولم يكن ارتفاع سطح السفينة عن الماء أكثر من ثلاثة أمتار، وكان العمال الصينيون فى بطالة ومنشغلين فى اللهو على سطحها، معهم ثلاث جفنات وعندما تستقر كعوبها على القاعدة الخشبية، تحمل على الخد وتلعب، أحياناً كان يسحبها الموج على سطح السفينة، ويضرب بها فى ناحية، وتمر من على السطح، دون أن يكون فى السفينة شعور بأثر الإحساس، ولو أنها كانت "نينجوتا" لاشك أنها ستكون نحساً، وكنا نستطيع أن نسافر بصورة طيبة على السطح الثانى.

وفى اليوم الأول كانت السفينة تسير بأكثر سرعة لحظة بلحظة، قيل إنه المكان الذى تنفصل فيه الجبال عن الثلوج القطبية، وتسير مع سرعة الماء إلى الجهة الجنوبية ويرتد صدى صوت الصفير لو أن هناك قطع كبيرة تكون قرب السفينة، ويجب أخذ الاحتياطات طالما كان يبدو جانباً من اليابس فى الليل واضحاً، وكنا نلقى نظرة الحسرة ناحية جزر أقصى الشرق، وكنا نقارن الأحوال أحياناً بالسرور الذى وصلت إليه مملكة من أرض أسيا إلى هذه المكانة بالمشاركة فى العمل بفنها، وأحيانا بالحزن الذى قد تخلفنا فيه عن ركب القافلة، ونحن أسرى ثعلب ماكر خادع لعب الجيران، وفى اليوم الثانى نظرنا فلم يبد هناك أثر لليابس.

وقلنا للربان هل يمكن طى الطريق فى مدة عشر أيام بدلاً من اثنين وعشرين يوم ؟، أجاب: لماذا ؟ يوجد اختلاف فى الفحم حيث يكون من الضرورى أن يتضاعف، يسددون ثمنه، وسنصل إلى مقصدنا فى عشرة أيام.

أعلام النار:

وفى اليوم الثالث كان ميرزا أحمد خان وأنا مشغولين بخيالاتنا فى كبينته، هو بحفظ اللغة الفرنسية وأنا بمطالعة كتاب، وعلا صفير السفينة وتصورنا حدوث تصادم بأحد السفن، وهذا هو صفير السلامة، وبقى السلام بلا جواب، عشنا فى فكر وخرجنا، وقام عمال السفينة برفع المطرقة والآلات الأخرى بسرعة والتى أقاموها على جدار الدهليز، وأسرعوا إلى مقدمة سطح السفينة، وصعدنا إلى سطح الطابق الأول خائفين، وكانت قد سقطت الخراطيم من الجنبات على السطح، حيث تجرى فيها المياه، وعُلم أن الربان قد أشعل النيران، ثم صعدنا إلى سطح الطابق الثانى من السلم الذى كان موجوداً، وطوى ميرزا أحمد خان الدرج العلوى بصعوبة.

كانت كل أجزاء السفينة على السطح معدة على الجانبين، وبعضها فى الزوارق التى كانت معلقة فى الطرفين، وكان أصحاب المناصب قد وقفوا على شكل صفين وفى أيديهم المسدسات، ولم يكن "تفت" قد خرج من كبينته، وكان الأتابك يتنزه واقفاً على جانب من السطح، ولم يبدو عليه أى اضطراب، وكنت أنظر إلى كل جانب، ولم ار دخاناً ولا ناراً، وفكرت قائلاً لنفسى ما هذه النار التى بدت؟ كان يجب التسليم إما بالنار أو الماء، إن الاختباء داخل الزوارق لن يسفر عن نتيجة سوى طول الهلاك. وفجأة وأثناء تفكيرى فى الاختيار بين الماء والنار تم اكتشاف أنها كانت عمليات حربية بهدف التدريب، وكان الربان يقوم بهذا النوع من المزاح حتى علم أنه يسلك هذا السلوك كنوع من مهامه الوظيفية، وأنه من أسباب العمل المنظم، كما كانوا يختبرون الطلمبات والمضخات هل هى صالحة للعمل أم لا ؟، وجددت نفسى وحررتها من الفكر بين الماء والنار، وكان إصرارى أن أسلم بالماء، وكان الأتابك يعرف كافة التفاصيل لكنه لم يخبرنا بذلك، ومن المعلوم أنه قام باتخاذ احتياطاته بالتفاؤل يوم وفاة شخص، وقال: ختام الأمر خيارك بين

الماء والنار، وكان قد ذهب إلى الحمام فى ذلك اليوم، وتهدم السقف وتوفى (الفضل بن سهل)[1] :

- الأهل إلى الدنيا معاد، وهل لنا   سوى البحر قبر وسوى الماء أكفان. (شعر)

وفى تلك الأوضاع لم يدخل إلى المقال، وكان يطالع ما مضى وما سيأتى، مضطرب الروح أحياناً، وفى أحيان أخرى كان يمر بخاطره، أنه يجب أن يموت فى نهاية المطاف، ولكن فى أى يوم من الأحداث الماضية، ويغض البصر عن الآمال القادمة، كانت كل الأوضاع فى المعبر تسير على قدم وساق.

كانت لعبة الشطرنج إحدى الأمور التى شغل بها الأتابك نفسه، ولم يلعبها بصورة جيدة أو أنه يلعبها بطريقة سيئة، وفى أثناء اللعب كان بيدى كتاب وكنت أنظر إليه أحياناً، وقابلت الأتابك: أثناء لعبى لم تهتم بحدث ما، قلت: أعلم، لم يكن لسعيى فى مقابل فكركم من نتيجة سوى اللعب، وكان فكرى ألا يبقى مغروراً أثناء اللعب، وألا يلعب كمحترف منهزم.

كانت لدى رغبة مفرطة إلى الموسيقى، معى كمان بثلاثة أوتار، وكنت مشغولاً بالتفكير فيه أحياناً دون تعلم، وعلى حد قول ميرزا أحمد خان كنت أعزف على نسق عازف "تشوجور"[2] دون نظم نغمات من الأوتار الثلاثة.

---

(١) الفضل بن سهل الملقب بذى الرياستين، وزير المأمون أحد الخلفاء العباسيين والذى قتل فى سرخس فى عام ٢٠٢ هجرية = ٨١٧م على يد أربعة أشخاص من رجاله فى الحمام، حيث كان له خصوم فى خراسان، ربما اقدموا على قتله أو أن المأمون هو الذى أمر بقلته، المهم أن هناك يداً خفية قد عملت على إزاحته.
ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين): وفيات الأعيان وأبناء أنباء الزمان، ج٣ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٤٩م ص٢١٠.

(٢) تشوجور أوتشجور: نوع من الألحان القروية للآلات الموسيقية ذات الأوتار حسبما ذكر المؤلف.

وذات ليلة كان هناك احتفال على متن السفينة تنفق عائداته فى مصارف الخير، إلا إذا اطلع شخص على أجزاء السفينة، وطلبوا منى أن أشاركهم، وكان كل شخص يتظاهر بالفضل الذى يمتلكه، ولا شك أننى ذهبت مرة واحدة حيث لم يكن فضلى قابلاً لأن أتظاهر به فى المجلس.

غداً سنصل إلى "هونولولو"، وقد بدا الطقس مظلماً، وظهرت النيران من بعيد فى وسط الماء، ولم نر علامة لانبعاث النيران فى تلك المناطق، وكنا منشغلين لفترة ما فى التنزه، وفى منتصف الليل عبرنا من أمام تلك النيران، وكان يوجد فناء مربع أو مستطيل الشكل كمحط للقوافل وقد اشتعلت النيران من جنبات حجراته الأربع.

جزر هاواى:

فى يوم السبت الموافق السادس عشر من يناير وصلنا إلى جزر "هاواى"[١]، وتوقفنا فى "هونولولو"[٢] ، وبحسابنا كان يجب أن يكون يوم الأحد، ولكن فى الجولة حول الأرض أثناء العبور من درجة ١٨٠ من "جرينويتش" كانوا قد قللوا من التقويم يوماً، وفى السير من الغرب إلى الشرق فى كل درجة تطوى، تشرق الشمس كل أربع دقائق بصورة أسرع، وفى خلال ٣٦٠ درجة تكتمل دائرة ٢٤ ساعة، ويصلون إلى مقصدهم فى النهار المبكر، ويضيفونه إلى النهار، وبحساب التقويم كان يجب الوصول إلى هونولولو فى أحد عشر يوماً، وكنا قد وصلنا فى عشرة أيام.

---

(١) الاسم السابق لجزر هاواى زاندويتش.

(٢) هونولولو: ميناء فى ولاية هاواى، ومركز المحافظة بنفس الاسم فى شرق المحيط الهادى، جزء من مجمع (مجموعة) جزر فى بلينيزى، واليوم هى الولاية الخمسين فى الولايات المتحدة وذلك منذ عام ١٩٥٩م بعد الاسكا بشهرين ونصف تقريبا، وتبلغ مساحتها مع جزرها السبع الأخرى ما يقرب من ١٦٠٠٠كم٢، والجزر وهى من الغرب إلى الشرق هاواى، ماوى، كاهولاوى، مولوكاى، لاناى، واهو، كاواى، نيهاو. ويعد أكثر سكانها من أصل يابانى ودول جنوب شرق آسيا.
جوزيف رعد (دكتور): العالم بين يديك، ص٣٥٨.

وفى "هونولولو" كان جزء من السفينة بحاجة إلى الإصلاح، وزاد التوقف لمدة من الوقت بلغت سبع ساعات، وفى الليل كان يجب الوقوف فى الجزيرة، والتحرك فى اليوم التالى، وذهبنا إلى فندق "يانج"، وهو فندق كبير وكان سطحه مزداناً فى الطابق الثالث بين العمارات، وزرعت الأشجار على الجنبات، وتذكرنا سميراميس[1] من حدائق بابل المعلقة، وهطلت علينا قطرات الأمطار، وفى ذلك الوقت من الشتاء هطلت الأمطار، وارتفعت المياه إلى ٤٠سم وغطت الثوب وشعرنا بضيق التنفس فى ذلك الطقس الرطب.

وقد احتفل السيد تفت على شرفه بإحدى القاعات الواسعة على جانب من سطح السفينة، وأعد مجلس رقص فى ذلك الطقس، ولم أستطع الدخول إلى ذلك المجلس، وذهبنا إلى أماكننا للنوم، إلا أننا لم ننم حتى الصباح، قلنا ماذا سيكون الطقس فى الصيف ؟ قيل لن يزيد عن الـ٤٥ درجة.

كانت السفينة قد وصلت إلى الميناء فى تمام الساعة التاسعة صباحاً، ويجب أن تتوقف لمدة ١٢ ساعة بصورة رسمية، وقبل الظهر استقلينا عربة كنا قد شاهدنا القليل مثلها فى طهران، وكان مظهر السائق أفضل من سائقينا، مضت ساعة على جولتنا فى حديقة المدينة، الأشجار هنا كلها من النوع الذى ينمو فى المناطق الحارة كالبلح وجوز الهند وأنواع أخرى من ضمنها أشجار التين البنغالى حيث تنمو جذور النباتات من فروعه وتصل إلى أعماق الأرض لمسافة ذراعين أو ثلاثة أذرع، وتستقر فى الأرض، ويتواجد الجذر تحت الفرع بحيث كلما يطول لا ينكسر، كما يوجد حول كل شجرة فضاء، وفى مكان أمام العمارة نظر سائق العربة، وقال: هذا بيتى اسمحوا لى أن أصل لحظة إليه، قال الأتابك: سيخبر أهله بوجودنا، وتنزهنا نحن وقد أخبر أهله

---

(١) سميراميس: ملكة الجمال وعالمة آشور، ومصممة مدينة بابل والتى ظهرت بعد طول الحكم فى صورة حمامة واختفت، ومنذ ذلك الوقت أصبحت إله يعبد، وقد نسبوا إليها العديد من صفات عشتر الإله الكبير للدين السومرى، ومن المحتمل أن تكون اسطورة الحياة المتعلقة بسامورامات الملكة مع نفوذ آشور، وقد شيد زوجها الحدائق المعلقة من أجلها.
محمد معين: فرهنك فارسى، جلد ينجم (اعلام) ص٨٠٢.

بالفعل حتى أنهم نظروا إلينا من خلف النافذة، وكانت القبعة الإيرانية تعرف بنا فى كل مكان.

كان يجب التوقف لبرهة فى الجزيرة على حد قول الألمان، وبعد الغداء ذهبنا للتنزه فى مصنع صناعة السكر، واتجه السيد تفت وحاكم هونولولو لنفس المكان، وتمر خطوط السكك الحديدية بجوار ساحل البحر وتصل إلى الوادى، والمصنع عبارة عن بناء شاهق الارتفاع، قاعة فى ظهر قاعة، ويصبون قصب السكر من أحد الجوانب من خلال أقماع لسكب السوائل التى تصبح معصورة، وتصبح تحت المكبس، وتعصر، ويتكون قوامها السميك من خلال سكبها من إناء إلى آخر، وفى النهاية يخرج السكر مسكوباً، الأوانى موضوعة والأوعية معدة، ويد الصنعة فى العمل.

وأعدت كافة الأجهزة الفنية فى هذه الجزيرة فى ظل قصب السكر، وكان من جملة ذلك منظر غاية فى الارتفاع يشكل ضلعاً يرتفع مع السكك الحديدية، وقد جهزوه ليسهل نقل السكر، وكان منظر المدينة والصحراء جديراً بالمشاهدة.

ومن الفنون الموجودة على متن السفينة أثناء توقفها نزول السباحين إلى الماء وغوصهم فيه، وفى أطراف السفينة يلقون بالعملة فى الماء من أحد الجوانب، ويعبر لاعبون من الجهة الأخرى نزولاً فى الماء ويمرون من أسفل السفينة ليمسكوا بالعملة فى أيديهم، وتلمع العملة فى خضم المحيط، وقطرها الصغير فى الماء مع الضياء اللامع. وقد جاء رجل من الجزيرة المجاورة إلى هونولولو، فجال خيالنا فيه، واصطحبنا إلى منزله، وأحضر ثلاث نسخ من ترجمة الخيام إلى اللغة الإنجليزية وأعطاها إلينا وكانت نسختان منها مصورة، وتنتشر رباعيات الخيام فى أوربا الشيوعية، وتوجد تراجم عديدة لها إلى جميع اللغات لأن بيان الخيام يتفق مع عقائد الماديين، ويبدو معارضاً فى

الصورة للأفكار الدينية، وليس فيه غموض العبارات كما أن استعاراته لطيفة وتشبيهاته تتبادر إلى الذهن:

رباعية الخيام:

- لقد كان وعاء الشراب عاشق ولهان مثلي، وكان مقيداً بضفيرة الحبيب. (شعر)

- وهذا العقد الذي تراه في رقبته، بمثابة يد على رقبة الحبيب.[1]

- بقرة في السماء واسمها بروين، وبقرة أخرى نائمة تحت الأرض. (شعر)

- افتح عين عقلك مثل أهل اليقين، انظر أسفل وأعلى البقرتين في الدنيا تجد حماراً.[2]

وحقيقة أخرى هى أن كنايات الخيام تتخذ مكان الشىء سريعاً فى العبارات الخارجة، وتمنح لطفها لكل اللغات، كتبت برقية من قبل الأتابك إلى معير من هو السندباد البحرى[3] ؟ وعلم أن له سابقة.

أرسل الحاكم العسكرى والفرقة الموسيقية إلى السفينة، والتفت رجل طويل القامة قوى حسن الطلعة يذهب إلى أمريكا مع زوجته وطفل وله رفيق

---

(١) عمر خيام نيشابورى: رباعيات نادرة أيام خيام، تصحيح محمد زمان فراست، تهران ١٣٧٧هـ.ش، ص٤٢.

(٢) صادق هدايت: مقدمه اى بر رباعيات خيام، تهران ١٣٧٧ هـ.ش، ص٥٨.

(٣) لقد كان السندباد اسم كتاب وقد نسبوه إلى ابن كشتاسب، صدق الأزرقى حين قال:
قبل أن افتح عينى من النوم الجميل، يأخذنى فى البيت إلى طلب السحر.
أحسب أمامه من حافظة الكذب، حديث الشاهنامة وأمثال سندباد.
يقول سعدى:
لأن هذه الحقيقة جائت فى سندباد جميلة، لأن العشق نار يا ابن رع النصيحة.
سندباد نامة: قصة قديمة وتعتبر من موضوعات سندباد الحكيم الهندى، وقد ترجمت فى البداية إلى الفارسية بناء على أوامر من نوح بن منصور السامانى بواسطة الخواجة العميد أبو الفوارس قناوزى، وقد ترجمت إلى العربية أيضاً باسم "حكاية الملك المتوج مع امرأة الملك والحكيم السندباد والسبع وزراء وحكاية كل واحد متهم". وقد زين ظهيرى السمرقندى ترجمة القناوزى بالكتابة من جديد وبالعبارات والصناعات اللفظية، وقد نظم الرودكى سندباد نامه شعراً، كما نظمها من بعده الشاعر الأزرقى شعراً أيضاً.
زهراى خانلرى (كيا): فرهنك ادبيات فارسى درى، ص٢٧٩.

حيث كان قاضياً فى الفلبين، يسير معه فى أغلب الأوقات على سطح السفينة، وله حقوق فى حكومة الفلبين تعادل سبعة عشر ألف دولاراً، وكان معروفاً بحسن كفاءته، وقد طلبوه للعمل فى وزارة الدفاع، وأغلب الظن أنه سيصل إلى رئاسة الجمهورية.

وجاءت مجموعة مكونة من امرأة ورجل وطفل من هونولولو إلى السفينة كانوا فى طريقهم إلى أمريكا، وحجزت مائدة بها مائتان وأربعة كرسى لتناول طعام الغداء، يحملون غداء السيد تفت والأتابك كى يتناولاه فى كبائنهم.

وكان ضمن المسافرين امرأة ورجل، من أصل ألمانى مقيمين فى سان فرانسيسكو ويديران مصنعاً للمخللات وصناعة المربى، وكان يتم تناول نماذج منهما على المائدة، وفاكهة تلك المناطق مشهود لها، وتعرفنا على السيد، سألنا عن مقصدنا، قلت: نذهب إلى مكة، قال: لقد ذهبت إلى مكة، لم أفهم، وعرف أن الجماعة التى تقيم فى أمريكا قد اصطنعت فيما بينها المذاهب: السنى، والدهرى، والبهائى، وكان لهم نواد فى المدن الكبيرة يجتمعون فيها من أجل التسلية وقضاء الليل وأسموها بأسماء مثل مكة، والمدينة، ومنى، وعرفات وغير ذلك، وهو من نادى مكة.

وفى أثناء الحديث اختفت دلاية قيد ساعته من داخل سرواله فصرت باحثاً عنها وكان لها صورة مخصوصة، فقال: إنها رمز النادى، وكان رجل من أعضاء ذلك النادى على متن السفينة، خفت أن يعرفنى ويطلب مقابلتى، رأيت الحق مع سعدى إذ يقول: "يبقى قيراطان من الذهب كحمار فى الوحل". وأكثر عاداتهم اليوم انتشاراً هى شرب الخمر ولعب القمار فى النوادى — "يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم"[1]، هؤلاء القوم هم بنوا إسرائيل، يطلبون العجل الذى يرقص من أجلهم أو يرقصون مثل عجلهم.

(١) قرآن كريم جزء من آية ١٦٧ سورة (٣) آل عمران.

سان فرانسيسكو:

فى يوم السبت الموافق الخامس من ذى القعدة سأصل إلى سان فرانسيسكو، وفى الليل كان لدينا نشاط وكنا نعد الساعات، قبل عشرة أيام وبعد سبعة أيام نكون فوق الماء من هونولولو، وانقطع اليابس عن النظر، ومن حسن الحظ كان البحر متوافق معنا، وبدا طوال المدة سطحه هادئ الملمس وأمواجه ناعمة وكانت تصطدم بجدار السفينة وتتبعثر من كل جانب، ولم يكن لنا حاجة إلى ريح الشمال[1] من دولة البخار.

وفى الساعة السابعة أطل الصباح النادى برأسه من خلف الجبال المطلة على الساحل، وأصبح سطح البحر مثل الصحراء الملونة تحت القبة الرمادية اللون، كأن الطقس مطبوع بلون البوقلمون[2] أو الديباج المزركش، ويظهر لحظة بلحظة بشكل ملون، وتلقى الشمس بأشعتها الذهبية على الأمواج المليئة بالضياء فى النقاب الأصفر والأحمر، وكان السيد تفت على عجلة من أمره، ووطأت قدمه اليابس بسرعة، وكانت سفينة خاصة قد أعدت من أجله، ونقل إليها دون إجراء المراسم الصحية والجمركية، وجاء مفجم الدولة فى استقباله من "واشنطن"، ويتم وصل العشق من بعيد.

بعد إتمام المراسم جاء إلى السفينة، وقام بتقبيل الأرض، يجب على السفينة أن تلف حتى تصل إلى اليابسة، وسعد الأتابك، ويرى انحناء الرأس تعظيما أمامه، توجد مسافة بين المدينة والبحر، ونزلنا بفندق "بالاس"، أمامه ميدان فخيم يعرفه الإنجليز، يعد من معالم الولاية، وذهبنا بالعربة إلى الساحل بعد تناول طعام الغداء بالفندق، وكنا على مسافة من الحديقة المزدانة

---

(١) باد شرطة: ريح الشمال، الريح التى توافق الباخرة فى الوصول لهدفها، يقول حافظ فى الشطرة الأولى: "نحن جلساء الباخرة يا ريح الشمال، انهضى" مع التصرف.
حافظ شيرازى: ديوان حافظ، تصحيح محمد قزوينى وقاسم غنى، ص١٦.

(٢) البوقلمون: نوع من الديباج يتغير لونه فى كل لحظة مثل جلباسه والسمندر وهو اسم طائر يتميز بتعدد ألوانه.
حبيب الله آموزكار: فرهنك آموزكار، تهران ١٣٣٠ هـ.ش ص١٥١.

والصافية، وترتفع الأرض عن سطح المياه لمسافة ستين أو سبعين ذراعاً ويمثل الساحل جداراً، ويطل "كليف هاوس" وهو بيت للضيافة على ساحل البحر، ومن إيوان الفندق يشاهد الشخص الماء تحت الأقدام، وتخرج قطعة خشب عريضة مسطحة من وسط الصخور الكبيرة والصغيرة برأسها من الماء، متكئ على كل قطعة سبع بحر وتصل الشوارب حتى شحمة أذنه، الأمواج لها ضوضاء، وتتبعثر عند اصطدامها بالصخور، وتمتعنا بمشاهدة هذا المشهد لعدة ساعات، وخلا المكان من الأصدقاء، وللأسف يحل الليل، ويحرم القلب من النزهة وعدنا إلى الفندق.

توقفنا فى "سان فرانسيسكو" لمدة يومين، ويوجد طريقان من هنا إلى نيويورك، الطريق الجنوبى والطريق الشمالى، وتمت الإشادة بنظافة الطريق الجنوبى، والغابات العتيقة والصحراوات المبهرة، ويمر طريق الشمال من شيكاغو[1] حيث تشاهد شلالات نياجرا، وكان "سماع صوت الطبول له مذاق من بعيد"[2] وفضل الأتابك هذا الطريق.

وكان أغلبه غير مستو وجاف وبلا أشجار، مثل التلال الواقعة على أطراف طهران، وتوجد أشجار الصنوبر فى غابات الطريق الجنوبى والتى تتداخل فى قطر تلك البوابة، وتم العبور منها بالعربة.

يوم ٢٤ يناير:

تحركنا من سان فرانسيسكو فى البداية بالسفينة إلى الطرف الآخر من البوغاز ومن هناك ركبنا قطار السكك الحديدية، وليس لدينا أكثر من

---

(١) جيكاكو: هى نفسها شيكاغو وبالفارسية شيكاكو أيضاً.
تعد ثانى مدينة فى الولايات المتحدة بعد نيويورك، وقد احتفظت باسمها الهندى القديم، وتشتهر بأن بها أمهر وأسرع بوليس للقبض على المجرمين.
جوزيف رعد (دكتور): العالم بين يديك، ص٢٦٦.

(٢) شطرة من رباعية منسوبة لعمر الخيام وهى مثل شائع أيضاً:
صادق هدايت: مقدمه اى بر رباعيات خيام، ص٢٩.
وأيضاً على أكبر دهخدا: أمثال وحكم، جلد أول، ص٧٠.

خمسة أيام للتوقف فى أمريكا، عوضتنا عن ظلم الأيام التى قضيناها فى "تين سين"، وذهبنا قهراً إلى "شنغهاى"، وبسبب خروج القطار عن الجادة، ضاع الوقت لمدة ١٢ ساعة أيضًا فى جهنم فى وادى بلا صفاء، ووصلتنا هنا جريدة الصباح مكتوب فيها "اليوم ذهب الخان فى عربة من سان فرانسيسكو".

وبعد مضى خمس ساعات من الليل وصلنا إلى شيكاغو، وذهبنا إلى أحد الفنادق بالمدينة، اسمه فندق وقد كانت ثلاثة فنادق فجعلوها فندقاً واحداً، وجعلوا كل قسم يحتوى على ألفين حجرة، وبينها فراغ بحيث يحتل سقفها عدة طوابق إلى أسفل، وفى الحقيقة لقد ألقوا فى الحديقة التى فى وسط الفندق نافورات بألوان مضيئة، هذه الحياة التى تولد عدم الرضاء ولا يتأثر بها القلب أيضاً.

- بقدر ما يجب المشاهدة وكف النفس، وحبس الرغبة فى قلبه. (شعر)

إن اختلاف الحياة فى أوربا والولايات المتحدة الأمريكية هو التباين بين الجنة والنار، على حد قول ناصر خسرو:

- لو تبلغ يدى الفلك المستدير، أسأله كيف هذا ؟ وكيف ذاك ؟ (شعر)

- اعطى واحداً مائة صنف من النغمة، وواحداً خبز الشعير المخلوط بالدم.[1]

علا الصياح فى كل مكان، وصارت الخسارة ناتجة عن أحوال غير مستحق أعطيت واحداً حنظل فى الفم، وواحداً السكر فى الكأس، وقد أدت هاتان الحياتان المختلفتان إلى الحسد، وصارت الستارة خرقة ثم زالت بلا حيلة، ويفضلون التصوف الآن فى المشرق، ويسعدون بشعر حافظ:

(١) ناصر خسرو: ديوان أشعار ناصر خسرو، به كوشش مهدى سهيلى، ص٣٩١.

- عندما قسموا الرزق بين الأزل دون حضورنا، فلو أن القليل غير مرض فلا تأخذه.[1] (شعر)

ولا تمضى الحياة دون مرارة، ويزيل الزهد المرارة من الأرض، والحياة مستورة فى المشرق ويكون الاعتقاد بالقسمة والنصيب حتى الدرجة المطلوبة، فى أوربا يوجد كر وفر، وكذلك التجمل وسرج الجواد الحسود وتتصادم مصالح المفسدين العنيدين الذين يحققون المنافع المادية لصالحهم من الاضطراب لا لصالح القوم، نحن نقول إن حياة العامة تتخلف عن ركب الجماعات الخاصة، ومحنة السود فى قوة الجماعة الحريصة على جمع المال والجاه، ولا شك أنه يجب أن يؤخذ منهم حسب القانون "خذ منهم الصدقة"، التى تظهر عوائدها بالطرق المختلفة، لكن طرق كؤوس السكارى قد زاد الفساد بصورة أكبر، ولا يصلحون أحوال الفقراء والبؤساء.

محرر صحفى بالجريدة:

لم تصدق سيدة صحفية رؤية الأتابك وسارت عن يساره من العربة حتى الفندق، وكانت على درجة فائقة من الجمال، وفى انحناءة أهدابها كانت تسير فى وقار، وكانت تقتفى أثرنا فى كمال سائلة أيانا: من أنتم ؟ من أين أتيتم؟ إلى أين تذهبون؟ ما هدفكم؟ من أنتم؟ ولم تتركنا عقب كل سؤال، حتى حضرت على رأس السفرة، ونظرت إلى أحوالنا، وكانت تكتب شيئاً من الحوار، وتضعه فى جيبها.

كان المسرح قد احترق قبل وصولنا على شيكاغو بثلاث ليالى، وكان قد أصيب ثلاثمائة شخص نتيجة الحريق، وتأسفنا على ذلك بدرجة كبيرة.

فى الليل تحركنا من شيكاغو، ولم تكن هناك فرصة للتوقف، وكان التشوق إلى النزهة فى نياجرا قد منع الأتابك من المضى فى الطريق،

(١) بيت شعر لحافظ الشيرازى مع التصرف:
حافظ شيرازى: ديوان حافظ، تصحيح محمد قزوينى وقاسم غنى، ص٢١١.

وكان الطقس شديد البرودة، ولم ير شئ سوى الكرات الثلجية، وفى الليل وصلنا إلى "بفالو"، وتناولنا طعام العشاء وجئنا إلى نياجرا، ونزلنا فى "فندق امبريال"، وفى الصباح أسرعنا من أجل التنزه فى مكان الشلال، لا نعرف طريقا للضيف، كما أنه ليست هناك نزهة فى الشتاء، "رب مشهور لا أصل له"، نعم تنهمر مياه غزيرة من سطح الهضبة إلى الوادى، ويجرى نهر "سان لورانس" فى هذا المكان فى وادى عميق يصل إلى حوالى من عشرين إلى ثلاثين ذراعاً، ويجوز التنزه من أسفل المكان، لكننا شاهدناه من أعلى، ولم تعطنا الثلوج والكرات الثلجية فرصة كى نذهب إلى أسفل المكان من خلال الدرج الذى كان متواجداً، وكان الشىء الجدير بالمشاهدة أيضًا هو الأشجار، التى تبدو كأنها مصنوعة هى الأخرى من الكرات الثلجية.

وفى الساعة التاسعة صباحاً كان علينا أن نكون مستعدين فى العربة وذلك للسفر إلى نيويورك، ويمر الطريق من البحيرة، وتوجد سفن خاصة من أجل تكسير الثلوج، وضمناً فهى تحمل القطار أيضاً إلى الجانب الآخر.

وفى نيويورك يوجد فندق اسمه "والدرف" عبارة عن ثمانية أو تسعة فنادق داخل بعضها على غرار فندق شيكاغو، مكون من ثمانية طوابق وهو فندق خمسة نجوم، وفى الليل وصلنا إلى نيويورك، وفى الصباح التالى كان يجب السفر على متن السفينة المتجهة إلى أوربا، وإلا فسوف لا نلحق بموسم الحج، وطرأ بفكرنا لبرهة أنه فى حال بقائنا فسنحج العام القادم، ولعنا الشيطان وصممنا على السفر على أن نتحرك بأنفسنا، وكانت السفينة قد تحركت بعد مضى خمس عشرة دقيقة من الساعة، وحسبما هو مخطط كانت السفينة قد غادرت الميناء، والمرسى، وفى خلال عدة ساعات وصل خبر هذا التأخير فى الجريدة، لكن عمل السفينة لم يكن كاملاً، ولم نكن على علم بسبب توقفنا.

كانت جولتنا فى نيويورك من خلال نزهة من "فندق كلان" إلى الميناء مثلما فهمنا عن الولايات المتحدة الأمريكية وهناك حيث الأسعار خيالية،

الازدحام غير عادى، كانت هناك ضوضاء فى المعابر، العجلة الزائدة فى كل الأعمال، كما أن السعى أربع وعشرون ساعة وراء المال.

وكنت قد شبهت الحياة الأوربية بالنملة التى يكون مرامها التفرد بجمع المال، بتلك المنفعة القليلة وضرر الجماعة، ويمكن تشبيه حياة أمريكا بالنملة الراكضة حيث تكون فيها العجلة والسرعة أكثر، وكان ارتفاع العمارات بالقدر الذى تسقط معه العمامة من الرأس عند التنزه ومشاهدة الارتفاعات الشاهقة، وتؤثر همهمة وسائل النقل فى الأذن، وللعيشة فى المدن الأمريكية الكبرى يجب أن يكون الإنسان تاجراً وصاحب أعصاب خاصة، كما تشاهد العمارات حتى أربعة وخمسين طابقاً، وسمعنا بعد ذلك أنها تتجاوز المائة وتسمى بناطحات السحاب.

وقد استغرق السفر عبر المحيط الأطلنطى ثمانية أيام، ولم يكن البحر مقلقاً، فمضى الوقت طيباً، ولم تكن السفن كبيرة الحجم مثل السفن التى تمر بالمحيط (الهادىء)، لكنها نظيفة، ولم تسر بسرعة، وفى عصر يوم السادس من فبراير، مررنا بمحاذاة الميناء الإنجليزى المسمى "بليموس" ، وفى الساعة السابعة بدا نور المصابيح فى ميناء "شاربورج"[1] الذى كان يضرب فى الأفق من بعيد.

الوصول إلى أرض أوربا:

وصلنا إلى الميناء فى تمام الساعة الثامنة، وكان قد جاء لاستقبالنا كل من يمين السلطنة، وقوام السلطنة، وعبد الله ميرزا، وحسنعلى خان (ابن أخى) وفى صباح يوم السابع كنا فى باريس، وكان أول خبر سمعناه فى "شاربورج" هجوم اليابان على برت آرطور ومر بخاطرى شعر خان شوكت الذى يقول فيه:

- لو أن زاهداً جاء من فارس إلى باريس، ولو يصبح الجميع سلمان. (شعر)

---

(١) بيت شعر لحافظ الشيرازى مع التصرف:
حافظ شيرازى: ديوان حافظ، تصحيح محمد قزوينى وقاسم غنى، ص٢١١.

وعلى حد قول سعدى ولكن فى يومين، أين ومتى؟ متى تبلغ يدى تلابيب من؟ "انظر واعبر ولا تدع الخاطر لأحد قط".[١] (شعر)

كان قوم السلطنة رجلاً من الأرمن المهاجرين مفتوح اليد والقلب، ويتميز بحسن الاستقبال، وليس له عبوس "ملكم خان"، فى اليوم الأول بناء على دعوة منه ذهبنا إلى "بوا"[٢] ، وفى الليل ذهبنا إلى السيرك، وتناولنا طعام الغداء بناء على دعوة من يمين السلطنة وغداء آخر بناء على دعوة قوام السلطنة، وفى الليل ذهبنا إلى أحد المسارح لمشاهدة إحدى المسرحيات للممثلة الفرنسية الشهيرة "سارا بيرنارد" والمسماة "دام أكاميليا" والتى تعد من أعمالها الشهيرة وكانت تمثل على خشبة المسرح بصورة طبيعية وبطريقة جيدة، وهذه القصة بشأن حالة الاحتضار، ومضى الليل فى جولة بـ "فولى برجر".[٣]

وفى يوم الأربعاء الموافق العاشر اتجهنا فى تمام الساعة الثانية من بعد الظهر ناحية "برنديزى" الميناء الموجود فى جنوب إيطاليا، وفى "اورليون" بدت هناك بعض الصعوبات مرة واحدة، وكان للمفتشين هناك غلظة فى التعامل تجاهنا، وبدا ذلك غريباً لنظرنا بعد المقارنة بالأدب الصينى واليابانى، حين رأينا وجوههم الباسمة، ويمر الطريق من "طوزن"، و"ميلانو"، و"بولنى"، و"آنكن"، و"توجيا"، وكان الطقس بارداً أثناء عبورنا البحر الأبيض المتوسط وأحياناً يكون حاراً، وهناك جزيرة تسمى "كرفو" مكان هروب "جيم الثانى" الذى قيل إن له معشوقة كما شوهدت جزيرة كريت من بعيد.

---

(١) الشطرة الثانية لبيت سعدى، والشطرة الأولى هى: "لو يتحقق لك ألف بديع للجمال". سعدى شيرازى: كليات سعدى (غزليات) باهتمام محمد على فروغى، ص٢٨.

(٢) المقصود "بوآد بولنى" وتقع بالقرب من باريس.

(٣) من المسارح الشهيرة بباريس.

الإسكندرية:

فى يوم الاثنين الموافق الثامن والعشرين من ذى القعدة: قابل أرفع الدولة فى الإسكندرية رجلاً دمث الخلق وعلى درجة رفيعة من الأدب، وكان هذا الرجل قد قام بتأليف رسالة فى النظم والنثر فى طول العمر وقد ترجمها إلى كل اللغات ونشرها.

وفى الصباح قمنا بنزهة فى المدينة، وفى وقت العصر كنا مبتهجين بالتجول على شاطئ البحر، وكان كل من الماء المالح والماء العذب على درجة من النقاء والصفاء، وفى الفرصة القليلة التى أتيحت لنا، قمنا بزيارة للمتحف، وكان سعر الدخول قرشين[1] ، هذا المتحف كان جامعاً للنفائس القديمة، وقد تبقى به أنواع مما نهبه نابليون بونابرت، وفى التحرك للسفر إلى القاهرة كانوا قد خصصوا إحدى العربات الملحقة بالقطار من أجل الأتابك وحضرت فرقة موسيقية للقيام بعمل التشريفات. كانت الأماكن الخضراء تغطى الجانب الأيمن من مجرى النيل والنماء كثيف، أما الجانب الأيسر فكان عبارة عن صحراء جرداء، وفى الساعة الثالثة والنصف من بعد الظهيرة نزلنا إلى المدينة وقد استقبلنا بحفاوة بالغة.

وكان أرفع الدولة قد أقام فى قصر الجزيرة وهو أحد القباب السبع. والتى اشترتها شركة "واجنلى"، وهو عبارة عن قصر مزدان بالأثاث الملوكى الفاخر، وصعدنا إلى شرفة بالدور العلوى بالقصر مع رجل يدعى عبد المهدى، وكان يتحدث عن الأوضاع الداخلية فى مصر، ويوجد بداخل أبنية القصر ما يقرب من أربعمائة غرفة يلزمها على الأقل ثمانمائة امرأة للخدمات الداخلية، وقد اشترت الشركة القصر بمبلغ ثمانين ألف ليرة، ويعتبر على الأقل مبلغ كبير يساوى الضعفين. وكان إسماعيل باشا قد أنشأ بهذا القصر سبعة مصانع للنسيج، ومن التحف التى شوهدت بداخل الفندق مزهرية مصنوعة من

---

(١) القرش المصكوك هو العملة الرائجة والمتداولة فى الدول العربية.

حجر يعرف باسم "الألبستر" وهو عبارة عن حجر صلد من نوع يعرف بالسماق، ويقال إنه متواجد فى مصر بكميات قليلة، وتعد المزهرية تحفة نادرة، وطالت إقامتنا بالقاهرة لمدة ثلاثة أيام تنزهنا خلالها فى عدة أماكن.

السادس عشر من فبراير:

قمنا بزيارة لمسجد رأس الحسين، وشاهدنا مسجد محمد على باشا المصنوع من حجر المرمر الأحمر الملون المزخرف، وشاهدنا أيضاً الأهرامات وأبى الهول وهو عبارة عن جسم أسد عظيم برأس وصدر امرأة، وتخرج رأسه من التراب من أعلى سفح جبل، وقد نحت جزء من وجهه، وهو موجود على أطراف المدينة.

- **أنت لا ترى تراب مصر البهيج فهو نفس تراب مصر، ولكنه على رأس فرعون والجنود. (شعر)**
- **فهذه نفس عين شمس الدنيا ساطعة، والتى كانت تضئ قبر عاد وثمود.** [1]

رأينا تراب مصر وأيضاً قبر عاد وثمود، وقد صمم مسجد محمد على باشا على طراز مسجد آيا صوفيا باسطنبول من حجر المرمر المخصوص المصنوع من الألبستر، أما ثلثى إزار[2] جدار المسجد فهو مصنوع من الحجر بحيث لا تناله اليد، وقد أخذت قطعة من هذا الحجر معى كتذكار، وكان المسجد المقابل له هو مسجد السلطان حسن، وقد بقى ناقص الترميم، ويقع قبر عثمان باشا على أحد أطراف هذا المسجد، وكان يظهر من إيوان مسجد المدينة. ومن هناك تبدو الأهرامات واضحة للعيان، وقد قام نابليون الأول "عليه ما عليه" بإطلاق نيران المدافع من قلعة صلاح الدين على مسجد السلطان حسن

(١) شعر للشاعر سعدى الشيرازى.
(٢) الإزار: هو ارتفاع جدار البناء من الأرض حتى ارتفاع متر.

فى نهاية المطاف، وتبقى للآن بعض آثار طلقات المدافع واضحة على جدران المسجد.

- **أفعالك السيئة قرض أمام الدهر، فى كل عصر سيشهد عليها.** (شعر) [1]

الأربعاء الموافق الأول من ذى القعدة:

نزل الأتابك ضيفاً فى قصر الخديوى بدعوة على مأدبة العشاء، وبعد تناول العشاء تم تناول الشاى بشرفة فى إحدى نواحى القصر، قامت مجموعة من المطربين البارعين بغناء قصص عرب أهل الحجاز فى مجلس الطرب على أنغام منعشة للقلوب، وكان المدعوون يتراقصون هبوطا وصعودا، وأرهقنا مسامعنا لنغماتهم المثيرة للقلب، وأعيننا مشدودة نحو المنظر بجلاء.

وكان صاحب السمو السلطان "عباس حلمى" رجلاً رؤوفاً ورحيماً، وقد قضى الجميع ليلة فى "فندق بال" به أرائك للجلوس عليها، وشاركنا الحديث جماعة من المسلمين، وكانت المجالس الأوروبية فى مداولات بمصر فى ذلك الوقت، وينعكس وجه قمر الهوى والهوس على عصير الكرم، وكان ذلك بالطبع مثل ذبابة وطأت بقدميها أرض مصر الكبيرة، ويتراقص كل رجل مع امرأة بضفائرهما الشعثة، ولا يمر قدم الشخص دون الدخول فى هذه الجلسات.

- **قال العالم: استر طريقك وذهبك، حتى لا يغير سوء الفكر على رأسك.** (شعر)
- **فلو يعلم اللص الطريق إلى ذهبك، يبتلى فكرك دائماً بالحفاظ عليه.**

---

(١) بيت من نظم المؤلف.
مهديقلى هدايت: سفر نامة مكة، ص٢٤٣.

- ولو يعلم المدعى أين طريقك فهو دائماً يلقى حجراً فى هذا الطريق.
- أيها السيد أنت تصدق كلا الاثنين، لكن قد قل المساب فى الشرف.[1]

يوم الجمعة الموافق الأول من ذى الحجة:

اتجهنا صوب مدينة السويس[2] ، ويرافقنا من هنا المطوف الحاج على، وسير الطريق بجوار ضفاف النيل بصفاء، ويمر عبر الصحراء نابعاً من حوض النيل، ولو لم يكن يتواجد خط السكك الحديدية لدخلنا فى زمرة "يتيهون فى الأرض"[3] ، لله الحمد على عدم تأسينا بالفاسقين، وكنا ننعم بنعمة "وأنزلنا عليهم المن والسلوى"[4] وكنا نسمع بآذان عقولنا إشارة إلى الآية الكريمة "وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى"[5] ، وكنا نهتدى بأحاسيس قلوبنا ببركة هداية محمد صلى الله عليه وسلم سامعين نداء "فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى"[6] ، والنار التى نظر إليها موسى فى الجبل عبارة عن نور الإيمان الذى يضئ قلب المؤمن.

وتقع السويس فى الجزء السفلى من جبل الطور على ساحل الخليج، وهى عبارة عن مدينة صغيرة تمتد حتى ميناء سعيد (بور سعيد) عبر قناة السويس، وتوجد خلجان من هذا النوع يقال لها "خور"، ومن أعلى سفينة الخديوى التى تطوى البحر المسمى "ببحر القلزم" فى الطريق إلى جدة، تبدو مياه البحر المتوسط البيضاء اللون حمراء هنا، ولم تكن السفينة بالنظافة المطلوبة

(١) شعر من تأليف الكاتب، ومضمون البيت الإشارة إلى: "استر ذهبك وذهابك ومذهبك".
(٢) المقصود بالسويس مدينة فى جنوب ترعة بنفس الاسم فى مصر.
(٣) قرآن كريم جزء من سورة (٥) المائدة آية ٢٦.
(٤) قرآن كريم سورة (٧) الأعراف آية ١٦.
(٥) قرآن كريم سورة (٢٠) طه الآية ١٣.
(٦) قرآن كريم سورة (٢٠) طه آية ١٢.

وكانت أكبر من سفينة "نينجوتا" التى أقلتنا من برت آرطور إلى "تشيفو" حوالى ثمانية أو تسعة أضعاف ولا تبدو هناك نهاية

وكان مشرف الكبائن يدعى "سال آمانزه" يقوم بإعداد الطعام ويرافقنا إلى مكة وكذلك ربان السفينة المدعو "طاهر بك" رجل كامل وفى غاية الخلق الكريم. وفى مواجهة السفينة "لجحفة" وهى ميقات أهل الشام والعراق أحرمنا من هناك بناء على نصيحة من الحاج على، وخلعنا الملابس الشتوية وقد اغتسلنا وأحرمنا إن شاء الله، يقول ناصر خسرو:

- عندما كنت تريد ارتداء ملابس الإحرام، فأى نية قد جعلتها فى ذلك التحريم. (شعر)
- فأنت قد حرمت ذلك على نفسك بجملته، وكل ما هو دون الخالق القديم.[1]

القدوم إلى جدة:

الخامس من ذى الحجة:

وصلنا إلى جدة فى صباح الخامس من ذى الحجة، ورست السفينة على مسافة بعيدة من اليابس، وكانت هناك حاجة إلى القوارب، ووصلنا إلى جدة مثلما وصلنا إلى نجازاكى، ونقلنا إلى بيت عمر نصيف وكيل شريف مكة، وكانت العمارة مبنية من الحجارة وتتكون من ثلاثة طوابق، وأغلب العمارات فى جدة ومكة مصممة على نفس الطراز، وجاء قائم مقام على اليمنى لتحية الأتابك، وقابل محمد على ابن الحاج ميرزا حسين لارى وهو من التجار الإيرانيين، وكان والدى قد رآه من قبل، وحصل على مقلمة كهدية للذكرى منه.

---

(١) حكيم ناصر خسرو: ديوان أشعار ناصر خسرو، به كوشش مهدى سهيلى ص٢٥٩.

وفى جدة مكان جدير بالمشاهدة وهو عبارة عن قبر أظنه من الذهب كلا ولا، إنه قبر المرحومة حواء، قامتها ممتدة، ويبلغ طول القبر خمسون قدماً، وتوجد غرفة مبنية أعلى الرأس، وأخرى على وسطها ونصفها خرب متهدم، والقبر حالته رثة ومما يحزن أنه على الرغم من وجود كل هذا الذهب الذى يأتى إلى هذه الدولة، إلا أن هناك إهمال فى تشييد الأبنية، ولم تشاهد بسمة على الوجوه، ولا تقدير لمعجزة أو كرامة، وقيل إن هذا القبر يعتبر أثراً من الوسط إلى أعلى.

- هكذا لو أن الرفعة فى الإسلام يقولون لأنه موجود للغنى والفقير. (شعر)[1]

وقد أرسل شريف مكة عربة مع عشرين رجلاً بالدفوف حتى يكونوا فى استقبال الأتابك، كما سير الوالى أربعين رجلاً أيضاً.

السادس من ذى الحجة:

اتجهنا إلى مكة، وبعد الإحرام تورمت قدماى بينما تورمت قدما عبد الله بصورة أكثر، وأقدام الباقين بدرجة أقل، وتذمر من حذائه وجوربه قائلاً "أف متأوها"، وكان من الطبيعى هناك خلع النعال، واختار الأتابك محملاً، وسار ميرزا أحمد خان وباقى الرفقاء على مقربة من المحمل لينالوا الثواب، ورأيت صاحب منزل يمتلك عربة مناسبة "وأدرى بما فى البيت"، وجلسنا فيها مع فخامة السلطان شقيق أرفع الدولة.

والشكدف عبارة عن عربة واسعة وكبيرة تتمدد فيها الأقدام أثناء الجلوس، وهى أكثر راحة من العربة التى تجر، ولكن العربة ذات العجلات الأربع شئ أخر، والمكان فى منتصف الطريق الجديد، ويقال له "بهره" و"حده" أيضاً، وهو عامر بالماء المخزون، وأعلاه توجد غرفتان وضيعتان وأمامهما مبنى

(١) سعدى شيرازى: كليات سعدى (غزليات) باهتمام محمد على فروغى، ص٢٥.

فى وسطه هضبة أو مكان واسع عرضه ثلثى فرسخ تقريبا وطوله نفس الشىء يقع على أطراف الجبل لمسافة ما يقرب من مائتى إلى ثلاثمائة قدم. ويستحب الوضوء من ماء المسجد والصلاة فيه ركعتين، ولما كان الحفاظ على الروح واجباً، كان عند دخولنا من المستحب الجلوس فى الإيوان، وترى فى أطراف المسجد خيام سوداء، بحيث تتاح للأعراب فرصة للجلوس بداخلها، وفى الإيوان تحول الليل إلى نهار، وتحركت القافلة ومضت ساعة، وحدثت ضوضاء، أغار البدو، وسمعت أصوات لأسلحة نارية بعيداً عنا، والقافلة طويلة تبلغ حوالى الألف ذراع، ونسمع أصوات صليل سهام ولم نشاهدها تلقى، ولفت الأنظار تلك المراعى المرتفعة، وارتعد ركاب القافلة، وتمت مقاومة غارة البدو من قبل السلطان فى منطقة تسمى "بين النحرين"، وكانت خطة البدو فى الهجوم تتركز أساساً فى إمكانية نصب كمين للقافلة من الجانبين بحيث تلقى السهام من ناحية، فيحدث الاضطراب بين صفوفها، فينهال عليها الأعراب من الجانب الآخر، ويستولون على أمتعتهم ويفرون، فإذا حاول شخص الدفاع عن نفسه والمقاومة ينفذ الخنجر فى صدره، فتترك المرأة جريحة، والرجل مقتولاً فى مكانه ونقرأ:

- أين جمال الكعبة أيها الراعى، فقد متنا فى صحرائها. (شعر) [1]

وأحدق بنا الخطر قليلاً قليلاً، وتوقفت القافلة، ونزل ميرزا أحمد خان وخرج من المحمل ببطء، ونزلت أنا الآخر مع فخامته متحيرين، وهرولنا إلى تل قريب، والحاج قاسم اسم كان قد ارتبط بالقافلة من مصر كان معه بندقية وسلاح أبيض قد سلك الطريق إلى التل مع وثوق حضور "عند الامتحان يكرم الرجل أو يهان"، وكان يتعرض للبدو بمقاومتهم، والأتابك فى المحمل، وقال ميرزا أحمد خان، نختبئ فى التل، قلت ماذا نفعل فى هذه المصيبة مشيراً إلى المحمل، وكان هدفى من هذا أن أتكفل بنزول الأتابك هو الآخر، إن المحمل دليل الاحترام، وهو من أسباب ألم الرأس، وفى تلك الأثناء حدث نوع من

(١) سعدى شيرازى: كليات سعدى، باهتمام محمد على فروغى، ص١٧٩.

السكون والهدوء، فقطعنا الطريق عائدين، وطمأننا رئيس القافلة بشأن الطريق قائلاً: لا توجد أخطار أخرى.

قلت حصلت على رخصة من الشريف بأنه فى حالة وقوع أى خطر بالقرب من الأتابك أن أطلق النار، فأرسلت إليهم عدة مرات طالباً النصيحة فلم يستمعوا إلى نصيحتى، فأطلقوا النار على أحد أفراد القافلة، فأطلقت النار أنا الآخر على واحد من الأعراب، وعلموا أن هناك تصريح فى القافلة بإطلاق النار، ولم يحاولوا الاقتراب، وصار الأمر هكذا، ومضى وقت من الظهيرة، ووصلنا إلى الوادى بحيث كانت مدينة مكة تبدو على امتداد الطريق، وكان رجال الأمن قد اتخذوا مواقع لهم على جانب التلال، ومضت ثلاث ساعات بعد الظهيرة حتى بلغنا مكاناً آمنا، وكانت هناك غرفة مبنية بالطين كأعشاش الطيور مصنوعة من قصب الناى وسعف النخيل وفروع الأشجار يقال لها "قنقر النج" أو "قصر الخورنق"[1] وكان لابد أن تكون قوية البنيان، سرنا وأكلنا شيئاً، وتورمت قدماى بشدة وهى مكشوفة، وكانت المسافة من العربة حتى الظل تبلغ سبعة أقدام، واحترقت قدماى، والآن مضى ما يقرب من أربعين يوماً منذ أن بدأ الشتاء، ولبينا التلبية الأولى بعد دخول المغرب بساعتين، ولا نعرف إلى أى مدى يتفق ذلك مع مقصد ناصر خسرو الذى يقول:

- كنت تسمع نداء الحق فلبيت، هكذا أعطى الكليم (يقصد سيدنا موسى). [2]

"لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك"، نحن نكلم أنفسنا ولم نستطع أن نسحب من الماء، فماذا نحن إلى الكليم ؟

(١) قنقر، النك، مرغزار، سبزه وار، قصر خورنق، قصر أنشأه النعمان من أجل بهرامكور بالحيرة على شاطئ نهر الفرات حسبما ذكر المؤلف.

(٢) حكيم ناصر خسرو: ديوان أشعار ناصر خسرو، بكوشش مهدى سهيلى، ص٢٥٩.

مكـــة:

نزلنا فى منزل الشيخ على محمد محرر الشريف، حيث كان من أفضل منازل مكة[١] ، به حمام بأدشاش عديدة، ومبنى يشرف على الحمام خلفه غرفة تنقسم قسمين، قسم علوى تم تحديده واختياره كاستراحة للأتابك، وغرفة مدخلها على الجانب بها حمام بباب صغير يشرف على طريق ضيق لجناب القنصل ومرافقيه، ويلتقون بمعارفهم أمثال مجد الدولة، ومستعان السلطنة، وأمين خاقان، وميرزا حسن رشديه، ومعز السلطان ونجله، والذين جاءوا من بلاد الشام إلى مكة. وبعد دخول الليل بثلاث ساعات اغتسلنا وذهبنا بملابس الإحرام، واعتمرنا، وفى الليلة الثامنة والتى هى يوم التروية ذهبنا إلى الحرم مرة أخرى بعد آداء الفريضة وأدينا الصلاة فى المسجد الحرام، ثم رجعنا إلى منى، وتعتبر منى وادى واسع تمر فى وسطه قناة زبيدة وهى عريضة ومتسعة، ويرفع الحجاج الماء، ويقال إن عدد الحجاج قد بلغ مائة وخمسون ألف حاجاً.

وتتألف المجموعة الخاصة بحراسة موكب الأتابك من قبل شريف مكة من حارس مسلح يحمل القوس، ومأمور المحافظ للإشراف عليه، وفى صباح التاسع التقطت صورة تذكارية مع مجد الدولة، وتوجهنا إلى عرفات، وينحصر الركوب هنا فى الجمال فقط، إنه يوم الوقوف بعرفات، وفى المساء بعد صلاة المغرب تم نقلنا إلى المشعر الحرام[٢] ، "فاذكر الله عند المشعر الحرام"[٣]، وفى مزدلفة تم جمع الحصوات، وعدنا إلى منى بعد طلوع الشمس،

---

(١) مكة: أطلق عليها أيضاً بكة، على اعتبار أنها تمك الجبابرة حيث تقل نخوتهم مع زيادة ازدحام البشر ، وقد جاء اسمها فى القرآن "أم القرى، والبلد الأمين، والبيت العتيق، والبيت الحرام"، وقد اسماها بطليموس ماكورابا، وتبعد عن البحر حوالى ٩٨كم٢، ويبلغ تعداد سكانها حوالى ثمانين ألف نسمة.
زكريا القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد، ص١١٢.

(٢) المشعر كان يتم إشعال النيران فى الصحراء من أجل التعرف على الطريق، وكان يشعل الأعراب ما يقرب من أربع عشرة شعلة نار من ضمنها مزدلفة حيث يشعلونها بين منى ومزدلفة فى الصحراء بين عرفة ومنى ومثل حسبما ذكر المؤلف.

(٣) قرآن كريم جزء من سورة (٢) البقرة، آية ١٩٨.

ورمينا الجمرات، ثم جاء وقت التقصير، وتم شراء عدد أربعة وخمسون رأس غنم من أجل التضحية، وتم تكليف عبد الله نجلى بذبحهم، وبدا الاضطراب والبلبلة واضحين فى صفوف رجال الأمن، قيل إن البدو قد اندسوا بين الحجيج، وعرف بعد ذلك أن سبب هجومهم محاولة استيلاءهم على الأغنام، فعاد عبد الله على عجل حيث لم يكن قد ذبح أكثر من كبشين، وكنا نتناول الطعام حين حضر الشريف لزيارة الأتابك، فقام كل من الخادم والمخدوم برفع وعاء من السفرة، وانتقلنا إلى خيمة أخرى، وفى الصباح جاء حسن رشديه مع أحد السادة من أهل اصفهان إلى خيمة الأتابك، وكانت هناك محاضرة ستلقى بعنوان تدريس القرآن مع الترجمة، وإلقاء الشبهات فى مختلف المدارس، وكان هناك وعاظ يقومون بالتدريس والمحاضرة.

وقد وافق يوم الوقوف بعرفات الجمعة، وفى ضوء ذلك يعد مسماه "الحج الأكبر" وقد اشتهر بهذا الاسم، ونقوم برجم الشيطان الوسواس بقلوبنا، ونغض أبصارنا عن الحرام، ونحفظ آذاننا من الغيبة، ونصون قلوبنا من الأهواء، ونبتعد عن كل ما لا يرضى الله، ولا نفتح أفواهنا لما هو سيئ وخلافه. وفى وقت العصر خرجنا للنزهة فى مدينة مكة، ثم عدنا وارتدينا ملابسنا العادية، والحمد لله على عدم وجود اختلاف فى الأيام هذا العام.

وفى يوم العيد يجلس الشريف للتهنئة، ويقوم الناس بزيارة بعضهم البعض، وفى اليوم الحادى عشر يرمون الثلاث جمرات، وفى اليوم الثانى عشر تستكمل أعمال المشاعر، أما فى اليوم الثالث عشر يمكث أهل السنة والجماعة بمنى سوياً، وفى منى من المستحب الصلاة ركعتين فى مسجد الخيف[1] ، وكان المسجد قريباً من معسكر الأمن، فذهبنا وكان صحن المسجد متسع وله جانبان متصلان بالرواق، وكان الحجاج قد ألقوا بفضلاتهم

---

(١) مسجد الخيف: أحد أبنية قايتباى، وقد شيد عام ٨٠٤ هجرية، لم يسقف منه إلا أربعة صفوف لناحية الكعبة، وباقيه صحن كبير، وفيه قبة لها أبواب وهى محل فسطاطة صلى الله عليه وسلم وكل ثمن منها أربعة وعشرون قدماً.
حمد الجاسر: ملخص رحلتى ابن عبد السلام الدرعى المغربى، ص١٣٧.

فى الساحة الأمر الذى يعوق الوصول إلى الرواق المكشوف، فعدنا "تف"[١] على لحية الحاج، وأكثر على لحية أولياء الأمور.

توقفنا بمكة عدة أيام بعد أداء المناسك، وذهبنا لزيارة جبل أبى قبيس، وزيارة قبور أبى طالب وخديجة وغيرها، وتعب الأتابك قليلاً، وبعد أن تحسنت حالته ذهبنا إلى الحرم، وكانت الفرصة سانحة للوصول إلى داخل الحرم المكى، وانتقلنا إلى الداخل للصلاة فى البيت الحرام، وتوجهنا من داخل الحرم إلى خارجه "ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب"[٢] ، وفى جميع الاتجاهات داخل مدينة مكة تكون الصلاة باتجاه البيت الحرام، والبيت الحرام فى الوسط. فى المساء دعينا لتناول القهوة العربية بمنزل الشيخ شيبة حامل مفاتيح الحرم المكى الواقع فى الطريق بين الصفا والمروة، وتناولنا فناجين القهوة العربية، وفى الطابق العلوى كانت توجد غرفة مساحتها ستة أذرع فى ستة أذرع، وتوجد على جنباتها مصطبة للجلوس، وفى الإيوانات الجانبية كانوا يقومون بتعبئة أوانى من مياه النيل، وقد أرسل الشيخ قرباً من المياه إلى الأتابك، ولم تكن هناك صعوبة فى التبرك بماء زمزم، ولكن مياه الآبار بها ليست للشراب والطعام، لأنها حارة ومرة مالحة، وكان الأصعب من ذلك شربها. ومكان قدم إبراهيم أرض منخفضة وعميقة عبارة عن أحجار على أحجار، وقد أقيم فيها مقامه، مع ملاحظة أن الصحة ضرورية للقيام بالزيارة مع الثواب أيضاً، قيل إنه فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقام بنو شيبة فى هذا المكان.

إن الصفا والمروة عبارة عن إيوانين وتبلغ المسافة بينهما من ستين إلى سبعين قدم، وفى جانبى باب النبى يقع الحرم فى الركن الشرقى، ولا يجب التحدث عن النظافة هنا، كما لا يجب الحديث أيضاً عن وعورة الأرض فى الهرولة. قالوا فى العبادة "أفضلها أحمضها". أحمضها قبول أكثفها منبت لحية

---

(١) تف: عبارة أستياء من أفعال الحجيج السيئة أثناء تأدية المناسك، تعبر عن البصق على كل سيئ.
(٢) قرآن كريم جزء من سورة (٢) البقرة آية ١٧٧.

رئيس القوم، ذات يوم ذهبت إلى الحرم لصلاة المغرب، وتصادف عدم وجود أى شخص بالمسجد، وفى حجر إسماعيل وليت وجهى صوب التجويف المطلى بالذهب، وأفرغت بالى وانشغلت فى المناجاة، ممسكاً بالحطيم قبالة الميزاب، ولم أنحرف مطلقاً عن التلقينات التى أملاها على الشيخ على، وأتممت المهام التى توجهت من أجلها، وقلت كل ما لقنه لى، ولم يتبدل حالى، ولم يكن هناك مجال، وفى الزحام تكون مراقبة الكتف ملاصقة للكتف، وفى موضع معين يلقى نظرة إلى مكان الآخر، ويجمع خاطرى هذا الغزل لخواجه حافظ:

- **لم نقدم إلى هذا الباب فى إثر الحشم والجاه، لقد جئنا إلى هنا نلوذ من شر الحوادث. (شعر)**
- **يا سحاب الخطأ أمطر، حيث جئنا حاملين كتاباً أسود إلى الديوان.**
- **أين مرسى حلمك يا سفينة توفيق، لقد جئنا فى بحر الكرم هذا غارقين فى الذنوب.** [1]

ورفعت أكف الضراعة كى يتحقق أملى فى هذا المجال، وودت أن أرى إيران فى الاستقلال، والدعاء إن شاء الله مستجاب، وقد أردت أن يتحقق دعائى فى هذا المكان، وتذكرت بيتين أيضا من شعر "عراقى":[2]

---

(١) هذه الأبيات لحافظ الشيرازى مع تصرف المؤلف بتبديل البيتين الثانى والثالث.
حافظ شيرازى: ديوان حافظ، تصحيح محمد قزوينى وقاسم غنى، ص٢٩٦ و ٢٩٧.

(٢) عراقى: هو فخر الدين إبراهيم بن شهريار أو بزرجمهر حسبما ذكرت بعض المصادر، نال عدة ألقاب منها ملك المحققين وقدوة السالكين، ومطلع الأنوار وكاشف الأسرار، والجوالقى أو الجواليقى، ولد عام ٦١٠هـ وتوفى عام ٦٨٨هـ ودفن فى دمشق بجوار مرقد محى الدين بن عربى، ولد فى كمجان وزار بلاد الهند والملتان والحجاز. من أشهر مؤلفاته كلياته ومنها منظومة عشاقنامه، وقد نظم فى المديح والهجاء والرثاء والحكمة والخمر والوصف وغيره.
منى رمضان إبراهيم: منظومة عشاقنامه لفخر الدين العراقى، دراسة تحليلية نقدية مع الترجمة، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب جامعة عين شمس إشراف أ.د عبد النعيم حسنين ١٩٨٩م، ص٣١.

- ذهبت للطواف بالكعبة فلم يعطونى طريقاً إلى الحرم، فما فعلت خارج الباب للوصول داخل البيت الحرام. (شعر)
- عندما سجدت على الأرض وصل النداء من الأرض، فخربتنى بسجدة الرياء.[1]

يقول سعدى:

- كان لى عذر فى التقصير بالخدمة، فليس لى استظهار إلى الطاعة.
- ويتوب العابدون من الذنوب، واستغفار الصوفية من العبادة.[2]

وقد قيل إنه يجوز أن يكون قد فرض الحج للإحسان إلى إناس تلك الأرض، وليست هناك شبهة حيث أن الحكمة كثيرة فى ذلك.

وقد كان البيت منذ زمن إبراهيم وإسماعيل محل اهتمام الناس سواء كانوا قريبين أم بعيدين، فهو مكان خال من النفاق وبلا رياء حيث يجتمع فيه الناس من كل الديار مرة فى العام، فتحدث الألفة بين المشرق والمغرب، يستحضر الجميع حالهم، فيكون الاتحاد والصداقة ويبعدون لباس الكبر والغرور عن الجسد، يعلمون أنه ليس هناك أى نفع فى النهاية سوى قطعة من خيوط قطنية مفتولة باليد، ويرون فقيرهم وغنيهم ووضيعهم وشريفهم فى مقام واحد، يكسرون عرق الاستكبار بالهرولة فى السعى.

- الفقير والغنى عبيد هذا التراب والباب، وشديدى الغنى هم الأكثر حاجة.[3]

---

(١) عراقى: كليات عراقى (منظومة عشاقنامه)، جلد سوم تصحيح سعيد نفيسى، تهران ١٣٣٨ هـ.ش ص٣٠١.

(٢) سعدى شيرازى: كلستان، باهتمام محمد على فروغى، ص٦٧.
مع التصرف فى الشطرة الأولى من البيت الثانى باستبدال كلمة "عاصيان" "بعابدان".

(٣) شعر لسعدى الشيرازى: كلستان، باهتمام محمد على فروغى، ص٢٨٣.

وقد شبهت صلاة الجمعة بالجمعيات ومكة بالمجلس، وفى كل عام تتوجه إلى مكة قافلتين من الشام ومصر، ويرافقها دائماً محمل مزدان، يحضرونه من الشام وهو منسوب إلى عائشة، أما ما يحضرونه من مصر فهو منسوب إلى حضرة فاطمة رضى الله عنها، والكسوة التى تقدم من مصر هدية إلى بيت الله الحرام كل عام مطرزة بالذهب على قماش مصنوع من الحرير من أجل كسوة الكعبة، وتصل الكسوة إلى الشريف قبل تركيبها بعام تقريباً، ويتمنى الحجاج شيئاً من خيوطها بحيث يتركوها فى أماكن الصلاة، وللكسوة حاشية من بعيد إلى بعيد وبها وردتان فى كل زاوية، وبردة (ستارة) من أجل باب البيت مطرزة بالذهب، وأهدى الشريف للأتابك ثوباً موشى وفى كل ركن وردتان وستاراً لباب البيت موشى بالذهب وستارة من مجد الدولة، وقطعة جواهر للأتابك، وبندقية إلى مجد الدولة، وأخذت وردة من ميرزا أحمد خان كى أزين بها مكتبتى.

"قل هو الله" قد أدخلوها بصورة شئ فى آخر فى الدائرة بحيث تقسم ألفها وحزمة لامها على أربعة أرباع إلى الشعاع، وكان شاهرخ ابن الأمير تيمور من ضمن الذين قدموا كسوة إلى الكعبة.

يقول سعدى:

- إن كسوة الكعبة التى يقبلونها، لم تشتهر بأنها من حرير القز. (شعر) [1]
- جلست مع عزيز لى عدة أيام، لا جرم فقد صار فى الدنيا عزيزاً.

ومحمل عائشة هو نفسه محمل "موقعة الجمل" التى يذكرونها فى كل عام، وإن نسيت كان ذلك من الأفضل، فهم لا يلتفتون إلى فداحة الأمر، وقد نسوا القول: يا على إن "حربك حربى".

(١) المرجع السابق، ص١٨٥.

رباعى

- طويت يا مهدى بلاد الخزر والخطا والصين، ففائدة سر العبادة على عتبة الحق. (شعر)
- يا من ظهرت فى الصفا بفضل تلك الهرولة، قل، ماذا أضفت على صفاء القلب. [1]

وبناء المسجد من الحجر الأبيض طوله ٣٧٠ ذراعاً وعرضه ٣١٥ ذراع، فى جوانبه ثلاثة صفوف ومعظم الغرفة، وعلى الوجه ١٣٤ دعامة، والكعبة فى الوسط ودرب البيت يتجه صوب المشرق ويرتفع عن الأرض بمسافة ستة أذرع، الباب ستة أذرع، وعرض حد القدم ثلاثة أذرع وشئ (عشرة أصابع) عرض، طول البيت أربعة وعشرين ذراعاً وشبراً، وعرضه ثلاثة وعشرين ذراعاً وشبراً، وارتفاعه سبعة وعشرين ذراعاً، وللمسجد ثمانية عشر باباً، ويقع باب النبى ضمن هذه الأبواب على الجانب الشرقى الذى كان طريقنا، وعند الطواف فإن مقام إبراهيم يعد محاذياً بصورة أقرب إلى البيت الحرام، يقع بئر زمزم جهة اليد اليسرى، ومقام حنبل خلف البيت، ومقام مالك فى الجهة الشمالية من المقام الحنفى، بينما الأقرب إلى الحقيقة أن الشافعى ليس له مقام، وموقع البيت فى الشمال الشرقى ويتجه صوب الجنوب الغربى حيث نفس موقع المسجد.

الصفا والمروة خارج الضلع الشرقى، وبطرفى باب النبى توجد شرفتين بهما كرسى على مسافة ذراع، وأيضاً ثلاث درجات ولو لم يكن فإن العبادة أفضلها أحمضها "لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس"، وصار ميداناً للسعى أكثر نظافة، ومن الجائز أثناء السعى حمل الميت على ظهر الحمار والبغل، ولا حيلة فى وجود بعض الكثافات، لكن عظام الحيوانات لا يجب أن تلقى أصلاً هناك.

---

(١) شعر من تأليف الكاتب.
مهديقلى هدايت: سفر نامة مكة، ص٢٥٥.

كان عبد الله خان مرافقاً وأخذ لنا صورة فى المسجد، "إن الصفا والمروة من شعائر الله، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما فمن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم"[١].

ويقع الحجر الأسود فى الركن الجنوبى الشرقى على مقربة من زاوية البيت، والحطيم وسط الركن، وقد اختلفوا فى مقام الملتزم والمستجار، والستار الكبير المسدول والمصطبة يقعان فى أطراف البيت بارتفاع ذراع وعرض شبر ويعدان جزء من البيت أما الباقى فهو من البناء القديم.

وقد قاموا بتكسير الحجر الأسود مرة أخرى، وهو عبارة عن خمسين قطعة من الحجارة محفوظ بداخله غطاء من الفضة، واحتجز القرامطة أتباع حمدان القرمطى الحجر الأسود طيلة سنوات، وكانوا يأخذون من الخلفاء خمسة وعشرين ألف دينار يعطونها للحجاج وهم فى طريقهم لزيارة البيت.

وجدار البيت من الداخل والخارج من الحجر المنحوت قليلاً، أما الجدار الخارجى فهو مكسو بالكسوة، وفى داخل البيت قطعة صغيرة من الحجر المنقر (المخدوش)[٢] عبارة عن شبر فى شبر، ويعتقد أنه قد نقل من بعلبك، وفى أحد الأطراف يوجد مكان مسطح وعريض مفروش من الحجر الأبيض (المرمر)، ويعرف إنه مكان ولادة حضرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى الله عنه)، وسقف البيت مغطى من أعلى بثلاثة أحمال مربعة قطرها نصف ذراع من خشب العود لتعطير البيت.

ويقال إن الطواف عبارة عن سبعة أشواط حول البيت، بداية من محاذاة الحجر الأسود، ويجب أن يكون الكتف موجهاً صوب المنارات (المآذن) الخاصة، فيختل حضور القلب، وتضطرب الحواس، ولا يصير الفكرين فى آن واحد، والطواف بين الصفا والمروة يكون ذهاباً وإياباً بين المكانين،

(١) قرآن كريم، سورة (٢) البقرة، آية ١٥٨.
(٢) فى نموذج البناء يقع حجر إسماعيل دون إزار، ويبدو ذلك هو الأكثر صحة مثل الجدار.

وتكون بداية السعى من الصفا، وتكون الهرولة فى جزء من الطريق بحيث تسرع الأقدام وتتحرك الأكتاف، وفى أثناء الليل كانت هناك أصوات طبول مزعجة، سألنا لماذا هذه الأصوات؟ فقالوا: من بيت مشبوه[1] فتحيرت بصورة كبيرة، ولم أعلم من الأصدقاء شخصاً به هذيان الصوفى ذهب إلى ذلك المنزل، فأراد أبو الفتح خان أن يفعل، فقلت له: لا تصنع ذلك، فلم يصغ لى وذهب، وكان نادماً بحيث سيطر الخجل عليه وأحبط عمله.

محاكمة:

قلت أن بجوار المنزل غرفة حيث جلست فيها أياماً، والقنصل أيضاً، وجاء شخصان إيرانيان للشكوى، قادمين من جدة إلى مكة ومعهم جنسيات أخرى، وكانوا قد باعوا جملاً باثنى عشر مجيدى[2] ويطلبون منا خمسة عشر مجيدى، وبعد مناقشات مضنية وذكر الأسباب العديدة، قال جناب القنصل يجب أن يعطوا الإيرانيين سبعة عشر مجيدى، بحيث يتم أخذ اثنين مجيدى من حق المحضر التابع للقنصلية. وكنت أنا وميرزا أحمد خان شاهدين على القضية أيضاً، (وقضى الأمر كما مر) ضمن العقد الخارجى، وتم توزيع الباقى من صاحب الجمل والشريف والقنصل أشرف. سمعنا فى محضر الشريف عن مجموعات وأكوام من العملات الذهبية المسكوكة بالزينة المزدانة بالرسوم على البساط. يقولون إن سعادة أرفع الدولة، وميرزا حسين خان سبهسالار وأمثالهما من أين ؟ من بمباى، تفليسى، اسطنبول، وهل أتوا من قبل دولهم من أجل البحث عن الكنز الذى يأتى بدون تعب، وكان حظ دولة إيران سيئاً مع هؤلاء الناس من أصحاب الزمام، ولمحكمة جناب القنصل باب صغير يتجه صوب حارة، وفى كل يوم كانت تأتى أمام الباب امرأة عربية قامتها طويلة عظيمة المنكبين، ترتدى عباءة عالية تغطى صدرها وعلى رأسها حطة البدو، تغطى نصف وجهها بالخمار، ساحبة حطة البدو أعلى عينيها، تنظم

(١) كناية عن بيت تقمن به النساء الفاسقات.

(٢) المجيدى: عملة ويبدو أنها سميت باسم السلطان عبد المجيد.

الشعر للآخرين، لم أعرف ولم أفهم، ولم تكن نغمة السيدة تدل على أنها بلا خلق، وكانت تتفنن فى خطبتها إلينا، وكان من اللائق أن نعطيها شيئاً.

لا يبقى لك قرار للحكم على ما رأيته، وليس هناك استقرار فى العالم، وتتحرك فى طياته الذرات المستورة حتى الكرات المقهورة، واستمرت الحركة "ويجب أن يحط الحب السعيد على القلب، ويصل القلب إلى البحر"[1].

فى عصر يوم ٢٣ من ذى الحجة انتقلنا من المكان إلى حديقة الشريف على أطراف المدينة على طريق جدة، وتقدر مساحة حديقة الشريف بما يقرب من أربعين ألف ذراع، وتشغل الأشجار ربع مساحتها، وفى وسط الحديقة حوض مرتفع معكوس وقد صنعوه لكى يخرج من الأرض وارتفاعه حوالى مترين، وتمر من عليه مياه قناة زبيدة لكنه كان خالياً من الماء لسبب من الأسباب، وكان به برج فى الجزء العامر، وكان الماء يسيل من أعلاه، وتتنوع به الأشجار المختلفة، وأشجار الفاكهة بين التين والكمثرى، وترى أيضاً أشجار السقمون، وعبير شجر النارنج العذب والمعطر، لم استحسنه، وقلت أن يحملوا بضع أعداد من التى كانت فى الغرفة.

وتم الإصرار على العودة من ناحية البحر حيث كان الطريق الرئيسى لمرور المحمل المصرى وكان يمر المحمل الشامى من طريق البادية، وكان يصل إلى المدينة فى غضون عشر أيام، ويقال إنه يصل عن طريق البحر فى ثمانية أيام فقط.

وحكيت قصة الورم المتبقى بقدمى للطبيب المصرى الدكتور حسن حسنى الذى وصل فى الغالب لعلاج الأتابك فأجاز لى أقراص "ديجيتال"، علمت أنها علاج للقلب، فلما اطمأنيت على قلبى لم آخذها، فارتديت ملابس صوفية كى يعم العرق جسدى، وسحب الورم من قدمى بعد ارتداء الملابس الحارة،

---

(١) إشارة إلى بيت للشاعر لبيبى:
مهر خرسندى به دل برنهاد ودل به دريا داد.
محمد دبير سياقى (دكتر): كنج باز يافته، تهران ١٣٣٤هـ.ش، ص١١.

واستطعت إدخال الحذاء فى القدم، وقلت لعبد الله اصنع لى قهوة مركزة وتذوقها ثم اعطنى إياها.

وفى يوم ٢٥ تحركنا وفى يوم ٢٦ وصلنا إلى جدة، وقد استولى الجند على الطريق، الحسرة على الإسلام، أى محنة كان يتحملها الرسول، حتى جعل الهداية لهؤلاء القوم، ولم يهتدوا، وكان والى الحجاز أحمد راتب باشا الشريف، وعون الرفيق ابن الشريف محمد. ولم يأخذنى الأتابك للقاء الشريف، وحرم أيضاً ميرزا أحمد خان، فأدرت ظهرى.

وكانت رئاسة المحمل الشامى مع عبد الرحمن باشا. وكان رفقاء طهران قد قاموا بزيارة المدينة، وتفرقوا، وكان معز السلطان مرافقاً، وفى الحقيقة لقد اخترنا بناء على طلب "إبراهيم رفعت" طريق البحر:

- يرفع ألف صورة للزمان ولم تكن إحداها كالتى فى مرآة تصورنا.[1] (شعر)

ولم نر ما يشغلنا من بلاء.

وفى الثامن والعشرين تحركنا بسفينة يقال لها "البحيرة" وهى من سفن الخديوى[2] صوب ينبع، وفى التاسع والعشرين وصلنا إلى ينبع، وأغلب الظن أننا وصلنا إلى عين ماء.

ولم يكن المحمل المصرى قد أتى للمدينة فى العام الماضى، ولم يعلم مالك الرقاب الحاكم السابق لمصر ذلك، وفى السنوات السابقة لم يكونوا قد أعطوا حق الإخاوة أيضاً إلى العرب، ويريد العرب الإخاوة لمدة ثلاثين سنة، واستنكف رفعت باشا، وكان هذا الخلاف سبباً فى توقف المحمل أسبوعاً

---

(١) بيت شعر لأنورى.
محمد عوفى: لباب الألباب، جلد دوم تصحيح سعيد نفيسى، تهران ١٣٣٥ هـ.ش، ص٣٣٦.

(٢) كانت ديوا فوستينا ملكة الروم الشرقيين امرأة قنسطنطين قد اشترت إحدى البواخر، فأوقف قنسطنطين البيع، قال إذا لم تسع السلطنة الشرقية للصلح معنا فلن تمنع تجارة السفن ويمكن الاعتذار للخديوى بحيث إذا لم تتواجد عدة سفن لما حدثت المراودة حسبما ذكر الكاتب.

فى ينبع، ولم يفلح سعى المفتشين المحليين ورجال المخابرات للصلح مع الباب العالى ولم يقنع العرب بهذه الكلمات للخروج، ويريدون حق الإخاوة.

وفى النهاية صرف النظر عن خروج المحمل المصرى من المدينة، وبقينا أسرى فى قبضة شيوخ الطرق، ولم يبد أى أثر للمياه فى ينبع، ويقومون بملأ الماء المخزون من مياه الأمطار والذى أخضر لونه وصارت رائحته نتنة، وفى سفينة الخديوى بدت مياه البحر صافية، وقطعت المسافة فى يومين آخرين، وكان فى متناول أيدينا عصير الليمون، وكانت الأغذية المحفوظة فى علب كثيرة فى مكة والموانئ، حتى فى مكة كان قد كلف شخصاً لشراء أربع زجاجات من الكونياك تحت خدمتنا، ومن العام إلى العام عدا أيام الحج حيث يقيم الحجاج فى بيوت الأهالى، وبيوت مكان خلوة السلاطين والأمراء هى محل القمار، "والعهدة على الراوى". وقالوا أيضاً أخباراً أخرى وفى الخبر "أشر الناس خدامنا"[١] ، "نفس التنين متى قد مات"[٢] .

وكان الشىء الذى يبهجنا فى ينبع التنزه على وجه الماء، لأن شاطئ البحر كان روضة وأعشاشاً للحيوانات البحرية كالأصداف والطحالب كالغصن والأوراق المتعددة الألوان، وعلى شاطئ "نابولى"[٣] توجد بنفس الكفاءة، وفى انعكاس الضياء المتلألئ تفقد تلك الحباب التى تنبت فى المياه ألوانها فى أقل مدة، وتصير صغيرة، والأسماك خضراء اللون ذات الخطوط العديدة والمزدانة فى رونقها كالروضة، تصبح شبيهة بنوع من الأسماك يعرف "بقزل آلا" والسردين أيضاً.

وفى يوم الثالث من صفر حل عيد النيروز وشاطئ البحر مائدتنا التى تفرش فى رأس السنة الإيرانية وعليها سبعة ألوان من الطعام تبدأ بحرف السين

---

(١) دهخدا: أمثال وحكم، جلد جهارم، ص١٨١٩.

(٢) شطرة من بيت لمولوى، والشطرة الثانية هى:
- "قد ذبل من الغم بلا آلة".
جلال الدين محمد بلخى: مثنوى معنوى، تحقيق عزيز الله كاسب، ص٥٢٩.

(٣) نابولى: مدينة تقع على الساحل الغربى لإيطاليا إلى الجنوب من مدينة روما.

تبعث على السعادة والاخضرار. ونسمع أشياء عن سلوك البدو مع الحجاج فى الطريق، وكلها تستوجب التفكير، فإن عبور الطريق بسلامة يكون بفضل العناية الإلهية، ويجب إيمان الإنسان بالقضاء، واآسفاه لقد طوينا هذا الطريق باختيارنا فماذا حدث ؟ قال أبو مسلم: "تركت الرأى فى الرى".

وقد عرض الشيخ نصار مع أولاده شاهر وشاكر وناصر فكرة إطلاق سراح الرهائن على رؤساء القبائل، وتعهد شاهر بإيصال القافلة إلى المدينة وتأمين حق الإخاوة، وجاء رفعت باشا للقاء الأتابك وتوديعه، وأراد العودة إلى جدة لإرسال برقية. وطلب حق الإخاوة مبلغ ألف ليرة، ولم يكن لديه إذن بالتحرك، ومثلما أشرنا فإن حكومة الحجاز السابقة كانت مع مصر، ولهذا السبب لم تقم بالإخاوة، ومروا بالمحمل المصرى الذى رافقته الموسيقى من أمام الإيوان، وفى هذا الإيوان كان يتألم قلب الأتابك ذات يوم أمام معز السلطان وقال وأوضح أن سبب هذه الرحلة أننى أعرف أننى أنا نفسى فى إيران صرت موضع ملامة بسبب إقدامى للحصول على القرض الثانى موضع الملامة، ومع التجربة التى قد خضتها فى القرض الأول فيما أنفقت، وإلى أى جهات الإنفاق وصلت، وكان لا يجب أن أقوم بتنفيذ القرض الثانى، وسبب ذلك أننى لم أكن مستعداً من أجل القرض الثالث، فتنحيت وصارت زيارة بيت الله بتوفيق إجبارى.

وتم سداد نصيب قائم مقام والإخاوة المنضمة إلى الأجرة إلى شاهر، ويتوسل اسماعيل خان مندوبنا فى ينبع للأتابك حتى أعطاه الأتابك خمسين ليرة، وهمهم همهمة الغضوب وصنع ما كان متوقعاً منه من أفعال قبيحة للحجاج، وأطلقوا كلمة "بارازيت" على البدو ومعناها بالعربية المتطفلين، وبالفارسية معناها الدودة، ولمفتشينا حكم الدود، واستفادت سفارتنا فى اسطنبول كثيراً من أتباع إيران فى الإشراف على الشام والحجاز وخاصة فى الأماكن الشرقية.

فى الدول الغربية يستفيدون من هوس طالبى الجاه، ويؤسسون القنصليات، ويعطى اليهود الأثرياء المبالغ الطائلة لزوجاتهم للترغيب بحيث يوضع اسم القنصل على رؤوسهن، يظهرن طريق المراودة فى المجالس الرسمية من أجل ظهورهن وإخراج الزينة والحلى الذى يمتلكونه.

وفى عصر يوم الخامس من محرم وفقنا بعد الضيق حيث فررنا من ينبع، وأخذونا إلى البوابة الأمامية، وحدث تعطيل لمدة خمس عشرة دقيقة، فى هذه الأثناء وصل القائم بالأعمال والطبيب المصرى من أجل توديعنا، وطلب القائم بالأعمال الاعتذار عن الوضع الراهن، وعلم أنه يجب أن يعطى لمعز السلطان مبلغ خمسين مجيدى مساهمة ولم يكن قد أعطى، ولا أعلم أى يوم سيكون الفرج، وأطلقوا سراح جمالنا، وبقى معز السلطان صباحاً آخر ووصل إلينا.

وللمنزل عين ماء، ولا يبعد أكثر من نصف فرسخ عن الميناء، وبه عين ماء، وبهذه المناسبة فإنهم يطلقون على ينبع اسم الميناء، ولا يبدو فيها مياه للشرب، وأخذ يتألم السيد / سيد أحمد من عائلة السيد / سيد على أكبر شيرازى ويصيح كالديك لقراءة قصيدة الروضة، ويصر على قراءة الروضة، ولم يصرح له بذلك، ثم أخذ فى قراءتها وهم يتصورون جمالها، ونبكى خشوعاً، ويطلب القلب المتحجر ألا يرق فى ذكر أحوال كربلاء.

وحدث صراخ فى أطراف خيامنا، وقد أحضر البدو الأمتعة التى يبيعونها، وكمية من الخشب نصف ذراع يقاس به القماش، وكمية من الإبر الحادة وكمية من الماء المالح (ماذا يصنع العاجز وله مثل هذا)[1]، وفى أثناء السير أخذتنا جماعة إلى الأطراف المكشوفة، وهجموا علينا ثم قالوا: يجب أن نضرب أيدينا فى جيوبكم أيضاً، هذا سلام أهل القرى.

---

(١) الشطرة الثانية من البيت الذى صار مثلاً شائعاً، والشطرة الأولى هى: "الورقة الخضراء تحفة الدرويش".
دهخدا: أمثال وحكم، جلد أول، ص٤٢٦.

ومع أننا كنا لا نشرب من مياه آبار ينبع المخزونة، إلا أننا ابتلينا جميعاً بالإسهال، ورأيت ميرزا أحمد خان بعد منتصف الليل وقد ارتفع صراخه، نهضت ومسحت عليه، قلت لعبد الله أن يتناول مقدار من القرفة واستفرغ ميرزا أحمد خان، ورأيت شيئاً لونه أبيض فى استفراغه، وكنت قد سمعت أن ذلك من علامات الوباء، فكرت بشدة أن الوباء منتشر ولم يكن هناك أى خبر عن ذلك فى الحجاز. مضى اليوم ولم يكن هناك مفر من السفر، لابد أن نتحرك على الرغم من وجود الإسهال، ورويداً رويداً اختبأنا بين الأشواك، وكانت مضايقة الإسهال فى ناحية، وذهاب الجمل فى ناحية أخرى وكان يبدو الشكدف (المحمل) أحياناً عالياً وأحياناً عميقاً بحيث كان ينهض الجمل ولا يتدحرج، ومضى على خير والحمد لله، ولم يظهر ذنبه.

وفى يوم الخميس الموافق السادس وصلنا إلى بئر سعيد، وكانت تلك النواحى عامرة بحيث بدت تظهر هناك ساقية الماء، ولم تظهر هناك آثار أخرى، وكان المكان مخيفاً بدرجة ما.

وكانوا يتركون جندياً على الأطراف بالمدفعية، وفى الليل كان يطلق الرصاص، وكنا نتصور الخطر فى كل لحظة، وفى الصباح أخذ جمع بعباءات ملونة وعليهم حطة البدو والعقال المزين يلفون حول كرسى الأتابك يبدو عليهم الوقار والأدب، وعلمنا أن هؤلاء السادة المعززين كانوا يغيرون فى الليل من الأطراف على معسكر الجيش، واضطرب نومنا، ويبدو أنهم ينتسبون إلى شاهر.

وفى يوم الجمعة الموافق السابع شوهد مكان يسمى بـ "حمراء" بدون الألف واللام (الحمراء) التى هى من الآثار المعروفة للعرب وهى فى أسبانيا عبارة عن قصر ومسجد، أما هذه الحمراء فبها عين ماء ومياهها حارة ولكنها قابلة للطعام وبها نخل، وفجل صغير، وجزر، وباذنجان أفرنجى، وكوسة، وموز، وليمون حامض، وتمر، وبطيخ.

ويشاهد المسك، ومحفظة الملابس، والذباب القاتل والأمتعة التى يبيعونها على قارعة الطريق، وذلك الذى يضع يده فى الجيب، إلا إذا غسل يده بالروح، ويقول أطفال يمرون أمام القافلة: "سيدى أعطنى من زادك، الله يعطيك مرادك".

ورأينا عند دخولنا إلى حمراء مطربى الصحراء، ومعهم الدفوف والناى وآلات الطرب، ويتراقص رجل مسن ضارباً بقدميه على الأرض وجهه أسود وشعره أبيض، وكان يبدو أن فى عينيه عيب، وهناك فهمنا معنى حرمة الموسيقى. ولشاهر حديقة غناء حيث أحضر إلى الأتابك بطيختين وكمية من التمر، وهناك شخص يدعى عمر من أهل المدينة فى القافلة، ودعا الأتابك لمنزله، وتعارك مع أصحاب الجمال وبدأ الضرب بالعصى وألقى شاهر بمئزره، وقام بتهدئته وتحركت الغيرة فى عروق عمر ليتلافى ما حدث وقد وقف للمنازلة بقدميه، وقرر أن يمضى بهذه الدعوى إلى المدينة، واآسفاه على الدم الذى يهدر ليلاً، ويبرد الزمان كل حرارة ويجعل الطقس بارداً.

وقيل أن قبيلة أحمدى التى كان لديها اعتراض على المحمل المصرى ستنزل غداً ببئر عباس فى منزل هناك من أجل تسوية حساب الطائفة فخطرت ببالى قصة الروضة والثعلب حيث قال: لقد سمعت أنهم يأخذون الجمال إلى آخره، واطمأن شاهر أنه ليس له شأن معنا، لله الحمد أنه مع عدم التحسب الكامل أصبح فى الحسبان أن موضعاً عامراً قادماً، فكان بئر عباس وهو المكان الذى فيه مياه وأشجار من آثار العمران، وشوهدت هنا فتيات تتجولن بلا حجاب، تحت ملابسهن أربطة معلقة على أوساطهن ومعهن شئ لقتل الذباب، وعندما بلغن حد الرشد ارتدين لباس آخر على صدورهن حتى يتزوجن ويتوقفن عن قتل الذباب، ويتلذذ الذباب ويأنس بالفاكهة الفجة، وقد يدفعون الذباب أو لا يدفعونه، والأمر الذى يستدعى الانتباه أن القاعدة الأساسية هى أن كل مكان به حلوى يكثر به الذباب، والمكان الأخر الذى رأيناه جديداً هنا فى حمراء كان قمة جبل حمراء، وتصدر أصوات الأشياء المتدلية من

أسقف منزل متهدم صداً للصوت، وكانت تصل إلى مسامعنا أصوات ضوضاء وصياح عدة مرات.

وهناك مكان آخر يعرف "بريذه" فيه قبر أبي ذر، سمعنا عنه ولم نره، وهناك مكان آخر يعرف باسم "بئر درويش" لم نصل إليه للآن، وكان شاهر قد علق مشاعره ويفهم من حديثه بالكناية والتصريح أنه يوجد جفاء مع القبائل فى تلك المناطق الحدودية، ويجب على أهل القافلة أن يحافظوا على أنفسهم بأنفسهم، وكان بصحبة الأتابك عدة أشخاص مسلحين، وكانوا يحرسونه بالليل، ومضى كل شئ على ما يرام حتى طلوع الفجر، وفى وقت السحر كانت القافلة قد تحركت، وتعطلت مجموعة الأتابك فى تجميع نفسها وارتفعت أصوات بالقرب من خيامنا، ضربوا واحدا على رأسه بحجر وخطفوا شيئاً من جانبه وهربوا، وعلم أن هناك علاقة وارتباط طهرانى بأحد الرفقاء الذى تخلف من أجل مراقبة أصدقائه، وخمننا أنه يجوز أن يكون قد أخفى ما معه من رأس مال ومتاع تحت التراب بالليل، وقد بقى حيث كانوا قد شاهدوه ورفعوه وخطفوه. وفى هذه الأثناء رفع اثنان من البدو كيسين من الأرز الذى كان بصحبة الأتابك ولاذا بالفرار، فأطلق شاهر النار على واحد، وألقى الآخر الكيس وهرب، قلت لشاهر: ماذا كنت تصنع ؟ من الممكن أن يقوموا بالقصاص، ويستبيحوا دماءنا، قال: هناك عرف بين البدو أنه فى حالة إذا ما قتلوا شخصاً من القافلة فإن لى الحق أن اقتل شخصاً منهم "كما تدين تدان"، ورأيت أن للقوانين أنماط متعددة لقد ألقوا بصانع الخيطان المسكين الذى لا يزال لديه رمق فى تلك الصحراء، وبعد مضى بضع أقدام سقط من فوق الحمار وحملت أيدى الذئاب روحه، وألقوا به على حافة أشواك، وأكلوا الحمار، الحقيقة هى: "ما أكثر ما جاءت الروح إلى الشفاه حيث لم يبك عليه شخص".[1]

---

(١) الشطرة الثانية لأحد أبيات سعدى، والشطرة الأولى هى: "كان يقول مثلما كان يمكن سماعه". سعدى شيرازى: كليات سعدى (غزليات)، باهتمام محمد على فروغى، ص٤٧.

الوصول إلى المدينة:

مضت ساعة ونصف بعد الغروب فى يوم عاشوراء، ووصلنا إلى المدينة، ويبدو منظر المدينة عبارة عن شعب متعرج فى الجبل على هيئة وادى. ويبدو ظل العمارات فى وسط وادى به أرض كثيرة الأحجار محصورة وسط الجبال السوداء بصورة مهيبة، وعند الوصول للجهة اليسرى من الوادى بمسافة قليلة يقع مسجد الشجرة ميقات أهل المدينة، وتستحب الصلاة ركعتين فى هذا المسجد.

لكن فى أى وقت بحيث تكون صلاة الفرض هى الواجبة، وذلك حفاظاً على الروح، وللمسجد الحرام متسع ومضىء، وليس لمسجد المدينة هذا الاتساع، معظمه تحت السقف ومظلم قليلاً، ولا يوجد هنا نفس الازدحام، ويكون حضور القلب هنا أكثر عوضاً عما هنالك، فى أول الليل المسجد الحرام أكثر تأثيراً، ويرى الليل بلا اضطراب والرعد والبرق فى السماء، والفارق الكبير بين المسجدين فى وجود المقابر الشامخة لحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم وحجرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وحضرة البتول رضى الله عنها وفى المقابل تصور الوقائع التاريخية والتواجد فى بيت الرسول يجلب حالة من الخضوع والخشوع وتضىء نوراً فى القلب.

ويسترعى الانتباه محيط الوحى ومسقط رأس الحسين (رضى الله عنه) آل البيت فى هذا المكان المقدس، ولم يكن كل ذلك بمكة، الله القادر وفى كل مكان. بعد وصولنا ذهبنا للوضوء لزيارة بيت الله، دخلنا من باب السلام، حجرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وفاطمة (رضى الله عنها) متجاورتان تحت القبة، وخرجنا من باب جبريل المواجه لحجرة مولى الأتقياء بعد التعظيم حيث كان الطريق إلى المنزل.

ولبينا دعوة عمر فى زيارة لمنزل أخيه عبد القادر من مشايخ المدينة، وكان رجلاً يتسم بالأدب والأخلاق الكريمة، ومع ذلك فقد كان التعصب

فى المدينة يبدو بصورة أكثر، ولم نتضايق من هذه الطرق، ولم يكن لصاحب البيت شأن من أمرنا، وكنا نذهب إلى المسجد فى كل يوم ونصلى هناك وغالباً ما نكون فى الأماكن الخالية، ويكتب فرهاد ميرزا قائلاً أنهم كانوا قد وضعوا محمل عائشة فى الحرم المواجه للمحراب، ومحمل حضرة الزهراء رضى الله عنها فى الصحراء، لم نر، وبصرف النظر عن أصالة النسب فإن حضرة فاطمة الزهراء كان لها منزلة عند النبى (صلى الله عليه وسلم) بحيث لم تكن تلك المنزلة لأحد غيرها.

يروى أنه عندما قالت عائشة للرسول صلى الله عليه وسلم: أتحبنى أكثر أم تحب خديجة؟، أجاب: ليس عندى شخص قط فى احترام وقدر خديجة، لقد ذكر خديجة دائماً بكل حب وتقدير.

ذهب مرة بنية زيارة المرحوم والدى الذى لم يكن قد وفق لزيارة الروضة المنورة بسبب مرضه وكان دائم الأسف على ذلك. ولو أنهم قد قالوا فى تفسير قول الرسول صلى الله عليه وسلم "لو أنك فى اليمن فأنت معى وأمامى"[1] إشارة إلى "أويس قرن" الذى كان قد جاء إلى المدينة من أجل زيارة النبى صلى الله عليه وسلم ورجع بسبب الغيبة فى حضرته، ولما رجع حضرته إلى المدينة، أمر أن أشم رائحة أويس. وذات مرة طلب السادة أن يفتحوا المرقد المبارك حتى نزوره من الداخل، ولم يرغب الأتابك، وكان صوب القبلة باب، يقع القبر المبارك فى الركن الشمالى الشرقى منه، وبجوار الدرب منزل حضرة فاطمة رضى الله عنها.

بينما كان قبر أبى بكر وقبر عمر فى الركن بين القبر المبارك والجدار، ولا أعلم قرب الجوار أو حسن السلوك، يقول السنائى:

---

(١) الشطرة الثالثة من رباعية منسوبة إلى أبى سعيد بن أبى الخير والرباعية هى:
- هكذا أكون معك أيها المعشوق اليمنى، أنا نفسى فى الخطأ بحيث أكون أنت أو أنت منى.
....، وإذا أنت أمامى وأنت بدونى فى اليمن.
أبو سعيد بن أبى الخير: سخنان منظوم ابو سعيد ابو الخير، تصحيح سعيد نفيسى، تهران ١٣٣٤هـ.ش، ص٦٥٢.

- لم يتأتى لى ذات مرة من باب الاعتقاد، حق حمل الزهراء ودين الرسول.[1] (شعر)

وكانوا قد سحبوا قطعة قماش من أعلى القبر، والمصباح يتدلى من وسط السقف، وعدة أوانى بها بخور قد وضعت فى الأطراف، ويقال إن حبة الماس قد تدلت أيضاً من السقف، وفى الجانب الشرقى مكان النوم تبقى تحت القبة ثلاث غرف صغيرة ثلاثة أذرع فى ثلاثة أذرع، وقد كانت محل سكنى حضرة الرسول (حجرة عائشة) ومنزل حضرة الزهراء (رضى الله عنها) وعلى المرتضى (رضى الله عنه)، وفوق مزار الرسول قبة أعلى من القباب الأخرى. وعلى جانب باب جبريل مأذنة من خمس مآذن وأردنا التقاط صورة للمسجد، وأخرجنا بضع ليرات جعلت "ما لا يجوز جائزاً"، وفى أثناء الليل اختبأ عبد الله خان فى المئذنة والتقط صورة ساحرة.

وفى مكة الأعمال حرة، والتعصب أكثر فى المدينة، خصوصاً بين أهالى بخارى الذين يعيشون فى جماعات متجاورة، وخارج باب جبريل (حوض ماء) وبه صنابير من أجل الوضوء وذهبت للوضوء من أجل الدخول إلى الحرم، وقال الحارس الذى كان مرافقاً: تعجل أيها السيد، توجهت ورأيت عدة أشخاص من بخارى، يحملقون فى بغضب، وللأسف إن اختلاف تعبير لفظ "إلى"[2] من أجل الانتهاء والانضمام، يؤدى إلى الوقوع فى الغيرة بين الإخوة فى الدين الواحد.

وفى اليوم الثانى ذهبنا من باب جبريل لزيارة البقيع، وهى عبارة عن منطقة مسورة وفى وسطها بقعة هى مزار أئمة الهدى، وعند الدخول كان قبر حضرة الإمام الحسن (رضى الله عنه) أول قبر ثم قبر حضرة سجاد (رضى الله

---

(١) بيت شعر للسنائى الغزنوى مع التصرف.
سنائى غزنوى: ديوان سنائى، باهتمام مدرس رضوى ص٣٦٧.

(٢) إشارة "إلى المرافق" فى آية "فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق".
القرآن الكريم الجزء من آية (٦) سورة (٥) المائدة.

عنه) وحضرة الباقر (رضى الله عنه) الشريف الطرفين، وأمه ابنة حضرة الحسن، ومن المعروف أن حضرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) قال لجابر بن عبد الله الأنصارى أن يقابله، أوصل إليه السلام، وفى النهاية قبر حضرة جعفر الصادق (رضى الله عنه) الذى ينسب إليه المذهب الجعفرى، وأم ذلك العظيم هى "أم فروة" حفيدة أبى بكر.[1]

وبعيداً عن هذه القبور نصب ضريح المرحوم أمين السلطنة صهر أمين السلطان[2] من الفولاذ عبارة عن ذراع كان قد طلب فيما بعد أن يلحق به وكان ممنوعاً صناعته من الفضة، وقد وقع قبر حضرة فاطمة (رضى الله عنها) فى الجدار الطولى للبناء، وقد صنعوا سقف صغير أعلى القبر المنظور، وقد علقوا ستارة مزركشة مخاطة من السقف الصغير، وقيل أيضاً أن قبر حضرة الزهراء موجود داخل منزلها، وفى الجانب الشرقى من البقعة يقع قبر عثمان الذى كان خارج البقيع وقد جعله معاوية بالداخل، وقبر فاطمة بنت أسد فى خارج السور حيث كان رسول الله ينام فيه، وقال إن لها على حق الأمومة.

وكان مكان قتل شهداء أحد وقبر سيد الشهداء حمزة الذى يقع فى أطراف جبل أحد من ضمن الأماكن الأثرية التى قمنا بزيارتها وهو يبعد عن المدينة بمسافة طويلة، وأمن فى مكان السفر إلى الشام ثم تجديد السلام عليه من بعيد، وقد حدثت شهادة حمزة فى العام الثالث من الهجرة، أثناء توجه الرماة المكلفين بتأمين الوادى من الخلف أثناء الغارة، وحدث فى تلك الأثناء أن كسرت أسنانه المباركة، وقد أقاموا مسجداً فى ذلك الموقع وهو باق إلى الآن، وليس هناك أثر من الخندق سوى خبر "ضربة على فى يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين".

---

(١) حضرة سيد الساجدين معاصر الوليد بن عبد الملك، وحضرة الباقر معاصر إبراهيم بن الوليد، وحضرة الصادق معاصر منصور الدوانقى حسبما ذكر المؤلف.

(٢) الحاج محمد على أمين السلطنة صهر السيد / إبراهيم أمين السلطان والد الأتابك وزوج أخت الأتابك ثم أصبح بعدها صهر مظفر الدين شاه حسبما ذكر الكاتب.

كان هناك خلاف بين أهل المدينة وشيخ الحرمين عثمان باشا، على أن يعهد إلى المفتشين بالقدوم من أجل التحقيق، وفى مكة وصل خبر فتح برت آرطور، وكان الحديث فى المدينة يدور حول تحطيم السفن الروسية، وذات يوم ذهبنا لزيارة مسجد قباء، وفى هذا المسجد تقرر استبدال القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة أى من جهة الشمال إلى جهة الجنوب، ويقع المسجد فى جنوب المدينة ويبعد عنها لمسافة تبلغ عشرين دقيقة سيراً على الأقدام، وفى القرآن فإن "مسجد أسس على التقوى"[1] إشارة إلى مسجد قباء.

ومن المدينة إلى المسجد توجد صفوف من النخيل، وقد وضع الرسول اللبنة الأولى بيديه الشريفتين بمسجده، وكان البدو قد نزلوا فى هذا المكان فى هجرتهم، وكانت "رانونا" و"أديى" من بين القرى التى يعبر منها وأحياناً يرى الماء بنفسه، وكان بناء مسجد الرسول "صلى الله عليه وسلم" من الحجر والطوب اللبن فى عهد الملك أشرف قايتباى من سلاطين الشراكسة الذين حكموا فى مصر، وفى سنة ٨٧٢ هجرية كان دوره، وتم استكماله على عهد السلطان عبد المجيد.

وكانوا قد نظموا قصيدة فى بناء المسجد الذى أقاموه من حجر المرمر المنسق، ويريد الوزير التصريح، يقول قايتباى: عجيب أنكم تريدون مثل هذا التصريح، ليس قبيحاً أن تقرأوا أننى ملك وتتركوا فى بلاط قصر السلطان "لولاك لما خلقت الأفلاك".

وقد كتب فقط اسمه فى الركن الشمالى الغربى، ومكان النوم وايوانات الأطراف مقامة على مائتين وستة وخمسين عمود (دعامة)، وللمسجد ستة أبواب هى باب السلام، وباب الرحمة، وباب التوسل، وباب جبريل، وباب النساء، وباب قايتباى.

---

(١) القرآن الكريم الآية ١٠٨ سورة ٩ التوبة.

والمسافة بين مكة والمدينة مسير عشرة أيام فى الطريق، ووصل المحمل الشامى الذى كان قد تحرك بعدنا، وجاء هذا التخطيط أننا تحركنا مع المحمل الشامى، ولم نره مرتين عبر ينبع، ويرافق المحمل الشامى ثمانمائة راكب بغال وعربتى مدفع. والطريق من المدينة إلى الشام (دمشق) مسير شهر والأغلب أن له منزل فى طريق أماكن بئر فلان، كان للأتابك محملان، كان يأتى أحدهما فى الغالب مرافقا له خالياً، وهودج للأصدقاء وأنا، جلست نصف يوم فى الهودج، وأخذت تتألم ركبتى بصورة لم استطع تحملها، ورافقنى الحاج على الذى كان من أهل دمشق، وعقل أرجل البغل معقودة، وكان معى محفظة ملابس، وبالطو وغطاء من الصوف للتلحف، والثلاثة كلهم فى غاية من الأهمية.

ذات يوم تركت البالطو أعلى غصن به شوك، وخلصت منه الأشواك بنوع من الضيق، وشجرة الشوك من فصيلة تعرف "بأقاقيا"، ولها وردة تشبه الوردة الحريرية (الناعمة) والمعطرة، بالصورة التى رأيناها من لوازم اليوم، وفى أكثر الأماكن يخرج الماء من البئر وتعمرها، وفى أحد الأماكن حفروا خمسة آبار أسفل تلة عمقها أقل من ذراع، وكان يجب رفع الماء فى القافلة من أجل ثلاثة آلاف جمل، إضافة إلى المسافرين حيث لا يخرج الماء من أماكن أخرى، وجلسنا مدة أعلى التلة مع وثوق حضور، وعبد الله خان وشاهدنا رفع الماء، واكتملت حاجة القافلة، ولم تكتمل عملية تعميق المياه، ولكن لم يتم السحب إلى أسفل عن طريق فقدان الماء للمكان الذى قطعنا الطريق إليه فى أكثر من اثنتين وعشرين ساعة، وشاهدت سقاية الماء التى خطفت نوم البغل، معها مطارات وقرب[1] للماء موضوعة أسفل بطن البغال بعيداً عن رؤوسهم حتى لا تتبعهم وكان منظراً مضحكاً وعجيباً، وكان الغريب أن ينام الفارس ولا يعتدل قط، وحتى التجارة التى كانت مزدهرة من قبل على طريق الساحل ببلاد الجزيرة العربية فقدت تلك التجارة اليوم رونقها، وزاد الفقر على الأهالى

(١) المطارة: إناء به ماء مصنوع من الجلد يحمله المسافرون معهم، تعرف باسم "القربة".

بالقدر الذى جعل الحجيج يوفرون ليراتهم فى حافظاتهم، وكان لابد من مرور ساعة ونصف حتى تحل مؤخرة القافلة مكان مقدمتها، وكنا نستفيد من تلك المدة عدة مرات، ونذهب من أمام وبين الأشواك وكان البعض ينام والبعض يستيقظ، وكان يعدون الشاى، وعندما تصل القافلة إلى نهايتها، كان يتم شرب الشاى وتجديد المكان، وكنت أفترش الغطاء الصوفى تحت قدمى، وتركت المحفظة تحت رأسى، وألقيت البالطو الرومانى، وقد نمت فى أفضل فراش فى إثر الإرهاق، الأرض رملية وناعمة، وكان البخار المنبعث من الأرض حاراً ومالحاً وكان بالنسبة لى ملائماً جداً حيث كان فى صدرى شيئاً من الخشونة.

وكان يذهب أمام القافلة ستة فرسان من حفظة الطريق، وكان يسير خلف القافلة خمسين فارساً من راكبى الجمال، وفى مكان الرحيل كان يتحرك الطبالون، ولا يبقى لهم أثر أثناء المسير، وإذا راح شخص فى النوم يستيقظ، وكان راكبو البغال يحرسون القافلة من كلتا جانبيها، وكان فى القافلة ثلاثة آلاف جمل فى أربعة قطارات، وكانوا يسيرون على شكل قطارين فى ناحية وقطارين فى ناحية أخرى، بينهما مسافة تصل إلى عشرة أذرع عرض، وكانت تجوب الشوارع، وكانت هذه الحيوانات ترهق بصورة ما، الأمر الذى لا يبدو معه أى اعوجاج فى عرض الشارع مطلقاً.

وكانت هناك فوانيس معلقة بالهوادج وكانت الجمال تصدر أصواتاً حادة أحياناً، وكانت أصواتها تختلط بأصوات الأجراس المعلقة فى رقبتها، ولم أر فى الليل فى ضوء القمر منظراً صافياً وباعثاً على الفرحة، ولا يصير هناك قدم يمر خارج خط القافلة من طرفيها. إلا إذا مات، ويصيح الأعراب الذين هم بالقرب من القافلة قائلين بصوت مرتفع "بر – بر" أى إلى الصحراء إلى الصحراء، وشاهدت طفلاً عربياً عارياً يبحث عن عظام خارج الخيمة.

مـــدين:

فى الرابع والعشرين من صفر بلغنا مكان يعرف بمدينة صالح (مدين) ومضى يوم من توقفنا فى إحدى المراحل من الرحلة، وهى موطن شعيب، هنا التقى موسى بصبايا شعيب بعد فراره من مصر عند بئر للمياه، وقام بمساعدتهن، حيث قمن بوصف مهارته لشعيب، فأمر خدمه بإحضاره إليه، وأعطاه ابنته زوجة له، وفى حكاية شعيب "فكذبوه، فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين"[1] . كذبوا شعيباً ثم أخذتهم الزلزلة:

- أحياناً يصل النبى موسى إلى مراده، حيث خدم شعيباً عدة سنوات بروحه.[2] (شعر)

وفى أطراف الوادى تبقى أضرحة فى قلب الجبل والتى كانت على ما يبدو أماكن لقبور، وأعلى سقف كل واحد من القبور يوجد شاهد به مجموعة من النقوش والمنزل الموجود فى وسط الوادى به حوض وذنب فأر يصب الماء فيه وقد تبقى حوض فارغ، ومن الواجب طى مسافة لزيارة الأضرحة، وقد جمعوا عدة جياد وقاموا بجولة، والتقطنا صورة، ويبلغ طول الوادى وعرضه فرسخاً أيضاً وجزء من الأحقاف.

وكان منزل عاد وثمود محل بلاء صالح وهود، وقد كانت مدين تعد من أعمال النبط وكانت غاية فى الأهمية لفترة ما، وقد كتب اسم صنمين لثمود وصمد، وكان شداد أيضاً على عهد هود، ويكتبون قائلين إن اليهودى قال إن أؤمن فماذا سأملك ؟، قال: بدت الجنة ووصف الجنة، وقد أعد شداد حديقة شهيرة، ولم ير إتمامها "أرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد"[3] إشارة إليها.

---

(١) القرآن الكريم الآية ٧٨ سورة ٧ الأعراف.
(٢) شعر لحافظ الشيرازى.
حافظ شيرازى: ديوان حافظ، تصحيح محمد قزوينى، ص١٥٧.
(٣) القرآن الكريم الآية ٧، ٨ سورة ٨٩ الفجر.

وقد جمع الروم فى أيديهم الأحجار الثمينة والمعادن من مدين، والآن تستخرج منها صفائح الكبريت والفضة والنحاس، وفى عام ١٨٧٧م، كلف "برتن" الاسم الإنجليزى بفحص الأمور فى تلك المناطق بناء على أمر حكومة مصر، وللأسف فإن دائرة المعارف وكتب التاريخ التى وصلت إلى أيدينا، لم تأت بشرح مفصل وكافى عن مدين، ومنعت الحرب طلب كتاب "برتن".

وكانت قمم الجبال الواقعة على أطراف الوادى متعرجة، ويوحى عدد من الهضاب بصرف النظر عن أحجامها الهائلة بأنها شبيهة بالأبدان البشرية، خاصة مع تصور "عوج بن عنق"[١]، ويعتقد العوام بل الخواص، أن أشكال تلك الأبدان هى أبدان قوم عاد التى تحجرت، وقد ألقت بها الرياح أدراج الجبال، ولا يقال لماذا ألحقوها بالجبال ؟.

ويمر الطريق من هذا الوادى بين جبلين وبه مضيق عرضه أربعين ذراعاً وارتفاعه بنفس القدر، كأنهم قد أدخلوا إلى باطن الجبل، والأرض عبارة عن رمال ناعمة ومتحركة، انظر إلى أعلى ترى جمالاً نحيفة أحياناً تتكسر وأحياناً تنفق، وعلى حافة المضيق فتحة لا ترى نهايتها، لها انحناءات، ويقال إن ناقة صالح كانت فى ذلك الفالق، وكانت تبكى، وكان الجمالون يخافون الطريق فى عبورهم من المضايق، ولا تهتم الجمال ببكاء الناقة، التى كانت تأن بكاء.

والجمل الذى ينفق يأخذون جلده، رأيت جملاً على حافة الطريق، كان قد برك على أقدامه وأيديه الأربعة وليس له رأس وجلد، وخارج المضيق افترشوا الأرض من أجل عبور القافلة، واحتسى الأتابك فنجاناً من الشاى والتقطت له صورة، وبين مدين ومنزل آخر وكنا فى "ظهر حمراء" طيلة إحدى وعشرين ساعة فى الطريق، وتشاهد فى الصحراء ورود وأعشاب قليلة للغاية،

---

(١) عوج بن عنق: رجل أسطورى وحسب الرواية فهو ابن عنق ابنة آدم أبو البشر الذى عاش حتى عهد موسى واشتهر بطول قامته وضخامة جثته، وهلك فى النهاية بضربة عصا موسى حسبما ذكر المؤلف.

ويشكل الحصو مع مجموعة من الرياحين منظراً بديعاً، والطقس بارد على عكس المتوقع، وحال العرب البدو يدعو للشفقة، فقد رأيت أحدهم كان يشوى خروفاً على النار، وعلا الصياح من كل جانب "بر – بر"، ثم حمل الخروف المطبوخ الفج وفر هارباً.

فى يوم الأحد الموافق الأول من صفر بلغنا "تبوك"، وكان بها قلعة وحديقة وعين للمياه، وكانت تجتمع أشجار الرمان والتين والتمر فى مكان واحد، وكانوا يستقبلون تحف الشام ويقوموا بتوزيعها على المعارف، وشوهد شهر مبارك، وبوركنا بوليدى أنثى حصان وعروس حمار، مجاورين لمعسكر الجيش حيث لم يظهر حاجى خياط، وكانت هذه هى المعلومات التى وصلتنا، إنه لا يزال أمامنا سبعة عشر يوماً آخر فى الطريق إلى الشام.

وفى يوم ٤ من ربيع الأول بلغنا مدينة تدعى "مدورة" وبها قلعة، ومياه طيبة وحديقة غناء بها نخلة بها بلح، وكان يجاورها جبل يصدر صدى للصوت ز

– **لو يبلغ أنين الحاج إلى الجبل، يأن الجبل إلى صدى صوته.**[1] **(شعر)**

فى يوم السابع من ربيع الأول كان من المتعارف أن نصل إلى مدينة تدعى "معان"، وتطوى مسافة تحت القبة وفوق القبة، ونمر إن شاء الله من العقبات، وللعقبتين منزهين فى الطريق، والصحراء بها خضرة قليلة للغاية، ولأشجار الشوك أوراق، وشوهدت خيمة سوداء بالقرب من المنازل، واحتفظت فى محفظة ملابسى التركية بزجاجتين دواء لعلاج ألم رفقائى.

ونقل "حاجى" على قصة مفادها أننى نلت فى طهران شرف حضور الملك، وقال له: هل ذهبت إلى روضة عين الملك ؟ أجاب لم أكن قد ذهبت، وذهبت حسب التعليمات، ويسأل فى مقابلة أخرى: ماذا شاهدت ؟، فقلت: "فى الخيمة

(١) شعر للمؤلف.
مهديقلى هدايت: سفر نامة مكة، ص٢٧٧.

العين الملك من أوايل الليل إلى تحت الصبح يشربون ماء العنب ويضربون الدف ويقولون "لعابدين خان ثوب أحمر" ولى ذكرى من هذه المزحة مع الحاج على أيضاً.

معـــان:

كان وصولنا إلى مدينة معان عيداً، ثم بلغنا العقبة وهى ميناء على مقربة من البحر الأحمر، أمام وادى عامر واسع، فى وسطها إيوان بلا سقف وفى أطرافه أميال شبيهة بالآثار القديمة، لا من قبيل تخت جمشيد أو بعلبك، ويتميز هذا الوادى بالحجارة الصلدة والحصو الكثير، وكلها تشبه الجماجم الملقاه والتى تسترعى الانتباه وتثير العجب، ويعتقد "حاجى على" والعديد من الحجاج أن هذه الأحجار هى رؤوس أهل مدين التى تحجرت وقت نزول البلاء على عاد وثمود، وبقيت أجسادهم أعالى جبال مدين وألقت الريح أوجههم وكان من العسير بالنسبة لى الاعتقاد فى هذا القول.

وترددت وغضب "حاجى" وقال: مع هذا الاعتقاد لماذا تشرفت بالقدم إلى مكة ؟ وطاف بخاطرى من أشعار ناصر خسرو:

- **قلت له: قل له عندما بخوت، من هذه الرحلة بالألم والخوف. (شعر)**
- **صرت عارفاً للحق ومنكراً لنفسك، فأدركك نسيم المعرفة.** [1]

ومن الإنصاف مع ما شاهدته فلا يجوز لوم عامة الشعب، شاهدت صخرة بالقرب من العمران فى وسط النهر، كأنها نصف جسد شخص فد سقط أدراج التراب، فاشتبهت فى الأمر وسرت وكسرت أطراف حجر فكان حجراً خشناً وبلا تركيب.

وقد كانت معان مدينة يتجسسون على حدودها للآن، وللنساء على جانب الحارة قطيع من الحيوانات، وكن يشاهدن القافلة، وكن يبتسمن

(١) ناصر خسرو: ديوان أشعار ناصر خسرو، بكوشش مهدى سهيلى، ص٢٥٩.

بلطف ويبعن الفاكهة فى اليوم الأول جاء الأعراب بالقرب من القافلة حيث لم يتأت صياح من القافلة "بر – بر" - بر، ودخلت فتاة عربية من الخيمة السوداء للنزهة فى الخلاء، وجهها جميل ومنظرها خاطف للقلوب مزدانة بنفسها، تكشف عن ساقيها، صدرها كبياض الصباح.

- سبحان الله من وجهها المضىء كالقمر، وتلك النار المخبئة فى نظرتها.[1] (شعر)

على رأس حطة البدو بلونها الوردى الأحمر وعقال بألوان الطيف السبعة.

- تشبهن الطاووس فى التبختر، إلى أين الذهاب والمشاهدة أيها الغزال الشارد؟[2] (شعر)

رأيت نفسى مجنونها وقلت هى ليلى نفسها، قالت عدة كلمات وكانت لها فصاحة الكلام وتمام الملاحة، "رأسها تتدلى لأسفل وتحت شفتيها عتاب الزمان"[3]، ليس لى شيئاً مرافقاً، وتركت الموعد للغد حتى أراها مرة أخرى.

- ذلك الوجه الخمرى الذى توافقه حلاوة الدنيا، من الظلم أن يكون ذا قلب جريح مفعماً بالألم.[4] (شعر)

وفى صباح اليوم التالى مشيت على طريق الخيمة، ولم أشاهد سواى من بعيد فخرجت من الخيمة وامتزجت الحاجة بالدلال، وفيت بوعدى والدعاء لها بالخير.

---

(١) شعر للمؤلف: مهديقلى هدايت: سفر نامه مكة، ص٢٧٨.

(٢) شعر لمؤلف مجهول.

(٣) شعر لسعدى مع تصرف فى بعض الكلمات حسبما ذكر المؤلف.

(٤) الشطرة الأولى لحافظ الشيرازى، والشطرة الثانية للمؤلف حيث استبدلها مع التصرف من قول حافظ "جشم ميكون لب خندان دل خرم با اوست" أى "معه العين بلون الخمر الأحمر بشفاه ضاحكة والقلب مبتهج".
حافظ شيرازى: ديوان حافظ (غزليات)، ص٥٧.

عنيـــزه:

بلغنا منزل يدعى عنيزه فى اليوم الثامن، ووصلت هيئة السكك الحديدية إلى تلك الحدود، وتمنيت أن أرى هذا اليوم فى إيران، وكان "حاجى آخوند مرندى" يسأل مضطرباً على حد قوله فى مجلة "ارمغان" القديمة ماذا تصنع فى طهران ؟ وماذا يصل إليك ؟ أجبت: لى نصيب من بيت المال وحتى يكون حلالاً أبذل جهداً فى تربية بواكير العناصر النشطة.

قطــران:

وطوينا منزلين آخرين ووصلنا إلى قطران، ورأيت محلجاً للقطن وابتهجنا لخلاصنا من الجمال والبغال، وتم توزيع نوع من الطعام عبارة عن لحم مفرى وطحين الحمص كان بصحبة كاظم باشا.

فى يوم الأربعاء الموافق الحادى عشر، وصلنا إلى ضواحى عمان التى كانت على عهد الرومان مدينة كبيرة وبها آثار باقية منذ عهدهم، وقد جاء إلى المحطة جمع من الشراكسة المهاجرين للقفقاز، يقال من "ايروان" و"تفليس"، واجتمع رجال عابثون ونساء مدللات على جانب الطريق بمثابة الشموع بالنسبة لفريق القافلة، وتلك الليلة نحن هنا فى مكان يسمى "درعة". وفى العشاء كنا ضيوفاً على "عبد الرحمن باشا"، وقد جاء قنصل دمشق وبعض الإيرانيين لاستقبال الأتابك، وكان خليل باشا فى استقبال عبد الرحمن، وحضر جمع كبير لرؤية شخصهما حيث يتم تبادل القبلات والتهانى، والمجاملة بين الطرفين.

وكانوا قد ألقوا بالحجارة على القضبان الحديدية على جانب من الطريق الصخرى، وبذلك لا يجوز الاحتياط فى الحركة السريعة، ولا يتحركون أثناء الليل، ونظروا إلى القطار وقد أخذوا بعضاً من أهالى الصحراء أيضاً، وقد استفاد عدد من أفراد القافلة من القطار، وقد فضلت الغالبية

التحرك مع القافلة نظراً لارتفاع أجرة القطار، ولا شك أنه لم يبق هناك مكان.

وصول المحمل إلى دمشق:

فى يوم ١٣ من ربيع الأول، نحن أربعة أفراد من المجموعة السابقة وصلنا دمشق، وكان إسماعيل حقى قد استعد خارج المدينة فى خيمة من أجل استقبال الحجيج، ورافقته مجموعة عسكرية ومجموعتان من الموسيقيين، ولم تكن قد شيدت محطة القطار للآن، اصطحبنا "حاجى على" إلى بيته، وهو منزل جميل بالقرب من سوق الحميدية والمسجد الأموى.

وفى اليوم الرابع عشر قمنا بزيارة رأس الحسين (رضى الله عنه) الذى يقع بجوار المسجد، وللمسجد الأموى صحن طويل وعرضه قليل مسيره من المشرق إلى المغرب قد تم تجديد رواق المسجد المسقوف الواقع إلى جنوبه والذى كان قد احترق أخيراً، والذى كان مسقوفاً بالخشب، واشتغلوا فى صنع إزاره بالطوب الملون والمطبوخ وهو مرتفع جداً وأضافوا إليه الأحجار والأصداف.

وفى جانب المحراب أسفل القبة المزار المنسوب إلى يحيى حيث تم تعميد عيسى، وله ضريح مرتفع، طوله أربعة أمتار وارتفاعه ثلاثة أمتار تقريباً، بين أعمدة المسجد الذى كان من قبل عبارة عن كنيسة.

وفى الضلع الغربى للصحن توجد ثلاث غرف تنسب إلى رأس الحسين (رضى الله عنه) عمارتها فى منتهى البساطة وسقفها عبارة عن قبة، وقد كتب اسم لفظ الجلالة على الطرف القبلى للجدار، وفى الطريق الآخر لفظ محمد (صلى الله عليه وسلم)، وبين هاتين اللوحتين لوحة مكتوب عليها "اعدلوا هو أقرب للتقوى"[١] .

(١) القرآن الكريم الآية (٨) سورة (٥) المائدة.

قلت نفس الكلمة هى سبب تقرب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى الله ونفس الكلمة هى وسيلة تقربنا إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولو أن سعدى يقول: "إن الزينة عار على أهل الطهارة"(١) ، وكان ذلك بناء بمثابة إهانة للأتابك وكان غير مقبولاً بالنسبة له، وأمر حسب تعليمات أرفع الدولة أن يزينوا إزار ذلك البيت مثل المسجد الأموى.

وفى عصر يوم ١٥ جاء القناصل لزيارة الأتابك، وحضر حاجى نظم السلطنة الذى كان قد تخلف من قبل، وكانت هناك أمطار لعدة أيام واليوم تمتزج الأمطار بالبرودة، والطقس رطب ومزعج بصورة كبيرة، والرعد والبرق شديد. وصعدت أعلى منزل عبد الله خان وكنت منهمكاً فى قراءة كتاب "تاريخ نزهة الناظر"، ومن المدارس زرنا مدرسة الحميدية الإعدادية والمدرسة الحربية، وكانت المدرسة الإعدادية أكثر تنظيماً وأبنيتها أكثر ارتفاعاً، وفى مكة والمدينة كانت المدارس الإعدادية منتشرة فى كل أرجائهما.

وكان المكان جدير بالمشاهدة فى سوق الحميدية بالشام، وهو سوق واسع وعلى مكان مرتفع، وفى نهايته ميدان، وفى طرفه الغربى ميدان يؤدى إلى حارة ضيقة على حافة نهر "دمار" حيث متنزه الشام والمواعيد الخاصة والعامة التى تحددها طوائف من الناس حتى يمارسوا العشق. ولم يكن الطقس يساعد الآن على ازدهار السوق على شاطئ دمار، الجبل فى جانب والعمارات العالية وسط حديقة فى جانب من النهر الذى يقل به الماء ويزيد على اختلاف الأوقات، وفى الليل كنا ضيوفاً على الوالى، وحضر جمع قاموا بالعزف على العود "مجال الحجاز مع زوايا المجاز".

وعلى مقربة من المدينة يوجد ضريح ينسب إلى حضرة زينب يقال له "زينبية" قمنا بزيارته وبقينا هناك ليلة، ويمر الطريق فى المدينة بحى اليهود، ولما حل يوم السبت، كان هناك العديد من النساء ينظرن من أعلى الأسقف

(١) الشطرة الثانية لبيت سعدى الشيرازى والشطرة الأولى ترجمتها "ولو أن زيداً ثرى بلا تكلف". سعدى شيرازى: كليات سعدى (بوستان)، باهتمام محمد على فروغى، ص٢٠١.

إلى العابرين، وكن يخطفن عقول المسافرين، وكانت هناك مزبلة خارج المدينة، قالوا إنها قبر يزيد، أرسلنا إليه لعنة، ويمر كل شخص من هناك، ينثر الرمال، حتى أصبح قلاً غير مساو (مسطح) "فسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون"[(١)] .

وكان فى الشام الطبيب حيدر ميرزا الذى ينسب لعائلة "لله" من أبناء الحاكم، فحكيت له قصة ورم قدمى، فضرب بيد على وجهى وقال: من طبعكم العرق بشدة، وكنت قد شخصت حالتى بنفسى، فقد حدث التأثر بالبرودة عن طريق الإحرام وكنت قد عرفت أن العلاج فى ازدياد ارتداء الملابس، وكان حاجى عبد الله قد صنع قهوة ثقيلة مرة أو مرتين وشربناها. ولم تكن أوردة قدمى اليسرى فى هذه المدة بلا ورم أى وقت، خلال الأربعين سنة الماضية. وقد ازداد الورم فى هذا الوقت، وأخذت تتورم القدم، ولففت عليها رباطاً ويقال له "واريس" أى تصير العروق مفتوحة ولا يرتد الدم، وتلك الأعراض ترتبط بالشيخوخة.

وترتفع دمشق عن سطح البحر ٧٠٠ متراً، ويقطنها بالإضافة إلى قراها المتطرفة حوالى ١٥٠ ألف، كما يعتبرون أرضها واحدة من الجنان الأربع، وقد اعتبرها أشخاص من المناطق النادرة، طقسها لطيف، وأهلها ظرفاء، ماؤها كثير، محاصيلها وفيرة، ولهم قدرة فى الصناعة ولهم فى صناعة الأخشاب والتزيين بالصدف مهارة وسليقة خاصة، والمعروفة عند الغرب بـ "داما"، وعند المغاربة "مارك"، وكان المسجد الأموى يسمى من قبل كنيسة يحيى المقدسة، وقد تم تحويلها فى عهد عبد الملك الأموى إلى مسجد، وللمسجد على ضيعة ثمانين عموداً من المرمر الملون مكان الكنيسة.

ومن الأماكن التى كان يجب مشاهدتها قبر السلطان صلاح الدين الأيوبى الذى استأصل شأفة الحروب الصليبية والمبشرين المسيحيين، وبنفس

---

(١) القرآن الكريم جزء من الآية ٢٢٧ سورة ٢٦ الشعراء.

النظرة فإن الإمبراطور الألمانى الذى وضع الصليب الحديدى على قبره فى ٨ نوفمبر ١٨٩٨م. صار موضع لوم الحكومة، إن ديانة صلاح الدين وعدالته جعلت المعاندين يزعنون فلم يتجاوز موازين الجهاد، وفى الخصومة لم يفقد المروءة.

قبل ذلك نقل "الأمير تيمور" أساتذة دمشق إلى أرجاء مملكته، وقد كان السيف الدمشقى مشهوراً ورقيب السيف الهندى، وكان لهم باع كبير وسليفة خاصة فى التذهيب، والنسيج، وكان العطر، والزخرفة، ورواج التجارة، والزيتون الشامى من الفواكه[1] التى لها اسم مرموق.

وفى التاريخ كان أول شخص فتح دمشق هو داود الذى استولى عليها ثانية بجهد سليمان فى الوقت الذى بسط "الآشوريون" سيطرتهم عليها، ثم جاء "الكلدانيون" والإيرانيون، وانطفأ بريقها على عهد "السلوكيديين"، واستولى عليها "طراجان" الرومانى عام ١٠٥ مسيحى، واستعادت قوتها فى عهد "الهادريين" وفى سنة ١٤ للهجرة بسط جيش عمر سيطرته عليها، والمنصور الذى كان يميل إلى بغداد، أزال البريق عن دمشق.

وسلك الأمير تيمور مسلكاً صحيحاً خلافاً لمسلك إسماعيل السامانى فى هراة، وأظهر وجه الأمان، وعندما دخل المدينة، قام بنهبها وأشعل فيها النيران. ثم حكم فى النهاية آخر سلاطين المماليك دمشق، وفى سنة ١٥١٦م سلمت للسلطان سليم الأول، وفى سنة ١٨٣٢م فتح إبراهيم باشا دمشق باسم الخديوى محمد على باشا، مما تسبب فى دخول الدول العظمى، وأجبروا الخديوى على أن يترك الشام وفلسطين للعثمانيين، وكانت منسوجات دمشق مطلوبة ومشهورة فى أوروبا والمعروفة باسم "داما" ونقول مرة ثانية "ما رأيته لا يبقى على

(١) أعتبر المؤلف أن الزيتون من الفواكه، والصحيح أنه يعد من الموالح كالبرتقال واليوسفى والليمون وغيره.

حاله"[1]، والأغرب من ذلك "أن ما تراه لا يبقى أيضاً على حاله" وقرار الطبيعة بلا قرار.

العودة عن طريق بيروت:

يمر الطريق بجبال لبنان التى تتشكل غالبيتها من الغابات، والأرض مزدانة بأنواع النباتات، وبعلبك منزل فى وسط الطريق. وبها بناء عتيق وشعبها رفيق، قضينا ليلة هناك فى بيتوته، ويقال إن بها بناء من صنع الشيطان، ومن المعابد القديمة الجديرة بالمشاهدة أخرجوا بعض أجزائها من تحت التراب بسعى الإمبراطور الألمانى "جيوم الثانى". "وتدمر"[2] مدينة فى حلب تمتاز بالصناعة الحجرية والأبنية المصنوعة من المرمر، وتمتاز بعلبك هى الأخرى بالعظمة.

والغريب أن "بعل" تعنى الأرض التى ليس بها سوى مياه الأمطار، تجرى فيها هنا عين ماء، وقد أطلق اليونانيون عليها اسم "هليوبوليس" أى مدينة الشمس، وقد ترجموا كلمة "بعلبك" على أنها واد مرتفع عندما كانت مدينة كبيرة (عظيمة)، واليوم هى قصبة ترتفع عن سطح البحر ١١٧٠ متراً، ويبدو أنها كانت مكانين، "بعل" و "بك" التى تقع فى متن الوادى، ويتبقى من الآثار القديمة ثلاثة أبنية، وصحن وأطراف أصل المعبد بناء على الساحل يعرف بمعبد الشمس، وفى الجنوب الغربى بناء شكله مستدير محاط بقلعة ذات بروج ومخابئ.

وأصل المعبد بناء من طابقين، الطابق الأول موضع البحر بطول ١٦٠متراً، وفى أطرافها أبنية ودرج يصل إلى أسفل مصنوع من حجر المرمر، وفوقها الأبنية التى بناها "أنتونيوس بيوس"، وتبقى منها هنا إيوان، له عشرة أعمدة بارتفاع ٢٠متراً وقطره متران بفاصل أربعة أمتار من الجدار، ومغطى بقطع حجرية تقوم

---

(١) هذان بنفس ترتيب البيت من إحدى قصائد سعدى الشيرازى.
سعدى شيرازى: كليات سعدى (غزليات)، ص٣٣.

(٢) تدمر، أو بالميرا، مدينة تقع فى الشمال الشرقى من دمشق فى واحة بادية الشام التى كانت عاصمة الملكة زينب وهى مركز تجارى وتقع أيضا على طريق التجارة حسبما ذكر المؤلف.

من الحائط إلى الأعمدة. ومتنه مقسم كالشطرنج، وكانوا قد أخرجوا من بين كل جزء نصف جسد آدمى، وكل النقوش والصور مصنوعة من الجرانيت، والناس بلا ذوق ومتعصبين ولا يجوز لهم أن يتقيدوا بالصنم الذى هو الأصل بالنسبة لهم.

ولا شك أنهم قد حطموا تلك الهياكل بضجر شديد، مثلما كان أهل الحضارة الصينية قد عبدوا الأصنام فى قصر خاقان الصين ، فالعرب منذ أن كانوا من ألف عام مضى، هم هؤلاء اليوم، وسقف الإيوان والجزء الداخلى للطرفين مصنوعين من قطعة حجرية واحدة كالقماش، عرضها خمسة أمتار وطولها مختلف يصل حتى سبعة أو ثمانية أمتار والأعمدة كلها كقطعة قماش. وفى الطرف السفلى من الجبل شوهد حجر فى مكان حيث كانوا قد قطعوه من هناك، يتجاوز العشرين متراً فى الطول، ويصل قطره من كل جانب أربعة أمتار وكان قد اقتطع من الجبل وله فاصل ذراع.

وفى سنة ١٤ هجرية، فتح أبو عبيده بن الجراح بعلبك، وفى سنة ٥٣٤هـ سقطت فى يد "بن زنجى"، ثم فى أيد أيوب والد صلاح الدين[1] ، وفى سنة ١١٧٣ هجرية كانت قد بقيت آمنة من غارات العرب والأتراك والتاجيك، وضربها الزلزال.

تطل بيروت من جميع جوانبها على شاطئ البحر الأبيض وجوها نقى ومناظرها خلابة، وتلقى سفينة ضخمة حمولتها على بعد فرسخ ونصف من الشاطئ، ويروج كل من الكاثوليك والبروتستانت للمسيحية فى هذه البلدة، وبيروت مركز هام فى نشر المطبوعات، وتوجد بها مدارس ومستشفيات من قريب أو بعيد، وجاء لزيارة الأتابك جماعة هنا من الشباب الإيرانيين يقومون بطلب العلم، والتقطت صورة جماعية لفيروز ميرزا وأبناء الحاكم الآخرين ومعظمهم من الطلاب.

---

(١) المقصود نجم الدين أيوب حسبما ذكر المؤلف.

قام "انتيوخوس" بتعظيمها وتعميرها، أما ديودوتس طريفن فقام بتخريبها عام ١٤٠ ق.م، وقام "اجريبا" بتعميرها ثانية، وجعلها أغسطس ميناء عسكرياً له، وصارت مركزاً لتدريس القانون، وفى المائة الرابعة كانت مرتعاً للمسيحية، وقد كانت حلبة للصراع فى الحروب الصليبية، وفى النهاية حل الخراب ببيروت، وفى عام ١٨٤٠ قصف المسيحيون معسكرات الجيش بالقنابل بالاتفاق مع الحماية العثمانية.

وتصل السكك الحديدية بيروت بالشام، وكانت الأيام القليلة التى قضيناها ببيروت قد مضت حسنة وجميلة، أراد الأتابك أن يشاهد بيت المقدس، و"المسجد الأقصى الذى باركنا حوله"[١] . مضينا إلى يافا، وهى عبارة عن ميناء شبيه ببيروت، مبهج ومثمر، وتعد الجنسيات المتواجدة بحدوده من أفضل الأجناس المعدودة، ولها شاطئ على البحر، ومعابرها ضيقة، وبها شارع واسع على جانب الجبل، وهنا منازل السفراء والمدارس ودور الحضانة، وتبدو روعتها فى تزاحم زوار بيت المقدس، وهى مذكورة فى التوراة باسم "يوبه".

وفى زمن الفينيقيين كانت البحرية قلعة مأمونة من اللصوص، وقد خربها سبازيان، وفى سنة ١٤ للهجرة فتحها العرب، وفى عام ٤٩٣هـ هزم الصليبيين حيث وضعت تحت الحكم المصرى فى عام ٦٦٥هـ، وقطعت أقدام الأوربيين من هناك، فى مارس ١٧٩٩م اقتحمها جيش نابليون المسيحى وغار على يافا بوحشية، وفى النهاية ضمها محمد على باشا إلى مصر، وعادت إلى العثمانيين بمساعدة الإنجليز والنمسا فى عام ١٨٤٠م. وكان الأهالى يطلقون على هدوئها فى القرون الوسطى "سارازان" التصحيف الشرقى بالأسبانى والبرتغالى.

(١) القرآن الكريم جزء من الآية (١) سورة (١٧) الإسراء.

بيت المقدس:

فى السابع والعشرين من ربيع الأول نقلنا بالقطار قبل بيت المقدس، ويقع بيت المقدس على سطح جاف، ومن هناك كانت الخضرة التى على سفوحه تشرف على الساحل مما يدعو إلى التمتع بالمناظر الخلابة وليست هناك آثار، وشوهدت عمارات متفرقة، وحضرت فرقة عسكرية فى المحطة، وكان الوالى قد جاء أيضاً للاحتفال برجال الدين وبعض الأعيان وبدا عليهم الاحترام. وركب الأتابك والوالى فى عربة يجرها جوادان ويقودها سائق والآخرون فى عربة أخرى وذهبنا إلى الفندق، وكانت جماعة من الأهالى قد اصطفوا أمام مدخل الفندق، وتقدم الحراس على عادتهم.

وكان هناك محل للتحف الصغيرة فى مدخل الفندق، وجاء الوالى إلى الفندق، وذهب بعد تناول الشاى، والفندق هنا أفضل من فندق بيروت ويافا، وكانوا قد أعطوا الإمبراطور الألمانى فى حفل استقباله رأس وصورة، ومن الأشياء الرائجة هنا والتى تشاهد بكثرة التسبيح على طريقة الكاثوليك الذين لديهم صلبان فى مكان يسمى "شيخك"، وتوجد فى صحراء تلك المناطق قطع الماس صغيرة بألوان مختلفة يصنعون منها المسابح.

يقع المسجد الأقصى على قمة هضبة وعدة أسطح إحداها على الأخرى، وقد احتل مسجد عمر موقعاً على أعلى القمة، وعلى الجانب الشرقى لهذه القمة يوجد واد، ولم يبق أثر من مسجد سليمان، وقد استخدموا أعمدته فى مسجد عمر، وكلها من حجر المرمر الملون، وفى متن المسجد قبة مثل رأس الجفنة النحاسية الفارغة على هيئة دائرة حول تلك الأعمدة، وصخرة نفس القبة التى من تحتها فراغ.

وقد أطلقوا على هذا المكان اسم (بيت المقدس) و "أورساليموا" (فى الخطوط المسمارية) وفى خط الطير "شلم" باللغة اليونانية، والرومانية "هيرسوليما" فى التوراة "يروشالايم" بمعنى "قصر السلام". وأطلق العرب على

المكان "القدس الشريف"، وقد أطلقوا اسم الوادى الشرقى على وادى "تدرن" واليوم يسمون ذلك الوادى، وادى مريم الصدوقة، وقد أطلق عليه بنو إسرائيل الذين وصلوا لهذا المكان اسم "يبوس"، وعندما اعتلا داود العرش، أضاف إليه سليمان التوسعة والزينة، وقد كان قصر سليمان مكان مسجد عمر، وفى الركن الشمالى الغربى يوجد مسجد سليمان (الأقصى) حيث لم يبقى منه أثر، وفى سنة ٥٨٦ ق.م استولى عليه "بخت النصر"، وعندما أطلق كيخسرو[١] سراح اليهود من القيد، قاموا بتشييد بيت المقدس، وفى سنة ٧٠ بعد المسيح، وصار بلاء اليهود سبباً فى سعى "طيطوس" و "هادريان"[٢] إلى تخريب المدينة، وفى سنة ١٣٠م صارت معسكراً للرومان، وعرفت باسم "الياكابيتولينا" وابتعد اليهود عن المدينة، وشيدوا معبد جوبيطر (كابيتلينوس).

فى عام ١٧ هجرية وقعت تحت سيطرة العرب وأطلقوا عليها اسم "القدس"، وبقيت مدة أثناء الحملات الصليبية تحت سيطرة المحاربين المسيحيين، وقتل سبعون ألف مسلم طبقاً للتعاليم المسيحية، وسلب أثاث المسجد، وجعلوا المسجد حظيرة للخنازير فى سنة ٥٨٣ هجرية حتى عهد صلاح الدين، وجعلوا السياح الفرنسيين والإنجليز والألمان يتجسسون فى المكان، وقد استولوا على مخطط المدينة القديمة، وجعلوه تحت تصرفهم، كان بيت المقدس قبلة الإسلام فى البداية، ومنذ ذلك الحين نال المنزلة الرفيعة فى التكريم "وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين"[٣] .

ويختلف ارتفاعه عن سطح البحر باختلاف ما بين ٧٢٥ إلى ٧٨٤ متراً وطقسه جميل يقل به الثلوج، ومن محاصيلها النارنج، والبلح، والتين، والموز وهى من الفواكه السهلية والجبلية والتى تنمو بتلك المناطق، وبيت المقدس مشتى ومصيف أيضاً، وفى التوراة فإن بيت المقدس عبارة عن طست من الذهب

---

(١) المقصود بكيخسرو قوروش.
(٢) تيتوس (٧٩ حتى ٨٣م) وآدريانوس (١١٧ حتى ١٣٨م) من أباطرة الرومان.
(٣) القرآن الكريم الآية (٥) سورة (٢٣) المؤمنون.

مملوء بالعقارب، ولم نر العقرب أو الذهب، أعطينا الذهب للدنيا ومضينا، ماؤه قليل وكان به برك بحيث يستفيدون بها من مياه الأمطار، وكانوا يجلبون المياه من مجارى خاصة من بركة بنى إسرائيل، وبركة سليمان، وبركة عياض التى تكثر بها الحمامات فى أطرافها.

مسجد عمر:

يقع الحرم الشريف (مسجد عمر) فى الصحن المقدس إلى الجنوب الشرقى من المدينة وهو عبارة عن ثمانى خوذ على مصطبة بارتفاع ثلاثة أذرع حيث يصعدون على درجها المصنوع من المرمر، وسطح الإيوان بلا سقف مفروش بمرمر لونه أزرق مشبع (لازوردى). وطول الإيوان الغير مسقوف ١٦٠ متراً وعرضه يختلف من ١٢٥ – ١٥٥متراً وارتفاع قبة المسجد ٣٠ متراً وقطرها ٢٠ متراً، وأساس القبة مقام على أعمدة مرتفعة مصنوعة من المرمر.

السقف والآثار التاريخية المنقوشة من الموزايكو (على شكل خاتم) مصنوعة من الأحجار الملونة، والصخرة بالصورة التى قلناها عبارة عن قبة على هضبة وتحتها فراغ، فضاء بدون أى زينة، وسقفها يقترب من المتر فى السمك، وله تجاعيد مرفوعة، وقد أضاءوا أسفله بالشموع، وارتفاعها ذراعين، وعلى أطراف الصخرة رواق واسع، وقد قطعوا جزءاً من الصخرة الضخمة بين الأعمدة والجدار، ووضعوها على الحافة، وفى الوسط صورة لقدم منحوتة، يقال إنها مكان قدم الحضرة (عمر)، مثلما يكون مكان قدم إبراهيم فى مقام إبراهيم.

وفى أطراف القدس قصص كثيرة قديمة وحديثة تحكى عن اليهود والنصارى والمسلمين، وقد مضى ما يقرب من ثلاثة آلاف عام حيث كانت تلك المنطقة محل اهتمام أنظار الديانات. توجد أربعة أطراف للقبة الأصلية وأربع قباب صغيرة هى: قبة السلسلة، وقبة المعراج، وقبة الخضر، وقبة النبى وكلها

من حجر المرمر المزين، وكل واحدة لها زيارة خاصة. من الأبواب الأربعة يشاهد الخطر وباب السلام، ويسترعى الانتباه أن كل زاوية لها متسع.

وفى الجنوب سور خاص به سرداب بعرض ٢٠متراً وبطول ٥٠متراً وارتفاع خمسة أمتار أساسه مغطى بفأرين من الحجر، ومكان أشبه بالسجن، ويقال إن المسجد الأقصى كان فوق هذا السرداب، ووادى جهنم عبارة عن زاوية أيضاً من الصحن.

الجدار الغربى محاط بسور ويبدو أن معظم الآثار القديمة قد شيدت من قاع الوادى الغربى أو الشرقى، ومن المعتقد أن ارتفاعه يبلغ حوالى ٢٠متراً، ويقع أساس الحائط فى أرض منخفضة على شكل مصطبة حيث يتضرع اليهود عند قدم ذلك الجدار، ولا يسمح لهم بالدخول إلى درب المسجد، حيث يعلمون أن قبور بعض الأنبياء فى متن المدخل (داود)، ويخشون أن تمر أقدامهم على القبور، وقد منع اليهود والنصارى من الدخول إلى المسجد منذ ما يقرب من ستين سنة، ولا يدخل اليهود إلى داخل السور نظراً للملاحظات السابقة، ولسور القدس أبواب متعددة، بابين بالدائر هما باب النبى، وباب داود، ويحظر تردد اليهود عليهما، ولحسن الحظ أن كان "باب حنطة" مسدوداً ولا حاجة للمضاعفة.

ويبدو بالنظر أن طول سور القدس يبلغ ألف ذراع وعرضه سبعمائة ذراع تقريباً، يقال عندما تم بناء المسجد وصل نداء أتريد شيئاً منى، تخلص سليمان من ذنوبه ثم طلب وأجيب وقبل العفو عن ذنوبه بدخوله إلى المسجد "وفيه نظر"، وتاب فى ذلك المسجد الذى كان وصوله إليه يمحو الذنوب، ماذا يجب القول فى قاتلى عيسى الذين دخلوا جميعهم إلى المسجد ؟ وإذا كانوا يقولون إنهم داخلين وادى جنهم، يذهبون إلى الجنة دفعة واحدة، كان كلاماً "وإن منكم

إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً"[1] ، فوادى جهنم طرف الحياة هو مجابهة الصعاب بالشكر والرضا.

فى البداية جاء عمرو بن العاص إلى فلسطين من قبل عمر، ثم تبعه فى عام ١٦ هجرية أبو عبيدة بن الجراح، طلب الصلح واشترط أن يحضر عمر المصالحة بنفسه، فجاء عمر إلى بيت المقدس سنة ١٧ هجرية، وأعد أصحابه جملاً ممتازاً مزيناً بالسرج من أجل وصول عمر، فركب عمر وذهب بعد فترة، نزل واختار نفس الجمل الضامر، وقال تكبر الجمل الآخر. وكان أهل الروم يأتون للزيارة طبقاً لبيعة "قمامة"، وتوجد فى وادى ستى مريم مغارة واسعة فى متن الوادى الشرقى بها عدة درجات وسور مستدير أشبه بالمغارة تحت الصخرة، سقفه قصير. وقد قطعوا فى الجانب الشرقى إيواناً من الحجر وفى وسطه مصطبة على طرف الباب معروف بقبر مريم.

جبل الزيتون:

فى متن الوادى حجرات مجردة قد أدخلوا فيها الأحجار وقد كانت قبور العظماء، ومن المعروف أن فى الأزمنة القديمة كانت تلك الأطراف مشجرة بأشجار الزيتون حيث أطلق ذلك الاسم على الجبل، ويبدو واضحاً من هنا بريق نهر منتن ويسمى نهر (الأردن)، وكان أعلى جبل الزيتون "خانقاه" حقير، وأقام فى ذلك المنزل رجلاً ظاهر الصلاح وصوفى المسلك، وقد نسيت اسمه، قيل إنه مكان عروج الحضرة.

ويدور حديث كثير حول المعراج، يتنافى الجسمانى مع "أينما تولوا فثم وجه الله"[2] ، وقد اعتبره رجال الصوفية روحانى، وقد كان هناك وجه "لأبو علىسينا" أيضاً حيث قد ذكرته فى كتاب "أفكار الأمم":

---

(١) القرآن الكريم الآية (٧١) سورة (١٩) مريم.

(٢) القرآن الكريم جزء من الآية (١١٥) سورة (٢) البقرة.

- قرب الحق ليس سوى الرفعة، والتحرر هو قرب الحق من قيد الوجود.[1] (شعر)

وتكثر فى بيت المقدس الكنائس، والأديرة، والمعابد، سواء فى منتصف المدينة أو على أطراف الشوارع الشهيرة بها "ويادلورزا" معبر الحزن والألم، والأماكن المقدسة فى بطن هذا الشارع، وكان عيسى مختفياً فى مكان ما، وقد حملوه فى مكان بالقرب من المشنقة، مكان قد صار ظاهراً إلى مريم البجدلية[٢] ، ومكان آخر على أمه، والخلاصة أن لكل خطوة عنوان، اشتريت مسبحة من أحد الدكاكين الموجودة بمدخل الفندق كانوا قد خرطوها من الحجر السماوى ذو اللون الجميل، وعدة مسابح من الصدف وألبوم كانوا قد رتبوا صفحاته بصور ونقوش من الورود والأعشاب الجافة.

بيت لحم:

بيت لحم عبارة عن قصبة تقع فى الطرف الجنوبى للقدس على مسافة ثمانية كيلو مترات وترتفع عن سطح البحر ٧٧٢ متراً، وهو مكان ولادة داود وعيسى، ويترجمون بيت لحم بمعنى بيت الخبز والحال أن اللحم معناه كوشت بالفارسية، ومن المعلوم أن عيسى عليه السلام قال: الخبز لحمى، والشراب دمى، واليوم يحتسون الشراب بنفس النية فى عيد الشكر ويأكلون الخبز، ويعيش فى بيت لحم حوالى ٥٠٠٠ نسمة معظم من اليونان والأرمن والرومان، وقليل من البروتستانت، وجمع من العرب، والحكومة مع المسلمين، وقد شيدوا فى مكان ميلاد عيسى ثلاثة أديرة تتصل ببعضها بالقرب من المغارة التى ولد بها عيسى.

---

(١) شعر لمولوى مع التصرف.
جلال الدين محمد بلخى: مثنوى معنوى، تحقيق عزيز الله كاسب، ص٥٢٥.

(٢) ذكرها المؤلف كذلك واسمها الحقيقى مريم المجدلية.

ولليونانيين والرومان والأرمن لكل منهم دير، ويسيرون على خلاف بعضهم البعض، واليهود يختلفون عن الجميع، "لا نفرق بين أحد من رسله"[1] .

وبين الأديرة ثلاثة أنماط من الكنائس على شكل الصليب الذى قد صنع باسم مريم، وفى سنة ٣٣٠ تم تشييده بناء على أوامر الملكة "هيلين يوستينيانس"، وأخيراً وفى عام ١١٦٩ استخدموا فيها حجراً مستديراً على شكل خاتم، وبها ٤٨ عموداً من المرمر تحت محراب الغار تؤدى الأديرة الثلاثة إلى هذا الطريق، ويضىء ٣٢ فانوساً فى هذا المكان بصورة دائمة، ويرى إلى جوار الكنيسة حفرة طولها ستة أمتار وعرضها خمسة أمتار، كفها على سطح منحدر وقرد يأكل، وعند الدخول وعلى اليد اليمنى، قد أدخلوا قبة من الحجر بارتفاع متر من الأرض، وفى النهاية غرفة أخرى مثل كف الأرض بعمق ذراعين والتى قيل إنها مكان ميلاد عيسى، وكان هناك قسيس فى حالة هدوء واستكانة، ودخلت اثنتا عشرة فتاة على ما يبدو فى سن السابعة عشرة أو الثامنة عشرة وفى يد كل واحدة منهن شمعة، قيل حفرة السماء مملوءة بالقمر والزهرة ونحن مثل المشترى، ونظرنا فى تلك الزمرة بدقة متحيرين، وجوههم كالقمر المقوس الحواجب وذوابئهن كالعنبر، وهم يقفون أعلى الغرفة العليا، وكن يدعين باللغة اللاتينية، ثم مررن من أمامنا وهن يخطفن القلوب، يضربن الركبة فى الأرض أمام الغرفة السفلى وهن يدعين "يا ليتنى كنت تراباً"[2] ، ومضين عائدات وحملن قلوبنا معهن، يقول سعدى:

- أنت تذهب ولا تدرك، وفى أعقابك القلوب والأبصار.[3] (شعر)

"رب أعوذ بك من همزات الشيطان"[4] وبجانب هذه المغارة كانت هناك أرض منخفضة خربة، وموضوع صليب مكسور ومنزوى على حافة الأرض المنخفضة مثلما كانوا يعتقدون هو نفس الصليب الذى دقوا عليه مسمار

(١) القرآن الكريم الآية (٢٨٥) سورة (٢) البقرة.
(٢) القرآن الكريم جزء من الآية (٤٠) سورة (٧٨) عم.
(٣) سعدى شيرازى: كليات سعدى (غزليات)، باهتمام محمد على فروغى، ص١٦١.
(٤) القرآن الكريم الآية (٩٧) سورة (٢٣) المؤمنون.

عيسى، وكان واضحاً من رؤية الرهبان ضمن البيان أنه يعد أمرهم أضحوكة، وفى الأطراف كانوا قد زرعوا عدة أشجار من الزيتون وقد اخضرت بتلك المناسبة.

وطبقاً للخبر فإنه قد بشر الملك بميلاد عيسى بحظيرة الغنم، وكل زاوية لها عنوان، وكان معبد إبراهيم فى أحد الأماكن، وكان ليعقوب مكان فيه، وفى مكان ما كان داود يرعى خدم أبيه، هكذا تقول الرواية، رأينا هذه الأماكن وعلمنا، ولم نكن نعلم أماكن تلك الدمى، وكان لابد من ترك رسم وداع للمكان مع القسيس، وحصلنا على إذن، وينعم الناس بالماء الصافى والألوان، وخطف القلوب للجمال، وللأسف أن الوقت لا يمضى ببطىء، فيجب المشاهدة والمضى قدماً، شاهدنا وغادرنا "من وادى إلى وادى ومن منزل إلى منزل"[1]، وكلما أضيف من مليح الكلام، وأخشى من تعب عقول قرائى الأعزاء، ولا تصل تلك الفتيات المليحات اللاتى كن إناث غزلان فى غابة الذئاب.

العودة إلى يافا والتنزه بأثينا والوصول إلى اسطنبول:

وفى العودة إلى يافا لم تكن هناك باخرة إلى اسطنبول، وكان يجب الذهاب إلى سعيد (بور سعيد)، وهو عبارة عن ميناء محاط بالماء وفى نهايته اليابس، وبسبب انعدام الأشجار فإن ضوء الشمس ينعكس على عماراتها الكثيرة، وشوارعها واسعة وبها دكاكين كبيرة.

وكانت مصر جزء تحت وصاية الحكومة البريطانية، وفى السفر إلى اسطنبول شوهدت "أزمير" من بعيد، وكانت هناك فرصة للبقاء لعدة ساعات هناك ولم نعطى إذن بالنزول إلى الحجر الصحى، وتقع المدينة على الساحل الذى يشرف على البحر، أطرافها خضراء مبتهجة، وكانت أثينا أيضاً على

---

(١) إشارة إلى هذا الشعر المتداول على الألسنة فى إيران حسبما ذكر المؤلف:
ذهبنا وحملنا ريحك فى القلب   من وادى إلى وادى ومن منزل إلى منزل.

الطريق وكانت فرصتنا قليلة، نزلنا فى جولة بعربة يجرها جوادان ويقودها سائق، وبدت لنا "آكربل"[١] التى شاهدناها من بعيد وكان يغلب على طابعها العظمة ومازالت للآن أغلبها من المرمر الأبيض.

وتقع على هضبة فى جنوب المدينة، وكان هذا المكان يمثل ذكرى للأرباب من كل نوع، موضوع "الإلياذة والأوديسا" لهوميروس، وفى اسطنبول كنا فى ضيافة أرفع الدولة، وأبنية السفارة ملك للحكومة، وذكرى "ميرزا حسين خان"[٢]، عمارة مرتفعة يحتاج أثاثها للتعمير والترميم، يدعونا كل يوم على مائدة حسنة القبول فى جزيرة "برنكيبو"، الماء عذب من ناحية آسيا، "بيوك درة" وغيره، وذهبنا للتنزه فى حديقة "دلمة باغتشه" وذهبت بمفردى لمشاهدة كنيسة "آيا صوفيا" والمتحف.

تقع اسطنبول على جانب بحيرة "مرمرة"، المواجه لطرف آسيا، وعلى امتداد النظر توجد "اسكوتارى"، ولاسطنبول بوغاز اسمه "شاخ طلا" أى "فرع الذهب" وينقسم إلى قسمين، وأماكن التنزه جميلة وهى متوفرة بأطراف المدينة، وإناسها ممتلئين.

وذات يوم نقل أرفع الدولة وهو على السفرة من كتاب "بير لطى" أنه قد اشتكى من أن انتشار العادات الأوربية فى إيران يؤثر على عادات الشرق بها، وبخصوص وضع السفر ثم القضاء على السياحة بالجمال، والبغال، والحمير عن طريق وسائل النقل الحديثة والقوافل. قال الأتابك: أقول ذلك ويعارضونه وعلمت وجهة نظره بالنسبة لى، قلت: إلى متى نصل إلى نهاية الطريق بالجمال والبغال والجياد الهجينة والحمير، ولهذا السبب يجعل "بيرلطى" رحلاته طريفة ومليحة، كما يضفى على صورة الماء والضياء (القلب والروح)، وتعد اسطنبول

(١) تبه ارتفاعها ٨٠متراً فى أثينا، وتعد آثارها المعمارية فخيمة وقديمة.
(٢) المقصود ميرزا حسين خان حاكم قزوين سفير إيران فى اسطنبول ورئيس وزراء إيران فى عهد ناصر الدين شاه.

من أجمل البقاع في العالم التي شاهدتها، وقد قدمت في كتاب "تحفة الآفاق"[1] شرحًا لجغرافية وتاريخ الممالك الأوربية.

السفر إلى أوربا :

تعجل حاجي عباس، وحسين خان، وعبد الله خان مغادرة اسطنبول فى طريقهم إلى طهران، أما الأتابك، وميرزا أحمد خان، وأبو الفتح خان، وأنا فقد غادرنا متجهين إلى "فيينا" وبرفقتنا وثوق حضور، توقفنا فى بودا بست لمدة أسبوع، وهى مدينة على ساحل نهر الدانوب، ووادى ناحية النهر والجبل على الناحية الأخرى، وعلى طول النهر يمتد شارع وأبنية مرتفعة تطل على هذا الشارع، نزلنا في فندق "أونجاريا"[2]، وذات يوم ذهبنا إلى قبر "جول بابا" على الطرف السفلي للجبل وينال منزلة عظيمة لدى الأهالى، حيث منع القتل العام على عهد السلطان سليمان، عاش في "بود" ومات بها، وفي عهد حكومة محمد باشا شيدوا بناءًا على رأس القبر وهو الموجود حاليًا.

وقد كان للمدينة منظر قديم، وقد شيد إمبراطور النمسا إيوانًا مرتفعًا أمامه، ويظن أهالي المدينة أن هذا الإيوان هو لتكريم "جول بابا" الذي كانت تربطهم به علاقة. ويجوز (وكان من اللائق من أجل إخفاء ذلك المزار) أن يكون أهالى "بودابست" فى جمال أهالى بيت لحم، وكان من الواجب مشاهدة حورية على شكل ملاك في المغارة، وتومس مقهورة، وهنا يمكن حد قول احتشام السلطنة يريد الحافظة والوسط، "ازيوداوارا" والفناء محاط بسور على غرار "يوشى وارا" في طوكيو، على طراز آخر.

وفى فيينا طلب الأتابك أن نفترق عن بعضنا البعض، على أن يذهب كل شخص حسب هواه، فذهب الأتابك إلى "كارلسباد"، وغادر ميرزا أحمد خان إلى "طيرل"[3] ،

---

(١) اسم كتاب للمؤلف فى تاريخ وجغرافية الممالك الأوربية.

(٢) اونجاريا: كلمة إنجليزية معناها دولة المجر وعاصمتها بودابست.

(٣) تيرل: ناحية فى الألب موزعة بين سويسرا والنمسا وإيطاليا.

وأنا إلى سويسرا، وهى ليست كتلك التى كنت قد رأيتها منذ ثلاثين عاماً من قبل، مكان الحرية، وعدم التقيد، والرخص، والتكلف، والقيود والعزة.

ذهبت إلى فندق على أطراف المدينة كنت قد عرفته منذ ثلاثين سنة من قبل. وكان يتكلف الفرد فى الغرفة السابقة المطلة على بحيرة فى الدرجة الأولى مع الغذاء والعشاء سبعة فرانكات ونصف فرنك، فى حين كانت الغرفة المطلة على ظهر البحيرة بدون الغذاء والعشاء تتكلف إقامة الفرد فيها ١٨ فرانك، وللفنادق المطلة على الساحل موسيقى فى الصباح والعصر مدفوعة الثمن، ويقضى المشترون أوقاتهم فى شراء الملابس خلال فترة الصباح والظهيرة والليل، وتنتشر آداب باريس ولندن، ويمارس العشق والمسخرة والخلاعة فى كل زاوية ولا حاجة للتمهيد لذلك.

بقيت أسبوعاً وغادرت بعدها إلى "كارلسباد"، ويا ليتنى لم أكن لأذهب إليها، لقد غادرها الأتابك إلى النرويج، كان وثوق حضور فى "كارلسباد"، قال لقد وصلت برقية من طهران مضادها أنه عليكم أن تغادروا إلى طهران، وجئت أنا إلى برلين، وذهب البعض بصحبة معارفهم لتناول الكؤوس والسكر، وكنت معروفاً فى برلين أكثر مما أنا فى طهران، وحدثت صداقة مع احتشام السلطنة، تقابلنا كثيراً وتحدثنا عن أوضاعنا المضطربة.

وصل مظروف من أخى مخبر الملك كتب فيه يقول: لقد استاء الملك مظفر الدين شاه من صنيع الدولة، قائلاً: لماذا لم يعد فلان ؟ وتعجبت أننى لم اصطدم بمظفر الدين شاه إلى هذا الحد، ولم يكن عملى يحول دون أن يبقى معطلاً، نحيت هذا الكلام جانباً، والأمر يتطلب الآن تأشيرة خروج، وإلى متى تصير الإجراءات بالقروض وأحسست بمشاعر السفر، وكنت قد اشتريت تذكرة، وسددت رسم الوداع مع احتشام السلطنة، وبعد قليل حملت أمتعتى وذهبت للمغادرة، وغادرت برلين بعد صباح آخر، وفى الليل كان "اوانس خان" مستشار السفارة قد علم من منزله أن الأتابك قد وصل، ولم يكن السفر مستملحاً، بقينا أسبوعاً، وعند اللقاء اقتربت الصحبة من العودة، وتذكرت ثلاث جهات للعودة، البرقية والخطاب والنفقات الغير مطلوبة ورؤية الوالدة

المريضة، ورفض الأتابك السببين الأولين، وصدق على السبب الثالث، وبعد مضى أسبوع غادروا إلى "ويسباد"، وجئت أنا إلى فيينا، وبقيت أسبوعين للعلاقة التى كانت واحسرتاه لم تتم.

- **ضفائر شعر الحبيب حلقة فخ البلاء، ولم ينج كل من فخ هذه الحلقة من هذه الأحداث.[1] (شعر)**

فكرت أن توديع الأتابك حسب الأعراف ليس بشىء بديع، فذهبت إلى "ويسباد" بعرض التوديع، فكنا سوياً ثلاث ليال، وازداد خجلى عندما استقبلنى ضيوفى الأعزاء، وخرجنا للتنزه، وفى الليل ذهبنا إلى المسرح، وكان موضوع قصته المسرحية بحث فتاة وولد عن مساواة الرجل والمرأة، وفى اليوم التالى غادر الأتابك بهدف السفر إلى تونس بمفرده، وأنا غادرت إلى فيينا، وفى أثناء الحديث قالوا إننا نتعرض فى السفر لأطوار، لا يجب أخذها بالقلب، فقلت إنه لا يأتى من القلب سوى اللطف والرحمة، وتقوى إرادة العبد أكثر مما كانت عليه،.

وقد جاء وثوق حضور إلى فيينا، وقد دعانى ذات يوم سفيرنا صفاء الملك وهو رجل صوفى المسلك وعلى خلق كريم إلى مجلس الصحفيين، وكان هناك جمع من الصحفيين من ضمنهم سيدة كانت ترغب فى الحديث أكثر من الآخرين، الملاذ لله من المرأة التى تنسج السياسة، والواقع أن الألمانية هى الطرف الغالب بالنسبة لى، واستمر المجلس بحديث مع السيدة، وكانت تشكو من أوضاع النمسا قائلة إن أساس حكومتنا قيام فرع للمكتب البيروقراطى، وهذا ليس له طول وعمق، تحملنا احترام إمبراطورنا العجوز وقدمه التى اندثرت، سنضرب الجهاز بكل قوة، وكذلك الزمان حتى لا يتيسر اجتماعه مرة أخرى، وهنا قد "وضع بحكم الضرورة خاتم القناعة على

---

(١) شعر لسعدى الشيرازى.
سعدى الشيرازى: كليات سعدى (غزليات)، باهتمام محمد على فروغى، ص٢٦.

القلب"[1] والتصميم على التحرك بجزم، ونزل صفاء الملك، واعتلاء الملك، ووثوق حضور وبعض الإيرانيين من العربة إلى الأرض وقاموا بتقبيلها، وركبوا السيارة فى حديث ودى ثم تحرك القطار بإشارات المنديل، حتى انطلقنا وتم التوديع. وهنا انتهت الرحلة حول الكرة الأرضية بقصد زيارة بيت الله الحرام، وعدنا بحول الله وقوته إلى الوطن المألوف، ويتوجه تمام كل شئ من الحواس ناحية طهران، أى إدراك لوصول البرقية، وأية حكمة كانت تدور بخلدهم لتأكيد الاخوة فى العودة.

وكان أحد المعارف قد أوصى بأن تقرأ فى مواضع الصعود إلى السفينة الآية: "فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجينا من القوم الظالمين". وصلنا كل مكان ولم نر سوى الظالم، حول الكرة الأرضية الظلم فى الجو، أين نذهب حيث نصان من الظلم، وأطلق الربان الصفارة وهو على ظهر السفينة.

شعــر

- أي المنازل التي رأيناها في المغرب والمشرق، مررنا من الصين واليابان ومن طريق أمريكا.
- ما أكثر الماء وما أكثر التراب الذي رأيناه في هذا الطريق، طالما كتبنا أي مسافات تبعد أرض أوربا.
- حول الكرة الأرضية شاهدنا كروفر البشر، وذلك الذي شاهدناه في عقولهم يجعلنا في الجنة.
- ومهما كان الفندق مسكننا في صباح، فقد سجلنا كل مكان في سجل الذكريات.

---

(١) إشارة إلى بيت للشاعر لبيبى.
محمد دبير سياقى: لبيبى واشعاراو، ص١١.

- أي ثمرات قد أكلناها من مزارع الدنيا، ولم نزرع بذرة في مزرعة الدهر.
- عندما نري الطيب في السلوك والعمل، فلو أنه في الشكل طيب فالكل قبيح في المعني بالنسبة لنا.

والقطعة التي قد أرسلها لي صديق الخلوة "محمد إبراهيم خان محلاتي" رحمة الله عليه هي:

- أصير مثل تراب الطريق في كل لحظة تهب فيها الرياح من حولنا، فمكان البرد له مستقر وهو لاعب كرة من حولنا.
- فلا جرم إن لم أطلب النعمة، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وإلا في اليوم الذي يعود فيه قمر الدنيا إلي سفرنا.
- في كل مكان بصحبة أصدقاء الخمر الوردية، أين تعلم عن حال حرقتنا ووجهنا الشاحب.
- في كل مكان يكون شمع الجمع محفلاً مع الوجوه النارية، فأي خوف لك من ليلة مظلمة وليل وتفردنا.
- مثلما تقول إن رأسي لا تتحمل طبيعة العصا المعكوفة لضفائرك، فليس في ميدان عشقك خصم لنا في المعركة.
- أحياناً تعشق ملأ الخانات الست في لعبة النرد وموت الوجوه القمرية أحياناً، متي تخبر عن لعبة الشطرنج ونردنا؛
- لا أدعو ملك ملوكك حيث أنك بالنسبة لنا روح الأرواح، وفي الحب والوفاء ليس الرجل رجلنا.

يعتقد الأصدقاء حسب العادة أننى لا أتعامل مع الخمر الوردية، فأحياناً يحدث حرج مع البسطاء ذوى الوجود النارية دون طلب اختلاط، فعن طريق ضعف المزاح فى أغلب الأحيان قمت أخيراً بالامتزاج مع الظروف والأوضاع القائمة، والحقيقة أن ما ذُكر فى شرح أحوالى مسجل وقد نشرته، والذنب إن شاء الله مغفور، وإذا كانت هناك معصية تقر بذنبى، فالتوبة هى سبب الرحمة.

من أولادى ابنة تدعى "نير الملك" وقد وصلنى منها رسالة فى برلين، وكانت قد كتبت ضمنها ثلاثة أبيات من الشعر كذكرى، ولم أطلع من قبل على نظمها المطبوع، ولكننى كنت قد رأيت فقط نظم الحياة حيث تقول فيها رحمة الله عليها:

- مهدى رحلتك طيبة والله رفيقك، فاشكر بتقبيل عتبة الإله. (شعر)
- أضعفك هذا الفيض فى العالمين، وجنيت هدوء البال فى معظم الأحيان لأن وجودك محبباً.
- تبحث عن الدنيا وعزتها فهى لا تساوى شيئاً، والناس البسطاء حريصون وضالون.

وحتى هذه الساعة من يوم السبت الموافق الثانى من شهر جمادى الأولى، ولم يكن قد حدث مكروه لشخص من الأسرة بحمد الله، ماذا سيحدث بعد ذلك "إنا لله وإنا إليه راجعون"[1]، وإن لم يرونا فالله حافظنا، طهران، أى طهران، ويفر كل البشر إلى الجبال والصحارى من خشية الوباء، منذ سنوات توفى مخبر الدولة[2] رحمة الله عليه، ووصل إلى المصير المحتوم للناس، وهذا العام يلقون عليه ورق شجر، ويكون كلاً من الملك الوزير فى قيدهما، وقد ذهبنا جميعاً إلى الدروس عدا ابنتى "نير الملك" وأولادها، ولكن لم أكن راغباً

(١) القرآن الكريم، الآية (١٦٥)، سورة (٢) البقرة.
(٢) المقصود بمخبر الدولة والد المؤلف مخبر السلطنة (مهديقلى هدايت).

فى هذه الدروس مطلقاً، وعندما ذهبت للدروس فى هذه السنة قدمت التماساً، فلم يقبلوه واعلموا أن ذلك قد مر بمرارة، وكان والدى رفيقى ومؤنسى طيلة خمسين عاماً، وقد مضى الآن على وفاته أربعة أعوام برحمة الله، وتركنى وحيداً، عليه رحمة الله.

شهر يور من عام ١٣٢٤ هجرى شمسى

شكـــر

وردت أثناء الطبعة الخاصة للكتاب أسماء غريبة لكتب كثيرة وضميمة الكتاب بمتنه، ولم تكن المتابعة، فى تصحيح الأسماء ووضع الضمائم فى أمكانها بأمر خال من الصعوبة، ولا يسعنى إلا أن أقدم خالص تقديرى إلى جناب الأستاذ "على أكبر شاهميرى" على لطفه وحسن اهتمامه بهذا الأمر ومعاونته الصادقة التى قام بها مع المؤلف.[١]

مهديقلى هدايت

تحقيق[٢]

قالوا لحضرة موسى بن جعفر رضى الله عنه فى مكة أن الحجيج كثيرون هذا العام، فرد قائلاً: لا أرى شخصاً سوى نفسى وجملى وعلى بن يقطين، فقالوا إن على بن يقطين وزير الخليفة المنصور فى بغداد قد أمر بأن يهتم بإنجاز مهام الشيعة.

وقد كتبوا فى أحوال "عبد الله مبارك" أنه رأى فى مكة رؤيا عظيمة فى المنام، وسأل أن يقبل الله حجه هذا العام، قالوا إن "على بن موفق" يعمل رفاء فى الشام، ولم يجدوا له أثراً فى مكة حيث رحل إلى الشام، بحث حتى قام بزيارة "على بن موفق"، وتحدث إليه وسأله أثناء تشريفه بالحضور إلى

(١) وردت هذه السطور فى الطبعة الأولى للكتاب، وقد دعته أمانته وصدقه وبعون مساعدية إلى إيرادها هنا.

(٢) ورد هذا المطلب وكذلك الشعر التالى فى مقدمة كتاب الطبعة الأولى، ويتعلق بأمور الحج.

مكة، فقال: كانت لدى رغبة ملحة فى الحج، وقد ادخرت من هذا العمل الذى أقوم به بمرور الأيام.

ذات يوم حل على أحد الضيوف، وكانت تشتم رائحة كباب مشوى من ناحية منزل جارى، وطلب أن يأكل من ذلك الشواء، فذهبت إلى منزل جارى. وطلبت منه قدراً من الكباب، فقال: ليست هناك مشكلة، لكنه سيكون حرام عليك تناوله، سألته عن السبب، فأجاب: لقد كان أولادى جوعى، وقد أحضرت إليهم هذا اللحم من حصان ميت على أطراف المدينة، وهذا الكباب من ذلك اللحم، وجئت به إلى بيتى، وقد أعطيت له ما ادخرته، ولم أوفق فى هذه الزيارة.

يقبل الحج من ثلاثة أشخاص هم:

١) الجاهل الذى يبدو فى وجهه حسن النية بهدف أداء المناسك مع الإحاطة الكاملة بالشروط، فيرتدى زيه ويذهب للحج طاهر النية وماله حلال، ويحافظ على الأمن، ووجوب نفقته.

٢) العالم الذى لديه استطاعة والمعرفة الكاملة، والرعاية التامة للمناسك والقواعد، يعلم أين يذهب ؟ ولماذا يذهب ؟

٣) ذلك الحاج الذى يلم بمهامه، ولكنه لا يوفق فى أداء وظائفه عن طريق حسن رعايته للقربى والجوار مثل "على بن موفق".

من تحفة مخبر (شعر)

- ذهب ثرى صوب شيخ المدينة قائلاً له: أرغب أن يكون حجى إلى الدهر.
- خذ منى المال بحق وطهر، تعال فى طريق حجى وكن ماهراً.
- قال: أنت فى قحط منذ العام الماضى، ملكت هذا العام يا صاحب الفأل الحسن.

- قال: حقاً، قال: بعد ذلك ليس منك، أنظر مرة أخرى مال من في كفك.
- قال: اجعل الكلام أكثر وضوحاً أيها العالم، قال: أقول حتى يعلم المجلس.
- تلك الجماعة التي قتلها القحط العام الماضي، عندما لم ينثر المال عليهم.
- اذهب في الحال وابحث عن إرثهم، قسمه على الورثة بلا كلام.
- لو تتجه للحق يا مؤمناً بالحق، اذهب وأعد الحق لأصحابه.
- لو لم تكن في نيتك الإقلال، فقد طلبت رضا الحق على الدوام.
- اذهب إلى المحتاجين واشفق عليهم مرة، وانفق المال في طريق الحق.
- واسعد قلوب المساكين بالذهب، واحمل بذلك ثواب الحج الأكبر.
- لكن بخلك وجشعك كأنه لجام، وقائدك الفكر الوعر.
- وطالما تريد كل شئ لنفسك، فلن تر غير نفسك يا عابد الصنم.
- هدفك من الذهاب إلى مكة ياذا الهمة، صار هوى النفس من أجل الخطاب.
- حتى يقال فلان هذا صار حاجاً، عائداً من عند الله وصار ناجياً.
- ما أكثر ما يصدقون كلامك وهو الكذب، وما أكثر ما يعطى مصباحك الضياء.
- لو تذهب لمكة على سبيل المعرفة، فما أكثر الحكم فيها لو تصغ إليها.

- تأثرت حواسك بالرسول الذي تجده في هذه الرحلة، وتجد من الإسلام خير طيب.
- يعطي الألفة الجميلة للغرب مع الشرق، ويحرر أمته من شرقها إلى غربها.
- طالما كان أساس الدين معدن الاخوة، وجلب الوئام الشرقي والغربي.
- وكان من مميزات المسلمين أن اجتمعوا، مرة في العام بأرض واحدة.
- يبحثون عن الوحدة ضمن تلك المناسك، ويدرسون ما فسد من أعمالهم.
- وعندما تحولت الخلافة إلى سلطنة، مزقت الحكمة في ثوب العمل.
- والحكمة الأخرى أن المال المحتكر، ينتشر بين البشر.
- مثلما لم تكن اليد في خيرك بلا سبب، صار الحج تذرعاً لك يا عابد نفسك.
- لو تتعفف من الاحتكار، لا يصير حجك واجب أيها العارف.
- قال الله ليس لي مكان محدد في الدنيا، لكن مكاني في قلوب المساكين.
- ثم تعال واسعد قلباً، وعمر منزل القلب على الدوام.
- لو لم تصدق كلامي يا فلان، اذهب واقرأ حديث بن يقطين.
- طالما كانت الحاجة في أطرافك، فافتح يدك لرفع تلك الحاجات.
- لو كانت وظيفتك أن تحضر الجميع للمكان، فلن تستطع فعل ذلك.
- لو تحج مرة أخرى من بعد يا فلان، اذهب واقرأ قصيدة ناصر خسرو.
- وإذا لم يكن هناك تعب اشتر الخمر بالذهب، وانصرف من مكة جاهلاً عن الحق.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً : المصادر والمراجع العربية :

١- د. آمال السبكي : تاريخ إيران السياسى بين ثورتين ، الكويت ١٩٩٩م .

٢- ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م .

٣- ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩م .

٤- أبو بكر الجزائرى : منهج المسلم ، بيروت ١٩٦٤م .

٥- أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى : تاريخ الطبرى (تاريخ الرسل والملوك) ، الجزء الأول تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .

٦- أبو عبد الله الحسين الزوزنى : شرح المعلقات السبع ، القاهرة ١٩٦٨م .

٧- أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقى : البداية والنهاية ، الجزء الأول بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

٨- أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميدانى : مجمع الأمثال ، الجزء الثانى ، بيروت ١٩٨٨م .

٩- أبو المعالى : بيان الأديان ، القاهرة د.ت .

١٠- ادوارد جرانفيل براون : تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى ، الجزء الثانى، نقله إلى العربية د. إبراهيم أمين الشواربي ، مصر ١٩٥٤م .

١١- اندريه ريمون : القاهرة تاريخ حاضرة ، ترجمة لطيف فرج ، القاهرة ١٩٩٤م .

١٢- بابا طاهر همداني : رباعيات بابا طاهر العريان الهمداني ، ترجمها إلى العربية د. محمد نور الدين عبد المنعم ، القاهرة ١٩٧٨م .

١٣- د. جمال الدين الشيال : محاضرات عن الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة فى الشرق الإسلامى الحديث ، الجزء الأول ، مصر ١٩٥٧م .

١٤- د. جوزيف رعد : العالم بين يديك ، بيروت ١٩٧٤م.

١٥- حسن محمد جوهر و(آخرون) : جغرافية آسيا واستراليشيا ، القاهرة د.ت .

١٦- د. حسين مجيب المصرى : صلات بين العرب والفرس والترك ، القاهرة ١٩٧٠م .

١٧- حمد الجاسر : ملخص رحلتى ابن عبد السلام الدرعي المغربي ، الرياض ١٤٠٣هـ .

١٨- دولت أحمد صادق و(آخرون) : الجغرافية السياسية ، القاهرة ١٩٩٨م .

١٩- دونالد ولبر : إيران ماضيها وحاضرها ، نقله إلى العربية د. عبد النعيم حسنين ، القاهرة ١٣٧٧هـ / ١٩٥٨م .
٢٠- سيد عبد المجيد بكر : الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ، تهامة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م
٢١- الشهرستاني : الملل والنحل ، الجزء الثانى ، تحقيق محمد سيد كيلانى ،بيروت ١٩٨٢م .
٢٢- د. شوقى ضيف : الرحلات ، القاهرة ١٩٥٦م .
٢٣- د. شيرين عبد النعيم حسنين : إيران ومدنها الشهيرة ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٨٩م .
٢٤- عادل رضا : فهد بن عبد العزيز الإنسان الملك ، القاهرة ١٩٩٤م .
٢٥- د. عبد النعيم حسنين : إيران فى ظل الإسلام فى العصور السنية والشيعية ، القاهرة ١٩٨٩م .
٢٦- د. عبد النعيم حسنين و(آخرون) : حضارة مصر والشرق القديم ، القاهرة ١٩٦٩م.
٢٧- عطا ملك الجويني : تاريخ فاتح العالم (جهانگشاي) ، نقله إلى العربية د. محمد التونجي، بيروت د.ت .
٢٨- فؤاد قنديل : أدب الرحلة فى التراث العربى ، القاهرة ١٩٩٥م .
٢٩- القزويني ، محمد بن زكريا : آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ١٩٦٠م .
٣٠- القلصادي : رحلة القلصادي ، تونس ١٩٧٨م .
٣١- كتاب المعرفة : البحار والمحيطات ، جنيف د.ت .
٣٢- محمد ثابت : جولة فى ربوع آسيا (بين مصر واليابان) ، القاهرة ١٩٣٦م .
٣٣- محمد جمعان دادا : جده فى عهد الملك عبد العزيز ، الرياض د.ت .
٣٤- محمد على مغربي : ملامح الحياة الاجتماعية فى الحجاز فى القرن ١٤هـ ، جده ١٤٠٥هـ .
٣٥- محمد المعتصم مصطفى و(آخرون) : الجغرافية الإقليمية لأوراسيا ، القاهرة ١٩٨٨م.
٣٦- الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى : ضعيف الجامع الصغير ، المجلد الأول ، بيروت ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .
٣٧- نقولا زيادة : الجغرافية والرحلات عند العرب ، بيروت ١٩٨٢م .
٣٨- د. هادى أبو لقمة : من بلاد العالم ، القاهرة ١٩٧٠م .
٣٩- ياقوت الحموى : معجم البلدان ، الجزء الرابع ، بيروت ١٩٧٩م .
٤٠- د. يحي الخشاب : قصة الأدب فى العالم ، الجزء الثالث ، القاهرة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م .

ثانياً : المصادر والمراجع الفارسية :

٤١- ابراهيم تيموري : عصر بی خبری يا تاريخ امتيازات در إيران ، تهران ١٣٣٢ هـ.ش .

٤٢- ابو سعيد بن ابي الخير : سخنان منظوم ابو سعيد ابو الخير ، تصحيح سعيد نفيسی، تهران ١٣٣٤ هـ.ش .

٤٣- اكبر زوار : مقدمهٔ خاطرات وخطرات تأليف مهديقلی هدايت ، تهران ١٣٧٥ هـ.ش.

٤٤- افشار : مقدمهٔ سفرنامهٔ حاجی پير زاده ، تهران ١٣٤٢ هـ.ش .

٤٥- بانو نصرت تجربه كار : سبك شعر در عصر قاجاريه ، تهران ١٣٥٠ هـ.ش .

٤٦- برتگ فرگنر : خاطرات نويسی ايرانيان (مجموعهٔ اسناد ومدارك تاريخی دوران قاجار)، ترجمهٔ مجيد جليلوند رضائی ، تهران ١٣٧٧ هـ.ش .

٤٧- پرويز افشاري : صدر اعظمهای سلسله قاجاريه ، تهران ١٣٧٢ هـ.ش .

٤٨- جلال الدين محمد بلخی : مثنوی معنوی ، تحقيق عزيز الله كاسب (از روی نسخهٔ نيكلسون) ، دفتر سوم ، تهران ١٣٧٠ هـ.ش .

٤٩- خواجه حافظ شيرازی : ديوان حافظ ، تصحيح محمد قزوينی وقاسم غنی ، تهران ١٣٧٧ هـ.ش .

٥٠- حسن بيرنيا : ايران باستان ، جلداول تهران ١٣٣٦ هـ.ش .

٥١- حسين فريور : تاريخ ادبيات إيران وتاريخ شعرا ، تهران ١٣٥٢ هـ.ش .

٥٢- خان ملك ساسانی : سياستگران دورهٔ قاجار ، جلد دوم تهران ١٣٤٦ هـ.ش .

٥٣- رابرت جرنت واتسن : تاريخ ايران از ابتدای قرن نوزدهم تا سال ١٨٥٨م (ترجمهٔ ع . وحيد مازندرانی) ، تهران ١٣٤٨ هـ.ش .

٥٤- د. رضا زاده شفق : تاريخ ادبيات إيران ، تهران ١٣٢١ هـ.ش .

٥٥- رضا قلي خان هدايت : مجمع الفصحاء ، جلد دوم تهران ١٣٣٦ هـ.ش .

٥٦- رشيد ياسمی : تتبع وانتقاد احوال وآثار سلمان ساوجی ، تهران د.ت .

٥٧- حاجي زين العابدين مراغه : سياحتنامه ابراهيم بك ، القاهرة د.ت .

٥٨- سعدی شيرازي : كليات سعدی (بوستان) ، باهتمام محمد علی فروغی ، تهران ١٣١٦هـ.ش .

٥٩- : كليات سعدی (غزليات) ، باهتمام محمد علی فروغی ، تهران ١٣٢٠هـ.ش .

٦٠- : گلستان ، تصحيح محمد علی فروغی ، تهران د.ت .

٦١- سعيد بختياری : اطلس كامل گيتاشناسی ، تهران ١٣٧٨ هـ.ش .

٦٢- سلمان ساوجى : ديوان سلمان ساوجى ، باهتمام منصور مشفق ،تهران ١٣٣٦ هـ.ش .

٦٣- حكيم سنائى غزنوى : ديوان سنائى ، باهتمام مدرس رضوى ، تهران ١٣٢٠ هـ.ش .

٦٤- سهيلا سلحشور : بهترين ضرب المثلهاى ايرانى ، تهران ١٣٧٢ هـ.ش .

٦٥- سيف الدوله سلطان محمد : سفر نامهٔ سيف الدوله معروف به سفر نامهٔ مكه ، تصحيح على اكبر خداپرست ، تهران ١٣٦٤ هـ.ش .

٦٦- صادق هدايت : مقدمه اى بر رباعيات خيام ، تهران ١٣٧٧ هـ.ش .

٦٧- عبد الرفيع حقيقت "رفيع" : فرهنگ تاريخى وجغرافيايى شهرستانهاى إيران ، تهران ١٣٧٦ هـ.ش .

٦٨- عراقى : كليات عراقى (منظومهٔ عشاقنامه) ، تصحيح سعيد نفيسى ، تهران ١٣٣٨هـ.ش .

٦٩- على اكبر بينا : تاريخ سياسى وديلپماتى ايران (ازگلناباد تا تركمن جاى) ، جلداول تهران ١٣٣٣ هـ.ش .

٧٠- على اكبر خدا پرست : مقدمة سفرنامهٔ سيف الدوله معروف به سفرنامهٔ مكه ، تأليف سيف الدوله سلطان محمد ، تهران ١٣٦٤ هـ.ش .

٧١- على اكبر دهخدا : امثال وحكم ، جلد دوم تهران ١٣٥٢ هـ.ش .

٧٢- : امثال وحكم ، جلد سوم ، تهران ١٣٥٤ هـ.ش .

٧٣- د.على اكبر ولايتى : تاريخ روابط خارجى ايران دوران ناصر الدين شاه ومظفر الدين شاه ، تهران ١٣٧٢ هـ.ش .

٧٤- عمر خيام نيشاپورى : رباعيات نادرهٔ ايام خيام ، تصحيح محمد زمان فراست ، تهران ١٣٧٧ هـ.ش .

٧٥- د.عيسى صديق : تاريخ فرهنگ ايران ، تهران ١٣٥١ هـ.ش .

٧٦- غلامرضا طباطبائي : مقدمة سفرنامهٔ فرهاد ميرزا ، تهران ١٣٦٦ هـ.ش .

٧٧- فرشته نورائي : تحقيق درافكار ميرزا ملكم خان ناظم الدوله ، تهران ١٣٥٢ هـ.ش .

٧٨- فرهاد ميرزا : سفرنامهٔ فرهاد ميرزا ، تصحيح غلامرضا طباطبائي ، تهران ١٣٦٦ هـ.ش

٧٩- فريدون آدميت : امير كبير وايران ، تهران ١٣٤٨ هـ.ش .

٨٠- : ايديولوژى نهضت مشروطيت ايران ،جلد نخستين ، تهران ٢٥٣٥ شاهنشاهى .

٨١- قطران تبريزي : ديوان حكيم قطـران تبريـزى ، باهتمـام محمـد نخجـوانى ، تبريـز ١٣٣٣ هـ.ش .
٨٢- محسن رمضانى : شاهنامه ميراث فردوسى ، تهران ١٣٦٦ هـ.ش .
٨٣- محمد اسحق : سخنوران ايران در عصر حاضر ، جلد اول ، دهلى ١٣٥١ هـ.ش.
٨٤- محمد تقى بهار : تاريخ مختصر احزاب سياسى تا انقراض قاجاريه ، جلـد اول تهـران ١٣٢٣ هـ.ش .
٨٥- : سبك شناسى يا تاريخ تطـور نثـر فارسـى . جلـد سـوم تهـران ١٣١٩ هـ.ش .
٨٦- د.محمد دبير سياقى :گنج باز يا فته ، تهران ١٣٣٤ هـ.ش .
٨٧- : لبيبى واشعاراو ، تهران ١٣٣٢ هـ.ش .
٨٨- : مقدمـة سـفرنامهٔ مكـه حـاجى مهـديقلى هـدايت ، تهـران ١٣٦٨ هـ.ش
٨٩- محمد رضا پهلوى : سفرنامهٔ شاهنشاه بكشور آمريكا (از نشريات روزنامهٔ اطلاعات) ، تهران ١٣٢٨ هـ.ش .
٩٠- محمد عوفى : لباب الألباب ، تصحيح سعيد نفيسى ، جلد دوم ، تهران ١٣٣٥ هـ.ش .
٩١- محمود شبسترى :گلشن راز ، تهران ١٣٣٣ هـ.ش .
٩٢- منوچهرى دامغانى : ديوان استاد منوچهرى ، باهتمام د.محمد دبيـر سـياقى ، تهـران ١٣٢٦ هـ.ش .
٩٣- مهدى بامداد : شرح حال رجال ايران ، جلد چهارم ، تهران ١٣٤٧ هـ.ش .
٩٤- د.مهدى حميدى : شاهكارهاى فردوسى ، تهران د.ت .
٩٥- حاج مهديقلى هدايت (مخبر السلطنة) : خاطرات وخطرات ، تهران ١٣٧٥ هـ.ش.
٩٦- : سفرنامهٔ مكه ، تصحيح د.محمد دبير سياقى ، تهران ١٣٦٨ هـ.ش .
٩٧- مهدى ملكزاده : تاريخ انقلاب مشروطيت ايران (درفلسفهٔ پيدايش) ، جلد اول ، تهـران ١٣٢٨ هـ.ش .
٩٨- حكيم ناصر خسرو قبادياني : ديوان اشعار ناصر خسرو ، به كوشـش مهـدى سـهيلى تهران ١٣٤٨ هـ.ش .
٩٩- : سفرنامه ، به كوشش محمد دبير سياقى ، تهران ١٣٧٥ هـ.ش .
١٠٠-ناصر الدين شاه : سفرنامهٔ ناصر الدين شاه ، تهران ١٢٩١ هجرى .
١٠١-نظام الملك طوسى : سياستنامه ، باهتمام عباس اقبال آشتيانى ، تهران ١٣٧٣ هـ.ش .

١٠٢-حكيم نظامى گنجوى : خسرو وشيرين ، تصحيح وحيد دستگردى ، تهران ١٣٣٢هـ.ش.
١٠٣- يحيى آرين پور : از صبا تا نيما ، جلد اول ، تهران ٢٥٣٥ شاهنشاهى .
١٠٤- : از صبا تا نيما ، جلد دوم (بيدارى) ، تهران د.ت .

المعاجم والموسوعات الفارسية :

١٠٥- حبيب الله آموزگار : فرهنگ آموزگار ، تهران ١٣٣٠ هـ.ش .
١٠٦- د.زهراى خانلرى كيا : فرهنگ ادبيات فارسى درى ، تهران ١٣٤٨ هـ.ش .
١٠٧- د.سعيد نفيسى : فرهنگ عميد ، تهران ١٣٣٦ هـ.ش .
١٠٨- على اكبر دهخدا : لغتنامه ، تهران ١٣٣٤ هـ.ش .
١٠٩- د.محمد معين : فرهنگ فارسى ، جلد پنجم وششم (اعلام) ، تهران ١٣٧٥ هـ.ش .

ثالثا : الدوريات والمقالات والمجلات والرسائل العلمية والمعاجم

(أ) الدوريات والمقالات والمجلات :

١١٠- البوذية فى الصين : المركز الثقافى الصيني ، العدد ٢٧٧ ، بكين ١٩٩٨ م .
١١١- ثقافة الشاى العريقة والمتطورة بإطراد : المركز الثقافى الصينى ، العدد ٢٣١ ، بكين ١٩٩٦م .
١١٢- رجال عظماء فى القرن العشرين : المركز الثقافى الصينى ، العدد ٢٨٢ ، بكين ١٩٩٨م
١١٣- اليابان : مركز الثقافة والإعلام اليابانى ، العدد ٢١١ ، القاهرة مارس ١٩٩٩م .

(ب) الرسائل العلمية :

١١٤- منى رمضان ابراهيم : " منظومة عشاقنامه لفخر الدين العراقى ، دراسة نقدية تحليلية مع الترجمة " ، رسالة ماجستير كلية الآداب – جامعة عين شمس ، إشراف أ.د عبد النعيم حسنين ، القاهرة ١٩٧٩م .

(ج) المعاجم العربية :

١١٥- د.إبراهيم مدكور : المعجم الوسيط (مجمع اللغة العربية) ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٧٢م .

١١٦- مجدى وهبة و (آخر) : معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب ، بيروت ١٩٧٩م
١١٧- محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى : مختار الصحاح ، القاهرة ١٩٧٦م .
١١٨- د.محمد التونجى : المعجم الذهبى (فارسى - عربى) ، بيروت ١٩٩٣م .

رابعاً : المصادر والمراجع الأجنبية

(أ) المصادر والمراجع الإنجليزية :

119- Atlas of world History , London 1992 .
120- Donald wilber : Contemporary Iran , London 1993 .
121- Malcom : A History of Persia , London 1993 .
122- The new Encyclopaedia Britannica , London 1991 .
123- Oxford Encyclopedic world Atlas , U.S.A 1997 .
124- Percy sykes : A History of Persia , Oxford 1922 .
125- Philip's world Atlas , London 1996 .
126- Yi – Fang Wu : China rediscovers her west , London 1942.

الفهرس